مكتبة الشروق الدولية

كليفـــورد لونجـــلى

الشعـــب المختــار

الأسطــورة التى شــكلت إنجــلترا وأمــريكا

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم

الجزء الأول

"إنشقاق" البحر الأحمر فى وقت الخروج من مصر

http://almaktabeh.com

الشعب المختار

الجزء الأول

http://almaktabeh.com

الطبعـــة الأولى

١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٣ م

مكتبة الشروق الدولية

ش الفتح ـ أبراج عثمان أمام الميريلاند ـ روكسي ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ ـ ٢٥٦٥٩٣٩ ـ تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: adel almoalem < shoroukintl @ Yahoo. com >

http://almaktabeh.com

الشعب المختار

أسطورة الفكر الأنجلو أمريكى

الجزء الأول

كليفورد لونجلى

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم

مكتبة الشروق الدولية

http://almaktabeh.com

تصميم الغلاف : منى العيسوى

http://almaktabeh.com

مقدمة

الشـــعب المختار.... كلمة سحرية .... تكررت فى العهد القديم والعهد الحديث .... وجاء مرادف لها فى القرآن......

هل يفضل الله قومًا ويضطهد آخرين بسبب عرقهم أو لونهم؟

هل اختيار قوم لحمل الرسالة الإلهية يعطيهم حقوقًا وامتيازات عن بقية البشـــر؟ أم هـــو تكليف ؟ وهل ذلك التكليف يشمل إجبار الآخرين، ومن ثم الاستعلاء عليهم ؟

نقرأ فى هذا الكتاب

لـــم يقتصـــر « امتياز الشعب المختار » على بنى إسرائيل فقط ــ فقد جـــاءت الكنيســـة الكاثوليكية واعتبرت أنها أصبحت المختارة، ومن ثم حلت محـــل بنى إسرائيل.... ويعنى هذا أن الرب غضب على بنى إسرائيل، ومن ثم ظهرت معاداة اليهودية فى المسيحية ... ثم إن الكنيسة الكاثوليكية انحرفت عـــن المسيحية الصحيحة ــ فأصبحت المسيح الدجال وعاهرة بابل، وأصبح البروتســـتانت هـــم الشـــعب المختار، وهم هنا ــ بصفة أساسية ــ الشعب الإنجليزى البروتستانتى.

وبســـبب الاضطهاد الدينى، هاجر البيوريتانز من انجلترا لأمريكا فرارًا بديـــنهم ــ حـــيث يذكـــر المؤلـــف ــ بدون الدين ما كانت أمريكا، ثم ثار البيوريتانز فى أمريكا على بريطانيا فى نهاية القرن الثامن عشر، واعتبروا أنفسهم بنى إسرائيل، والشعب المختار الجديد الذى اضطهده فرعون ــ ملك بريطانيا ــ فحاربوهم وانتصروا عليهم.

شـــكلت أسطورة الشعب المختار الثقافة الأنجلوساكسونية، حتى أنها أحد

http://almaktabeh.com

* * *

يســتعرض المؤلــف تأثير تلك الفكرة، منذ المسيحية الأولى .... حتى جورج بوش الثانى:

• .... لــيس هناك شعب يمكن أن يعترف ويحب يد الرب الخفية التى توجه شعوب العالم أكثر من شعب الولايات المتحدة ....

جورج واشنطن فى خطاب تنصيبه
الرئيس الأول للولايــات المتحــدة

• .... ربمـــا أعــرف عن ملوك بنى إسرائيل أكثر مما أعرف عن ملوك انجلترا .....

دافيد جورج ــ رئيس الوزارة
البريطانية التى أعلنت وعد بلفور

• ...... الاعــتقاد الإنجليــزى بأن أمتهم اختارها الرب .... هذه الأمة المخــتارة التــى ورثــت مهمـــة إســرائيل القديمـــة وهى نشر الحضارة البروتســتانتية فى أركان الدنيا الأربعة .. وأولئك الذين قاوموا إنما يقاومون إرادة الرب، ويمكن إزاحتهم .... أو استئصــالهم..

كليفورد لونجلى

• ... الأمريكيون كرماء وأقوياء ومحترمون .. ليس لأننا نؤمن بأنفسنا ولكن لأننا نحمل إيمانًا بما يتعدى ذواتنا .. وحينما نفتــقد روح المواطنة هذه لا يمكــن لأى برنامج حكومى أن يحل محلها .... بيد أن تحقيق هدف الرب هو واجبنا ... وما يزال هناك ملاك يركب الريح ويوجه هذه العاصفة ...

جورج بوش فى حفل تنصيبه

عادل المعلم

http://almaktabeh.com

تقديم

نحن نعيش في زمن مثير. فقد بدأت في هذا الكتاب قبل الهجوم الذي وقع على مركز التجارة العالمي في سبتمبر ٢٠٠١ م. وفجأة بدا أن بحثي الهادئ في طبيعة الهوية والمصير الأمريكي جزءاً من محادثة قلقة حادة يقوم بها الجميع؛ إذ إن الإحساس البريطاني بالانخراط في المعاناة الأمريكية، وإسهام بريطانيا في «الحرب الأمريكية ضد الإرهاب» كشف بشكل ملح عن دور بريطانيا العام في مقابل أمريكا، وهو موضوع مهم آخر كان يحظى باهتمامي.

كان إحساسي الخاص باللوعة في البداية كثيفا، بحيث منعني من الانفصال العقلي الضروري لمواصلة الكتابة، ليس فقط لأن زوجتي من مانهاتن وأنا أعرف هذه المدينة العظيمة وأحبها. كان عليّ أن أتوقف فترة من الزمن. فما كنت أتصوره أساساً كتاباً عن التاريخ الأنجلو- أمريكي صار كتاباً في الشئون الجارية، بل هو في الواقع عما يسميه الصحفيون قصة خبر العقد، وكل من عداهم يعتبره أكبر كارثة مرعبة شاهدوها، أو سمعوا بها. ومثل ملايين غيري، جلست أنا وزوجتي نشاهده وهو يحدث، حيًا على شاشة قناة CNN.

ما هي أمريكا؟ من هم الإنجليز؟ مقالتي هي أن السر الكامن وراء هذه الأسرار موجود في رواية صاغها الإنجليز، ثم تلاهم الأمريكيون لأنفسهم، تقوم على أساس تحويل التشابه بين موقفهم وموقف بني إسرائيل القدماء. هذا هو أصل مصطلح «الشعب المختار». إنه لم يكن مجرد أنهم مختارون من الرب بصفة خاصة. وفي أذهانهم أن اختيارهم بصفة خاصة تم لنفس الغرض الذي اختار الرب اليهود من أجله (ثم نبذهم)، وأن هذا الغرض كان أساسيًا بالنسبة للجنس البشري على هذا الكوكب.

http://almaktabeh.com

أما الشيء الذي استمر يدهشني، ما أن يبدأ المرء في النظر من هذا المنظور، فهو المدى الذي تقدمت إليه هذه الأفكار لتسوق سلسلة كاملة من التطورات التي كانت حاسمة في اتجاه التاريخ: ظهور الدولة الوطنية وعزلة انجلترا عن أوروبا؛ الحرب الأهلية الإنجليزية التي جعلت أوليفر كرومويل يحتق على شارل الأول، الإطاحة بجيمس الثاني والأساطير المسلية عن الثورة المجيدة، كراهية فرنسا وإسپانيا، الاستيطان الباكر في أمريكا، انفصال أمريكا عن انجلترا في الحرب الثورية، القضاء على سكان أمريكا الأصليين «الهنود»؛ بسبب التوسع الأمريكي في الغرب، مكاسب انجلترا من تجارة الرقيق ثم معارضتها لها فيما بعد، الحرب الأهلية الأمريكية والقضاء على الرق؛ نمو الإمبراطورية البريطانية في الهند وأفريقيا؛ تأسيس «وطن قومي لليهود» في الشرق الأوسط، تورط انجلترا في حرب القرم ثم في الحرب العالمية الأولى (والواقع في الحرب العالمية الثانية أيضًا)، حركة الحقوق المدنية الأمريكية، الاستقامة السياسية، انهيار التمييز العنصري. ويمكنني أن استمر.

وإذا نحينا أيرلندا الشمالية جانبًا، فإن الكتاب صار تقريبا المعادل التاريخي واللاهوتي للبحث العلمي عن «نظرية لكل شيء»؛ إذ إنه يجيء إلى الساحة نفسها بالسير إسحاق نيوتن ومارتن لوثر كنج، والفيلد مارشال دوجلاس هيج، وچورج واشنطن، وچورج دبليو بوش وتوماس مور، وآدم وحواء، والاتحاد الأوروبي. والمادة الخام الحقيقية لهذه النظرية هي معروفة جيدًا بالفعل، كما أن بعض الكتاب استكشفوا الأجزاء التي يعرفونها أحسن من غيرها بطريقة ذكية، ولكنها مبعثرة بين المتخصصين. والخبرة لها عيوبها. فالمؤرخون الذين كتبوا عن الحرب الأهلية الأمريكية لا يعرفون الكثير عن جفوة هنري الثامن مع روما، واللاهوتيون الكالفينيون لا يفهمون في سياسة شركة الهند الشرقية تجاه حرق الأرامل، والخبراء في دستور انجلترا أو أمريكا لا يعرفون طريقهم إلى سفر التثنية أو الحوليات، والباحثون في معاداة السامية والهولوكوست لا يرون أية علاقة تربط بين هذا وبين حرب الاستقلال الأمريكية. وما يربط كل هذه الأشياء في الحزمة نفسها هو مفهوم الشعب المختار. وزعمي الوحيد هو أنني أعرف ما يكفي عن كل من هذه الأمور بحيث أجمعها سويًا.

http://almaktabeh.com

وللوهلة الأولى (على الأقل بالنسبة لعينيّ الحديثتين) يبدو المفهوم وقد عفا عليه الزمن تمامًا، أو يبدو شيئا محدودًا في إطار المتطرفين الأصوليين. ولا شك في أن هذا أحد الأسباب في أن الباحثين عزفوا عن هذا، كما أنه ليس من المعاصرة أن تنظر باتجاه الدين - والمذهب البروتستانتي بصفة خاصة - لكي تفسر أي شيء. ولكن هذا الكتاب يتضمن بالضرورة حضور هذا المفهوم في انجلترا وأمريكا خلال مئات السنين القليلة الماضية من تاريخهما، ويبرهن هذا الحضور على أنه عامل حسم في الطريقة التي تحول بها التاريخ، والحضور الضمني المستمر - وأحيانا الغياب على نحو لا يقل أهمية - لهذا المفهوم ما يزال يكشف عن قدر كبير يتعلق بالحالة الراهنة لهذين البلدين غير العاديين، بما في ذلك دوافعها.

هذا الكتاب ليس ضد الدين، على الرغم من أنه يكشف عن أوجه القصور في صيغة معينة للمسيحية البروتستانتية - كانت منذ زمن غير بعيد النوع الوحيد منها - يعتبرها معظم البروتستانت المحدثين الآن قد عفى عليها الزمن تمامًا، بيد أنه لا يكفي أن نقول «حسنا، هذه كانت غلطة، دعنا ننساها» إذا ما كان البلدان مستمرين على نفس خط السير الذي تم تحديده هكذا، وإذا ما كنا راغبين في معرفة السبب في أنهما على الحال التي هما عليها، فإن من الواجب عليهما أن ينظرا إلى تاريخهما المشترك ولا يمكنهما فعل ذلك من خلال عدسات تحجب الدين في القلب، لمجرد أن الناس «لم يعودوا يؤمنون بهذا». ولذلك فإنه إذا كان هذا الكتاب يساعدنا على الاتصال بماضينا؛ لكي نسيطر على مستقبلنا بطريقة أفضل، فإنه يكون قد أدى عمله.

كليفورد لونجلي

يناير ٢٠٠٢، انجلترا

http://almaktabeh.com

http://almaktabeh.com

(١)
المصير في مواجهة الهوية

يبدأ هذا الكتاب كما ينتهي، بسلسلة من الأسئلة عن الهوية الوطنية، الإنجليزية والأمريكية. أولاً، يأتي الإنجليز، في السياق التاريخي على الأقل. من هم؟ ما معنى أن تكون إنجليزيًا؟ هل هناك الكثير جدا أم القليل جدا مما يتعلق بالإنجليزية؟ هل يمكن أن يكون رجل أسود إنجليزيًا؟ أم أن جزءًا من التعريف عنصري؟ هل يمكن أن يكون المسلم إنجليزيا؟ أم أن جزءًا من التعريف ديني؟ وهل يجب لكي تكون إنجليزيا أن تحب إنجلترا؟ أم يكفي أن تكون فقط مولودا في إنجلترا؟ هل جزء من التعريف قانوني؟ أم أنها حالة عقلية؟ وما علاقة هذا بالتاريخ الإنجليزي؟

من الأصعب طرح أسئلة مشابهة عن أمريكا؛ إذ إن هذه ليست هي الموضوعات التي تطرأ على الذهن بصورة تلقائية. فحقيقة أنه لا توجد كلمة Americaness (الأمريكانية) في الاستخدام المنتظم، والمثال الوحيد الذي صادفني كان موصولا بقوة بالوعي الذاتي (American - ness) يجب أن تنبهنا في الحال إلى وجود فوارق أساسية. وقليل من الأمريكيين قد يجدون السؤال «ما معنى أن تكون أمريكيا؟» جديراً بأن يطرح، ولا السؤال «هل يمكن لرجل أسود أو رجل مسلم أن يكون أمريكيا؟» فبالنسبة لأي واحد على يسار العنصرية الصريحة، يجب أن تكون الإجابة تلقائيا بنعم، لا مشكلة في هذا.

وإذا أعدنا صياغة الأسئلة على نحو مختلف قليلاً، بحيث نضع المصير بدلا من الهوية، فإننا نواجه على الفور بأمور يختلف الأمريكيون حولها بقوة ويأخذونها بجدية بالغة، إن الإنجليز هم الذين بدأوا في مواجهة مشاكل فهم السؤال. ما مصير إنجلترا؟ ماذا يمكن أن يعني هذا؟ أن تهزم إلى الأبد من أستراليا في الكريكيت؟ ولكن المصير هو مايتناقش حوله الأمريكيون إلى ما لانهاية. إن المعنى الحقيقي أو

http://almaktabeh.com

الغرض الحقيقي من عبارة «الطريقة الأمريكية» التي تسمى أحيانًا «النزعة الأمريكية»، هو الأيديولوچية أو العقيدة الأمريكية. ومن الأمور ذات الدلالة أنه لم يصادفني المعادل اللغوي عن «النزعة الإنجليزية» Englandism, Englishism وحيثما تكون هناك كلمة غير موجودة في اللغة، فيرجع السبب إلى أن الناس يشعرون أنهم يستطيعون فهم عالمهم بدونها. ويمكن أن يكون العكس صحيحًا أيضا. ربما يحتاج الناس إلى مدّ نطاق لغتهم؛ لكي يوسعوا من نطاق إمكانيات الفكر. وقليل من الانتباه «للنزعة الأمريكية» و«النزعة الإنجليزية» يفعل العجائب.

ومن المذهل أيضًا أنه حيثما يكون هناك شيء مثل «نشاط غير أمريكي». مثلا السلوك المزعوم المناصر للشيوعية، الذي حققت فيه محاكم التفتيش الأمريكية تحت قيادة السناتور چوزيف ماكارثي في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين - يكون من الصعب تصور ما يمكن أن يتكون منه النشاط «غير الإنجليزي»، ويكون من دواعي السرور الإيجابية التفكير في لجنة يشكلها مجلس العموم للتحقيق فيه. ومن المرجح كثيراً أن يكون هذا في منطقة «السلوك السيء» وليس في منطقة السياسة الرديئة، أو ربما يكون نوعًا من الانتهاك للقواعد المستقرة لدى الإنجليز الذين عرفوا بالتحكم في أنفسهم عاطفيًا، وترفعهم. وفي هذا الخصوص لا يكون الوصف «غير إنجليزي» وصفًا سلبيًا بصفة خاصة. فالعمات المعذبات اللاتي يعتقدن أن الإنجليز بصفة عامة مقفلون للغاية وباردون عاطفيًا تجاههن، لا يترددن في أن يحثنهم على أن يكونوا «أقل إنجليزية» في التعبير عن مشاعرهم. ولا يرد على البال أن يطلب كاتب أمريكي مسئول من الأمريكيين أن يكونوا «أقل أمريكية».

ومن المحتمل أن يكون من المفيد جداً للإنجليز (أيا كانوا) أن يعتبروا أمريكا مجتمعًا موازيًا ولكنه مختلف، وأن يتعلموا من التشابهات والاختلافات، وبالتالي من الأسباب. بل إنه ربما يكون مفيداً للأمريكيين أن يقوموا بهذه العملية أيضًا - وربما يكون هذا أكثر فائدة مما يدرك معظم الأمريكيين في البداية، والبعض يفعل هذا. وفي كتابه «American Exceptionalism» يؤكد سيمور ليبست على أن «من المستحيل أن نفهم بلداً دون أن نرى كيف يختلف عن البلدان الأخرى، وأولئك الذين يعرفون بلداً واحداً فقط لا يعرفون أي بلد». وهو أمر ضروري لهذا الموضوع خاصة، طالما أن مصطلح «استثنائي» يتضمن نموذجًا قياسيًا خرجت أمريكا عليه.

http://almaktabeh.com

ولكن مقارنتنا بين انجلترا وأمريكا قد لا تخدم هذا الغرض، طالما أن هناك، من الناحية التاريخية على الأقل، أشياء أيضًا مثل «الاستثنائية الإنجليزية» وحتى ولو لم تكن تسمى بهذا الاسم عادة. ومن ثم فإن انجلترا لا تستطيع تقليم النموذج القياسى. والاستثناءان متصلان ببعضهما: كيف بالضبط؟ هذا هو موضوع هذا الكتاب.

هاتان الأمتان تشتركان فى أصولهما وفى تاريخها إلى نقطة بعينها. والسؤال عن كيف ولماذا صارتا مختلفتين قد يلقى الضوء على الشخصية الوطنية على جانبى المحيط الأطلنطى. وربما تكون الممارسة قد أعطت الأمريكيين أسبابًا أكثر للفخر بتمايزهم الأمريكى، وربما يكون الإنجليز قد تعلموا المزيد من الأسئلة المفيدة حول مصيرهم، ويكون الأمريكيون قد تعلموا أسئلة مفيدة عن هويتهم. وربما يسأل أحد الانجليز على سبيل المثال، مثلا: ألا توجد مشكلة حقًا حول هوية الأمريكيين السود؟ من الخارج، يبدو أنه كانت هناك مشكلة. ففى أرض الأحرار، ماذا يعنى أن تجبر على أن تكون أمريكيًا، مثلما كان أسلاف العبيد الأوائل قد أجبروا؟ أو أن تكون منحدراً من مثل هذا الأصل؟ هل هناك استثناءات فى الاستثنائية الأمريكية؟

هذه المسائل لم تكن مختلفة منذ مائة عام مضت؛ إذ إن الكاتب الأسود والزعيم السياسى الشهير دى بوا قال سنة ١٩٠٣ م:

«إنه شعور خاص، هذا الوعى المزدوج، هذا الإحساس بالنظر دائما إلى الذات من خلال عيون الآخرين، والحكم على روح المرء بمقياس عالم ينظر إليه بالاحتقار والشفقة. ويشعر المرء على الدوام بثنائيته - أمريكى وزنجى، روحان متصارعتان غير متصالحتين، نموذجان يتقاتلان داخل جسد أسود واحد، لا تحفظه من أن يتمزق أشلاء سوى قوته العاتية.

إن تاريخ الزنجى الأمريكى هو تاريخ هذا النضال - هذا الشوق - للحصول على رجولته الواعية بالذات، وأن يضع ذاته المزدوجة فى ذات أفضل وأكثر صدقًا. إنه لن يضفى الصبغة الأفريقية على أمريكا؛ لأن لدى أمريكا الكثير الذى تعلمه للعالم ولأفريقيا. وهو لن يذيب دماء الزنجية فى فيضان الأمريكية البيضاء؛ لأنه يعرف أن الدماء الزنجية تحمل رسالة إلى العالم. إنه ببساطة يرغب فى أن يجعل من الممكن للإنسان أن يكون زنجيًا وأمريكيًا. . . ».

وفى كل من انجلترا وأمريكا، سيطر على النساء أيضا شعور قوى بأنهن

http://almaktabeh.com

مستبعدات من عمليات صنع الهوية الوطنية فى الماضى، لدرجة أن هناك أسئلة جادة عما إذا كان بوسعهن حمل هوية لم تشاركن فى صنعها. وفى انجلترا، فضلاً عن ذلك، هناك الآن جماعات مهمة أصولها ليست أنجلو-سكسونية بيضاء بروتستانتية، ولم يصلوا على الرغم من عيشتهم فى انجلترا، إلى اعتبار أنفسهم انجليزاً بمعنى الكلمة. ومسألة ما إذا كانت كلمة «إنجليزى» نفسها تشير إلى جنس أو أمة لم تجد حلاً، مع وجود بعض الناس السود المستعدين لاستخدام الكلمة للدلالة عليهم، والبعض يفضل المصطلح «بريطانى» الأقل تحديداً.

و «الإنجليز البيض» أنفسهم، فى الوقت نفسه، يبدون أكثر استعداداً من الناحية النظرية لقبول مفهوم «الإنجليز السود» مما هم فى الواقع. ويرجع هذا من ناحية إلى العنصرية، ولكنه يرجع أيضا من ناحية أخرى إلى العكس-عزوف نبيل عن فرض الاندماج الثقافى فى «الإنجليزية» بطريقة أصعب أو أسرع مما يراه الأفريقيون أو الآسيويون مقبولاً. بيد أن إحساس «دى بوا» باغتراب السود فى أمريكا منذ مائة سنة مضت ليس غائبًا عن انجلترا اليوم. وسيبيل فوينكس التى ولدت فى مستعمرة جويانا البريطانية واستقرت فى انجلترا سنة ١٩٥٦م كتبت عن الحيرة المضنية والالتباسات فى هوية البريطانيين السود فى كتابها «Belonging To Britain» :

«إنها لحقيقة أن المرء أسود وينتمى إلى انجلترا. فأنت تنتمى. وأنت تعلم أنك تنتمى. ولا يمكن لأحد أن ينتزع هذه الحقيقة. وأنت تصنع مكانك فيها؛ لأنك تعرف أنك تنتمى إليها. ولكن ليس من الممكن أن تكون أسود وأن تشعر أنك تنتمى إلى بريطانيا. ليس هناك فرق، فبسبب إنسانيتك تمضى فى العمل، وتصلى وتأمل بأنه سيكون هناك قبول إن آجلاً أو عاجلاً».

ومع هذا، فإن هناك «إنجليز» من الكاثوليك البيض سوف يقولون إن سيبيل فوينكس تمتلك بالفعل العلامة المميزة للإنجليزية، التى صارت مهمة حقًا فى الأربعة قرون الأخيرة-أى البروتستانتية-ولذلك فهى بالفعل وشمة للإنجليزية حسبما تحددت تاريخيًا، وبطريقة لا تنطبق عليهم.

والإنجليز والأمريكيون (من كل جنس ولون) لديهم من الأمور المشتركة ما هو أكثر بكثير مما بينهم من اختلافات، على الرغم من أن معظمها مخبوء تحت السطح. فالقصص التى يروونها لأنفسهم عن أنفسهم متداخلة. وجزء من أن تكون أمريكيا

http://almaktabeh.com

هو «ألا تكون إنجليزيًا» بمعنى ما، وكذلك يعني «كنت إنجليزيًا ذات مرة» (ويبدو أن هذا ينطبق حتى على أولئك الذين لم يكن أجدادهم من الإنجليز). وإذا لم يكن هناك شيء آخر، فإن الرابطة الإنجليزية لها ثقل كبير في الموروث. وجزء من أن تكون إنجليزيًا «ألا تكون أمريكيا»، وهو مزيج بين الحلو والمر من الازدراء والمودة والحسد. حتى مع هذا، فإن الإنجليز لديهم ثقة مستقرة في كونهم إنجليزاً أكبر من ثقة الأمريكيين في كونهم أمريكيين. وعلى أية حال، فإن الإنجليز يقولون لأنفسهم نحن الذين كنا نحكم ذات مرة إمبراطورية كانت تغطي ربع الكرة الأرضية، وبذلك اكتسبنا حق الإعلان عن أننا «كنا هناك وفعلنا ذلك» حتى ولو لم يكلفوا أنفسهم مشقة هذا الإعلان.

وكتبت صحفية أمريكية تعيش في انجلترا، وهي برندا مادوكس، بعد الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن سنة ٢٠٠١م، بوقت قصير، في صحيفة «الجارديان»:

«واحد من أقوى الدروس التي تعلمتها من طفولتي في ماساشوستس هو غرض الولايات المتحدة. فقد بدا وكأن التاريخ الإنساني برمته يؤدي إلى خلق بلد الرب؛ فيها الحرية والعدالة للجميع... لم تكن أمريكا القلعة، وإنما أمريكا الجميلة، آمنة ـ يحميها الرب والجغرافيا ـ «من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادي». وحينما جئت لأعيش في انجلترا في عصر كينيدي، كنت أتكلم بثقة مفرطة عن تفوق الطريقة الأمريكية. وبدأت ذات يوم أقول «في بلادي...» حينما قاطعني شاب لبق بقوله: «في بلادي لا نقول في بلادي». وصدمني اللوم المهذب بقوة الكشف؛ إذ إن هناك بديلاً للوطنية غير الواعية. ففي بلد متسامح، ناضج واثق بنفسه، لم يكن من الضروري أن تضع يدك على قلبك وتقول إنني أحب هذا البلد، أو حتى تشير إليه بضمير الملكية. فهل سمعتم أبدًا من يقول «ملكتنا» أو حتى «رئيس وزرائنا»؟.

وربما يكون وصف متسامح، وناضج، وواثق من نفسه، وصفًا مجاملاً إلى حد ما لبريطانيا الحديثة، على الرغم من أن الفكاهة والسخرية المعتادة في وصف الإنجليز لأنفسهم، طالما بقيت، لا يمكن أن تكون علامة على عدم الشعور بالأمان. ويمكن فقط للإنجليز أن ينشدوا «أرض الأمل والمجد» بمزيج من التعاطف والسخرية. وقد يعتبر الأمريكيون نفس المقاربة لنشيد «بارك الرب أمريكا» مقاربة

http://almaktabeh.com

غير متدينة ولا ولاء فيها. وربما لهذا السبب يمكن للإنجليز أن يسألوا أنفسهم من الأسئلة الفاحصة أكثر مما يمكن للأمريكيين أن يفعلوا؛ إذ إن لديهم عدداً أقل من البقرات المقدسة.

والبلد الجغرافي ليس مجرد مساحة على الخريطة والناس الذين يعيشون فيها، ولكن الوطن هو «جماعة متخيلة»، فكرة ماثلة في أذهان أعضائها. فهم يسكنون بلادهم ويمرون بتجاربهم فيها، وهو ما يُخصّب خيالهم بذكريات مرئية ومسموعة ومشمومة. وهم يستوعبون هويتهم من خلال أحاسيسهم الفردية وكذلك من خلال ذكرياتهم الجماعية. وأن تكون إنجليزيا أو أمريكيًا يعني أن تكون عضواً في مجتمع بعينه، في وطن، في جماعة من الناس لهم أشياء أساسية معينة مشتركة فيما بينهم (على الرغم من أن التحديد الدقيق لهذه الأشياء ربما يكون محل جدال). وإذا ما كانوا إنجليزاً أو أمريكيين، فإن علاقتهم على مدى ما يقرب من خمسمائة سنة بوطنهم، حكمت خيالهم الديني وكل أنواع الخيال الأخرى. وربما يكون هذا هو السبب في أن الإحساس بهذه الأمور عميق إلى هذه الدرجة. فأنت تكون إنجليزيًا أو أمريكيًا يتعلق هناك «بالرب والكون وكل شيء».

ومفهوم الجماعة المتخيّلة هو مفهوم ندين به إلى عالم الاجتماع الأمريكي الحكومي بندكت أندرسون، ففي كتابه «Imagined Communities» يجادل بأن الوطن يوجد في مخيلة أعضائه، لأنه حتى في أصغر الأوطان، لا يمكن لأي مواطن أن يعرف كل أبناء الوطن الآخرين، ولكنه مع هذا يشعر أنه مرتبط بهم:

«... إنها جماعة مُتخَيَّلة؛ لأنه بغض النظر عن عدم المساواة الفعلية والاستغلال الذي قد يكون سائدا في كل الأوطان، فإن الوطن دائما يُنظر إليه على أنه رفقة عميقة وأفقية. إنها في التحليل الأخير علاقة الأخوة التي تجعل من الممكن، على مدى القرنين الأخيرين، أن تقبل هذه الملايين العديدة من البشر على الموت في سبيل مثل هذه التخيلات المحدودة».

ومن هنا فإن المواطنين في مثل هذا الوطن يشتركون في هوية مع أناس آخرين لا يعرفهم هو أو هي، ولكن يمكن تخيلهم. وهو لا يشعر بهذه الرابطة مع أبناء الأوطان الأخرى الذين يعيشون فيما وراء الحدود المرسومة لهذا الوطن (وهي حدود غير معروفة أيضا، ولكنها أيضا متخيلة إلى حد ما).

http://almaktabeh.com

ومن الجدير بالاستكشاف بطريقة أكثر دقة ماذا يستدعى ذلك الجهد فى التخيل. ففى الحالة الإنجليزية، كان الجهد المطلوب تقليديًا عملاً من أعمال الذاكرة أساسًا. والبحث عن إجابة للسؤال «من نحن»؟ يبدأ بالسؤال، أولا «من كنا»؟ وما لم نعرف من كنا، فإن الإنجليز سيقولون لأنفسهم نحن لا نعرف من نحن. ولكن فى الحالة الأمريكية، يكون فعل التخيل فعل إرادة. والبحث عن إجابة للسؤال «من نحن»؟ يبدأ بسؤال «من نريد أن نكون؟».

وهكذا ، فإن إحدى الإجابات تعود بنا القهقرى فى الزمن، على حين تشير الإجابة الأخرى إلى الأمام. وإحدى الإجابات واضح أنها أكثر حيوية، والأخرى أكثر سلبية. فالمستقبل يمكن تغييره، ولكن الماضى لا يمكن تغييره (على الرغم من أنه يمكن تغيير الطريقة التى تتخيله بها). وفى الحالة الأمريكية، فمن الواضح أن خط الأساس هو الثورة الأمريكية والنتائج المباشرة لها على الخيال الأمريكى؛ إذ إن الآباء المؤسسين، فى وثائق مثل إعلان الاستقلال، والأوراق الفيدرالية، والدستور، وكذلك فى نصوص كثيرة أقل معاصرة، كانوا يسألون أنفسهم بوعى سؤال «من نريد أن نكون؟». والإجابة، وهى شاسعة فى مداها، أنهم كانوا يريدون أن يكونوا «بلد الرب»: كانوا يريدون أن يكونوا المجتمع الكامل. وكما أعلن توماس پين نحن فى قوتنا سنبدأ العالم من جديد.

كانوا يتخيلون أمريكا موجودة بفعل الإرادة. وما تخيلوه لم يكن وصفًا لما كان موجودًا آنئذ؛ بسبب الظلم الموروث للعبودية ومسألة الهنود الحمر. كان ما تخيلوه مثالاً، يجب أن تنمو أمريكا فى اتجاهه. ويصف بولين ماير فى كتابه «American Scripture» إعلان الاستقلال بأنه «تقرير للقيم التى تعبر أكثر من غيرها، لا عن السبب فى انفصالنا عن بريطانيا، ولا ماذا نكون أو ماذا كنا، وإنما تعبر عما يجب أن نكون عليه، وصفة من المثل التى تربطنا ببعضنا كشعب، ولكنها كانت أيضا فى مركز بعض المنازعات الحاسمة فى تاريخنا».

هذا هو السبب فى أن المبادئ السامية التى عبر عنها رجال من أمثال چورج واشنطن وتوماس چيفرسون، وكلاهما من أصحاب الرقيق، لا يجب استبعادها باعتبارها نفاقًا أو أمورًا تدعو إلى السخرية، وإنما باعتبارها أكثر قناعاتهم إخلاصًا. وفعل التخيل الأمريكى لم يكن فعلاً من أفعال الذاكرة كما هو واضح؛ لأنه لم تكن هناك أمريكا موجودة - سوى باعتبارها مستعمرة - قبل ذلك الزمان. وبقدر ما

http://almaktabeh.com

يتداخل الماضى فى ذلك الحاضر والمستقبل، فإنها كانت ذكرى عمل سابق من أعمال الإدارة، وهو الفعل الذى قام به المستوطنون الأوائل فى نيو إنجلاند والذين عقدوا العزم على البقاء والتحمل.

بيد أنهم لم يحددوا أنفسهم على نحو ما كانوا عليه من قبل. إنهم لم يريدوا أن يكونوا هم نفس من كانوا من قبل. والواقع أن البيوريتان فى نيو إنجلاند لم يريدوا هذا بقدر ما كان عبورهم الأطلنطى هرباً منه؛ لكى يكونوا شيئاً مختلفاً. وقبل الانتشار السريع لعدوى الأحلام الثورية من الشمال إلى الجنوب فى منتصف القرن الثامن عشر، كان المستوطنون فى فيرجينيا هم الأكثر تحفظاً. فقد كانوا أكثر اهتماماً بتخيل أن جماعتهم موجودة بفعل الذاكرة. إذ كانوا راغبين فى أن يتشبهوا بالطبقة الراقية الإنجليزية، وأن يفعلوا ما كان عليهم أن يتذكروا أن الطبقة الراقية الإنجليزية تفعله. هاتان الطريقتان فى تخيل أمريكا توافقتا بالقوة سوياً تحت ضغط الغزو العسكرى البريطانى. ولكن التوتر ظل قائماً واصطدم الاتجاهان ثانية فى الحرب الأهلية الأمريكية حينما انتصر فعل الإرادة مجدداً على فعل الذاكرة. ولا يمكن انتزاع هذا تماماً من الحرب الأهلية الإنجليزية فى القرن السابق، حينما طرح الجناح اليمينى من الكاثاليه عمل الذاكرة - الاستمرارية، الملكية والكنيسة بل وحتى الطراز - ضد الجناح اليسارى الذى طرح عمل الإرادة، وهو بناء مجتمع واضح ولكنه كامل (بيوريتانى).

وتفسيرات هذه الفروق ليست نفسية أو سياسية خالصة، وليست مرتبطة بـ «هنا» و «الآن». إنها تعكس أيضاً ما يفكر الناس فيه حول مكانهم فى العالم؛ وماذا كان واجبهم تجاه الرب وتجاه جيرانهم. وخط الأساس الإنجليزى المعاصر يصعب تمييزه بوضوح. وربما بالنسبة للجيل الحديث من الشعب الإنجليزى لا تزال ذكرى الحرب العالمية الثانية تعيش فى ذاكرتهم الجماعية. والأكثر حضوراً فى الذاكرة هى السنة التى وقفت فيها بريطانيا وحدها - ما بين سقوط فرنسا فى يونيو ١٩٤٠ م وغزو روسيا فى يونيو ١٩٤١ م. والواقع، وبعيداً عن جلب الراحة إلى البريطانيين، أن النجاح الأولى الذى أحرزه الجيش الألمانى فى تقدمه تجاه موسكو، هو الذى زاد من إحساس البريطانيين بعزلتهم المكشوفة. ولم ينته هذا حقاً حتى دخلت الولايات المتحدة الحرب بعد أن هاجمها اليابانيون فى نهاية سنة ١٩٤١ م.

وهكذا فإن الإحساس بكونهم الأمة التى قاومت وحدها الشر المستفحل - الذى

http://almaktabeh.com

تجسد فى الآلة النازية - كان إشارة إلى فترة طالت على مدى ثمانية عشر شهراً. وإذا تحدثنا بالتحديد، فإن بريطانيا، طبعًا، لم تكن وحدها. إذ كانت الإمبراطورية البريطانية أيضا مشتبكة فى الحرب، سواء كانت تريد ذلك أم لا - على الرغم من أنه بصفة عامة كان هناك دليل على أن مناطق آسيا التى حكمها البريطانيون، والتى اعتبرت مستعمرات بريطانية، كانت تفضل السيطرة اليابانية. والأملاك البريطانية - وهى بلاد مستقلة احتفظت بالتاج مثل أستراليا ونيوزيلاند وكندا وجنوب أفريقيا - كانت مشتبكة فى الحرب بإرادتها، بغض النظر عن الروابط التى تربطها بالبلد الأم. وعلى الرغم من هذا التأييد المعنوى - وكانت كندا فقط قريبة من المساعدة العملية - على مدى تلك الشهور الثمانية عشر، كانت انجلترا واعية تمامًا بحقيقة أن كل الذى كان يفصلها عن قوة الجيش الألمانى هو الواحد والعشرون ميلاً عرض القنال الإنجليزى. وبعد خسارة الدبابات والمدفعية فى الكارثة العسكرية بدنكرك، لم يكن لدى انجلترا جيش ميدانى فعال لمقاومة الغزو إذا حدث.

وقد لجأ الإنجليز من هذه التجربة ليس بسبب ما أرادوا أن يكونوا، وإنما بسبب معرفتهم من كانوا هم. كان تاريخهم هو الذى لم يعطهم أى بديل تاريخى سوى المقاومة، لاسيما تاريخهم فى مقاومة العدوان الأوروبى. ولم تكن هناك حقيقة تاريخية معروفة أكثر من حقيقة أن انجلترا لم تتعرض لغزو ناجح من جيش أجنبى منذ سنة ١٠٦٦، وكما لو أن التسعمائة سنة التى انقضت قد وفرت خندقا حاميًا فى الفضاء العقلى أقوى حتى من مضايق دوفر. والحقيقة التاريخية الثانية المعروفة جيداً كانت هزيمة أسطول الأرمادا الإسبانى فى سنة ١٥٨٨ م، والثالثة انتصار نلسون على الأسطول الفرنسى (ومن ثم تجنب مخاطرة الغزو النابوليونى) فى معركة الطرف الأغر سنة ١٨٠٥م، كان هذا هو الذى زاد من صلابة العصب الوطنى سنة ١٩٤٠م: لقد كان الأمر يتعلق بما كانت عليه انجلترا، وما كان ما يزال قائمًا فى مخيلة مواطنيها. وكان هذا كافيا. لقد تولى الرب حمايتها؛ لأن الرب أراد أن تعود ثانية إلى ما كانت عليه من قبل. ولكن انجلترا كانت لا تحارب من أجل عالم أفضل، إلا إذا كان مفهومًا أنه يعنى عالمًا ليس فيه النازيون، لقد كانت تحارب لكى تبقى كما هى. وبسبب موارد الذاكرة المتاحة أمام خيالهم، استطاع الإنجليز مواصلة صمودهم وحدهم أمام النازى على مدى أكثر من سنة فيما كان حقًا ملحمة شجاعة مدهشة فى تاريخهم الطويل.

http://almaktabeh.com

وسجل هذا لا يوجد بشكل خاص فى أية وثيقة بعينها، على الرغم من أن الخطب التى ألقاها «ونستون تشرشل» زمن الحرب تعتبر مجموعة رائعة من البلاغة الوطنية الإنجليزية. وإحدى فقراته الأكثر شهرة سوف تخدمنا من حيث هى مثال على الكل. وهذه هى الطريقة التى اختتم بها خطبته فى مجلس العموم فى منتصف يونيو ١٩٤٠م، حيث بدأ فى هذا السياق استخدام العبارة الخالدة «معركة بريطانيا»:

«إن ما أسماه الجنرال «ويجاند» معركة فرنسا قد انتهت. وأتوقع أن تكون معركة بريطانيا على وشك البدء. وعلى هذه المعركة يعتمد بقاء الحضارة المسيحية. وعليها تعتمد حياتنا البريطانية الخاصة، والاستمرار الطويل لمؤسساتنا وإمبراطوريتنا. إن كل حنق العدو وقوته لابد أن ينقلب علينا بسرعة. وهتلر يعرف أنه سيكون عليه أن يكسر هذه الجزيرة أو يخسر الحرب. وإذا استطعنا أن نقف فى وجهه، فربما أمكن أن تكون أوروبا كلها حرة وربما تقدمت حياة العالم إلى الأمام فى أرض رحبة مشرقة. ولكن إذا فشلنا، فإن العالم بأسره بما فى ذلك الولايات المتحدة، وبما فى ذلك كل ما عرفناه واحتمنا به، سوف يغوص فى غياهب عصر ظلمات جديد أكثر شؤمًا وربما أطول مدة بأضواء العلم المنحرف عن هدفه. فلنتصرف إذن إلى واجباتنا، ونحمل أنفسنا على أنه إذا استمرت الإمبراطورية البريطانية والكومنولث ألف سنة، فإن الناس سوف يقولون: كانت تلك أروع ساعة فى تاريخهم».

هذا التمييز، بين أمريكا التى تتخيل نفسها موجودة بالإيمان فى المستقبل، وبين انجلترا التى تتخيل نفسها فى الوجود بتذكر ماضيها، يحمل بعض التطابق مع التقسيم التقليدى للأنماط السياسية فى كلا البلدين إلى معسكرين أيديولوجيين منفصلين، الهويج والتورى. إذ كان الهويج يؤمنون بالتقدم، أى أن الأمور مرسومة على أساس أن تتحسن، فبالنسبة لهم، الأفضل لم يأت بعد. أما التورى فكانوا يؤمنون بالتقاليد. وبالنسبة لهم الأفضل موجود هنا الآن، أو أنه كان موجودًا فى الماضى بالفعل. وهناك تورى فى أمريكا، وهويج فى انجلترا، ولكن هذه هى الأنماط السائدة: التفاؤل ضد الحنين إلى الماضى، القلق ضد القصور الذاتى.

إن تعريف الإنجليز لأنفسهم، وتصورهم على أنهم جماعة وطنية حسب مصطلحات أندرسون، يمكن أن نجده، بصورة ممتازة، فى الاحتفال الوطنى الذى

http://almaktabeh.com

حدث بعد سنوات قليلة من نهاية الحرب، عند تتويج الملكة إليزابيث الثانية فى سنة ١٩٥٣م. لقد كان احتفالاً مجدداً، وكثيرا ما جرى وصفه فى الصحف على أنه بداية عصر إليزابيثى جديد (وبذلك احتفالاً بأمجاد العصر السابق). لقد كان تجديداً لخيال قديم، ولم يكن تخيلاً لشىء جديد. لقد كان فعلاً أقل جسارة من تخيل الذات من الفعل الأمريكى، وعلى الأقل من الناحية الظاهرية، كان فعلاً من أفعال الخيال الدينى. ولا يعنى هذا أن الفعل الأمريكى فى التخيل الوطنى لم يكن دينيًا، فقط أنه لم يأخذ مكانه فى مجرى احتفال دينى مسيحى خاص مثلما حدث فى حفل التتويج. وبطرق أقل وضوحًا، كان الفعل الأمريكى أكثر، وليس أقل، دينية من الفعل الإنجليزى. وفى قلب الفعل الإنجليزى لتخيل الذات كانت الاستمرارية. وفى معظم الوقت لا يتطلب ذلك شيئا أكثر من القصور الذاتى العنيد (على الرغم من أنه فى سنة ١٩٤٠ - ١٩٤١ م، كان يتطلب أيضا شجاعة فائقة).

وأهمية التتويج الذى جرى سنة ١٩٥٣ كما أمكن رؤيتها فى هذا الضوء، جرت دراستها بشكل أوفى فى فصل لاحق. وسوف أكتفى الآن بالنظر سريعًا إلى معادل أكثر معاصرة، وهو القسم وخطبة الافتتاح التى ألقاها الرئيس «چورچ دبليو بوش» فى يناير ٢٠٠١م. فقد استخدم إحالات دينية صريحة، بيد أنه من الجدير بالملاحظة أن هذه الفقرات من خطبته لم تتسبب فى أى جدل. فمن المتوقع أن الرؤساء الأمريكيين سوف يتكلمون هكذا، بينما سيكون من غير المقنع أن يفعل أى رئيس وزراء بريطانى هذا. ففى بريطانيا، المكان الصحيح للاعتراف بيد الرب فى شئون الوطن هو حفل التتويج أو شىء شبيه به. وربما يكون لحفل تنصيب رئيس أمريكى ظل من التتويج. ففى خطابه استغرق السيد بوش بطريقة وطنية فى الحديث عن مكان أمريكا فى المشروع العظيم للأمور، فقد أعلن:

«الأمريكيون كرماء وأقوياء ومحترمون، ليس لأننا نؤمن بأنفسنا ولكن لأننا نحمل إيمانا بما يتعدى ذواتنا. وحينما تفتقد روح المواطنة هذه لا يمكن لأى برنامج حكومى أن يحل محلها. وعندما تكون هذه الروح موجودة لا يمكن لأى شر أن يقف فى مواجهتها.

فبعد توقيع إعلان الاستقلال، كتب رجل الدولة فى ڤيرچينيا «جون بيج» إلى توماس چيفرسون: «نحن نعرف أن السباق لا يكسبه الأسرع ولا المعركة يكسبها الأقوى. ألا تعتقد أن ملاكًا يركب الريح ويوجه هذه العاصفة؟»

http://almaktabeh.com

وقد مرّ زمن طويل منذ تولى جيفرسون الرئاسة. وتراكمت السنون والتغييرات. ولكن الموضوعات الرئاسية التى كان عليه أن يعرفها فى ذلك اليوم: هى قصة وطننا الكبرى فى الشجاعة، حلمها البسيط فى الكرامة. لسنا نحن الذين كتبنا هذه القصة، وإنما من يملأ الزمن والخلود بمشيئة. بيد أن تحقيق هدف الرب هو واجبنا، وواجبنا يتحقق فى خدمة كل منا الآخر.

ونحن لا نتعب أبدا، ولا نستسلم أبدا، ولا ننتهى أبدا، وبذلك نجدد هذا الهدف اليوم؛ لكى نجعل بلادنا أكثر عدلاً وكرمًا، ولكى نؤكد كرامة حياتنا وكل حياة. هذا العمل يستمر. وتمضى هذه القصة.

وما يزال هناك ملاك يركب الريح ويوجه هذه العاصفة. فليبارككم الرب جميعا، وليبارك الرب أمريكا».

والحجة التى يقوم عليها هذا الكتاب هى أننا لن نصل أبدًا إلى أغوار هذه المسائل عن الهوية الوطنية والمصير الوطنى، حتى نؤمن بالبعد الدينى مثلما نؤمن بالأبعاد الأخرى، ونعطيه الوزن المناسب له مع الأبعاد الأخرى. وسوف نجد أنه لم يأخذ وزنه الصحيح فى الماضى ـ على مدى فترة طويلة أخذ وزنًا أكثر مما يستحق، وفى الوقت الحالى (كرد فعل بلا شك) أخذ وزنا أقل مما يستحق ـ ولكن أولئك الذين يطبقون أفكارهم الحديثة على الماضى يحملون عقلية حديثة، وهى فن المؤرخين فى التجاوز، ولكنهم لا ينجحون دائمًا.

والدين مكون داخلى أساسى أثقل وزنًا فى هذه القصص الوطنية مما قد يتوقع معظم الإنجليز أو الأمريكيين المحدثين. كما أنه غير عادى، وأشد مخالفة للأذواق الحديثة، وأكثر درامية فى تأثيراته. كما أنه مثير للجدل بشكل أشد كثافة، كما أن المجادلات مثيرة إلى أبعد الحدود. وهذا ليس نوعًا من الحفريات الجافة. إنه بحث عن البنادق التى ينبعث منها الدخان. وأولئك الذين يحبون توزيع اللوم على الجميع سيجدون متعة كبيرة. وحقيقة أن القراء المحدثين لم يعودوا يشاركون فى الخيال الدينى للقرن السادس عشر أو القرن الثامن عشر، لا تعنى أن هذه الأفكار غير شاملة، وإنما تعنى فقط أنهم لم يتعودوا عليها. والواقع أننا ربما نكتشف أننا ما نزال نشارك فيها بقدر أكبر مما كنا نتوقعه.

وفى كل من الحالة الإنجليزية والحالة الأمريكية، كان البعد الدينى يجيب على أسئلة

http://almaktabeh.com

عن الهوية والوطنية والغرض، وهى أسئلة لم تتم الإجابة عنها بما يكفى بأية طريقة أخرى. والإنجليز متقدمون فعلاً على الأمريكيين فى البحث عن الحلول البديلة غير الدينية، ولكن هذا ليس أمراً سهل المنال؛ إذ إنهم ما يزالون فى انتظار الإجابات التى يعرفون أنها لن تخدمهم بشكل جيد تمامًا بعد ذلك. والمقارنات هنا ربما تكون مفيدة للأمريكيين والإنجليز على السواء. وذات مرة كان بوسع الإنجليز أن يظهروا لأبناء عمومتهم الأمريكيين لمحة عن مستقبلهم الممكن، ويحذروهم من الأخطاء التى يجب تجنبها. وربما يكون الدرس أنه إذا توقف وطن مثل انجلترا أو أمريكا عن الإيمان بمصيره مرة، فإن المشكلة التالية الذى عليه أن يواجهها تكون حول مصيره. أو أن الوطن الذى لديه إحساس واضح بمصيره لن يجد صعوبة بشأن هويته.

من الواضح أن الاهتمام بالتاريخ الأمريكى لا يمكن أن يستبعد التاريخ الدينى. وحيث يبدو أن الكتّاب جميعا يتفقون على أنه بدون الدين لما كانت هناك أمريكا يكتبون عنها، وبالتأكيد لما كانت هناك نزعة أمريكية، ولا عقيدة وطنية، ولا إعلان مصير ولا استثنائية أمريكية. وليس من المدهش أن هناك شعوراً معاصراً لدى معظم الأمريكيين الذين يكتبون عن الديانة الأمريكية. وحتى عندما يكون الكاتب مهموماً بالماضى، فإنه لا يكون أقل توجهًا إلى الحاضر والمستقبل. وليس السبب فى هذا راجعًا فقط إلى أن الدين يبقى ضاريًا بجذوره فى أعماق طريقة الحياة الأمريكية. والحقيقة أن معظم هذه الكتابات تقوم بها، ولصالحها، الجماعة الأكاديمية. إنه خطاب من داخل المثقفين. وفى أمريكا (كما فى انجلترا)، فإن هذه إحدى البيئات الأكثر علمانية عقلانية، حيث يكون الدين أقل تجذراً. بيد أن الأكاديميين ما يزالون يهتمون به، وإذا لم يكن جل اهتمامهم بما هو عليه الآن، فإنه ينصب على الكيفية التى كان عليها ذات مرة.

ولكن هذا ليس محل اهتمام الإنجليز. فإذا كان البحث فى حالة الروح الأمريكية منذ مائتى سنة مضت يُظَن أنه يلقى الضوء على حالة الروح الأمريكية الآن - ليس فقط من خلال التشابهات ولكن من خلال الاختلافات أيضا - فإن هذه المقاربة لا تحظى بتقدير كبير فى الحياة الفكرية للإنجليز. ويخرج سكروتون عن العادة وهو يقرر:

«بدون هذا البعد الدينى لا تظهر الأوطان والبلاد كهويات أخلاقية محددة فى وضوح. وبطبيعة الحال، يمكن أن تكون هناك دول بدون دين. والعالم الحديث ملىء بها... ولا يوجد طالب يدرس التاريخ الإنجليزى يفوته أن يرى أن الدين كان

http://almaktabeh.com

منذ البداية مخلوطًا بمعنى التاريخ الإنجليزى، وأن تاريخ الديانة الإنجليزية وتاريخ إنجلترا فى كثير من الحقب لا ينفصلان».

بيد أن هذا ليس رأيًا شائعًا. وأحد الأسباب هو أن هذه المناقشات غالبًا ما كانت فى الماضى ليست نتاجًا، كما فى هذه الحالة، بوصفها أوصافًا موضوعية لحقيقة ثقافية، ولكن بوصفها تأنيبًا أخلاقيًا من جانب أولئك الذين كان لهم اهتمام واسع بأن يرى الوطن يعود إلى طريقة الكنيسة. وإذا ما قيل لأحد إن أحدًا لا يمكن أن يكون وطنيًا دون أن يكون متدينًا، فإذن يمكن للمرء أن يكون إما وطنيًا ومتدينًا فى آن معًا، أو لا يكون وطنيًا ولا متدينًا. وإذ كان أمام الإنجليز الخيار، فإنهم مالوا تجاه الاختيار الأخير، حتى مع أن أولئك الذين قدموا الاختيار كانوا يريدون منهم الاختيار الأول.

ويبدو أحيانا كما لو أن هناك مؤامرة للتظاهر بأن الإنجليز لم يؤمنوا أبدًا بشىء يختلف عما يؤمنون به الآن، وهو ما يتجه، بأى معنى مذهبى أو تنظيمى، لأن يكون قليلا للغاية. فالمناخ الدينى قبل وقوع الحرب الأهلية الإنجليزية ما يزال يجتذب البحث العلمى. وقد حدثت طفرة إصلاحية فى نزعة المراجعة التاريخية فرضت إعادة التفكير - صوب صيغة أقل انتصاراً للقصة التاريخية الوطنية - فى جوانب بعينها من التراث المقبول عن التاريخ الإنجليزى فى القرن السادس عشر. وقد ظهرت هذه المناقشات فى الكتب، والمجلات والصحف والتليفزيون حول موضوعات كانت محرمة ذات مرة، مثل ما إن شكسبير (الذى حظى باختياره رجل الألفية الإنجليزى فى استطلاع للرأى) كان أو لم يكن كاثوليكيًا رومانيًا، وأولئك الذين قالوا إنه كان كذلك نالوا مكافأتهم بالنقاط، على الأقل فى هذه المرحلة من النقاش.

ولكن بينما استمرت سير الأفراد التاريخيين المتميزين أو غير العاديين تبيع بشكل جيد، فليس من المناسب للعصر أن يعول الكتّاب على أفكارهم أو مشاعرهم الدينية. والواقع، أنه ثما انحياز ثقافى عام فى إنجلترا يتناول الروابط الدينية، سواء فى الحاضر أو فى الماضى، إما على أنها غاية فى الخصوصية أو باعتبارها هامشية جدا بحيث لا تستحق الكثير من الالتفات.

وعندما قام روى هاترسلى، النائب السابق لزعيم حزب العمال - وهو الآن من مشاهير العمال وله عمود صحفى - بجذب الانتباه سنة ٢٠٠١ م إلى وجود أتباع

http://almaktabeh.com

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى مراكز قيادية فى السياسية البريطانية، كانت هناك دهشة من نوع ما؛ لأنه ظن أن الأمر يستحق الذكر. إذ إنه أبرز أنه كان من الممكن تمامًا بحلول وقت الانتخابات العامة البريطانية التالية، ربما تكون جميع الأحزاب السياسية الرئيسية الثلاثة تحت قيادة كاثوليك رومان. وكان تشارلز كينيدى زعيم الأحرار الديموقراطيين واحدًا منهم بالفعل، وكذلك كان إيين دونكان سميث، فى ذلك الوقت ينافس على زعامة حزب التورى (وقد نجح فى ذلك). كما أن تونى بلير معروف بأنه متزوج من كاثوليكية وله أولاد كاثوليك، يذهب معهم بانتظام إلى قداس يوم الأحد. كما أنه شُوهد عدة مرات فى كاتدرائية ويستمنستر بمفرده؛ مما يؤدى إلى التفكير فى أنه قد يتحول إلى هذا المذهب. وقد اعتاد بانتظام أن يصحب زوجته إلى المذبح للعشاء الربانى، حتى توقفت هذه الممارسة. وهى ضد القواعد الكاثوليكية، ولكنها شائعة بين الأنجليكان المتزوجين من كاثوليك. بناءً على طلب من الكاردينال باسيل هيوم. وقد أوضح هاترسلى أنه هو نفسه لم يكن كاثوليكيا، بيد أنه لم يبح بسر التحول المثير الذى يقول إن والده كان قسيسًا كاثوليكيا مشهورًا فى شيفليد قبل الحرب العالمية الثانية، وترك منصبه الكنسى ليتزوج والدة هاترسلى.

وكان الهياج الذى سببته مقالته قليلا لدرجة أن زميله صاحب العمود فى جريدة الجارديان مايكل هوايت، زعم أيضا أنه أول من لاحظ الشىء نفسه بعد ذلك بثلاثة أشهر. وكتب: «منذ أقل من جيل مضى كان وجود الكاثوليك بمعدل ٢,٥ على رأس كل حزب من الأحزاب الثلاثة الكبيرة لدينا قد يبدو أمرًا غير وارد، كانت السيطرة على هذا النحو ما تزال قوية، ولكن أحدًا لم يكن يتحدث عنها غالبا، للموروث البروتستانتى فى بريطانيا على كل الأركان والشقوق العليا فى المؤسسة».

مرة أخرى لم تكن هناك شهية فى الصحافة لإثارة الجدل الدينى، الذى قد يأخذه البعض على أنه علامة على نضج الجماهير، والبعض على أنه إثم وجهل. وهذا العزوف عن ملاحظة وجود الدين فى الحياة العامة حتى عندما يكون واضحًا كما اتضح أثناء رئاسة مارجريت تاتشر للوزارة. ففى وقت ما كان هناك ستة من اليهود العاملين فى وزارتها (أى ربع المجموع). لقد كان ذلك حقا أمرًا لا يستحق الذكر، حتى على الرغم من أنه لم يكن من الصعب ملاحظة علاقة معينة بين السياسات التى

http://almaktabeh.com

كانت تنتهجها ومبدأ مراعاة مصالح العمل لدى الجماعة اليهودية البريطانية. وحسبما يقول جراهام تيرنر، الذي كتب في صحيفة «الديلي تلجراف»، فإن الملكة سألت ذات مرة، روبرت رونس، الذي كان كبير أساقفة كانتربوري آنذاك، عما إذا كان يعتبر مسز تاتشر امرأة متدينة، ويقال إنه أجاب: «أظن أنها عبرانية أكثر منها مسيحية».

* * *

والتحفظ الأمريكي حول تأكيد نفوذ الدين له أصول. وإذا تحقق المرء من وجود رغبة في التناول الأكاديمي القياسي لكبحها، فإن هذه الرغبة إنما تتأتى إلى حد كبير من رفض تسليم ملكية ماضي أمريكا إلى الحركات الدينية المذهبية والأصولية، وهي تواقة تماما للاستيلاء على هذا الماضي. والخوف غير المعلن يبدو أنه من التسليم طواعية بأن چورج واشنطن أو توماس چيفرسون، مثلا، كانت لهما عقلية دينية في زمانهما، ربما تكون ذخيرة أكثر من اللازم لأولئك الذين لهم عقلية دينية اليوم. إذ إن لهم أچندتهم الخاصة. وسوف يصيحون بسرور: «كان چورج واشنطن واحداً منا، ومن ثم فلتفعلوا ما نقوله»، حتى على الرغم من أن عقليته الدينية، في الحقيقة، لم تكن أكثر من أنه كان ابن عصره. ومن المحتمل أنه كان متدينا مثل أقرانه، وكان الدين بالنسبة له مسألة خاصة. وفي مقدمته لطبعة Everyman من كتاب «الصلوات العامة» Book of the Comman Prayer » لكنيسة انجلترا، يقدر «ديار ميد ماكو للوش» أن ثلثي الذين وقعوا إعلان الاستقلال وكذلك ثلثي الذين وقعوا الدستور الأمريكي كانوا من الأنجليكانيين الأمريكيين «الذين كانت حياتهم الدينية قد تشكلت بفعل كتاب الصلوات العامة سنة ١٦٦٢ م». وربما كان يضيف كذلك، والذين تشكل إحساسهم بالاستخدام الصحيح للغة الإنجليزية قد تشكل أيضا على نفس النحو، مع العودة كثيرا إلى النسخة المعتمدة للكتاب المقدس (والتي يسميها الأمريكيون نسخة الملك چيمس).

وعادة ما يوصف واشنطن وچيفرسون، ومعهم چيمس ماديسون وبنيامين فرانكين وچون آدامز وكثيرون غيرهم، بأنهم يؤمنون بالرب وحده، ويفترض على أساس ذلك أنهم لا يكترثون دينيًا، ولو أنهم ليسوا معادين للدين، فهم أبناء عصر التنوير وورثة ڤولتير.

http://almaktabeh.com

وهناك مفهوم عميق الجذور بأن أمريكا برزت من طيات الحرب ضد بريطانيا ومن ثم كانت صياغة جمهورية جديدة علمانية. ولكن عندما صار المؤرخون بالتدريج أكثر اهتماما بالمصادر منهم بالنظريات، فثمة رأى آخر ينتشر ببطء. كان هناك قدر كبير من الدين فى أمريكا أواخر القرن الثامن عشر. وقد تشبعت به الثقافة واللغة، وكما يكتب ج. س. د. كلارك فى كتابه «The Language of Liberty»، وهو أحد الكتب بالغة الأهمية والتأثير، وعلامة على هذا التغير بين المؤرخين:

«قامت دراسات كثيرة للسياسة فى بريطانيا وأمريكا فى أواخر القرن الثامن عشر على أساس رؤية التنوير باعتباره عملية علمنة تحتضن كضرورة اتحادية الشك الأرستقراطى والمادية البورجوازية والتحرر البروليتارى من العلاقات الاجتماعية البروليتارية. ومع هذا فإن كلاً من هذه الأجزاء المكونة، واجه التحدى بشكل منفصل، وفى النهاية يتزايد التساؤل حول هذا التجمع نفسه... إذ إن تأييد النخبة للدين فى شكل الكنيسة القائمة كان قويًا، ويتم التأكيد عليه من فترة لأخرى فى الأزمات السياسية من عودة الملكية فى انجلترا إلى الثورة سنة ١٦٨٨م إلى التحدى الثورى الفرنسى فى تسعينيات القرن الثامن عشر وما تلاها. وقد فشلت الطبقات الوسطى فى المجتمع بشكل ملحوظ فى تطوير وعى جماعى، سواء كطبقة تجارية بورجوازية أو طبقة وسطى. وكان ارتباطهم بالكنيسة أو الانشقاق عنها أكثر وضوحًا حتى من ارتباط النخبة. وأخيرا إذا كانت نسب الحضور فى الكنيسة قد تدهورت فعلاً بين الناس بعد سنة ١٦٨٩م، فمن الواضح الآن أن هذا لا يمكن تفسيره ببساطة أو بسهولة على أنه تحرر فى نطاق نظام اجتماعى جديد. ولا شك فى أن الأشكال الأبوية قد عُدلت، بيد أن بنية السلطة والنظام كانت ما تزال مرتبطة بعالم عقلى يختلف جداً عن النزعة النفعية فى القرن التاسع عشر. وكانت الكتابة التى تنسب تقليديًا إلى حركة التنوير فى انجلترا، بعيدة تماما عن كونها علمانية، مغرقة بالجدل اللاهوتى والكنسى، ولم يكن الانشقاق هو الطريق السريع إلى العلمنة...».

وترى بعض الدوائر فى عبارة «إيمان الآباء المؤسسين بالرب وحده» مرادفًا لعبارة «أبعدوا أياديكم الجمهورية اليمينية عن التعديل الأول» ومن المفترض - وهناك دليل على هذا - أن جزءا من الأجندة الخفية للنزعة الجمهورية اليمينية الجديدة لن تجلب إعادة تعريف أمريكا باعتبارها مجتمعًا مسيحيًا على عكس ما وعد به التعديل من

http://almaktabeh.com

الفصل بين الكنيسة والدولة، على الرغم من بعض الوسائل مثل تمويل الضرائب للجماعات التى ترعى الكنائس، والسماح بالصلوات فى مدارس القطاع العام. بل إنه من المفترض أن المزيد من الأچندة الخفية التى هى رد فعل، مثل تنغيص حياة الشواذ جنسيًا، تتربص فى الخلفية. وتجنيد الآباء المؤسسين باعتبارهم ممن يحبذون الدين، أو حتى باعتبارهم أصحاب رؤية دينية للهوية الأمريكية، يعتبر أكثر وسيلة فعّالة لقلب المناقشة لصالح هذا المفهوم عن أمريكا المسيحية. ويجدر الالتفات إلى أن مصطلح «مسيحى» فى هذا السياق قد اختطفه الأصوليون ليشير إليهم هم فقط.

وليس كل الشك فى تدين الآباء المؤسسين آتيا من المعسكر المعادى للدين وحده؛ إذ إن الچيزويتى چوزيف كوترسكى من جامعة فوردهام، وهو يكتب عن معتقدات چيفرسون فى مجلة Crisis الكاثوليكية الأمريكية محذراً قرّاءه:

«ومن الجيد أيضًا أن نتذكر أن چيفرسون وكثيراً من زملائه، ومنهم بنيامين فرانكلين وچورچ واشنطن وتوماس پين، كانوا جميعا موحدين (يؤمنون بالرب وحده دون الوحى والأنبياء) ولم يكونوا مسيحيين».

والرب عند هؤلاء هو السبب الأول الذى خلق العالم وأسس قوانينه الثابتة والكونية. ولكن إصرارهم على تصور هذا الرب مثل المالك الغائب يستبعد عن قصد أية إشارة إلى الرعاية الربانية أو التدخل الإلهى فى التاريخ. وكثير من فلاسفة التنوير الذين آمنوا بالربوبية كانوا ينتقدون على الدوام حتى إمكانية الوحى الإلهى، دعك من زعم المسيحية بضرورة مثل هذا الوحى.

«وبينما لا تحرز الربوبية الصارمة بانحرافها الصريح - كما أبرزه ڤولتير - سوى قدر قليل من التقدم فى أمريكا، فإن هناك صيغة توحيدية أكثر نعومة من الربوبية تميل إلى النضال على هذه الأرض. وعلى مر الزمان ضربت هذه العقيدة جذورها بثبات بين المثقفين الأمريكيين فى الفترة الاستعمارية، الذين اعتبروا أن المسيحية العلمانية الديانة الطبيعية التى يعتنقها أى شخص مثقف. ومثل الكتاب المقدس على طريقة چيفرسون الشهيرة فى القص واللصق، فإن هذا النوع من المذهب الربوبى يرفض العناصر الخارقة للطبيعة فى المسيحية، ولكنه حفظ مكانًا مهمًا للأخلاق المسيحية وكان باستمرار يقدم نغمة دينية مخلصة...».

ورفض «العناصر الخارقة للطبيعة فى الدين»، والتى بدونها، بالنسبة لشخص له

http://almaktabeh.com

مثل عقلية كوتر سكى، لا يكون الدين دينًا حقًا على الإطلاق، كان ما اعتبره چيفرسون ومن سلك طريقه رفضًا للعناصر الخرافية فى الدين. وذلك يعنى فى الحقيقة رفض المعجزات، كما جاء فى النسخة التى طبعها چيفرسون [من الكتاب المقدس] والتى اعتنى بحذف المعجزات منها. وما لم يلاحظه كوترسكى هو أن إله عالم چيفرسون كان متدخلاً وصاحب معجزات كما ينبغى لأى إله، ولكن تدخلاته كانت من خلال يد العناية الإلهية الخفية. والواقع أن العناية الإلهية موجودة بكل مكان على حين أن المعجزات تحديدا نادرة، مثل الرب الذى يؤمن به من يؤمنون بالتدخل الإلهى.

هل هذه الديانة الأمريكية العلمانية أو المدنية بديلة عن المسيحية؟ إن الدليل يكشف عن أنها مطعمة بالمسيحية كما هى، وليست متناة لكى تكون معارضة لها؛ إذ إن الرموز الواردة فى الكتاب المقدس قد استخدمت، بوعى وبلا وعى؛ لكى تؤكد فى أذهان الأمريكيين البروتستانت فيما بعد الثورة أن الانفصال عن انجلترا كان مقدراً من الرب. لقد كانت كلها جزءاً من الخطة الإلهية، وهى الخطة نفسها التى ساعدت الإسرائيليين القدماء على الهرب من فرعون تحت قيادة موسى. وكما أعلن توماس پين فى كتابه ذى التأثير الواسع «Common Sense»:

«لم يكن هناك أحد يرغب حقا فى المصالحة أكثر منّى، قبل يوم ١٩ أبريل ١٧٧٥ الحاسم، ولكن فى اللحظة التى عرف فيها الحدث الذى وقع ذلك اليوم، رفضت مزاج فرعون انجلترا العاتى المتجهم إلى الأبد، واستنكفت الدنىء، الذى من خلال لقبه «أبو الشعب» الذى يتظاهر به يستطيع أن يستمع دونما مشاعر عن ذبح شعبه وينام ملء جفونه ودماؤهم على روحه». [كان يوم ١٩ أبريل هو يوم الهجوم البريطانى على ليكسنجتون، ويعتبر أول افتتاح للحرب].

ويحتفظ قسم المخطوطات فى مكتبة الكونجرس بأوراق تتعلق بالاقتراح الذى قدم سنة ١٧٧٦م، وهى تظهر المدى الذى كان بنيامين فرانكلين وچيفرسون الرئيس الثالث - الذى يعد عادة الأكثر علمانية بين الآباء المؤسسين - يفهمان به الثورة الأمريكية بمصطلحات الكتاب المقدس. ففى ٤ يوليو ١٧٧٦ م، وهونفسه يوم الاستقلال، حين الكونجرس فرانكلين وچيفرسون وچون آدامز «لكى يضعوا شعاراً للولايات المتحدة الأمريكية». وقد عدّل اقتراح فرانكلين القصة الواردة فى

http://almaktabeh.com

الكتاب المقدس عن انشقاق البحر الأحمر. وفى البداية أوصى چيفرسون بـ «بنى إسرائيل فى البرية تقودهم سحابة فى النهار، وعمود من النار فى الليل...». ثم تبنى اقتراح فرانكلين وأعاد كتابته. ومراجعة چيفرسون اقتراح فرانكلين هو الذى قدمته اللجنة إلى الكونجرس يوم ٢٠ أغسطس، ولكن، حدث أنه لم يتابع طريقه به. وبالنظر إلى آراء چيفرسون المعادية للمعجزات، يستلفت النظر أن الصورة التى اختارها كانت إعجازية تماما، على حين كانت صورة فرانكلين، كما سنناقشها لاحقا، تشير إلى مجرد تدخل العناية الإلهية لإنقاذ بنى إسرائيل (ولا بد أنه كان مدركًا تمامًا لمختلف التفسيرات غير الإعجازية لانشقاق البحر، مثل تأثير الرياح والمد والجزر).

وعلى ما يقال فإن نمط الربوبية(*) بين النخب المتعلمة فى انجلترا وأمريكا لم يستمر طويلا فى البقاء؛ إذ إن نوعًا من الإحياء الدينى اكتسح العالم الناطق بالإنجليزية، ولا شك أن تجاوزاته أعطت النخب الفرصة للتعبير عن وجهة نظر تستهجن الحماسة الشعبية. فقد كان هناك سكون فى مستوى الإثارة الدينية بعد ما يسمى الصحوة الدينية الأولى - وهو سكون تصادف بشكل أو بآخر مع الفترة الثورية - قبل الصحوة الثانية، التى عمّقت الالتزام الأمريكى بالپروتستانتية الأنجليكانية خارج هذه المناطق، مثل نيو إنجلاند، التى لم تفقد حماستها أبدًا. وفى ذلك الحين حدث أن سلمت الأنجليكانية معظم الأرض التى استحوذت عليها إلى الثورة. (كان كثير من رجال الكنيسة الأنجليكان من التورى، ورحلوا إلى كندا). والشخصية الدينية لانجلترا وأمريكا، التى كانت على الدوام مختلفة فى التأكيد، بدأت تختلف نوعيًا؛ إذ إن النخب الأمريكية ربما تكون قد غازلت مذهب الربوبية باختصار، بيد أن التفلسف المجرد ليس، ولم يكن أبدًا، مما يعجب الأمريكيين. ولاحظ أليكسيس توكيڤيل الذى جاب أنحاء أمريكا فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر فى كتابه «Democracy in America»: أظن أنه لا يوجد فى أى بلد فى العالم المتحضر اهتمام أقل بالفلسفة مما هو حادث فى الولايات المتحدة. فليست هناك مدرسة فلسفية خاصة بالأمريكيين؛ وهم يهتمون اهتمامًا قليلاً جدًا بالمدارس التى تنقسم أوروبا إليها، وأسماؤها لا تكاد تكون معروفة لديهم».

(*) الربوبية هى الإيمان برب للكون، لا يُشترط أن يكون طبقًا لما جاء فى الكتاب المقدس - المترجم.

http://almaktabeh.com

وغالبًا ما يتم التعامل مع مذهب الربوبية الذى شاع أواخر القرن الثامن عشر فى أمريكا على أنه السابقة التى خرجت منها العلمانية. وهى غالبا ما تعرف بأنها قيم التنوير، التى تم الأخذ بها فى الديانة العلمانية الجديدة للماسونيين الأحرار التى ينتمى إليها كثير من الآباء المؤسسين. وقد يكون أقرب للحقيقة أن نقول، مع أخذ التجربة الإنجليزية فى الحساب هنا أيضًا، إن مذهب الربوبية قد أفرز مذاهب عديدة ربما يكون أكثرها حظًا فى الاعتراف ليس هى اللا أدرية العلمانية وإنما البروتستانتية المتحررة (فى المذهب الأنجليكانى خاصة). كان هذا الفرع من التيار العام للمسيحية هو الأكثر انفتاحًا لاكتشافات البحث النقدى فى الكتاب المقدس، الذى كان آخذا فى الظهور فى ألمانيا بحلول منتصف القرن التاسع عشر، وهى الأرضية التى قام عليها رفض الدراسات لقصص المعجزات. وكان هذا الفرع من المسيحية الذى واجه أقل قدر من الصعوبة فى تناول أعمال تشارلز داروين، كما أنه كان على أتم الاستعداد للموافقة على أن روايات الخلق فى سفر التكوين خرافات وأساطير.

واللاهوت المتحرر، مثل مذهب الربوبية، يميل صوب التوحيدية (وهو مذهب لطائفة تنكر الثالوث)؛ لأنه لا يستريح لعقيدة أن المسيح هو ابن الله المتجسد. ونوع الديانة التى يستهجنها التحرريون أكثر من غيرها هى الكاثوليكية الرومانية؛ بسبب عقيدتها ومعجزاتها وثقتها، والمذهب الإنجيلى للمحافظ (والمعروف كذلك باسم الأصولية البروتستانتية) بسبب ثقته فى الكتاب المقدس واعتماده عليه، وإصراره على «قفزة العقيدة» أو تجربة شخصية للخلاص، التى تبدو على النقيض من المبادئ العقلانية. وثمة شىء واحد يمكن أن نكون متأكدين منه هو أن أولئك الآباء المؤسسين لأمريكا والذين أطلق عليهم اسم «الربوبيين»، أيًا كان قدر التبرير، لابد وأنهم كانوا يتفقون صراحة مع البروتستانت الليبراليين فيما كانوا يكرهونه أكثر من غيره.

وسواء كان جورج واشنطن ربوبيًا «ناعمًا»، أو لم يكن، فإنه كان على إيمان قوى بالرعاية الإلهية، أى يد الرب الخفية التى توجه شئون الناس صوب صالحهم. وفى خطابه الافتتاحى الأول رئيسًا للولايات المتحدة قال مثل هذا وأكثر:

«سيكون من غير الملائم بتاتًا أن نحلف فى هذا الفعل الرسمى الأول تأييدى الحماسى لأن الرب العظيم الذى يحكم العالم، والذى يرأس مجالس الأمم، والذى يمكن لمساعداته الرعوية أن تعوض كل نقص إنسانى، وأن بركاته قد تكرس لحرية

http://almaktabeh.com

شعب الولايات المتحدة وسعادته، حكومة أسسوها بأنفسهم لهذه الأغراض الأساسية، وقد تساعد كل أداة استخدمت فى إدارتها لإنجاز الوظائف التى تظللها رعايته بنجاح. وفى تقديم الطاعة والولاء للخالق العظيم الذى خلق كل خير عام وخاص، أؤكد لنفسى أنه يعبر عن عواطفكم مثلما يعبر عن عواطفى، وعواطف الإخوة المواطنين على نطاق واسع. وليس هناك شعب يمكن أن يعترف ويحب يد الرب الخفية التى توجه شئون العالم أكثر من شعب الولايات المتحدة. فكل خطوة تقدموا بها لتحقيق شخصية وطن مستقل تبدو أنها كانت متميزة بنوع من الرمز الدال على الرعاية الإلهية، وفى الثورة المهمة التى تم إنجازها بنظام حكومتهم المتحدة، فإن التشاور الهادئ والموافقة الطوعية لهذا العدد الكبير من الجماعات المتمايزة والتى نتج عنها الحدث، لا يمكن أن يقارن بالوسائل التى تم بها تأسيس معظم الحكومات، دون الرجوع إلى الامتنان الدينى، مع توقع متواضع للبركات التى يحملها المستقبل والتى يبدو أن الماضى قد بشّر بها».

كانت العناية الإلهية أقوى فعلاً من المعجزات. فبدلاً من أن تكون شديدة الندرة ومرتبطة بحوادث معينة، مثلما هى الحال فى الكاثوليكية، فإن مفهوم العناية الإلهية الرحيمة غطى كل شىء تقريبًا. فكل طفرة محظوظة تصبح تدخلاً إلهيًا. هل ساقت الريح السفن الإسبانية إلى الصخور سنة ١٥٨٨؟ لقد كان ذلك بفعل العناية الإلهية. هل نجا المستوطنون البيوريتان الأصليون من أول شتاء؟ كان الفضل فى ذلك للعناية الإلهية. هل قضى الجيش الناشئ على قوات الملك؟ لقد كانت العناية الإلهية وراء ذلك. هل عاش جيش واشنطن المهلهل أثناء محنته فى ڤالى فورج؟ لقد كان هذا أيضًا من فعل العناية الإلهية. وفى لاهوت العناية الإلهية لا يتدخل الرب سوى بهذه الطريقة لصالح العادل والمستقيم. أو إذا قلبنا المعادلة، يكون الرب جانب الرابح وبهذا يكون «الحق قوة»(٥). هذه الاعتقادات مكونات مهمة ليس بالنسبة للرؤية الأصولية للعالم فقط، فلم تكن مرفوضة ممن يسمون أنصار مذهب الربوبية فى أمريكا أواخر القرن الثامن عشر، والذين كانوا على قناعة تامة بأن الرب الذى لم يكونوا يعرفونه تمامًا يقف إلى جانب أمريكا. وهذه بطبيعة الحال طريقة إنجليزية خالصة فى النظر إلى الأمر. وإذ كانوا هم الشعب المختار، والرعاية الإلهية إلى جانبهم، فإن هذا كله جزء من الشىء نفسه.

---

(٥) تلك ترجمة القول الأمريكى المأثور: Might is Right - المترجم.

http://almaktabeh.com

والجدل الحى فى الولايات المتحدة حول المعتقدات الدينية للآباء المؤسسين ليس فى الحقيقة جدلاً حول الحقيقة التاريخية بحد ذاتها، ولكن حول معركة للسيطرة على الذاكرة الجماعية الأمريكية، فى سبيل السيطرة على طريق أمريكا فى المستقبل على النحو المتصور. وكل من يريد طعمًا لهذه الرفاهية الثقافية لا يحتاج سوى أن يدخل على أحد المواقع العديدة فى شبكة الإنترنت المكرسة لأحد جانبى هذا النزاع المستعر. وكل تصريح دينى من شخص مثل چيفرسون يتم حشده على موقع واحد، وكل ما ينطق به ضد الدين يتم حشده على موقع آخر. ومن الصعب تصوير أن الإنجليز يحصلون على شىء مماثل فى إثارته مثل المعتقدات الدينية لدوق ويلنجتون، مثلاً، ولكن ربما كان تقيًا فى العلن وشكاكًا فى السر، تمامًا مثل رجال الدولة الأمريكيين الذين تستمر المعركة حولهم. هذه هى الكيفية التى كان عليها مثل هؤلاء الرجال وما يزالون عليها إلى حد كبير. وإذا كان النوع الأنجلو سكسونى من البروتستانتية، كما قال أحدهم ذات مرة، يميل إلى أن يتسم بالتخفيف، فإن هذا لا يحميها من التعصب الشرس.

ويبدو الحكم المستقر للمؤرخين المحترفين الآن على أنه يقرر أن الأمريكى المتوسط فى الفترة الثورية، بما فى ذلك المشرع الأمريكى العادى، كان شخصًا متدينًا، على الأقل من الناحية السطحية للعقيدة. أما مدى عمق ما نسميه اليوم روحانياته فقد يكون موضوعًا لمزيد من الجدل. بيد أن تلك كانت أوقات تدين بشكل عام؛ إذ كان التدين متوقعًا. وقد استنتج جامعو معرض مكتبة الكونجرس سنة ١٩٩٨م، والقائم على أساس النصوص الرسمية وغير الرسمية للفترة، من الأدلة المعروضة:

«الكونجرس القارى الكونفدرالى، هيئة تشريعية حكمت الولايات المتحدة من ١٧٧٤م إلى سنة ١٧٨٩م، وقد احتوى على عدد غير عادى من الرجال المتدينين بعمق. وكمية الطاقة التى استثمرها المجلس فى تشجيع ممارسة الدين فى الوطن الجديد فاقت تلك التى أنفقتها أية حكومة وطنية أمريكية تالية. وعلى الرغم من أن مواد الاتحاد الكونفدرالى لم تمنح السلطة رسميًا إلى الكونجرس بأن يشغل نفسه بالدين، فإن المواطنين لم يعترضوا على مثل هذه الأنشطة. وغياب الاعتراض على هذا النحو يشى بأن كلاً من المشرعين والعامة اعتبروا أنه من المناسب للحكومة الوطنية أن تطور المسيحية غير المسيطرة وغير المجادلة.

http://almaktabeh.com

وعين الكونجرس قساوسة له وللقوات المسلحة، وراقب نشر الكتاب المقدس، وفرض الأخلاقيات المسيحية على القوات المسلحة، كما منح الأراضى العامة لنشر المسيحية بين الهنود الحمر. والإجازات الوطنية فى عيد الشكر وفى يوم التواضع، والصوم والصلاة، كانتا تعلنان من قبل الكونجرس مرتين سنويا على الأقل طوال الحرب. وكان الكونجرس يسترشد «بلاهوت ميثاق»، وهو مذهب إصلاحى، عزيز بصفة خاصة على قلوب البيوريتان فى نيوانجلاند، يقول إن الربّ ربط نفسه بميثاق مع أمة وشعبها. وهذا الميثاق اشترط أنهم «قد ينعمون بالرخاء أو تحل عليهم النقمة» وفقًا لطاعتهم العامة أو عصيانهم العام كما تظهر. وكانت الحروب والثورات، وفقًا لهذا، تعتبر نقمة، عقابًا إلهيًا على الخطايا يمكن للأمة أن تنقذ نفسها منه بالتوبة والإصلاح.

وأول حكومة وطنية للولايات المتحدة كانت مقتنعة بأن الرفاهية العامة فى أى مجتمع تعتمد على حيوية ديانته. ولا شيء سوى روح من الإصلاح الكونى بين كل طبقات ودرجات مواطنينا، حسبما أعلن الكونجرس إلى الشعب الأمريكى، «سوف يجعل منا شعبًا مقدسًا بحيث قد نصبح سعداء».

وفى افتتاحية كتاب «American Exceptionalism»، يتناول سيمور ليبست اعتراضًا على التأكيد على العوامل الدينية فى مناقشة الشخصية الخاصة للمصير الأمريكى (والهوية الإنجليزية بالتوازى) مؤداه أنها ربما كانت عوامل مهمة ذات مرة، بيد أنها لم تعد كذلك.

«بعض الذين ينتقدون التأكيد على الاستثنائية الأمريكية كطريقة لفهم الحوادث الجارية والمستقبلة، قد تساءلوا عن الإصرار على أن العوامل التاريخية المرتبطة باستيطان المستعمرات وأيديولوجية المؤسسين مستمرة فى التأثير على السلوك والقيم الأمريكية. . . . [والأيديولوجية التى يشير إليها هى المذهب البيوريتانى بالطبع]. لقد تعامل ماكس ڤيبر مع هذا الموضوع بطريقة ممتعة وذكية. . . . إذ إنه اقترح أن التاريخ يعمل لحسم المستقبل بنفس الطريقة التى يحسم بها الزهر لعبة ما. ووفقا لڤيبر، بفهمه أن تاريخ أمة ما يبدأ مثل لعبة لم يتم رمى الزهر فيها فى البداية، بيد أنه لا يلبث أن ينحاز إلى الاتجاه الذى يأخذه أى ناتج من الماضى. وهو ناتج له

http://almaktabeh.com

شبيه بالطريقة التى تتشكل بها الثقافة . وفى كل مرة يظهر فيها الزهر برقم محدد تتزايد احتمالات ظهور هذا الرقم ثانية» .

وأكثر مؤلفات فيبر تأثيراً "The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism» كان مأخوذًا من ملاحظاته في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عن ألمانيا ، ومؤداها أنه فى أكثر الأجزاء كلفينية [أى أتباع چون كالفن] فى البلاد كانت الرأسمالية أكثر نجاحًا . وقد لاحظ أن المذهب الكالفينى قد ترك تأثيره على شخصيات أتباعه ، بفرض أعباء روحية وعاطفية مؤلمة عليهم ، وفوق هذا وذاك خوفًا من اللعنة . فالعمل الشاق وإنكار الراحة أو المتعة ، هما العلامتان الدالتان على «الأخلاق البروتستانتية» ، وأصول رأس المال التى تم تحصيلها كانت تعتبر علامة على موافقة الرب ، ومن ثم كانت علامة على أنه ربما أمكن تجنب اللعنة . وحيثما كان المذهب الكالفينى سائدًا ، كانت هذه الفلسفة تشكل ثقافة المجتمع بأسره . وأولئك الذين تم إدخالهم فى تلك الثقافة كانوا يتشكلون نفسيًا بها ، سواء كانوا يقبلون عن وعى مذاهب كالفن الدينية المحددة أم لا . فما أن يتم رمى الزهر ، يظل يرمى باستمرار . وربما كان يتكلم عن نفسه أيضا : فهو متشكك فى الأمور الدينية بينما كان أبوه كالفينيًا . وحتى إذا لم يعد هناك كالفينيون يؤمنون بهذا المذهب على الإطلاق ، فإن ثقافة تشكلت بفعل الكالفينية سوف تكون جادة فى العمل ومتوجسة من المتعة ، كما أنها ستكون فى الوقت نفسه ثقافة طماعة ومذنبة . ويمكن للقارئ أن يحكم بنفسه إلى أى مدى يصدق هذا على انجلترا أو أمريكا فى أيامنا هذه .

كان الكالفينيون فى الواقع أصوليين يتبعون الكتاب المقدس حرفيًا بالمعنى الكامل للمصطلح ؛ إذ كان الدين يتعلق بالحياة كلها ، وكان الكتاب المقدس مرجعهم الوحيد فى مسائل الدين . وخريطة الدين التى كانت مفتوحة أمامهم بأفكار چون كالفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م) ، الأكثر راديكالية بين كل المصلحين البروتستانت فى القرن السادس عشر ، كان مركبًا ومعذبًا ، بل ومصدر تهديد . وكانت المطالب التى تفرض على المسيحيين ضاغطة . ولكى تعرف ما يطلبه الرب من المرء ، كان من الضرورى أن تبحث فى الكتاب المقدس بدقة وتهتم دونما نهاية حول معنى كل فقرة . أما الحركة البروتستانتية الموازية والتى بدأها مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م)

http://almaktabeh.com

فلم تكن أقل تركيزاً على الكتاب المقدس . إذ كانت لها أيضاً مطالب ضاغطة . وقد اتفق كل منهما على أن الإنسانية تلقت رسالتها عن الخلاص مباشرة من صفحات كلمة الرب وليس من خلال القساوسة والكنيسة ، ووافق كلاهما على أن البشرية نفسها كانت داخلياً شريرة ومحرومة وعاجزة - بدون مساعدة الرب - عن القيام بأى فعل طيب . وقد جلبت المسيحية البروتستانتية إلى مركز الانتباه المسيحى ، وقد سهل هذا كثيرا حقيقة أن صناعة الطباعة - الجديدة نسبيا - قد جعلت من الممكن أخيراً إنتاج الكتب على نطاق واسع . ويكاد يمكن للمرء أن يقول إن الإصلاح كان عليه أن ينتظر حتى اختراع الطباعة قبل أن يحدث . فبدون نسخة متاحة من الكتاب المقدس فى اللغة المحلية ، كان الاعتماد على حكمة القساوسة وتوجيهاتهم أمراً حتمياً .

كانت الكنيسة الكاثوليكية دائماً تغذى المؤمن بمحتويات الكتاب المقدس من خلال مصفاة تفسيرها الرسمى الخاص . وكانت النظرية هى أن كمال الديانة المسيحية متضمن فى تعاليم الكنيسة الرسمية ، وكان الكتاب المقدس رفيقاً لهذا ، بغرض الإيضاح ، والتنوير ، والحض على الفضيلة . ولم يكن يعتبر بمثابة المصدر الأولى للعقيدة ، على الرغم من أنه كان هناك مبدأ مقبول بأن تعاليم أية كنيسة لا يجب أن تتعارض مع العهد الجديد . كانت الكنيسة نفسها هى التى قررت ، فى القرن الرابع ، أى النصوص تنتمى إلى النسخة الرسمية ، أو القانون الكنسى ، وأيها لا تنتمى . وفى دائرة معارف اللاهوت «The Encyclopedia of Theology» وصف لخاتمة عملية طويلة من الجدل والقرار على النحو التالى :

«فى سنة ٣٦٧ حدد أثناسيوس الكتب السبعة والعشرين للعهد الجديد ، بالإضافة إلى أسفار العهد القديم ، باعتبارهما سوياً يحتويان على القانون الراسخ (ليس لأحد أن يضيف شيئا أو يحذف شيئا منهما . . .) وفى الفصل الثانى من مرسوم جيلازيوس الذى يرجع إلى مجمع روما سنة ٣٨٢ تم تحديد الأسفار السبعة والعشرين التى يضمها العهد الجديد ، وتم التأكيد على هذا سنة ٤٠٥ م بخطاب من البابا إنوسنت الأول وكذلك من قبل للمجامع المسكونية التى عقدت فى أفريقيا ، هيبو رجيوس (٣٩٣) وقرطاج (٢٩٧ ، ٤١٩م) . وبعد القرن الخامس لا توجد مراسيم جديدة بشأن القانون الكنسى . . . . » .

http://almaktabeh.com

وإلى هذا المدى فليس من الشطط أن نتحدث عن الكتاب المقدس بوصفه من خلق الكنيسة. لقد كانت السلطات الكنسية، فى القرارات التى أوردناها سابقًا، هى التى رفضت بعض النصوص وقبلت البعض الآخر، وفقًا لتوافقها أو تناقضها مع الديانة الصحيحة أيامها. وثمة جاذبية مسبقة «للكتاب المقدس» باعتبارها المصدر الأسمى للعقيدة التى يمكن بها الحكم على الكنيسة نفسها، قبل سنة ٣٦٧م، وهو أمر ليس منطقيًا ببساطة. هذه الصعوبة عاودت الظهور على السطح فى القرن السادس عشر، حينما وضع المصلحون البروتستانت الرئيسيون من جديد أصول القانون الكنسى، كما أطلق على قائمة الأسفار التى اعتبرت أصيلة روحيًا، ونبذوا عدة أسفار (باعتبارها مزيفة: أبو كريفا) لم تكن ضمن القانون العبرانى الأصلى كما حددته السلطات اليهودية، ولكن الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الشرقية الأرثوذكسية قبلتها منذ ألف سنة مضت. وكان السبب فى هذا راجعًا جزئيًا إلى أن المصلحين لم تعجبهم العقائد التى ظهر أن الأسفار المرفوضة كانت تحتويها.

وبعد حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر، اتهمها البروتستانت الذين كانوا معادين للكنيسة الكاثوليكية بأنها تشوش معنى نص الكتاب المقدس، بحيث لا تشمل محتوى التعاليم الكاثوليكية. وقد زعموا أن هذا هو السبب فى أن الكنيسة كانت عازفة تمامًا عن السماح بالاطلاع المفتوح على الكتاب المقدس كما عارضت نشر الترجمات الإنجليزية. ولا شك فى أن هناك قدرًا من الحقيقة فى هذا. بيد أنه لم يعد ممكنًا وجود تفسير موضوعى غير منحاز للكتاب المقدس كما هو الحال بالنسبة لمسرحيات شكسبير. وحتى مع وجود أعظم المقاصد النبيلة فإن نفس النص يمكن أن يعنى عدة أشياء مختلفة. ومن ثم فإن تلك الأجزاء من الكتاب المقدس التى أولتها الكنيسة الكاثوليكية أهمية هامشية فقط، يمكن الآن أن تؤخذ بجدية على أنها كلمة الرب كما يمكن التدبر فى معناها مجددًا. وكان هذا مهمًا بشكل خاص فى تلك القصص التى يرويها العهد القديم والتى فسرتها الكنيسة على أنها تتنبأ وتمهد لقدوم المسيح ووجود الكنيسة ذاتها فيما بعد.

ولم يشعر البروتستانت أن عليهم أن يقبلوا ذلك التفسير، حتى لو عرفوا به. فقد

http://almaktabeh.com

كان بوسعهم أن ينظروا إلى تلك الفقرات مجدداً: وكان كل شخص يمكن أن يفسر الكتاب المقدس بطريقته. ولم يكن بوسع البروتستانتى الطيب تحديدا أن يقبل تفسيرات لفقرات معينة من العهد القديم اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية توقعًا لاهتمام الرب بصالحها. وعلى العكس، فقد وجدوا نبوءات مختلفة تمامًا (أساسًا فى العهد الجديد) تخص الكنيسة الكاثوليكية: إنها كانت وكيل الشيطان الذى يجب محاربته وهزيمته قبل نهاية الزمان. وبغض النظر عن التهمة البروتستانتية العامة بأن الكنيسة فى العصور الوسطى قد أخفت نص الكتاب المقدس عن الناس؛ لأنها بوضوح قايضت تعاليم الكنيسة، فهى تهمة جدلية أكثر من كونها حكمًا تاريخيًا. وهناك مساحات حيث كان المعنى الدقيق لنص الكتاب المقدس محل نزاع ساخن بين المصلحين البروتستانت والمصلحين الكاثوليك المضادين. ولكن حيث إنه كان واضحًا لأى قارئ عارض - لو سُمح له بأن يطلع على النص - لا يمكن لأحد أن يقول إن الكنيسة قد أخطأت. والحكم على تعاليم الكنيسة من خلال الكتاب المقدس ممارسة أكثر صعوبة من هذا. وهناك نصوص عديدة يبدو معناها الأكثر وضوحًا هو المعنى المفضل تقليديًا من جانب البروتستانت، ولكن نصوصا أخرى تميل صوب التفسير الكاثوليكى بدرجة أكبر.

وما زعم المصلحون أنهم وجدوه فى الكتاب المقدس كان صيغة أكثر تبسيطًا من المسيحية، التى أخذت من التقوى المتزايدة عبر العصور، فكانت لها جاذبية قوية متجددة. وكثير من فروض الدين التى فرضت على الناس وفقًا لمذهب الكنيسة إما غابت تمامًا أو تم التلميح إليها فقط فى الكتاب المقدس. وبينما قالت التعاليم التقليدية: إن هناك سبعة أسرار مقدسة، كانت الأدلة المستمدة من الكتاب المقدس تشير فقط إلى اثنين. وإذا ما كانت الكنيسة هى المفسر الأصيل للمسيحية، ومرشدًا يعتمد عليه للوصول إلى المذهب الصحيح، فلا شىء من هذا يهم إذن. وإذا كان الكتاب المقدس هو المرشد الصحيح الوحيد، من ناحية أخرى، فإن الكنيسة تبقى متهمة بتشويش الإنجيل لكى يناسب أغراضها الخاصة. وعلى سبيل المثال فإن الممارسات الكنسية مثل ربط العلمانيين بالعشاء الربانى فى نوع واحد فقط، هو النبيذ، يبدو تناقضا صريحًا مع كلمة الرب. بينما كانت الأخلاقيات الشعبية فى

http://almaktabeh.com

العصور الوسطى تعتمد على مثل هذه الآليات فى التذكرة بالرذائل والفضائل، فإن المسيحية الإصلاحية المعتمدة على الكتابْ المقدس قدمت العبارات المجردة والبسيطة للوصايا العشر. بينما كانت المسيحية الكاثوليكية فى العصور الوسطى معتمدة بقوة على الطقوس والصور والمساعدات المرئية. فإن المسيحية البروتستانتية التى أعقبتها اعتمدت إلى حد كبير للغاية على النصوص.

وإذا لم يكن هذا شيئا آخر، فقد كان حافزاً رئيسياً على انتشار التعليم، على الرغم من أنه على مدى فترة طويلة كان هناك انحياز لصالح تعليم الناس العاديين القراءة دون الكتابة. والخوف الكامن لدى البروتستانت وخاصة البيوريتان فى انجلترا وأمريكا فى النصف الأول من القرن السابع عشر، كان مبعثه أن الديانة القديمة سوف تفرض من جديد عليهم بسلطة الدولة، وسيكون ممنوعًا عليهم العبادة طبقًا للشكل الجديد الذى اختاروه للمسيحية. وبما أن الديانة القديمة لم تكن خاطئة وحسب وإنما كانت هى نفسها بوابة الجحيم، من وجهة نظرهم، فإن التهديد كان مميتًا. وذكرى اضطهادات البروتستانت تحت حكم مارى تيودور فى منتصف القرن السابق كانت محفوظة حية تمامًا من خلال قراءة كتاب فوكس «Book of Martyrs» وهو الكتاب الوحيد، بغض النظر عن الكتاب المقدس، الذى قيل إنه يمكن أن يوجد فى كل كنيسة ومنزل فى المملكة. وربما كان عملاً باهراً من أعمال الدعاية أكثر منه دراسة تاريخية دقيقة، ولكن أولئك الذين قرأوه صدقوه حرفيًا. هذا، بالإضافة إلى التقارير الحية (والتى تحمل قدراً من المبالغة) عن اضطهاد البروتستانت تحت ظل محاكم التفتيش الإسبانية، أقنعت أجيالاً من البروتستانت الإنجليز والأمريكيين بأن الكاثوليكية الرومانية كانت هى العدو القاسى الشرير لكل شىء عزيز عليهم.

ومع فهم الحقيقة متأخراً، يبدو أن الجانبين كانا يختلفان أشد الاختلاف فى مواقفهم من الكتاب المقدس عندما يتعلق الأمر بفهمهما لعلاقة العهد القديم بالحوادث اللاحقة. وهو يتألف إلى حد كبير من سرد زمنى متتابع لتاريخ بنى إسرائيل، شعب الرب، أمة أو قبيلة، أو مجموعة من القبائل، مكثت زمنًا طال أم قصر سويًا كمجتمع مرئى، خلال كل ما مر بهم من محاولات مختلفة. واعتقدت

http://almaktabeh.com

الكنيسة أنها هى نفسها صارت شعب الرب، ولكن التشابه مع بنى إسرائيل كان أبعد ما يكون عن الكمال. فالكنيسة لم تكن أمة ولا مجتمعًا مرئيًا يتمركز فى مكان واحد. لقد كانت جماعة دينية، منتشرة، وموجودة عبر كل الأمم فى العالم المعروف. وبما أن الكنيسة لم تكن أمة فإنها لم تفعل الأشياء التى تفعلها الأمم، مثل الاحتفاظ بالجيوش وخوض الحروب، أو غزو الأراضى، كما فعل بنو إسرائيل القدماء. فقد كانت معركتها روحية. وإذا ما كانت تريد النوع الآخر، مثل الزعم بتحرير الأرض المقدسة من المسلمين، فقد تعيّن عليها أن تطلب من الأمراء الكاثوليك أن يحاربوا من أجلها. ولكن البروتستانت رأوا العهد القديم بصورة أكثر حرفية. وبالنسبة لهم كانت إسرائيل الجديدة أمة مثلما كانت إسرائيل القديمة بالضبط. وبينما كانت كنيسة العصور الوسطى قد أضفت مسحة روحانية على رسالة العهد القديم، وتعاملت مع معظم ما جاء به على أنه مجاز مركب أومزاعم وادعاء، فإن البروتستانت أخذوه بقدر أكبر من الحرفية، وتعاملوا معه بقدر أكبر من السياسة.

وهكذا فإن الروايات الكبرى التى يسردها العهد القديم قد تجسدت دائما بقوة فى المذهب البروتستانتى. وقد اقترح بعض المؤرخين أن الأمريكيين - الذين يفتقرون إلى تاريخ طويل يخصهم - كانوا أسعد ما يكونون فى تبنى تاريخ بنى إسرائيل القدماء لتعويض هذا النقص. وقبل هذا، كان بوسع البروتستانت الإنجليز الأوائل أن يجدوا مزية مشابهة. وتناول تاريخ بنى إسرائيل باعتباره نوعًا من ما قبل التاريخ الإنجليزى شتت الانتباه عن ذلك «الما قبل التاريخ» الذى هو أقرب إليهم، أى تاريخ انجلترا كبلد كاثوليكى (والذى كان البيوريتان ينكرونه أو يخجلون منه). وعندما قام رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج بتولى رئاسة الحكومة البريطانية التى أصدرت وعد بلفور سنة ١٩١٧م، الذى وعد اليهود بوطن قومى فى الشرق الأوسط، قال إنه ربما كان يعرف عن ملوك بنى إسرائيل أكثر مما يعرف عن ملوك انجلترا. وكان لابد لهذا أن يعكس حالة عقلية شائعة جدا بين معاصريه، لا سيما أولئك الذين على شاكلته.

* * *

http://almaktabeh.com

(٢)

القدس الجديدة

لو أن أى زائر متحذلق من المريخ كان يتجول فى كنيسة ويستمنستر يوم الثلاثاء ٢ يونيو ١٩٥٣م، فلا بد وأن يدرك بسرعة أن ثمة احتفالاً عامًا كبيرًا على وشك أن يحدث. فقد كان هناك استعداد لحفل تتويج. ومع الوقار اللازم، كان ثمة حاكم جديد على وشك أن يقسم اليمين، ويجلس على العرش، ويضع التاج على رأسه، وتُؤدى له مراسم الولاء والطاعة، ثم يكال له المديح علنا. ولو أن تفتيشا جرى لعدة ثوان، لكشف لرجل الفضاء القادم من المريخ أن ما كان على وشك البداية كان قداسًا دينيًا، على الرغم من أن الاستعراض التمهيدى فى الخارج يكاد يكون عسكريا خالصًا. إذ إن الاحتفال كان به قدر كبير يتعلق بالرب - من خلال العهود التى قدمت له، بأن يكونوا مؤمنين به، ويصلون له، ويحمدونه - أكثر مما يتعلق بالسياسة. وكان الوزراء الرئيسيون الحاضرون والذين تتركز عليهم الأضواء وزراء دينيين، أما وزراء الحكومة فكانوا مدفونين فى مكان ما داخل زحام المتفرجين، ولم يكن لهم أى دور بالفعل فى الاحتفال. فهل يُحتمل أن هذه كانت ثيوقراطية؟[٥]

وربما يكون القادم من المريخ قد قفز إلى استنتاج مضلل آخر: **أن الأمة التى يتم تتويج ملكها فى احتفال كانت تسمى إسرائيل، وأن عاصمتها القدس؛ لأن الخدمة بدأت بصلاة من سفر من الكتاب المقدس الخاص ببنى إسرائيل القدامى من افتتاحية المزمور رقم ١٢٢:**

«فرحت بالقائلين لى إلى بيت الرب نذهب. تقف أرجلنا فى أبوابك يا أورشليم. أورشليم المبنية كمدينة متصلة كلها، حيث صعدت الأسباط، أسباط

---

(٥) حكومة دينية.

http://almaktabeh.com

الرب شهادة لإسرائيل ليحمدوا اسم الرب. لأنه هناك استوت الكراسى للقضاء كراسى بيت داود. اسألوا سلامة أورشليم. ليسترح محبوك. ليكن سلام فى أبراجك راحة فى قصورك. . . ».

هذا الغموض بين لندن ـ انجلترا، والقدس ـ إسرائيل، عاد يتكرر فى عدة نقاط فى الاحتفال. حقًا كانت خدمة تتويج الملكة إليزابيث الثانية تتطلب منها أن تقسم اليمين الخاص بالمنصب، والذى كانت بدايته على الأقل متطابقة تمامًا مع عالم لندن انجلترا الحقيقى. وفى الجملتين الافتتاحيتين من القسم الذى أقسمته، أولا: أنها سوف تحكم البلاد بحكمة تحت سلطتها. وفى ذلك الوقت كانت هذه البلاد تتضمن الأجزاء الباقية من الإمبراطورية (بما فى ذلك الكثير فى أفريقيا)، والأملاك القديمة التى تتحدث الإنجليزية فى كندا وأستراليا وأفريقيا وسيلان، وكذلك بريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية، وثانيا: أقسمت على أنها سوف تنشر العدل برحمة. وكل القضاة فى كافة المحاكم كانوا يجلسون باسم التاج فى جميع هذه الأراضى، وكانت الملكة تقسم بهذا لصالح كل واحد منهم. وهم بدورهم أقسموا على الولاء لها. وبهذا تصبح الرحمة جزءًا من القانون العام.

ثم رحلت الحقيقة المعاصرة وهبطت النزعة التصوفية الملوكية مرة أخرى. والجمل الأربع الباقيات ـ وهى الجزء الأكبر من القسم الذى تختتم به التزاماتها كملكة ـ تلزمها بأن تدافع عن ديانة الدولة فى أحد الأجزاء، على الرغم من أنه هو الجزء الرئيسى من هذه الأراضى الكثيرة، أى انجلترا. وكان هناك شىء مهم يقال عن شخصيته الدينية الفريدة، شىء يمكن فهمه على أفضل وجه فى ضوء الإشارات للمجازية (أو الميتافيزيقية) إلى بنى إسرائيل التى أوردناها بالفعل. بيد أن شيئا كان مشفرًا، وكان يتطلب أيضا معرفة جيدة بتاريخ الصراع الدينى فى انجلترا على مدى القرون الخمسة الأخيرة.

وبينما كان كبير أساقفة كانتربورى، الدكتور جيوفرى فيشر يتولى القداس، سألها بشكل رسمى: «هل ستحافظين بأقصى قوتك على قوانين الرب وعلى المغزى الحقيقى للإنجيل؟ وهل ستحافظين بكل قوتك على الديانة الإصلاحية البروتستانتية التى أرساها القانون فى المملكة المتحدة؟ هل ستحافظين بصورة ثابتة

http://almaktabeh.com

على استقرار كنيسة انجلترا، والمذهب والعبادة والنظام، والحكومة بالتالى، كما أرساها القانون فى انجلترا؟ وهل ستبقين كل الحقوق والامتيازات لرجال الإكليروس والأساقفة فى انجلترا كما يقضى القانون؟ وأجابت ويدها على الكتاب المقدس: «أعد بأن أفعل هذا كله».

ولابد أن الملكة كانت مدركة تمامًا لأن كبير أساقفة كانتربورى الذى أخذ عليها قسمها البروتستانتى والذى كان سيتوجها، چيوفرى فيشر، قد عينه فى منصبه هذا أبوها چورج السادس. ولابد أنها كانت مدركة أيضًا أنه على الرغم من الكلمات المسطورة على الصفحة، فلا تستطيع هى أو هو فعل أى شيء من الأشياء التى أقسمت لتوها على أن تفعلها؛ إذ إن السلطة السياسية الحقيقية كانت مستقرة فى مكان آخر - فى أيدى البرلمان والسياسيين الذين كانوا مجرد مشاهدين للاحتفال. والواقع أنه لم يكن چورج السادس - فعلا - هو الذى قرر أن الدكتور فيشر هو الرجل المناسب لتولى منصب رئيس أساقفة كانتربورى وكبير أساقفة انجلترا كلها بعد موت وليم تمبل سنة ١٩٤٤، وإنما كان الذى قرر ذلك هو رئيس وزرائه آنئذ ونستون تشرشل.

ومع هذا فإنها كانت تؤدى قسمًا عامًا بأنها، باعتبارها حاكمة، مسئولة عن الصالح الدينى والروحى لشعب انجلترا - تماما مثلما كان الملك سليمان مسئولاً عن شعب إسرائيل - كما هى مسئولة عن مصالحهم الدنيوية والمادية. ومع هذا فإن قدرتها المباشرة على التأثير فى الصالح الروحى والدينى للشعب كانت هامشية. فمن حيث الممارسة ليست بوسعها أن تفعل ما هو أكثر من أن تكون قدوة. وفى النظرية الدستورية، لا تتصرف الملكة سوى بناء على نصيحة وزرائها. فهل يتيح لها قسم التتويج الذى أقسمته أن ترفض تعيين شخص ما ينتمى إلى الديانة الكاثوليكية الرومانية فى منصب رئيس الوزراء؟ إنها ليست مخولة بذلك. وإذا ما أوصى هو بشخص ما ليكون رئيس الأساقفة الجديد فى كانتربورى وهى تظن أن لا يعتد به فى مسائل العقيدة، فهل يمكنها أن ترفض، بسبب القسم الذى أقسمته، التعين على هذا الأساس؟ لم يكن هذا بوسعها. ففى سنة ١٨٢٩م كان الملك چورج الرابع مجبراً بواسطة وزرائه على أن يوافق، ضد إرادته وضد تفسيره الخاص للقسم الذى

http://almaktabeh.com

أداه فى حفل التتويج، على التحرير الكاثوليكى (وهو ما كان ضد رغبات أساقفة كنيسة انجلترا مباشرة). وسرعان ما صارت هذه السابقة جزءاً من القانون الدستورى الإنجليزى. وبطبيعة الحال فإن الحاكم قد يكون لديه الوعى، ولكن لم يكن له الحق فى رفض الموافقة على تشريع يتعارض مع وعيه. وإذا ما كان يشعر بهذا بقوة كافية فإن الطريقة الوحيدة أمامه ستكون هى التنازل عن العرش.

ومما تسبب فى ارتباك الزائر القادم من المريخ، فإن الأمور فى حفل التتويج ليست فى الواقع كما تبدو؛ إذ إن العناصر الباقية المعادية للكاثوليكية فى طقوس الاحتفال لابد وأنها كانت تعتبر أكثر من مجرد عناصر رمزية فى عيون أولئك الذين شاركوا فى الاحتفال. ومع هذا، فمن الواضح أن الحدث كان حدثًا دستوريًا أساسيًا فى حياة الأمة. بيد أن العالم الذى جرت فيه مراسم التتويج هو عالم من المجاز والوهم. وهذا أيضا ليس مصادفة. فالإنجليز «يتخيلون مجتمعهم» (إذا ما استخدمنا تعبير بندكت أندرسون المفيد) بفعل من أفعال الذاكرة. وهم يميلون إلى الإجابة عن السؤال «من نكون نحن؟» بأن يسألوا بدورهم «من كنا نحن؟» وحفل التتويج هو المثل الأعلى على عملية الفعل هذه. وبقدر ما هى إجابة غير مرضية - وسوف نستكشف مدى قصورها فيما بعد - فإن ذلك راجع لأن الإنجليز يحاولون سحب الماء من بئر جاف.

وحفل التتويج عالم تبدأ فيه الأمور الكبيرة بجسارة ولكنها، مثلما يحدث فى الحلم، تعنى شيئا مختلفًا تمامًا. وإسرائيل مجرد سياق لا يعنى إسرائيل الكيان الحديث. إنها وسيلة لتمييز انجلترا باعتبارها استثنائية وفريدة تربطها علاقة خاصة ببنى إسرائيل الذين تحدث عنهم العهد القديم، وهى علاقة المصطلح الفنى الدال عليها هو «علاقة تصنيفية» (وسوف نناقش معناها مناقشة وافية فى الفصل التالى). وهذا ما يجعلنا نتعقل الحقيقة الأخرى المحيرة، ومؤداها أنه طالما أن هناك عدواً مؤسسيًا لانجلترا، فإن حفل التتويج الذى هو فعل من أفعال تذكر التاريخ - وهو تذكر مقصود - يقول إن هذا العدو هو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. كما أن السبب الكامن أيضا سبب تصنيفى. ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية، على مدى وجودها، قد زعمت أنها هى نفسها إسرائيل الجديدة. فإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية هى

http://almaktabeh.com

إسرائيل الجديدة، فمن الواضح إذن أن إنجلترا ليست كذلك. والوظيفة الأولية لهذه العناصر الرمزية المعادية للكاثوليكية في الدستور الإنجليزي هي الحفاظ على وضعية إنجلترا الفريدة، باعتبارها الشعب المختار الذي اختاره الرب خلفًا للشعب المختار الذي تحدث عنه العهد القديم. وقد طرحت مزاعم كل من الكنيسة الكاثوليكية والمزاعم اليهودية في هذا الشأن جانبًا. وفي كل من الحالين، فإن الدستور الإنجليزي هو ما يسمى «ذو المجالس الخارقة Supersessionist». بيد أن هذه ليست عنصرية أو تعصبًا دينيًا؛ إذ إن الاعتقاد بأنه لا اليهودية ولا الكاثوليكية الرومانية ديانتين حقيقيتين، هو اعتقاد قد يتبناه أي شخص عاقل تمامًا ومتحضر. وعلى أية حال، فإن النظر إلى هاتين الديانتين باحتقار قد يؤدي إلى العنصرية أو التعصب.

وفوق هذا كله، فإن تصنيف العهد القديم هذا ينطبق على ذلك الجزء من مراسم التتويج الذي يسمى «المسح». وهنا كانت الرابطة بين لندن ١٩٥٣م والقدس قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة أكثر وضوحًا وأكثر تفصيلاً - وأكثر كشفًا. فالمسح بالزيت المقدس هو العلامة القديمة التي لا يمكن أن تخطئها العين على الكهانة والملكية. وقد كانت تستخدم بهذه الطريقة في مصر القديمة، ولدى القبائل العبرية التي أقامت بها قبل ذلك الحدث المعروف باسم الخروج وأخذت هذا الطقس الرمزي الفرعوني لنفسها. والملك سليمان الذي حكم بني إسرائيل بعد قرون قليلة من سنوات الخروج، كان حتمًا من بين أولئك الملوك القدامى الذين مسحوا بالزيت دليلاً على حكمهم الملكي.

كانت كلمات حفل التتويج سنة ١٩٥٣م واضحة صريحة في هذه النقطة. فبينما وضع الدكتور فيشر قطرة من الزيت على بشرة الملكة، كان يتلو، أولا: «اتركي يديك تمسحان بالزيت المقدس»، ثم «دعي صدرك يمسح بالزيت المقدس»، وأخيرا «اتركي رأسك تمسح بالزيت المقدس» مثلما يمسح الملوك والكهنة والأنبياء، ثم غير طبقة صوته قائلاً: «كما مسح سليمان ملكا على يد صادوق الكاهن وناثان النبي، كذلك تمسحين وتكرسين وتباركين ملكة على الشعب، الذين أعطاهم الرب إلهك لهم لكي تحكميهم...»

وهذه الكلمات تجد لها صدى في ترنيمة صادوق الكاهن المأخوذة عن النسخة

http://almaktabeh.com

المعتمدة سفر الملوك الأول، الإصحاح الأول: ٣٩-٤٠ ، ومن ثم وضع موسيقاها جورج فريدريك هاندل، وكانت هذه الترنيمة تنشد أثناء تتويج إليزابيث الثانية، كما كانت قد أنشدت في حفل تتويج أبيها «فنزل صادوق الكاهن وناثان النبي وبناياهو بن يهوياداع والجلادون والسعاة، وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود، وذهبوا به إلى جيحون. فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان. وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحى الملك سليمان. وصعد جميع الشعب وراءه، وكان الشعب يضربون بالناى ويفرحون فرحًا عظيمًا حتى انشقت الأرض من أصواتهم».

وتجادل ليندا كولى فى كتابها "Britons :Forging the Nation" بأنه فى القرن الثامن عشر كان استخدام الموسيقى أكثر الوسائل فعالية لترويج فكرة أن بريطانيا هى إسرائيل الجديدة:

«منذ اللحظة التى استقر فيها جورج فريدريك هاندل فى لندن، أخذ يتملق المحيطين به، ولاسيما من يحمونه فى البلاط، بأن يضع فى موسيقاه مقارنات منتظمة بين حوادث التاريخ البريطانى وما كابده أنبياء وأبطال العهد القديم. والترنيمة التى ألفها لحفل تتويج جورج الثانى سنة ١٧٢٧م، والتى كانت تعزف فى كل حفل تتويج لاحق، هى مثال نموذجى فى الموضوع. . . . ولكن مؤلفاته هى التى استغل فيها المشابهة بين انجلترا وإسرائيل إلى آخر مدى. إذ إن مؤلفاته الموسيقية إيستر، وديبورا، وأثاليا، ويوداس مكابيوس (التى ألفها على شرف الدوق كامبرلاند بمناسبة انتصاره على اليعقوبيين فى كوللودن) ويوشع، وسوزانا، ويافيثا، وبنى إسرائيل فى مصر، وهى مقطوعة موسيقية تقوم دليلاً على نفسها - كلها مؤلفات تتناول فى موضوعها الرئيسى تخليص بنى إسرائيل من المخاطر على أيدى زعماء يلهمهم الرب. وكان ما يريد هاندل من مستمعيه أن يخرجوا بعبرة وعظة واضحة: فى بريطانيا العظمى، التى هى إسرائيل ثانية وأفضل، ثمة ماض عنيف مضطرب يجب علاجه على أيدى السلالة الهانوفرية البروتستانتية الجديدة القوية، مما يجلب عصراً من الرخاء والوفرة التى لاتبارى».

وعبارة ليحفظ الله الملك تستخدم فى مكان آخر فى العهد القديم لإعلان تتويج

http://almaktabeh.com

ملوك بنى إسرائيل كما جاء فى سفر صموئيل الأول، الإصحاح العاشر: «فقال صموئيل لجميع الشعب أرأيتم الذى اختاره الرب إنه ليس مثله فى جميع الشعب. فهتف كل الشعب وقالوا ليحيى الملك». وعندما كان النشيد الوطنى، الذى تغيرت عبارته منذ موت چورج السادس إلى حفظ الله الملكة، ينشد بأصوات الجمع - وكل الأمة فى الحقيقة - فى نهاية حفل التتويج، اتجهت الملكة إلى الباب الغربى الكبير فى الدير وهى تضع تاج انجلترا وتحمل شعارات الملك القديمة. (وهى رموز متظمة فى العهد القديم). **كذلك فإن تاريخ النشيد الوطنى يعود إلى عصر الأسرة الهانوڤرية عندما، وحسبما توضح ليندا كوللى، تم إبراز الرابطة بين ملوك وملكات انجلترا وملوك بنى إسرائيل لأسباب إيديولوچية.**

وتمامًا مثلما كان سليمان يحكم وفقا للأسلوب الذى تم إرساؤه فى الأسفار الخمسة الأولى التى تشكل التوارة العبرية، فإن الملكة إليزابيث تسلمت نسخة من الكتاب المقدس المسيحى، الذى يبدأ بنفس هذه الأسفار الخمسة، أسفار موسى **«لكى تبقى جلالتك على الدوام وفى ذهنك قانون الرب وإنجيله، بمثابة القاعدة التى تسير عليها حياة الأمراء المسيحيين وحكوماتهم»**. وقال لها كبير الأساقفة نحن نهديك هذا الكتاب، أقيم شىء يستطيع هذا العالم توفيره، ثم يغير وسيط المجلس لكنيسة اسكتلندا، الذى كان يسهم مع كبير الأساقفة فى المراسيم نغمة الصوت بقوله: **«هنا الحكمة؛ هذا هو القانون الملكى؛ هنا تجليات الرب الحية»**.

إلا أنه مرة أخرى لا تتوافق الكلمات مع الحقيقة تمامًا. إذ لم يكن أحد يتوقع من الملكة أن تصر على أن يراعى رعاياها كل تفاصيل قوانين موسى. ذلك أن ما تم التأكيد عليه هنا كان جانبًا من جوانب الهوية الوطنية، وليس مصدراً للتشريع يستخدمه البرلمان. والجانب محل التساؤل لم يكن مجرد أن الأمة الإنجليزية أمة مسيحية، إذ إن هذه قد تكون نقطة تبسيط مخل. إذ إن ما كان يتم التأكيد عليه مرة أخرى، هو أنه بالطريقة التى تربط بها انجلترا نفسها مع الرب، يمكن مقارنتها بإسرائيل القديمة، كما يمكن مقارنة الإنجليز ببنى إسرائيل.

والحقيقة أن كل الدول الوطنية فى العالم الحديث، مع الاستثناء الصارخ لبريطانيا، تحدد الأغراض الأساسية المشتركة والواجبات المتبادلة بين الحكام

http://almaktabeh.com

والمحكومين بواسطة دستور مكتوب. وأكبر وثيقة فى الدستور الأمريكى هى إعلان الاستقلال، الذى أقره الكونجرس فى الرابع من يوليو سنة ١٧٧٦ م، والذى يعلن الحقوق الشهيرة:

«نحن نأخذ هذه الحقائق على أنها براهين بذاتها، فإن الناس جميعًا قد خلقوا متساوين، وأن خالقهم أسبغ عليهم حقوقًا معينة لا يمكن انتهاكها، وأن من بين هذه الحقوق، الحياة والحرية والعيش فى سعادة؛ وأن لضمان هذه الحقوق قامت الحكومات بينهم؛ لتستمد سلطتها العادلة من موافقة المحكومين؛ وأنه حينما تصبح أية حكومة مدمرة لهذه الغايات، فمن حق الشعب أن يغيرها أو يزيلها، وأن يقيم حكومة جديدة. . .»

وهناك دول أخرى لديها إعلانات أخرى للمبادئ الأساسية فى دساتيرها المكتوبة، على الرغم من أنه لا يوجد دستور بهذه الروعة. وبريطانيا العظمى التى أشرفت على استقلال عدد من الأمم شديد التنوع، لم تكن كلها مضطرة إلى الصراع من أجل الاستقلال بهذه الصورة المؤلمة، رأت أن كل هذه الأمم كانت مجهزة بدستور مكتوب قبل أن تنفصل عن الدولة المستعمرة. ولكن بريطانيا العظمى نفسها ليس لديها دستور مكتوب، وليس لديها إعلان مدوى للحقائق التى هى براهين ذاتها، وبدلا من ذلك لديها حفل التتويج. ففى هذه المراسم يقدم الدستور البريطانى قوله الواضح الوحيد عن واجبات الحاكم المتوج، على الرغم من أن هذه الواجبات ينفذها وزراء منتخبون.

وبينما كان سيف الدولة تتم مباركته، استعدادًا لتمريره إلى الملكة بأيدى كبير الأساقفة وغيره من كبار الموظفين، كان يترنم:

«اسمع صلواتنا يارب فنحن نبجلك، وكذلك وجه وساند خادمتك الملكة إليزابيث لكى لا تحمل السيف عبثًا؛ ولكن لتستخدمه وزيرة للرب لإرهاب وعقاب من يرتكبون الشر، ولحماية وتشجيع أولئك الذين يفعلون الخير من خلال سيدنا يسوع المسيح. آمين».

وبينما يمرر السيف إليها، وبينما هى تمسكه، يستمر فى ترنيمه:

http://almaktabeh.com

«تقبلى هذا السيف الملكى المجلوب الآن من مذبح الرب، وقد سلم إليك بأيدينا نحن الأساقفة وخدام الرب، على الرغم من عدم جدارتنا بهذا السيف. افعلى العدل، أوقفى نمو عدم المساواة، احمى كنيسة الرب المقدسة، ساعدى الأرامل واليتامى ودافعى عنهم ، أعيدى الأشياء التى تلاشت وحافظى على الأشياء التى أعيدت، عاقبى وأصلحى ما هو فى فوضى، وثبتى ما هو فى حال ونظام سليم :

لأن فعل هذه الأشياء قد يجعلك مجيدة بكل الفضائل؛ وكذلك اخدمى بإخلاص سيدنا يسوع المسيح فى هذه الحياة حتى يمكن أن تحكمى إلى الأبد معه فى الحياة الآتية. آمين».

إن الملك يجسد التاج؛ والتاج يمثل كل السجايا الأخلاقية المرئية وغير المرئية التى يرغب الإنجليز فى أن تسبغ عليهم. أما ماهية هذه السجايا فقد أرسيت فى احتفال دولة وقور، وذلك الحدث الذى وقع يوم ٢ يونيو سنة ١٩٥٣م هو الذى افتتح عهد الملكة إليزابيث الثانية، وهو الذى تعثر فيه زائرنا المريخى المحتار.

ماذا كانت تلك السجايا الأخلاقية بخلاف التحديد الوارد فيما سبق؟ لا يمكن الإجابة بسهولة على الأسئلة بمجرد الإشارة إلى الكتاب المقدس. إذ إن الإجابة قد وضعت بعناية ضمن مراسم عملية التتويج نفسها. وربما كان معظم الناس فى بريطانيا الخمسينيات راضين بالقول بأن القيم الجوهرية لمجتمعهم كانت مسيحية. والعبارة الأكثر شمولاً وهى «يهودية- مسيحية» لم تكن قد شاعت بعد. ولكن لابد أنهم كانوا يعنون المسيحية كما كانت مفهومة بالاتفاق السائد آنذاك فى الكنيسة الأنجليكانية. ومن المحتمل أن الزعماء الأنجليكان فى تلك الفترة كانوا يصرون على أنه لايوجد فرق حقيقى بين مبادئ كنيستهم الأخلاقية وتعاليم الكتاب المقدس، ولكنهم بالطبع كانوا مخطئين. لأن الزعماء الإنجليكان بعد خمسين سنة، أو قبل خمسين سنة بالنسبة لهذا الأمر، كانوا هم أول من أصرّ على ذلك. إنها إحدى مزايا الدستور غير المكتوب أن الأمور التى تأخذها أمة على أنها من البديهيات، يمكن أن تتغير مع مرور الزمن وتغير الظروف. وتتويج سنة ١٩٥٣م الذى كاد أن يتطابق مع تتويج إدوارد السابع سنة ١٩٠٢، قال شيئًا مختلفًا للغاية عن الأمة وقيمها.

إذ كان الأساس الأخلاقى الأنجليكانى الموجود سنة ١٩٥٣م. وبوسع المرء أن

http://almaktabeh.com

يسميه الأساس الأخلاقى الوطنى - ذا أصل حديث نسبيًا. إذ إن وليم تمبل سلف الدكتور فيشر كبير أساقفة كانتربورى، وبعد فترة طويلة أمضاها ككبير أساقفة يورك، كان مسئولاً إلى حد كبير عن إنتاج نظرية عن مسئولية الدولة تجاه مواطنيها وكانت نظرية أكثر نشاطًا وتدخلاً - وأشد يسارية - مما كان أسلافه يحبذونه. إذ عاش هو وجيله خلال الحرب العالمية الأولى وفترة الكساد الكبير. وقرر أن كنيسة إنجلترا لا تستطيع أن تتنحى جانبًا بعيداً عن معاناة الناس العاديين فى إنجلترا. وبصفة خاصة، أسهم فى الأفكار التى صارت مترجمة فى دولة الرعاية (الرفاهية) التى قامت فترة ما بعد الحرب، وكان ذلك مصطلحًا من اختراعه. وقد عقد فى زمن الحرب مؤتمراً شهيراً باسم «مؤتمر ما لفرن» - فى ما لفرن بورسسترشاير سنة ١٩٤١م - وفيه دعى أناس من ذوى المكانة والقدر ليناقشوا سويًا - وبصفة خاصة - كيف يبنون عالمًا أفضل بعد الانتصار فى الحرب العالمية الثانية. وكانت إحدى النتائج متمثلة فى كتابه الذى صدر سنة ١٩٤٢م «Christianty and Social Order» (الذى باع ١٤٠ ألف نسخة وكتابه «The Church looks Farward» الذى صدر سنة ١٩٤٤م.

وعلى الرغم من كونه ابنًا لرئيس أساقفة سابق فى كانتربورى، ومن كونه هو شخصيًا ناظر مدرسة عامة سابقًا، فإن تمبل كان ينتمى إلى حزب العمال (١٨ - ١٩٢٥)، وكان رئيسًا لرابطة العمال التعليمية. ويدين مجلس الكنائس البريطانى ومجلس الكنائس العالمى بتشكيلهما إلى حد كبير لمبادراته ونفوذه الذى جعل الكنيسة تؤيد مرسوم التعليم سنة ١٩٤٤م، الذى طرح مبدأ التعليم الحر لكل إنسان، والذى تموله الدولة. وقد وصف وضع تمبل اللاهوتى بأنه نوع من المثالية الهيجلية التى تحبذ الروابط الحميمة بين الكنيسة والدولة، والتى تشجع رجال الكنيسة الذين يتحدثون عن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية فى ذلك الزمان. وكانت علاجاته للأمراض الاجتماعية تتراوح صعوداً وهبوطًا مع النزعة الأبوية للدولة. وكان اعتراضه على الرأسمالية مستمداً من رومانسية ما قبل عصر التصنيع - إذ كان يساوى بين المنافسة التجارية والأنانية - أكثر من كونه مستمداً من الاشتراكية. ولأنه كان رجلاً إنجليزيًا رقيق الحاشية راقيًا، وهو أفضل تجسيد لمذهب الهاوى حسن النية، كان وعيه قليلاً بالاقتصاديات أو أى فهم للصناعة. ولكن إنجازه كان

http://almaktabeh.com

متمثلاً فى جعل نوع بريطانيا التى كانت آخذة فى الظهور سنة ١٩٥٣م (بعد ثمانية أعوام من موته) تبدو مثل نموذج لمجتمع مسيحى مثالى. وفى كتابه عن تاريخ الاشتراكية المسيحية فى بريطانيا يكتب آلان ويلكينسون: «من الحيوى أن ندرك أن تمبل لم يكن نبيًا اشتراكيًا معزولاً ولكنه كان واحداً فكر ودبر، وفعل الكثير لتقوية الوفاق الاجتماعى. لقد كان تمبل داخليًا بأكثر مما يجب، كما أنه إلى حد كبير كان نتاجًا لمؤسسات قوية فى الكنيسة وفى الدولة، ولم يكن أبداً ليصير نبيًا ثوريًا ضدهما».

وكان جزء من تراث تمبل يتمثل فى الإيمان بأن النبوءة الاجتماعية الثورية لم تعد ضرورية، فقد صارت غير ذات قيمة بوجود الدولة ـ الراعية. إذ إن الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الواسعة فى فترة ما بعد الحرب والتى قامت بها حكومة حزب العمال سنة ١٩٤٥، تبناها إلى حد كبير حزب المحافظين الذى عاد إلى السلطة سنة ١٩٥١م، حتى تلك الإصلاحات التى عارضها بمرارة عندما عرضت على البرلمان. وقد وصف هارولد ماكميلان رئيس الوزراء فى أواخر خمسينيات القرن العشرين هذا الوفاق (الذى كان ينتمى إليه) بأنه «اشتراكية أبوية». وكان تقرير بفريدج الصادر سنة ١٩٤٢م قد وعد بمجتمع فيما بعد الحرب تكون فيه كلمة: يحتاج ـ بالمصطلحات الحديثة الفقر بكل أشكاله ـ قد تلاشت بفضل أعمال الحكومة. وتحت مشروعه لابد من أن تشمل الناس من كل الطبقات مظلة تأمين إجبارية ضد كل أنواع المصائب. وعلى الرغم من أن المشروع كان تقدميًا بالنسبة لعصره، فإن عينة من فراسته فى الاتجاهات الاشتراكية يمكن استجلاؤها من هذا المستخرج: «فى السنوات الثلاثين القادمة، سيكون على ربات البيوت بوصفهن أمهات أداء عمل حيوى لضمان استمرار الجنس البريطانى والمثل البريطانية فى العالم». هذا الطموح كان مقبولاً بنفس الدرجة بعد عشر سنوات أيضًا. وإذا كان وليم بفريدج قد قدم بروفة الدولة الراعية فى فترة ما بعد الحرب، فلا شك فى أن وليم تمبل ـ وهو صديق بفريدج من أيام جامعة أوكسفورد ـ هو الذى قدم المباركة اللاهوتية للأخذ بها. وربما يقال إن فيشر كان أقل حماسة بصورة أو بأخرى. بيد أنه لم يقوّض ما أحرزه تمبل.

كان تمبل واحداً من الآباء لما يسمى وفاق ما بعد الحرب فى بريطانيا، وهو وفاق

http://almaktabeh.com

لم يواجه أى تحد مهم، وكما قال براونج، كان الرب فى سماواته وكل شىء كان على ما يرام فى الأرض. لقد كانت خمسينيات القرن العشرين بحق هى أعلى ما وصلت إليه انجلترا الأنجيلكانية.

ويصف كوريللى بارنت فى مسلسله ذى الأجزاء الأربعة «Pride and Fall» هذا المشهد لعالم جديد يبنى فى بريطانيا ما بعد الحرب، بينما استأنفت بريطانيا نفسها مكانتها كقوة عظمى، تحت اللافتة التى تدعو للسخرية «القدس الجديدة» لقد كان ذلك اسمًا اعتادت كنيسة انجلترا عليه (بدون التهكم)، وكذلك حزب العمال ومهندسو دولة الرفاهية الذين خططوا لها زمن الحرب. والواقع أن هذه كانت هى الكيفية التى رأوا بها ما كانوا يفعلونه. فقد ظنوا أنه من الممكن، حقًا، قيام هذه الدولة، وأنها كانت مهمتهم. وإذ خاضوا حربًا جيدة ضد هتلر، كانوا على أعتاب الأرض الموعودة. ويقول بارنت من ناحية أخرى، أن حكم التاريخ إنها كانت إضاعة فرصة فريدة لإعادة بناء اقتصاد وطنى. وهو يكتب:

«كان. . . . الشعب البريطانى بأسره هو الذى شارك فى حمل المسئولية مع السياسيين لكل الأعباء والضغوط الزائدة الهائلة التى تنشأ عن هذه الفنتازيا التى فرضت على بريطانيا فيما بين نهاية الحرب العالمية الثانية والعبث النهائى فى خداع النفس النهائى فى مغامرة حرب السويس. ومع ذلك فإنهم هم الذين شاركوا بنفس القدر فى تحمل مسئولية السبب الثانى فى العبء الاقتصادى فيما بعد الحرب، أى «القدس الجديدة». إذ إنهم طلبوا، ووعدهم السياسيون، أنه سوف يتم دونما تأخير تحقيق البرنامج الذى وضع زمن الحرب لرفاهية الدولة من المهد إلى اللحد، رعاية صحية مجانية، توظيف كامل، ومنزل مثالى لكل أسرة».

وعلى الرغم من أن تمبل كان كبير أساقفة كانتربورى لفترة قصيرة، ولكنها ذات أثر باق، فإنه حكم تيار الفكر الأنجليكانى الرئيسى منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى. فقد كان رئيسًا للجنة العقيدة التى كانت تجتمع فى سنوات ما بين الحرب، ثم تخلت تدريجيًا عن محاولة صياغة لاهوت أنجليكانى متمايز. وقد أسس تقريرها الذى نشر سنة ١٩٣٨م، مقاربة إذا لم تكن هى ما يؤمن به الأنجليكان، فقد كانت عن كيفية تصديقهم إياها على الأقل. إذ رفض تمبل فكرة المذهب الدقيق

http://almaktabeh.com

والأكيد، وهى مقاربة قدر لها أن تكون قياسية فى كنيسة انجلترا بعده. فقد كان يفضل أن يضم إليه كل أولئك الذين يريدون أن يطلق عليهم اسم مسيحيين، بدلاً من أن يمتحنهم بالتعريفات اللاهوتية التى لا تجلب سوى استبعاد المتردد. ويقول چيمس كنت عنه:

«انطلق تمبل لكى يعطى رؤية متماسكة منطقيًا للعلاقة بين المسيحية والفلسفة، وقد فعل هذا بأن أخذ فكرة الغاية كفكرة مركزية لفهمنا للكون. وقد كانت حجته أن غاية عالمية لا يمكن أن توجد دون الوجود النشط لإرادة حقيقية، تكمن وراء العالم. والفعل القصدى يجب (أو هكذا بدا الأمر لتمبل) أن يكون شخصيًا، وهذا بدوره يشى بأن «الغاية الخلاقة» وراء العالم يجب أيضا أن تكون مرتبطة بالإله شخصيًا. وبهذه الطريقة بنى تمبل فكرة الإرادة الإلهية الحاكمة، أو الإله الشخصى».

ويحتاج المرء إلى أن يكون حذراً من مصطلح «الرب الشخصى»، لأنه مصطلح مربك تمامًا، وبفضل التسويق الحديث، مع المفهوم المختلف تمامًا عن الرب الذى يصنعه المرء لنفسه، أو الرب الذى تم تصميمه لكى يناسب حاجات المرء «الشخصية» الخاصة أو ميوله الخاصة (مثلما يحدث فى أى بنك نمطى للمدخرات عندما يقوم بتطوير قرض شخصى يناسب ظروفك الخاصة). وثمة سؤال منتظم يطرحه الباحثون فى الاعتقاد الدينى هو «هل تؤمن بإله شخصى؟ (وقد سجل أحد الباحثين إجابة عنه تقول: «لا إننى أؤمن بالإله العادى فقط»). ولكن ما يسبب حيرة مثل هؤلاء الباحثين ممن يستطلعون الرأى العام، هو أن عدد الذين يقولون نعم أقل كثيرا من عدد الذين يزعمون أنهم يؤدون الصلاة بانتظام.

وعلى أية حال فإن معنى «الإله الشخصى» فى اللاهوت الذى وضعه تمبل (وفى السؤال الذى وضعه الباحثون فى الاستبيان) لا يختلف فى الواقع عن «هل تؤمن بإله يمكن أن يستمع إلى صلواتك؟ فالإله الشخصى فى هذا السياق يعنى إلهًا يمكن للمرء أن يتواصل معه وأن يرتبط به. وتمبل يستخدم كلمة «شخصى» بهذا المعنى، وليس بمعنى «مصمم حسب مواصفاتك الخاصة». وبعبارة أخرى، فإن الإجابة غير المتوقعة «لا إننى أومن بالإله العادى فقط» كانت هى الإجابة

http://almaktabeh.com

الصحيحة. إذ إن أولئك الذين قالوا لا للإله الشخصى كانوا يحاولون أن يكونوا صحيحى العقيدة، ويميزون أنفسهم عن مفهوم العصر الحديث أو ما بعد الحداثة الذى يقول: «لك ربك ولى ربى». ومن المثير للسخرية أن رفض تمبل للمعايير العقيدية أساسًا لعضوية كنيسة انجلترا ربما يكون حقا هو الذى أرسى أساس المقاربة بعد الحداثة «ربك/ ربى» «للديانة الشخصية» بالمعنى التسويقى الحديث.

إذًا كانت رغبة تمبل فى تحديد عضوية الكنيسة القائمة لتضم الجميع قدر الإمكان تعبيرًا عن نزعته المتفائلة. وكان من حسن التوافق أن حالة البلاد فى وقت التتويج سنة ١٩٥٣م كانت جيدة. وكان اسم الملكة الجديدة إليزابيث تذكرة مباشرة بملكة سابقة تحمل هذا الاسم، هى الملكة الطيبة «بس» التى تحفظها الذاكرة الشعبية. وكانت الحرب قد انتهت منذ ثمانى سنوات. وكانت الأمة لديها إحساس قوى بأنها قاتلت بشكل جيد، من أجل قضية صحيحة. وكانت السنوات التى أعقبت الحرب مباشرة سنوات صعبة، ولكن بحلول سنة ١٩٥٣ كانت الأحوال آخذة فى التحسن، كما كان نظام الحصص قد انتهى إلى حد كبير، وعادت البضائع إلى المحلات، والدمار الذى أحدثه القنابل كان يختفى من المناطق الحضرية. وكانت دولة الرعاية قد بدأت تجعل الأمر يبدو كما لو أن الظروف القاسية التى سادت ثلاثينيات القرن العشرين لن تعود أبدًا. وقد وضعت الصناعات الرئيسية فى الملكية العامة، وعند هذه النقطة كان ما يزال هناك تصور بأن ذلك سوف ينهى بسرعة نضال اتحاد التجارة. وخدمة الصحة الوطنية - التى كانت تقدم علاجًا طبيًا مجانيا للجميع - كانت رمزًا أوليًا لبريطانيا الجديدة المتحدة المهتمة. وبدا كأن رابطة جديدة تجمع بين الحكام والمحكومين قد تشكلت فى سنوات ما بعد الحرب، وقد تورطت الدولة كثيرًا فى التفاصيل اليومية لحياة الناس. وكانت دولة مسيحية وحانية، دولة جعلت شاغلها أن تلعب دور السامرى الطيب مع أى مواطن محتاج.

وكانت بشرى النجاح الوطنى شائعة فى الصحافة فى ذلك الصيف الذى تم فيه التتويج، البعثة البريطانية التى تسلقت قمة جبل إيفرست للمرة الأولى. (وفى الحقيقة أن متسلقى الجبال الذين وصلوا إلى القمة كانوا نيوزلنديين، ومرشد من نيبال، بيد أن هذا لم يكن يبدو مهمًا). كما أن التتويج نفسه كان يفيض بالأبهة

http://almaktabeh.com

والرومانسية؛ إذ كانت الملكة الجديدة شابة وجميلة، كما أن زوجها كان وسيمًا بشكل مذهل (وكان بطلاً من أبطال الحرب)، وكان الاثنان أبوين محبين لعائلة ناشئة. ولم تكن كنيسة انجلترا بحاجة إلى التشجيع لكى ترسمهما فى صورة العائلة المسيحية المثالية، نموذجًا يجب على البلاد بأسرها أن تعجب به وتتطلع إلى تقليده (إذا لم يكن فى أسلوب الحياة، ففى الفضائل المنزلية على الأقل). هذه الصورة لعائلة سعيدة على نحو لا يكاد يصدق فى قصر باكنجهام، صارت شيئا مثل الرسالة الجوهرية التى حملها حفل التتويج نفسه. انظر كيف تفعل المسيحية الأنجيليكانية المعتدلة المعقولة حينما تتاح لها الفرصة، حسبما قيل آنذاك. وقد تكررت الرسالة فى ألف خطبة وموعظة كنسية.

وغنى عن القول، إن ما كان يجرى حقًا فى البيت الملكى كان خافيًا عن رؤية العامة، وكان السبب فى ذلك راجعًا إلى حد كبير لأن الصحافة كانت تقبل دون مناقشة عادة التبجيل والاحترام للشأن الملكى. وكان ما حصل عليه العامة أسطوريا أكثر منه حقيقة - ولكن لا شك فى أنهم كانوا يفضلون الأمور على هذا النحو. وكان أحد أغراض التتويج هو إضفاء قدر من الغموض الصوفى على الشخوص الملكية بحيث ينحيهم جانبًا عن البشر العاديين. وعلى الرغم من أن هذه الصوفية ليست مسيحية بالضرورة - نفس هذا الغموض كان يحيط بالإمبراطور اليابانى وعائلته الملكية - فإن أريج هذا الشعور بالخصوصية والتميز كان دينيًا بالقصد؛ إذ إن التبجيل الصوفى والتبعية الدينية التى قال عنهما والتر بيجهوت إنهما كانا «أساسا للملكية الحقيقية»، كانا فى حالة سليمة تمامًا.

وملاك هذه الخاصية الصوفية للملكية، فوق ذوات كل الأشخاص الملكيين الذين يرتدون التاج، فهم لذلك كانوا مختلفين وأكبر من الحياة، وأكثر أمانة وذكاءً وجمالاً، وأكثر امتيازاً وهم فوق كل نقد. وكانت كل إمكانيات الكنيسة والدولة تستخدم للإبقاء على الصورة هكذا. وكان هذا أيضا جزءًا من الأخلاقيات الأنجليكانية عند بداية خمسينيات القرن العشرين: وكان هذا أيضا متضمنًا فى الرسالة التى كان المقصود أن يحملها التتويج. فقد كان يضيف مزيداً من الحلاوة على الإحساس الإنجليزى بأنهم أمة خاصة باركها الرب بشكل فريد.

http://almaktabeh.com

كانت الاستمرارية أيضًا جزءًا من الرسالة. وقيل إن تلك كانت أمة قديمة وترجع كثير من تقاليدها إلى ألف سنة أو أكثر. وعادة وضع تاج على رأس الملك، أو الملكة، باعتباره أعلى علامة على السيادة، يمكن إرجاعه إلى الأباطرة الأوائل بعدما جعل قسطنطين الإمبراطورية مسيحية بصورة رسمية سنة ٣١٣م. ويذكر هربرت ثورستون في دائرة المعارف الكاثوليكية «Catholic Encyclopaedia»، أن ڤالنتيان (٣٦٤)، وابنه جراتيان (٣٦٧م) قد توجا عندما توليا الحكم الإمبراطوري:

قام البطريرك أناتوليوس سنة ٤٥٠م بتتويج مارشيان وبذلك الفعل وضع أصل احتفال صارت له أهمية من أعظم ما يمكن في المفهوم اللاحق للملكية. وفي البداية يبدو أنه لم تكن هناك فكرة عن إضفاء أية خاصية دينية على هذا التتويج: وربما كان اختيار البطريرك ببساطة راجعًا إلى الرغبة في التخلص من الغيرة وتجنب إعطاء الذرائع لأصحاب المزاعم الأقوى في نيل هذا الشرف. ولكن في سنة ٤٧٣م بالفعل، عندما تم تتويج ليو الثاني في حياة جده، نجد البطريرك أكاسيوس لا يمثل بشخصه فقط في الاحتفال، وإنما يتلو صلاة قبل مراسم التتويج. ولو كان جد ليو وليس أكاسيوس هو الذي فرض ذلك فعلاً، لكان على أساس فقط من القاعدة المرعية، بأن الإمبراطور الحاكم في حياته هو المصدر الوحيد للشرف حينما يختار أن يسبغ أي جزء من سلطته لزميل أو شريك. وإذا تم اتباع التدخل الأول من البطريرك بدقة، صار العنصر الكنسي في احتفال التتويج يتطور بسرعة. وعند انتخاب أناستاسيوس (٤٩١م) كان البطريرك حاضرا في اجتماع مجلس الشيوخ والأعيان عندما قاموا باختيارهم الرسمي، والإنجيل في وسطهم... ولا يجري التتويج في مبنى مقدس، ولكن الإمبراطور يقسم قسمًا بأن يحكم بالعدل، وثمة قسم آخر مكتوب يؤخذ منه بواسطة البطريرك بأن يحافظ على الدين كله، وبألا يحدث أية بدعة في الكنيسة... ثم بعد أن يكون الإمبراطور قد منح جزءًا من الفخامة الملكية، قام البطريرك بالصلاة، ثم أنشد كيرياليسون(*)، ثم وضع على سيده العباءة الإمبراطورية والتاج المرصع بالجواهر. ومظاهر التهليل أيضًا التي تصاحب خطبة الإمبراطور التي تحمل الوعود المعتادة عن العظمة، وتعقبها هتافات دينية الطابع؛ مثل «ليحفظ الرب الإمبراطور المسيحي».

(*) تعني في الصلوات المسيحية: يارب ارحم.

http://almaktabeh.com

وقد وجد ثورستون دليلاً على كل من التتويج والمسح بالزيت فى طقوس التتويج التى كانت مستخدمة قبل الغزو النورماني. وكان الشكل مستقراً بصورة أو بأخرى حسب الشكل الحديث، ناقصاً عناصر ما قبل الإصلاح الدينى التى يظن أنها كانت ذات أسلوب كاثوليكي روماني، فى تتويج إدوارد الثانى سنة ١٣٠٧م. وصار هذا الطقس يعرف باسم «Liber Regalis» [أى العمل الملكى]: «وقد يقال حتى فى الوقت الحالى إنه يشكل الأساس للطقوس التى يتم بها تتويج ملوك بريطانيا العظمى» حسبما يقرر ثورستون.

وعندما تولى دكتور فيشر بوصفه رئيس أساقفة كانتربورى رئاسة حفل تتويج الملكة إليزابيث سنة ١٩٥٣م، كانت السابقة التى أرست هذا الفعل قد جرت قبل حوالى ١٥٠٠ سنة. وعندما كان يضع التاج على رأسها، شعر أن الأمة كلها كانت تحبس أنفاسها، كما قال هو فى وقت لاحق. فقد كان التتويج فى تلك السنة أول احتفال عام كبير ينقل بالتليفزيون على اتساع بريطانيا العظمى، وكان واضحًا من الحالة النفسية الوطنية أن كل أولئك الذين كانوا يشاهدون شاشات التليفزيون كانوا جزءاً من الفعل شأنهم شأن أولئك الحاضرين فى دير وستمنستر. وقد نصحت الصحف قراءها بأن يقفوا تحية للنشيد الوطنى، حتى ولو كانوا فى بيوتهم.

والمكانة التى أسبغت على الملكة، مؤداها أن الفعل المقدس ختم على الروابط المقدسة بين الحاكم والمحكوم، ومن ثم قالت شيئًا غامضًا وشاملاً فى آن عن هوية الأمة نفسها. بيد أنه لم يكن عقداً بين الملكة والشعب. وإنما كان ميثاقًا بين الملكة والرب. وتم ختم الميثاق بفعل من جانب الدولة، وليس بأى فعل من جانب كنيسة الدولة لصالح الدولة. والأمة كلها، سواء من كانوا أعضاء فى كنيسة انجلترا أو أية جماعة دينية أخرى، أو ليسوا أتباعًا لأية كنيسة على الإطلاق، كانت داخلة فى الأمر. إذ كانت الأمة تتصرف مثل كنيستها، وكانت مخولة تمامًا أن تغير الاحتفال وتبدله إذا شاءت. وبمعنى ما، لم يكن يهم من الذى وضع التاج على الرأس الملكية. ولكن تبديل الاحتفال لم يكن هو مربط الفرس؛ لأنه كان يرمز إلى الكيفية التى كانت عليها الملكية القديمة، وكيف أنها مستمرة. وحقيقة أن المعنى الدقيق لمختلف التفاصيل فى الاحتفال قد ضاعت فى ضباب الزمان لم تكن نقيصة، حتى ولو جعلت تلك اللحظات غير مفهومة بالنسبة لأولئك الذين يشاهدون أو الذين

http://almaktabeh.com

يشاركون في الاحتفال. إذ كان يكفي أن إدوارد الثاني قد فعل هذه التفاصيل المختلفة في سنة ١٣٠٧م. وقد تمرغ المعلقون بإيجابية في غموض مثل هذه الأشياء التي يتضمنها التتويج، . . ومنها خاتم الكرامة الملكية الذي توافق قبول الملكة له مع صلاة كبير الأساقفة: «بينما أنت في هذا اليوم يتم تكريسك رئيسة وأميرة علينا، فكذلك استمري بثبات مدافعة عن دين المسيح: إذ إنك إذا كنت غنية في العقيدة ومباركة في كل الأعمال الخيرة، فسوف تحكمين معه هو ملك الملوك، له المجد إلى الأبد ومنذ الأزل. آمين».

واللغة العتيقة تضفي المزيد من السرية والغموض من نوعية ذهبية. فقد خرجت الملكة المتوجة من دير وستمنستر من الأضواء لتبدو شخصية مشعة وذهبية. وعلى الرغم من أنه ربما لم يكن قد استخدمت هذه اللغة، فإن الأمة أحست أنها قد مرت بسر من الأسرار المقدسة - ليس واحداً من السرين اللذين تعترف بهما كنيستها، ولا حتى من الأسرار السبعة التي تعترف بها روما، ولكنه سر مقدس آخر، إنجليزي تم اختراعه، جعل من اللغة لغة مقدسة، ومن خلال اللغة كانت الأمة بأسرها قد اكتسبت شرعيتها. والتقاليد التي يقوم هذا على أساسها ترجع إلى ماقبل حركة الإصلاح الديني الإنجليزية، على نحو ما يتذكر شكسبير في مسرحية ريتشارد الثاني: «لا يمكن لكل مياه البحر الهادر أن تمحو الشرف عن ملك مسح بالزيت المقدس».
ويصف إرنست كانتوروفيتز في كتابه: The Kings two Bodies :

A study in Medieval Political Theology .

هذا بأنه نظرية أن للملكية ذاتين، ذات مقدسة وذات طبيعية (وهو صدى لوصف المسيح بأنه إله حقيقي وإنسان حقيقي) وهي في القدرة الأولى تمثل المسيح الذي تحوز السلطة السياسية باسمه.

وآخر مرة كان مثل هذا التقديس للملكية على ذلك القدر من الوضوح، كانت في عهد سميتها، إليزابيث تيودور. وقد زاد هذا من وهم أن عصراً إليزابيثيا ثانيا قد بدأ لتوه، وفيه ستعود بريطانيا (وإنجلترا خاصة) إلى العظمة التي كانت مباركة خاصة من الرب لها.

ومع استمرار الملكية، استمرت الأرستقراطية والطبقية الاجتماعية. وفي كتاب

http://almaktabeh.com

«England An Elegy» يصف روجر سكروتون كيف كان هذا التأثير الذى يسبب الاستقرار يعمل:

«كانت الملكية والطبقية الوراثية على السواء طريقتين من خلالهما كان للماضى والمستقبل صوت فى سياسات الحاضر؛ إذ إن طبقة الأشراف الوراثية، كما كانت مفهومة تقليديًا، تسببت فى أن المنصب السياسى يرتبط بالمكانة الاجتماعية الراقية، كما يرتبط بلقب يتصل بشكل مباشر أو غير مباشر بقطعة من انجلترا. . . ومن ثم فإن للمجلس الأعلى فى البرلمان (مجلس اللوردات)، تكون إلى حد كبير من أناس كانت مصالحهم ليست هى المصالح والاهتمامات قصيرة المدى للأحياء من البشر، ولكن المصالح بعيدة المدى للأقاليم. وأول مثل هذه المصالح يتمثل فى رغبة عميقة راسخة فى الاستمرارية الاجتماعية والسياسية؛ إذ إن الامتياز الذى تجلبه الوراثة لا يمكن تأمينه سوى إذا كانت الترتيبات الاجتماعية والسياسية التى ترفره مستمرة فى الوجود. ومن المحتم، بالتالى، أن مجلسًا أعلى وراثيًا سوف يرى نفسه حاميًا أو وصيًا على الميراث الاجتماعى والسياسى، وإلى ذلك المدى سيكون كابحًا للعملية الديموقراطية».

وربما يكون مستحيلاً أن نتصور ملكية دونما أرستقراطية من نوع ما، ولكن الأرستقراطية البريطانية كانت فى طبقة خاصة بها. لقد كانت هى الهرم الصلب الذى تقف الملكية على قمته. كانت هى مصدر صحبة البلاط التى أحاطت الملكية نفسها بها. لقد كانت هى مصدر الدماء الجديدة عندما كان المرشحون للعرش بحاجة إلى زوجات أو أزواج. وبصورة جماعية كانت تشكل مجلس اللوردات الذى كان يعطيها القوة السياسية المباشرة، كما أن الأرستقراطية، مع كنيسة انجلترا، كانتا تقدمان الشخصيات الدرامية التى لعبت أدوارها فى ذلك الزمان.

وفضلاً عن ذلك فإن الأرستقراطية البريطانية مرتبطة تقليديًا بحزب المحافظين، الذين عاد زعيمهم الأرستقراطى ونستون تشرشل (المولود فى قصر بلنهاهيم) إلى مشهد انتصاراته زمن الحرب، فى ١٠ دوانتج ستريت، قبل ذلك بستين. وقال فى حديث أذيع بعد الانتخابات إنه كان يشعر أن هناك «إحساسًا متناميًا بالحاجة إلى إعادة بريطانيا إلى مكانها الصحيح، وهو إحساس تتحرق قلوب الناس إليه بعيدًا عن صفوف أى تنظيم سياسى».

http://almaktabeh.com

وكانت خسارة الانتخابات سنة ١٩٤٥م أمام حزب إصلاحى، وليس حزبًا ثوريًا، هو حزب العمال، هو الذى دفع المحافظين إلى القيام بعملية مراجعة أساسية لسياساتهم، وساعدهم على تقديم أنفسهم سنة ١٩٥٠م وسنة ١٩٥١م على منصة جديدة تمامًا، مصنوعة إلى حد كبير مما أخذوه عن حزب العمال. أما حزب الأحرار الأصغر، الذى يقف فى منتصف الطريق بين المحافظين والعمال، فقد رفض عرضا ببعض الكراسى فى الوزارة، بيد أن العرض بحد ذاته كان مقياسًا يدل على الوفاق. (وحتى هكذا، كسب المحافظون الأغلبية من مقاعد البرلمان دون أن يفوزوا بالأغلبية فى أصوات الناخبين) هذه المقاربة الوفاقية والوحدوية إلى الحكومة من جانب المحافظين أخذت تطلعاتها من تقرير دزرائيلى فى منتصف القرن التاسع عشر عن مذهب المحافظين «أمة واحدة» والذى تم تصحيحه على أساس سد الفجوة بين الأغنياء والفقراء. وهو ينسجم تمامًا مع مذهب الأرستقراطية Noblese Oblige أى واجب نبلاء المولد فى أن يكونوا نبلاء وكرماء تجاه من هم أدنى منهم اجتماعيًا.

والأرستقراطية هى الحكومة الإقطاعية القديمة فى بريطانيا فى فراء جديد؛ أى أن حزب المحافظين هو القناة التى من خلالها احتفظت الأرستقراطية بيدها على آلة السحب الوطنية. ولذلك كان «الحزب الطبيعى للحكم»، الذى يقوده أبرز رجال الدولة فى العالم، تشرشل، مسئولاً عن مصائر الأمة عند بداية العصر الإليزابيثى الجديد (كما كانت الصحف تجاهر به). ولقى تشرشل نفسه أسمى تكريم ملكى، فقد تم تعيينه فى رتبة Knight of the Garter فى تلك السنة. وحقيقة أن الأغلبية الكبرى من النبلاء والأشراف كانوا من حزب المحافظين، كانت تعنى أن المجلس الأعلى فى البرلمان به أغلبية من المحافظين، ولكن فى سنة ١٩٥٣م، لم يبق منهم سوى قلة، وكان ذلك يبدو أنه النظام الطبيعى للأشياء.

وكانت مغازلة رئيس أساقفة كانتربورى لحزب العمال محل ملاحظة بالفعل. ولكنه كان قدر المحافظين خلال قرنين من الزمان أن يكون الحزب الطبيعى للعرش والكنيسة. وقد تماشت الأغلبية الكبرى من رجال الكنيسة الأنجليكان مع هذا. ومن ثم، فإنه بهذه الطريقة كانت إحدى رسائل التتويج سنة ١٩٥٣م بمثابة ثورة مضادة. وقيل إن الثورة الاشتراكية التى تنادى بالمساواة، وحتى النزعة الجمهورية التى يحض عليها أولئك الذين على يسار حزب العمال، لم تكن على الطريقة

http://almaktabeh.com

الإنجليزية ؛ وكون أن حزب العمال قد أمسك بزمام الحكم لفترة قصيرة في السنوات التي أعقبت الحرب، وهو جزء من الطريقة التي تطيح بها الأمة من حين لآخر بالمحافظين ؛ بسبب تخلفهم عن حقائق العصر ؛ وكون أنهم عادوا الآن إلى صهوة الجواد، فإن حزب النزعة الوطنية يمكن أن يستحق العودة إلى مكانه الصحيح تحت شمس السياسة في زمن يناسب التتويج. لقد كان للمحافظون يدافعون عن العرش والكنيسة، ولكن الرأي القائل بأن لكل رجل محطة يجب عليها أن يعرف متى ينزل فيها، له وجاهته أيضًا.

والعلاقة بين الملكية والأرستقراطية وحزب المحافظين والبناء الطبقي الإنجليزي كانت واضحة بما فيه الكفاية، على الرغم من أنها تسببت في إزعاج الإنجليز. فقد كان من الضروري إظهار أنها كانت تخدم غرضًا ما أسمى. إذ كان جميع رجال الكنيسة في انجلترا يذهبون إلى المدارس العامة وإلى جامعة أوكسفورد وكمبردج للدراسة، وكان لهم أن يبرروا العلاقة بين الطبقات في انجلترا على أساس الاعتماد والمسئولية المتبادلة، لصالح الجميع. وفكرة أنه لا يجب أن تكون هناك طبقات اجتماعية إطلاقًا كانت ستبدو فكرة غريبة تمامًا عليهم. ولذلك كان التتويج احتفالاً بالطبقة، ولكنه احتفال بناء طبقي له التزامات مشتركة وأغراض عامة (وبذلك يمكن أن يتوافق مع المبادئ المسيحية). ألم يكن هذا هو الدرس الذي حملته الحرب الحديثة، عندما كان الضباط البريطانيون، وغالبيتهم من الطبقة الوسطى أو العليا، يقودون الجنود من كافة الطبقات الأخرى الذين هم أدنى منهم عسكريًا واجتماعيًا لكي يحرزوا انتصاراً مجيداً؟

لقد كانت الطبقة رمزاً كامنًا في التتويج. وكان الممثلون الرئيسيون في الدراما إما من الأعضاء الكبار في الأرستقراطية وإما من القساوسة الكبار في كنيسة انجلترا. وبالاتفاق، لأنه في مقابل كل صف من القساوسة كان هناك صف من النبلاء، كان أساقفة المدن يخاطبون بلقب «سيدي» وهي الصيغة المناسبة لمخاطبة أحد البارونات، وكان كبار الأساقفة يخاطبون بعبارة «صاحب العطوفة»، وهي الصيغة الملائمة لمخاطبة الدوق. وفيما بين القساوسة والنبلاء لم يكن هناك فرق حقيقي على المستوى الاجتماعي. وفي فقرة من مراسم التتويج عندما يجب على المشاركين أن يؤدوا يمين الولاء للملكة المتوجة، كان نظام التقدم نحوها يخضع لنظام طبقي صارم وفقًا للمعايير الطبقية الاجتماعية.

http://almaktabeh.com

وكان أول من أدى يمين الولاء كبير أساقفة كانتربورى. وعلى أية حال سيكون من الخطأ أن نعتبر هذا بمثابة رمز على أنه فى الدستور الإنجليزى كانت السلطة الروحية خاضعة للسلطة الزمنية. ولكن الحال هى أنه فى شخص الملك تجتمع السلطتان الروحية والزمنية. ولم تكن هناك فى الكنيسة ولا فى الدولة سلطة أعلى من سلطة التاج. وهربرت ثورستون فى مقالته بدائرة المعارف الكاثوليكية، والتى سبقت الإشارة إليها، أوضح التأثير الكبير لتتويج أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على تطور التتويج فى جميع أنحاء أوروبا قبل العصور الوسطى. وحينما كانت مراسم التتويج تجرى فى روما، كان من ملامح التتويج ولاء الإمبراطور وقسمه بأن يخلص للبابا. والمقابل الواضح لهذه الأدوار فى التتويج الإنجليزى الحديث - وهو قسم كبير الأساقفة بالولاء للملكة - يبدو معقولاً أكثر إذا ما نظر إلى الملك على أنه حل محل البابا، وهو ما كان منذ زمن هنرى الثامن يشكل النظرية الدستورية.

وهكذا ركع الدكتور فيشر أمام الملكة ووضع يديه بين يديها ناطقًا بكلمات الولاء، وهى وعد بأن يخدمها بإخلاص وبصدق. وقد كرر الأساقفة الباقون من كنيسة انجلترا هذا، وركعوا جميعًا فى أماكنهم. وقام بنفس التصرف دوق إدنبره، زوج الملكة، الذى وعد بأن يكون «رجلك على مدى الحياة، وفى العبادة الأرضية...». والعلاقات التى تفرض هنا كانت فى أساسها علاقات إقطاعية - واجب الأدنى فى المرتبة الاجتماعية بأن يقدم الحماية بسلاحه لمن هو أعلى منه. وقد تبع الأمير فيليب اثنان آخران من الذكور البالغين الحاضرين من الأسرة الملكية، دوق جلوستر ودوق كنت، وهما بدورهما تبعهما طابور طويل من الدوقات والماركيزات والإيرلات، والفيكونتات والبارونات. وعندما انتهت مراسم الولاء - ولم يشترك أحد من العامة - دقت الطبول العسكرية، كما نفخت مجموعة من الأبواق، وأطلق الجمع كله صيحة مدوية «حفظ الله الملكة إليزابيث! عاشت الملكة إليزابيث! عاشت الملكة إلى الأبد!» على حسب ما كان مرتبًا فى المراسم.

وبغض النظر عن التغير فى الجنس، فإن هذه كانت هى بالضبط كلمات النشيد الذى ألفه هاندل والذى أنشدته الجوقة من قبل، والذى تم اقتباسه من سفر الملوك الأول، الإصحاح الأول: ٣٩ (على نهج مسح الملك سليمان): «حفظ الله الملك، عاش الملك، عاش الملك إلى الأبد». يقول نص العهد القديم: «فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحى الملك سليمان».

http://almaktabeh.com

الذى يمكن أن يجده زائر من المريخ عجيبًا فى هذا كله هو أنه يبدو أن له علاقة ما تربط انجلترا مع إسرائيل القديمة، ولكن لا علاقة له البتة ببقية الأراضى التى توجت الملكة لكى تحكمها. فما علاقة كل هذه الإشارات إلى الملك سليمان وصادوق الكاهن وهلم جرا، بشعب سيلان مثلاً أو مستعمرات بريطانيا فى جزر الهند الغربية؟ وما الذى كان يفترض أن يخرج به الكاثوليك فى كندا أو المسلمون فى باكستان من هذه الإشارات؟ لماذا يجب على «مليكتهم» أن تقسم بأن تسبغ حمايتها على ديانة واحدة فقط فى جزء واحد فقط من كل هذه الأراضى الكثيرة؟ ولماذا يجب عليهم أن يهتموا بشأن نزاع قديم ما مع الكنيسة الكاثوليكية؟ فالواقع أن سريلانكا (سيلان سابقا) قد اختارت أن تصبح جمهورية سنة ١٩٧٢م. كما اختارت باكستان هذا سنة ١٩٥٦م، وجنوب أفريقيا سنة ١٩٦١. وتبعتها بلاد أخرى كثيرة، خاصة مستعمرات بريطانيا السابقة فى أفريقيا. وبقيت مستعمرات بريطانيا السابقة فى الكاريبى من أملاكها (والملكة هى رئيسة الدولة) وكذلك فعلت كندا، على الرغم من أن الجزء الفرنسى بها بقى قلقًا من أجل الاستقلال الذاتى. وفى استراليا ونيوزيلندا النزعة الجمهورية مسألة حية، على الرغم من أن هذه النزعة موجودة فى استراليا أكثر منها فى نيوزيلندا. ومن ثم فإنه من السهل استنتاج أن التتويج كان أبعد ما يكون عن جمع شمل بلاد الكومنولث البريطانى والإمبراطورية سويًا، وإنما كان إما عامل تقسيم وفرقة، أو كان خروجًا كبيرًا عن الموضوع فيما عدا كونه مشهدًا للفرقعة ومهرجانًا. لقد كان يتعلق بالإنجليز وهم يحادثون أنفسهم فى مصطلحات لا يفهمها أحد سواهم.

والحقيقة أنه كانت ثمة رابطة، وهى رابطة غاية فى العمق والشمول. وعلى الرغم من أنها كانت ماثلة فى أذهان الشعب الإنجليزى وهو يشاهد حفل التتويج بالضرورة، فإنه لم يحدث أن تم التصريح بها علنًا فى أى مكان؛ إذ إن الرابطة بين كل هذه الأمم الممثلة بطرق مختلفة فى دير وستمنستر فى ذلك اليوم من سنة ١٩٥٣، هى أنه فى فترة ما من ماضيها، قد استوطنها أوغزاها أبناء تلك الأمة التى تسمى بريطانيا العظمى والتى تشكل انجلترا أربعة أخماسها. وكانت القوة الدافعة فى حملة الغزو الكبرى هذه وموجة الاستيطان الكبرى التى صاحبتها هى بالضبط الاعتقاد الإنجليزى بأن أمتهم قد اختارها الرب وحدها للدور فريد فى تاريخ العالم. وكان دور

http://almaktabeh.com

هذه الأمة المختارة، التي ورثت مهمة إسرائيل القديمة، هي نشر الحضارة الإنجليزية ـ أي الحضارة البروتستانتية ـ في أركان الدنيا الأربعة. وأولئك الذين قاوموا إنما كانوا يقاومون إرادة الرب، ويمكن إزاحتهم جانبًا، أو استئصالهم، إذا دعت الضرورة لذلك. لقد كان التتويج احتفالاً بهذا التاريخ غير العادي، وأعطى الأمة الإنجليزية قدرًا هائلاً من الرضى. وكانت أوائل خمسينيات القرن العشرين فترة لا تناسب الشعور بالذنب من الاستعمار بحيث تقضي على شعور الرجل الإنجليزي بالفخر بإمبراطورية لا تغيب عنها الشمس حتى سنة ١٩٥٣م. إذ كانت الإمبراطورية شيئًا ينبغي شكر رب الإنجليز عليه. إنه هو الرب الذي جعل هذا ممكنًا.

ونتيجة تحليل مراسم التتويج سنة ١٩٥٣م هي مجرد وضع رصيد كبير من التاريخ والأساطير واللاهوت. وفي قلب هذه الأيديولوجيا (وليس هناك اسم آخر لها) تكمن فكرة الاختيار، ميثاق قائم على أساس علاقة تصنيفية بالتاريخ المسجل في العهد القديم. وكان الافتراض هو أن التاريخ الإنجليزي سوف يحدث في خطوط موازية لتاريخ بني إسرائيل القديم، بحيث إن ما كان حقيقيًا وصحيحًا في تاريخ بني إسرائيل سيكون أيضًا، وبمعنى ما، صحيحا وحقيقيا في تاريخ الإنجليز. ولن تكون التشابهات واضحة على الدوام. كما أن التفسيرات سوف تختلف. ولكن في كل الأحوال إذا كانت إنجلترا غير مخلصة للرب، فإن الرب سوف يعاقبها بالهزائم والمصائب؛ أما إذا كانت إنجلترا مخلصة، فإن الرب سيكافئها بالنصر والسلام والازدهار. وبشرط الحفاظ على الميثاق، فإن الرب سوف يتدخل في أوقات الخطر الداهم. فإن الإعصار الذي ساق أسطول الأرمادا الإسباني إلى الصخور سنة ١٥٨٨م قد عرف باسم «الريح البروتستانتية». كذلك فإن مثل هذه الثقة لم تكن غائبة في أوقات أكثر علمانية. إذ إن القصة العتيقة عن هذا الطريق البروتستانتي إلى الخلاص ـ والتي تروى عن أحد الأفراد ولكن يمكن تطبيقها بسهولة تامة على البلاد بأسرها ـ كانت هي القصة التي كتبها چون بونيان تحت عنوان The Pilgrims Progress. والبطل يناضل لكي يشق طريقه صوب المدينة السماوية وهو يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً، وينجو من مواجهة مرعبة في نقطة ما مع عملاقين قبيحين، هما الوثني والبابا. كان هذا الكتاب الثالث في ثلاثية بروتستانتية تتألف من النسخة المعتمدة من الكتاب المقدس وكتاب فوكس

http://almaktabeh.com

Book of the Martyrs ، وهذه الثلاثية حددت ما ينبغى أن يكون عليه الرجل الإنجليزى البروتستانتى. وحسبما تكتب ليندا كولى، فإنه بهذه الوسيلة تم تعليم الدرس بأن المعاناة والتعرض المتكرر للأخطار هى من علامات الرحمة، وإذا ما قوبلت بالصبر والتجلد انتهت بالنصر والفوز تحت رعاية الرب:

«هذه الطريقة فى إضفاء المعنى على الأحوال المعاكسة، ومواساة أنفسهم فى مواجهتها استمرت بشكل بديل فى القرن العشرين. فأثناء الحرب العالمية الأولى كان جنود بريطانيا فى الخنادق يرجعون باستمرار إلى كتاب Pilgrims Progress ، بل إن البعض كانوا يقارنون أنفسهم بكريستيان بطل الرواية... وتشبه أنفسهم بكريستيان كان من الواضح أيضا أنه طريقة لتشجيع أنفسهم وتقويتها ضد الخطر والمعاناة، كما أنها طريقة للتأكيد لأنفسهم أن قضيتهم عادلة. وعول البريتون على الثقافة البروتستانتية أثناء الحرب العالمية الثانية. وعندما ساق الألمان الجيش البريطانى خارج فرنسا سنة ١٩٤٠م متقهقراً، ولم يتم إنقاذ الناجين سوى بجهود عشوائية وجزئية قامت بها جماعات من أصحاب القوارب المدنية الشجعان فى عملية فشل مزرية، فإن هذه الحادثة تحولت بسرعة على أيدى البريطانيين أنفسهم إلى عملية إنقاذ ميمونة؛ إذ إنهم بالغريزة وتحت الضغط ضمنوا هذه الحادثة فى التفسير البروتستانتى لتاريخهم، وصاغوا المبدأ الأخلاقى المعتاد: أن الممارسات المتحضرة بين البريتون المتحضرين قد كسبت بفضل العناية الإلهية ضد عدو قوى وشرير».

وطبعًا رتب الرب أن يكون البحر هادئًا، فى هذه الأيام الأربعة الحساسة، ولو أن عاصفة هبت، لما أمكن تحقيق مثل هذا الهروب.

وعلى العموم كان البريطانيون، والإنجليز خاصة، خجلين من أن يعلنوا هذه العلاقة الخاصة مع الرب، وبقدر أكبر مما أحس به الأمريكيون - بالتأكيد - من خجل. وعند النظرة الأولى كان هناك الكثير من التعبير الإنجليزى للمخفف النمطى فى مراسم التتويج سنة ١٩٥٣م. إذ كان التباهى أو الإعلان بشكل صارخ أن الإنجليز هم الأفضل. هذه القناعة العميقة بالخصوصية الوطنية كانت ثمينة بحيث لا يمكن استعراضها. إذ كان يكتفى بالإشارة إليها، ولا تعلن تمامًا أبدًا. ولا يعنى هذا أنها لم تكن محل مشاركة عامة. وهناك دائمًا بعض أشياء لا يشعر الناس أنهم بحاجة

http://almaktabeh.com

إلى أن يقولوها، لا سيما حينما تكون متضمنة فى المؤسسات الوطنية المألوفة مثل الملكية أو الكنيسة القائمة.

ويمكن استجلاء الحالة الذهنية الإنجليزية فيما بين سنة ١٩٤٠م وسنة ١٩٦٠م من مقالة مؤثرة عنوانها: The Idea of Christian Society كتبها ت. س. إليوت، الذى كان أثناء حياته يعتبر ليس فقط أكبر شعراء العصر، ولكنه كان يعتبر كذلك أشهر محلل اجتماعى. وبشكل أو بآخر أخذ إليوت الرغبة فى وجود مجتمع مسيحى، متمايز عن للمجتمع العلمانى أو الوثنى، وكتب:

«ولكن الثقافة الإيجابية يجب أن يكون لها نظام قيم إيجابى، ويجب أن تبقى المخالفات هامشية، بحيث لا تميل سوى إلى تقديم إسهامات هامشية. . . وإذا ما كانت فكرة المجتمع المسيحى مستوعبة ومقبولة، فيمكن تحقيقها إذن، فى انجلترا، من خلال كنيسة انجلترا. . . وقد تمسكت بأن فكرة المجتمع المسيحى تتضمن بالنسبة لى وجود كنيسة واحدة ستهدف إلى احتواء الأمة بأسرها. وما لم يكن لها هذا الهدف، فإننا سننزلق إلى ذلك الصراع بين المواطنة وعضوية الكنيسة، وبين الأخلاق العامة والأخلاق الخاصة، وهو الصراع الذى يجعل الحياة الأخلاقية اليوم غاية فى الصعوبة للجميع. . .» [وهو يعنى بالاحتواء التضمن أو الاحتضان].

وبعد نصف قرن من التتويج، صار البريطانيون معتادين على التعامل مع احتفالات الكنيسة باعتبارها ممارسة فى تصريح شاعرى. والأزواج الذين لا يؤمنون بالرب، أو الذين ليس لديهم قصد بالاستمرار فى الزواج فترة أطول مما يشعرون أن يروق لهم، يذهبون بانتظام إلى الكنائس الوطنية لكى يقطعوا على أنفسهم عهداً أمام المذبح وأمام الرب القوى «حتى يفرقنا الموت». وما يزال كثيرون منهم يعمّدون أبناءهم - التنصير هو التعبير الأكثر شيوعاً حتى الآن - بينما هم لا يعنون كلمة واحدة من الوعود التى يتطلب منهم أن يتعهدوا بها. وإذا كانوا يعرفون أى شىء عن مراسم التتويج سنة ١٩٥٣م. فإن من المحتمل أن يفترضوا أن أولئك الذين شاركوا فيه فعلا قد فعلوا هذا بنفس روح التمثيل الرصينة ولكن دونما إخلاص. وسيكونون مخطئين فى هذا. لقد بدأ تآكل لغة الاحتفال، ولكن كنيسة انجلترا كانت ما تزال تحظى باحترام كبير، ولا يمكن العبث بها. وكان من المفترض أن الخدمات العامة التى تقوم بها تعنى ما قيل إنها تعنيه.

http://almaktabeh.com

وإذا ما كان مطلوبًا القيام بمواءمات عقلية لفهمها، فقد كانت فقط المواءمة من اللغة الواقعية إلى اللغة الرمزية ومن فك رموز الأعمال الطقسية. وكان ذلك ما يزال يمثل نوعًا ساريًا من الحقيقة. هذه المقاربة إلى معنى الطقوس الكنسية قيض لها فيما بعد أن يتم التصديق عليها من جانب لجنة العقيدة فى كنيسة انجلترا سنة ١٩٨١م، وهو ما قرر بوضوح أنها كانت تحاول أن تؤسس ما كان منذ زمن طويل الأسلوب الأنجليكانى فى هذه الأمور: «إن هذه المعتقدات التى تستحوذ على عقول الناس بالتضمين لها قوة إقناع كبرى من التأكيدات... وكلما كانت المذاهب أكثر شمولاً وأساسية؛ فإنه يحتمل أكثر أن يتم حفظها فى الأساطير والرموز والطقوس ونماذج السلوك فى الجماعة المؤمنة بدلاً من أن توضع بوضوح فى الاقتراحات الرسمية».

ولذلك، إذا كانت أيمان التتويج التى تم القسم بها ذات جزئين عن الإدارة المدنية للكومنولث والإمبراطورية التى تضم حوالى ٤٠٠ مليون نسمة، وأربعة أجزاء عن الحفاظ على امتيازات كنيسة انجلترا، فإن هذا أوضح فقط مدى أهمية كنيسة انجلترا. وإذا كان هذا صحيحًا حقًا، كما كتب وليم تمبل سنة ١٩٤١م ، أن كنيسة انجلترا كانت المؤسسة الدينية الفريدة فى العالم التى أخذت المسيحية بشكل صحيح، على حين أخذها الباقون بشكل خاطئ، وإذا كان أخذ المسيحية بطريقة صحيحة قد صنع الفرق بين الأرواح الذاهبة إلى السماء بعد موتها أو الذاهبة إلى الجحيم، فإن كنيسة انجلترا إذن كانت حقًا من الأصول الوطنية، ولها أهمية لا تبارى باعتبارها قيمة مركزية. وكان هذا هو أكثر ما يفخر به الإنجليز ويحمدونه. فقد كان فى قلب ميثاقهم مع الرب. والوعود بالإدارة المدنية الحكيمة وبالعدالة والرحمة فى ساحات القضاء، كانت ذات أهمية أدنى بالمقارنة مع هذا.

وفيما بعد، كانت كنيسة انجلترا نفسها تدخل فى نوع آخر من التناول لاحتفالاتها وتكرر الكلمات كما لو كانت حقيقية دون أن يكون هناك اقتناع كامل ونهائى بها. وحقيقة أن الأجيال السابقة من الأنجليكان قد أخذوا كلماتها الرسمية باعتبارها أفعالاً حقيقية حرفيًا كانت لها قيمة برهانية، بيد أنها ليست تعهدية. ومن الواضح أن عادة رجال الإكليروس فى النطق بكلمات رزينة فى المناسبات العامة، فى حين لايوافقون عليها بينهم وبين أنفسهم، كانت عادة واسعة الانتشار.

http://almaktabeh.com

ولكن هذه لم تكن حالة الكنيسة سنة ١٩٥٣م؛ إذ كانت مراسم التتويج تعنى أن ما يقال هو المعنى حقًا. وعدم الحفاظ على أن ما يقال هو المعنى قيض له أن يصبح فيما بعد عاملاً قويًا فى هدم الثقة العامة فى الديانة الرسمية، فقد اعتبرت كلها تدريجيًا استعراضًا بلاغيًا وأسطوريًا ودينيًا. أو أنها غير حقيقية بالمرة. وهذه هى المتاعب التى تنجم عن دستور غير مكتوب، ويمكن أن يتفكك. ولا يوجد شخص إنجليزى يؤمن حقًا بكل شيء كان التتويج قد حدث من أجله: بل إن كثيرين الآن لا يؤمنون بأى شيء فيه. وكل أمريكى يؤمن بكل شيء يدافع عنه الدستور الأمريكى.

وليس هناك بعد آخر لمراسم التتويج لم يكن واضحًا فى الحال لأى مراقب من الخارج؛ إذ إن قسم التتويج الذى أقسمته الملكة كان يتضمن الإيماء إلى تهديد غير محدد. فلماذا كان عليها أن تقسم على أن تستخدم «أقصى سلطتها» للحفاظ على امتيازات كنيسة انجلترا، ما لم يكن أحد آخر، لم يحدد بالاسم، يحاول سرقتها؟ وليس هنا مفتاح يدلنا على طبيعة التهديد سوى كلمات «البروتستانتية الإصلاحية» على ما يبدو. ومن هناك يصبح التهديد أوضح قليلاً. إنه تهديد معاد للبروتستانتية، وبعبارة أخرى هو التهديد الكاثوليكى الرومانى. وهو البابا الذى صوره جون بونيان فى قصته الخرافية.

والإشارة إلى التهديد الكاثوليكى يصبح أكثر وضوحًا إذا ما أخذ المرء فى اعتباره التاريخ الماضى لقسم التتويج فى انجلترا. فقد كان القسم الذى أقسمته الملكة إليزابيث الثانية فى دير وستمنستر بالتمسك بالديانة البروتستانتية، كان أحد قسمين يتطلبها القانون الدستورى الإنجليزى. وفى صعودها على العرش بعد وفاة والدها الملك جورج السادس، كان مطلوبًا منها أيضًا أن تقسم أمام البرلمان: «إننى أعترف برصانة وإخلاص فى حضور الرب، وأشهد وأعلن أننى بروتستانتية مؤمنة وأننى سوف أبقى كذلك، حسب القصد الحقيقى للقوانين، وسوف أضمن التتابع البروتستانتى إلى عرش مملكتى، وأتمسك وأحافظ على مثل هذه القوانين قدر طاقتى».

كانت تلك هى صيغة الكلمات التى أقرها البرلمان منذ سنة ١٩١٠م، حينما تمت مراجعتها بناء على إصرار جورج الخامس الذى كان قد اعتلى العرش لتوه بعد وفاة إدوارد السابع؛ إذ إنه اعتبر أن القسم الذى أقسمه أبوه سنة ١٩٠٢م إهانة وعدوانا

http://almaktabeh.com

على كثيرين من الرعايا الكاثوليك الرومان فى الإمبراطورية البريطانية ـ ولا غرو، فإن كلمات القسم قبل سنة ١٩١٠ درس موضوعى فى كيفية إمكان جعله عدوانيا. وكانت هناك شكاوى مريرة بشأن الكلمات التى لم تراجع فى القسم، جهر بها الكاثوليك فى أيرلندا واستراليا، التى يسكن بها عدد كبير من الأيرلنديين الكاثوليك، وفى كندا التى يسكن بها كثيرون من الكاثوليك الفرنسيين، وكذلك للمحاولات المختلفة للتعديلات فى مجلس العموم. ولذلك كانت صيغة القسم سنة ١٩٥٣م صيغة توفيقية.

كان الإعلان الملكى الذى كان على الملكة إليزابيث أن تعلنه أمام البرلمان، والذى أقسمه بالفعل إدوارد السابع وڤيكتوريا وكل الملوك منذ وليم ومارى سنة ١٦٨٩م بالفعل. كالتالى:

«أنا .... برحمة الرب، ملك (أو ملكة) انجلترا وسكوتلندا، وأيرلندا، المدافع عن العقيدة، أنطق برصانة وإخلاص فى حضرة الرب، وأشهد وأعلن أننى أؤمن أنه فى العشاء الربانى ليس هناك حلول لعناصر الخبز والنبيذ فى جسد المسيح ودمه عند عمل القداس أو بعده من جانب أى شخص كان: وأن بدعة أو تبجيل مريم العذراء أو أى من القديسين الآخرين، والتضحية فى صلاة القداس، كما تستخدم الآن فى كنيسة روما، أمور خرافية ووثنية. كما أننى برصانة أنطق وأشهد وأعلن فى حضرة الرب، أننى فعلاً أصرح بهذا الإعلان، ومن ثم كل جزء، بالمعنى الواضح والمعتاد للكلمات التى تليت على، والتى يفهمها عمومًا البروتستانت الإنجليز».

كانت المذاهب التى يجب إنكارها هى المذاهب المميزة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية والتى كانت كنيسة انجلترا ترفضها، ولذلك كان من الشائع عالميًا أن الكاثوليك الرومان المؤمنين لا يمكنهم أن يقسموا هذا القسم. والمادة ٢٢ من المواد التسع والثلاثين فى ديانة كنيسة انجلترا أعلنت: «إن المذهب الرومانى الخاص بالتطهر، والمغفرة، والعبادة والعشق الدينى، وكذلك فيما يتعلق بالصور والذخائر المقدسة، وكذلك تبجيل القديسين، هو شىء بعيد التحقيق مبتدع بلا فائدة، ولا يقوم على أى أساس من الكتاب المقدس، ولكنه بالأحرى، رفض لكلمة الرب». وقد قررت المادة ٢٨: «إن الحلول أو تحول مادة الخبز والنبيذ فى العشاء الربانى لا يمكن البرهنة عليه من

http://almaktabeh.com

الكتاب المقدس، ولكنه خروج على كلمات الكتاب المقدس الواضحة، ويطيح بطبيعة السر المقدس، كما أنه أتاح الفرصة لظهور خرافات كثيرة». والمادة ٣١ أدانت التضحيات فى صلاة القداس، والتى يشيع فيها القول إن الكاهن قدم المسيح للمريض والميت لكي يرفع عنه الألم أو الذنب، كما أنها وصمت هذه الأمور بأنها خرافات وتجديف، وخداع خطير. ومنذ سنة ١٨٦٥ كان على رجال كنيسة انجلترا أن يعلنوا أن المذهب الذى تتضمنه المواد «يتوافق مع كلمة الرب» التى كان مفهومًا أن من الزيف أن يحلفوا بأنها توافقهم، وهو ما كان يطلب منهم القيام به من قبل.

وطلب أداء يمين التتويج قد أرسى فى مرسوم الاستيطان سنة ١٧٠١م. وهذا أيضا يعلن أن أى شخص «يأخذ التاج أو يرثه . . . ويتصالح أو سوف يتصالح مع كنيسة روما أو يتصل بها، أو ينطق بالديانة الرومية، أو يتزوج أحد رعاياها . . . سوف يعامل كما لو كان ميتًا من الناحية القانونية بالنسبة لمسألة اعتلاء العرش، ويتم تجاوزه بحيث يمر التاج إلى من يليه فى أحقية العرش (بشرط ألا يكون من يلونه فى خط الوراثة غير مؤهلين مثله)». ويعلن المرسوم أيضًا أن «كل من يأخذ هذا التاج من الآن فصاعدًا، سوف يرتبط بكنيسة انجلترا، حسبما قرره القانون المستقر».

وكون هذا القسم العام غير العادى كان مطلوبًا من الحاكم البريطانى أمر يدعو إلى السخرية إلى حدما. فبحلول سنة ١٩١٠م لم يعد مطلوبًا من أى من رعاياه أن يقسم هذا القسم. وكان هذا عكس الحالة التى تقدم فيها هذه الكلمات للمرة الأولى، وتحت ما كان معروفا باسم «مرسوم الاختبار» - وهو مصطلح يدل على سلسلة من القوانين المضادة للكاثوليكية، بعضها يمكن تطبيقه على انجلترا، وبعضها على أيرلندا، وبعضها على المستعمرات. ففى البداية، كان القسم المعادى للكاثوليكية مطلوبًا من الرعايا، ولكن ليس من الحاكم. وأداء هذا القسم كان شرطًا للتعيين فى وظائف كنيسة انجلترا، وشرطا لدخول جامعتى أوكسفورد وكمبردج، وشرطًا للالتحاق بالجيش أو البحرية الملكية، ولا بد من أداء هذا القسم للانضمام إلى السلك القضائى أو للدخول فى عضوية البرلمان.

ويرجع أكثر الأيمانات تطرفًا فى مرسوم الاختبار إلى سنة ١٦٧٨م. وكانت تلك هى سنة الكشف المزعوم الذى قام به شخص يدعى تيتوس أواتيس لمؤامرة أعدها

http://almaktabeh.com

عدد من الكاثوليك، وفيهم بعض الچيزويت، لقتل الملك شارل الثانى وإجلاس دوق يورك (وهو الملك چيمس الثانى فيما بعد، والذى كان آخر ملوك انجلترا الكاثوليك) على العرش مكانه. وقبل أن تدرك السلطات أن أواتيس قد لفق الأمر كله، كان قد اتهم حوالى خمسة وثلاثين شخصا من الكاثوليك بتهمة الخيانة، وكان آخر ضحية فى سنة ١٦٨١م، هو كبير أساقفة أرماغ الكاثوليكى، أوليڤر بلنكت، الذى تم تكريسه الآن شهيدًا فى الكنيسة الكاثوليكية. وقد كان الكاثوليكى الأخير الذى يموت فى سبيل العقيدة فى انجلترا. وقد لحق العار بتيتوس أواتس، وسجن كما فرضت عليه غرامة مالية وتم جلده، ولكنه عاد إلى الحظوة مرة أخرى بعد سقوط الملك چيمس الثانى، وأعطته الدولة معاشا تقاعديًا.

وكانت هناك أيمانات ضد الكاثوليكية قبل سنة ١٦٧٨م، وكان أحدها يصر على أن من يؤدى القسم يجب أن ينكر حق البابا فى عزل أى حاكم إنجليزى (وهو ما نتج عن الحرمان البابوى الذى أصدره البابا ضد الملكة إليزابيث الأولى ومحاولة عزلها سنة ١٥٧٠). بل كان هناك قسم أكثر بساطة يعود إلى القرن السابع عشر ينكر مذهب الحلول الكاثوليكى، تسبب فى أن يستقيل دوق يورك من منصبه كقائد بحرى أعلى Lord High Admiral. ولكن من دلائل التناقض، أنه بينما كان ممنوعًا بالقانون من خدمة أخيه الملك، فإن القانون نفسه لم يكن يمنعه من أن يصبح هو نفسه الملك. وكان أحد مشروعاته الكبرى خلال فترة حكمه القصير، وأيضا أحد الأسباب الكبرى فى خلعه بواسطة البرلمان سنة ١٦٨٨م، يتمثل فى رغبته فى إلغاء مرسوم الاختبار أو تعديله على الأقل (وكان قد أوقفه بالفعل فى نيويورك حينما كانت لفترة من الزمن تحت إدارته المباشرة باعتباره دوق يورك. بل إنه عين حاكما كاثوليكيًا وموظفًا كاثوليكيًا آخر).

وكان بعض الكاثوليك قد حاولوا بالفعل تحييد قوة الصيغة السابقة بأنها لم تكن تعنى ما يبدو أنها تعنيه. ومن ثم جاءت الإشارة الغريبة فى نسخة سنة ١٦٧٨ إلى «المعنى العادى والواضح للكلمات التى تليت علىّ، كما هى مفهومة بشكل عام من جانب البروتستانت الإنجليز». وعلى الرغم من الدّس فى اللغة، فلم يكن الكاثوليك يعتقدون أن البابا يمكن أن يعفو الناس من القسم إذا ما تم أداؤه. وربما كان البرلمان الإنجليزى يفكر فى نفسه. إذ كان يدعى أن له سلطة الإعفاء من القسم، وألغى يمين

http://almaktabeh.com

الولاء للملك جيمس الثانى بعد أن سيق إلى المنفى سنة ١٦٨٨م. ورفض ثمانية أساقفة من كنيسة انجلترا، كان معظمهم معارضين لسياسات جيمس الثانى الدينية، أن يتخلوا عن يمين الولاء الذين أقسموا عليه، وفقدوا وظائفهم. وكان هناك حوالى ٤٠٠ من رجال الكنيسة الأنجليكانية أيضا بين هؤلاء «اللامحلفين».

وقد تم إلغاء مرسوم الاختبار نهائيًا سنة ١٨٢٩م، على الرغم من أن الشائعات بأن الحكومة تنوى إلغاءه كانت أحد العوامل التى أدت إلى أحداث شغب جوردون فى لندن سنة ١٧٨٠م. والواقع أن الإلغاء الحقيقى لمرسوم الاختبار فى كندا كان من الأسباب التى أسهمت فى الحرب الثورية الأمريكية ضد البريطانيين، ومن ثم استقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا. وكان الغزو العسكرى لكندا - بما فيه الحصار القصير المدى للعاصمة كويبك - كان أحد أوائل المغامرات التى قامت بها القوات العسكرية للجمهورية الجديدة (الولايات المتحدة الأمريكية)، وأقلها نجاحًا.

وقد صمم مرسوم كويبك الذى صدر سنة ١٧٧٤م للتعامل مع الأسئلة الكبرى التى ثارت أثناء محاولة جعل المستعمرة الفرنسية فى كندا إحدى مقاطعات الإمبراطورية البريطانية فى أمريكا الشمالية. ومن بين هذه الأسئلة كان السؤال عما إذا كان يمكن جمع مجلس عندما يكون كل سكان مقاطعة كويبك تقريبا، من الكاثوليك الرومان، وبالتالى سيكونون بسبب مرسوم الاختبار، لا يصلحون قانونًا لأن يمثلوا الشعب، وما إذا كان سيسمح لممارسات الديانة الكاثوليكية الرومانية بالاستمرار، وعلى أية شروط؛ وما إذا كان القانون الفرنسى أو الإنجليزى هو الذى سوف يستخدم فى ساحات العدالة.

والمرسوم، بإعلانه أن ليس من المناسب دعوة مجلس للانعقاد، وضع سلطة التشريع فى أيدى الحاكم ومجلسه الاستشارى. ولكن ممارسات الديانة الكاثوليكية الرومانية صارت مسموحًا بها، وخولت الكنيسة سلطة الاستمرار فى جمع العشور. واكتسحت أمواج الأحداث مرسوم الاختبار، واستبدل قسم الولاء بحيث يتم السماح للكاثوليك الرومان بتولى الوظائف. وقد أدى هذا إلى انتشار المخاوف فى المستعمرات الأمريكية من أن مرسوم كويبك قد يرى إحياء الحكم

http://almaktabeh.com

الفرنسي؛ لأن فرنسا في ذلك الوقت كان ينظر إليها على أنها من الممكن أن تعادى المستعمرات لحساب بريطانيا.

ولكن دائرة المعارف البريطانية، والتي منها أخذنا هذا الملخص للقصة، سياسية في توجهها أكثر من اللازم. فقد فشلت في أن تذكر التأثير القوى للشعور الخالص بمعاداة الكاثوليكية على غزو كندا. فعلى سبيل المثال، كان الكونجرس القارى، الذى اجتمع في سبتمبر ١٧٧٤م، قد عبر عن غضبه الشديد للجمهور البريطاني من أن «البرلمان البريطاني ما كان يجب أن يوافق أبدًا على أن يؤسس في هذه البلاد، أى كويبك، ديانة أغرقت جزيرتكم في الدماء». ومن الواضح أن أعضاء الكونجرس كانوا معتادين على اضطهاد البروتستانت في القرن السادس عشر تحت حكم الملكة مارى الأولى الدموية حسبما ورد في كتاب فوكس «كتاب الشهداء - Book of Martyrs»، وأخذوها أمرًا مسلمًا به أن البريطانيين سيوقعون بهم نفس الاضطهاد. وصحيفة Pennsylvania Packet، قالت إنه لم يكن هناك أبدا من قبل مثل هذه المحاولات المكشوفة ضد نجاح الديانة البروتستانتية. ويوم البابا في الخامس من نوفمبر (يوم جاى فوكيس بالنسبة للإنجليز) تم الاحتفال به بنوع خاص من الغضب سنة ١٧٧٤م. وعلى أية حال، فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى منع واشنطون جيشه من الاحتفال باليوم، خوفًا من إغضاب أصدقاء أمريكا الكاثوليك الجدد، أى الفرنسيين.

هكذا تغذت الحملة على كندا بنفس الغضب البروتستانتي الذى تسبب في قيام غوغاء لندن بأعمال الشغب بعد ذلك بخمس سنوات، وحرقوا ونهبوا كل ممتلكات الكاثوليك التي استطاعوا العثور عليها في أنحاء المدينة. وكان هدف المشاغبين المباشر هو مرسوم التخفيف عن الكاثوليك الصادر سنة ١٧٧٨م، والذى ألغى بعض العقوبات القانونية على ممارسة العقيدة الكاثوليكية. ولم يذهب إلى المدى الذى ذهب إليه مرسوم كويبك بحيث يلغى مرسوم الاختبار، على الرغم من أن اللورد جوردون قائد الشغب كان به هوى إلى افتراض أن ذلك سوف يأتى فيما بعد. ورواية تشارلز ديكنز «Barnaly Rudge» تقدم لنا صورة حية عن الواقعة. ولكن لا غزو كندا، ولا أحداث الشغب في لندن، قد جلبت أية فوائد لزعمائها. إذ تم القبض على اللورد جوردون وحوكم ثم عزل، ولكنه فيما بعد مات بالسجن في مسألة أخرى لا علاقة لها بالموضوع. أما بندكت أرنولد، القائد الأعلى للقوات

http://almaktabeh.com

العسكرية الذى نجا من الحملة الكندية، فقد خان جماعته لصالح البريطانيين، وهو يصنف بوصفه خائنًا حتى اليوم.

هذا العدوان الأمريكى على التراب الكندى حال دون أى احتمال لأن ينضم غالبية الكنديين لجيرانهم الجنوبيين فى التمرد ضد التاج (على الرغم من أن بعض الكنديين البروتستانت المتشددين ارتحلوا بالفعل إلى الجنوب عندما انتهت الحرب ضد بريطانيا)، وكذلك لم تكن الأيمان التى تقسم بكبت الكاثوليكية لصالح أمريكا الشمالية بعد ذلك. وربما كانت لحقيقة أن الكاثوليك من فرنسا حاربوا فى الجانب الأمريكى أثرها على الرأى العام الوطنى. والمادة رقم ٦ من دستور الولايات المتحدة، والسارى منذ سنة ١٧٨٩م، أرست مبدأ أنه «لن يطلب أى اختبار دينى أبدًا كمؤهل لشغل أى منصب أو وظيفة عامة فى الولايات المتحدة». واستخدام كلمة اختبار يحمل دلالة واضحة؛ إذ إن هناك شرطًا مماثلاً مكتوبًا فى دساتير معظم الولايات الأمريكية.

وراى رفائيل فى كتابه The American Revolution ,a Peoples History صريح بشكل محمود فيما يخص التعصب الكامن وراء الحملة الكندية.

«وإذ كان القادة العسكريون الأمريكيون يأملون فى إحياء الحماسة الوطنية، فإنهم قرروا أن يأخذوا زمام المبادرة بأن يضربوا حيثما يكون البريطانيون ضعافًا. وفى المقابل يصعب رؤية كيف أن غزو مستعمرة أجنبية له علاقة بالحرب ضد الطغيان داخل الوطن، بيد أن الأمريكيين المنغمسين فى الديانة البروتستانتية لم يجدوا مشكلة كبيرة فى صياغة وتلفيق الحافز لغزو معقل الكاثوليكية على حدودهم الشمالية. إذ كانت بريطانيا منذ وقت قصير قد وضعت كل الأراضى غرب الأپالاش تحت السيطرة الكندية، بينما منحت فى الوقت نفسه الاعتراف الرسمى بالكنيسة الكاثوليكية فى كويبك. ولاحظ البروتستانت الأمريكيون من كل المذاهب من الشماليين الجماعيين حتى الجنوبيين الأنجليكانيين، التشابه الواضح بين الطغيان السياسى للملك البريطانى والطغيان الدينى للبابا الكاثوليكى: وفى كل من الحالين كان ثمة حاكم مستبد يتدخل فى حرية الأفراد بحيث يحول بينهم وبين أن يعيشوا ويتعبدوا كما يشاءون. وكانت الحملة على كندا، وهى عملية تنظيف قارية باسم

http://almaktabeh.com

الحرية الدينية والسياسية، تحمل وعوداً بخلع الطاغيتين فى الحال. وهنا حدث الشغب الأكبر فى يوم البابا- ولم يكتف بحرق الممتلكات هذه المرة. وتكلم أحد قساوسة الجيش عن الكثيرين عندما كتب فى يومياته: «كانت مشاهدات بهيجة عن اليوم المجيد للسلام العالمى وانتشار الإنجيل فى أنحاء هذه البلاد الشاسعة الممتدة، والتى كانت على مدى العصور سكنًا للشيطان ومملكة للمسيح الدجال».

وفى ضوء هذا، فلا غرابة فى أنه قبل التتويج سنة ١٩٠٢م والتتويج سنة ١٩١٠م كانت الحكومة الكندية تضغط بشدة لتعديل الإعلان الملكى الذى يعلنه الملك البريطانى (والذى كان أيضا رئيس الدولة فى كندا) عند بداية حكمه. وكان المشرعون الكنديون قد تحرروا من اضطرارهم لأداء اليمين بمثل هذا الإعلان المجافى والمعادى للكاثوليكية سنة ١٧٧٤م، كما تعين عليهم فى الواقع أن يحاربوا لدفع غزو أمريكى كان غرضه الرئيسى، بلا شك، هو إعادة فرض هذا الإعلان بالبندقية التى تحارب فى سبيل الحرية. وكون أن هذا لم يكن موضوعًا محبوبا لدى المؤرخين الأمريكيين لفت انتباه كيفين فيليبس فى كتابه «The Cousins Wars»: «بالنسبة لكثير من البريتون والمستعمرين البريطانيين فى القرن الثامن عشر، كان المذهب الكاثوليكى الرومانى مؤامرة يقودها البابا لصالح الديانة الوثنية والحكومة الفردية المستبدة الطاغية. . . وقد تابع المؤرخون البريطانيون هذا الإصرار الدينى بهمة أكثر بكثير من زملائهم الأمريكيين، ولكن كلاً من البلدين قد تأثر بهذا».

وفى كتابه «The Language of Liberty» سمى المؤرخ جـ. سى. دى كلارك خبث وقوة المعاداة الأمريكية الشعبية للكاثوليكية: الموضوع المكبوت فى التاريخ الاستعمارى الأمريكى. وكتاب التاريخ الذى ألفه رفائيل يؤكد هذا بدلاً من أن يواجهه؛ لأنه كتب بعد كتابه تعليق فيليبس، ولأنه نوع ما من التاريخ المضاد، نظرة مراجعة للفروض المقبولة فى التاريخ الأمريكى.

ويمتدح فيليبس البريطانيين لكونهم أكثر أمانة فى هذا الجانب من ماضيهم. حقًا أن كل آثار معادة الكاثويكية قد أزيلت من الجوانب العامة والطقسية فى دستور الولايات المتحدة، وبداية تولى رئيس جديد مهام منصبه، عملية إذا لم تكن كلها علمانية فهى على الأقل ليست مناسبة مذهبية أو طائفية. ولم يكن هذا قد صار بعد هو المعمول به

http://almaktabeh.com

فى الطقوس البريطانية المشابهة، أى مراسم التتويج. ولكن الاحتفال الأمريكى يميل إلى أن يعنى ما يقوله، على حين أن الاحتفال البريطانى لم يعد يفعل ذلك.

ولا ينبغى افتراض أن القصد العمد لأولئك الذين يشاركون فى مراسم التتويج هو عزل أو استبعاد أى كاثوليك حقيقيين أحياء، بأكثر مما كان قصد الناس الذين احتفلوا بيوم جاى فوكيس فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر سنويًا. فالواقع أن رئيس الاحتفالات فى دير وستمنستر يوم ٢ يونيو ١٩٥٣ - مثلما كان الحال فى حفل تتويج والد الملكة، الملك چورج السادس سنة ١٩٣٧م - كان بحكم التقاليد هو الأيرل مارشال لانجلترا، وهو منصب يتولاه أسمى النبلاء غير الملكيين فى المملكة وهو الدوق السادس عشر لنورفولك. وقد كان نورفولك كاثوليكيا رومانيًا راسخًا مثل أجداده - إذ كان أحدهم قد كرسه البابا شهيدًا كاثوليكيًا فيما بعد فى القرن السادس عشر. ومثلما شرحت بمزيد من التفاصيل فى فصول أخرى من هذا الكتاب، فإن الوظيفة الحقيقية لمعاداة الكاثوليكية فى النظرية الدستورية الإنجليزية منذ عصر الإصلاح الدينى كانت حماية الهوية الدينية والسياسية للدولة الوطنية الإنجليزية؛ إذ إن الكاثوليكية الرومانية تقوض الأساس اللاهوتى لهذه الهوية. وبطبيعة الحال، فإن هذه المعاداة المؤسسية للكاثوليكية ساعد عليها الانحياز الشخصى ضد الكاثوليك الأفراد. فقد كان من الأسهل إقناع الجماهير بأن الكاثوليكية مدانة إذا ما كان أولئك الذين يمارسون هذه العقيدة يصورون على أنهم مستهترون، بلا أخلاق وخونة (سواء كان ذلك حقيقة أم لا).

وثمة اعتراض خطير على هذه الطريقة فى فك رموز التتويج يمكن توقعه. وهو أنه على الرغم من الرمزية فإن أولئك المشاركين لم يكن لديهم أى وقت للمشاعر المعادية للكاثوليكية، وأنهم اعتبروا اليمين بالحفاظ على كنيسة انجلترا، مثل تحفة قديمة وبالجملة بقايا فارغة تنتمى إلى زمن غابر (تمامًا مثلما لو كان على الملكة أن تقسم على الحفاظ على سجل المآثر فى برج لندن). ومنذ ذلك الحين فصاعدا تحلت الهوية الوطنية الإنجليزية بثقة فى التتويج، بحيث إنها لم تكن بحاجة إلى أن تعرف نفسها بواسطة معارضة بعض الديانات الأخرى؛ إذ إن هذا ربما أعطى الكاثوليكية أهمية فى هيكل الأمور الإنجليزى أكثر مما تستحقه بالفعل.

http://almaktabeh.com

وباعتباره ملاحظة اجتماعية يكتسى الاعتراض بعض الأهمية؛ إذ إن الحالة الفعلية للكاثوليكية فى انجلترا فى خمسينيات القرن العشرين كانت حقًا إلى حد كبير لا علاقة لها بالفهم الذاتى الوطنى. إذ كانت لها أجندتها الخاصة، التى كانت تؤثر على بقية الوطن فقط حينما يكون هناك تصادم مصالح. وكما كتبت فى The worlock Archive كانت الكنيسة الكاثوليكية الإنجليزية سنة ١٩٥٣م، تحت قيادة الكاردينال برنارد جريفين، ولأسباب اجتماعية وتاريخية جيلة تماما، أبعد ما تكون عن العزلة. فقد حافظت على نفسها لنفسها. والواقع أن المراسم الأنجليكانية الخالصة فى التتويج فى تلك السنة ربما كانت مصممة على أساس إبعادها. فقد جددت الوطن بطريقة جعلت الكاثوليك يشعرون أنهم، وإن لم يستبعدوا تمامًا، فإنهم كانوا على الهامش. بيد أن الكاثوليك الإنجليز لم يكونوا راغبين فى تحدى الصعود الأنجليكانى بأى حال. ذلك أنهم فضلوا أن يهتموا بشئونهم الخاصة.

* * *

http://almaktabeh.com

http://almaktabeh.com

(٢)
تتابع المواثيق

لم يعد بوسعنا أن نأخذ مسألة الاعتياد والألفة مع الكتاب المقدس أمرًا بديهيًا، سواء العهد القديم أو العهد الجديد. وربما تكون الملكة ڤيكتوريا قد وصفته بأنه كنز العالم الذى لا يقدر بثمن. وهو ما يزال يشكل قطعة من الأدب الإنجليزى لا تبارى؛ إذ إنه ملىء بالاقتباسات، مثلما قال أحد الأشخاص عن شكسبير ذات مرة. وقد تسربت أجزاء منه إلى اللغة العامة. ولكن الجهل ببقية الأجزاء هو السائد دون منازع، مع أن هذا قائم فى انجلترا بشكل أكثر منه فى أمريكا. وإذ رأى أحد أساتذة الأدب الإنجليزى فى جامعة إنجليزية كبرى أنه يحرز قليلاً من النجاح مع طلابه الذين يدرسون شعر ميلتون، فقد تعين عليه أن ينظم لهم فصلاً دراسيًا مكثفًا لدراسة الكتاب المقدس. إذ كان الكتاب المقدس بالنسبة لجيلهم كتابًا مغلقًا بالمعنى الحرفى للكلمة.

بيد أن هذا عمل له تأثير مباشر على التاريخ الإنجليزى والأمريكى أكثر من غيرهما. وعلى الرغم من أن المرء يتعاطف مع السخط الذى أحس به الأستاذ، فإن دراسة الكتاب المقدس دراسة خالصة باعتباره مصدرًا أدبيًا، وحتى لو كان الهدف تحقيق فهم أكبر لأشعار ميلتون، أمر يشكل ترتيبًا غريبًا للأولويات.

ذلك أن كريستوفر هيل فى دراسته المحددة، والتى تحمل عنوان "The English Bible and The Seventeenth Century Revolution" يقول إن الكتاب المقدس لعب دورًا كبيرًا فى سبك الوطنية الإنجليزية، وفى تأكيد تفوق اللغة الإنجليزية فى مجتمع كان منذ القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر محكومًا بالنورمان الناطقين باللغة الفرنسية. وفى سماحه بنشر نسخة إنجليزية من الكتاب المقدس، كان هنرى الثامن «مهتمًا بشكل أساسى بتأمين استقلال انجلترا السياسى عن

http://almaktabeh.com

البابوية». وهكذا كان جزءاً حاسماً من النضال لتأسيس أول دولة وطنية فى العالم مستقلة بنفسها(*).

وفى الثورات الإنجليزية التى وقعت فى القرن السابع عشر، تطلع كل الفرقاء صوب الكتاب المقدس يلتمسون العون والتأييد. ويؤكد هيل أنه بنهاية القرن الثامن عشر، وعلى النقيض من ذلك، لم يعد الكتاب المقدس يعتبر مصدراً للحقيقة كلها، بل إن حركة التنوير تجاهلته بالفعل. ولكن الأحكام تأتى ضد الأدلة إلى حد ما. فربما لم يعد الكتاب المقدس تفسيراً كلياً لكل شىء، كما كان من قبل. بيد أنه كان ما يزال صاحب تأثير كبير فى السياسات؛ بسبب سيطرته على الخيال العام على أقل تقدير.

ولذلك فإنه حينما يكتب «إنه لم يعد كتاب الثوريين» - مشيراً إلى تأثير الكتاب على كرومويل والپيوريتان قبل قرن من الزمان. فإن رأيه صادق فقط على جانب واحد من الأطلنطى، وحتى فى ذلك الحين يكون قد أصاب الموضوع مباشرة. وكما توضح ليندا كولى بشكل مقنع فى كتابها الفذ Britons، فإن الديانة المرتكزة على الكتاب المقدس كانت فى مركز الأيديولوجية البروتستانتية للهوية البريطانية والتى استخدمت لجعل اليعاقبة متأهبين على مدى الشطر الأكبر من القرن الثامن عشر. وكون وظيفتها ثورية أم مضادة للثورة يتوقف على الجانب الذى يسانده المرء. فقد كان اليعاقبة أتباع الملك المخلوع الستيوارتى والكاثوليكى چيمس الثانى، وذريته الكاثوليكية، والذى أطيح به على يد من أطلق عليهم مؤيدو وليم ومارى اسم الثورة المجيدة. وقد استخدموا الكتاب المقدس لدعم ثورتهم، من ثم؛ ولكن ما إن تسلموا السلطة، حتى صار اليعاقبة بدورهم هم الثوريين، وحينئذ استخدم الكتاب المقدس ضدهم. ومن ناحية أخرى، فإن استخدام الكتاب المقدس ضد الثورة المجيدة لم يكن يهم اليعاقبة كثيراً فى حد ذاته، على الرغم من أنه لقى كثيراً من الاهتمام من رجال الكنيسة البروتستانت الذين بقوا على عهودهم التى أقسموا بها للملك الستيوارتى (من أسرة ستيوارت).

(*) ربما لو قال المؤلف «أول دولة وطنية مستقلة بنفسها فى العالم الحديث لكان كلامه صحيحاً؛ ولكنها المركزية الأوروبية، فقد كانت هناك أمم ودول، قبل القرن الرابع عشر بآلاف السنين. (المترجم).

http://almaktabeh.com

وكان الكتاب المقدس فى الحقيقة هو كتاب الثوريين فى المستعمرات الأمريكية عندما اتسع النزاع مع البريطانيين حتى وصل إلى نقطة اللاعودة. ولم يتضح هذا على نحو أفضل من اجتماع الكونجرس القارى الأول، والذى اجتمع فى سبتمبر ١٧٧٤م عندما باتت الحرب مع انجلترا وشيكة. وعندما وصلت أنباء قصف المدفعية البريطانية لبوسطن إلى فيلا دلفيا، قام قس أسقفى أنجليكانى، هو المبجل يعقوب دويتشى، بقيادة المجلس فى الصلاة. ولم يكن من طائفة البيوريتان.والواقع أن هذا كان أحد الأسباب فى أن مندوب نيوانجلاند، سام آدامز، اقترحه هو لقيادة الصلاة، رمزاً للوحدة فى وقت فريد فى الأزمة. ولكن النص الذى اختار أن يقرأه، والكلمات التى قالها عقب ذلك، يمكن فهمها بوضوح على أنها تجنيد للكتاب المقدس فى صف أمريكا فى الصراع القادم. فهو يضع أمريكا مكان إسرائيل، ويطلب دفاع الرب عن إسرائيل فى العصور القديمة متوسلاً بأنه سبب لكى يدافع عن أمريكا الآن. وبينما كان المندوبون يحنون رءوسهم، وكان المندوب الفيرجينى جورج واشنطن يشاهد راكعًا، وقد اختار دويتشى المزمور الخامس والثلاثين: «خاصم يارب مخاصمى، قاتل مقاتلى. أمسك مجنا وترسا وانهض إلى معونتى. واشرع رمحًا وصد تلقاء مطاردى. قل لنفسى خلاصك أنا. ليخز وليخجل الذين يطلبون نفسى. ليرتد إلى الوراء ويخجل المتفكرون بإساءتى ليكونوا مثل العصافة قدام الريح وملاك الرب داحرهم. ليكن طريقهم ظلامًا وزلقًا وملاك الرب طاردهم. . .».

(هذه هى الإشارة إلى «الملائكة فى الريح» التى أشار إليها جورج دبليو بوش فى خطابه الافتتاحى الذى أوردنا فقرات منه فيما قبل). وينتهى المزمور بتذكير أن الذين اختارهم الرب لا ينالون مكافآتهم بالنصر على أعدائهم فقط وإنما بالرفاهية؛ ولكن عليهم فى مقابل ذلك أن يبقوا مؤمنين:

«لا تسكت ياسيد، لا تبتعد عنى. استيقظ وانتبه إلى حكمى يا إلهى وسيدى إلى دعواى. اقض لى حسب عدلك يارب يا إلهى فلا يشمتوا بى. ولا يقولوا فى قلوبهم هه شهوتنا. لا يقولوا قد ابتلعناه. ليخز وليخجل معا الفرحون بمصيبتى. ليلبس الخزى والخجل المتعظمون علىّ. ليهتف ويفرح المبتغون حقى وليقولوا دائمًا ليتعظم الرب المسرور بسلامة عبده. ولسانى يلهج بعدلك. اليوم كله بحمدك».

http://almaktabeh.com

وبينما كان البيوريتان على ألفة بالفعل بأسلوب التبشير الذى يضع نيو إنجلاند مكان إسرائيل، فإن الأنجليكان الكثيرين الحاضرين لابد أنهم كانوا أكثر ألفة مع العادة التقليدية فى صلاة القداس (والتى تم تعديلها ومواءمتها من الممارسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى) فى رؤية كنيسة انجلترا- أو انجلترا فى جانبها الروحى- كما لو كانت تحل محل بنى إسرائيل. وقد حدث فى افتتاح الكونجرس القارى سنة ١٧٧٤م، وبتلك القراءة والصلاة التى أعقبتها، أن أمريكا قدمت نفسها بصورة رسمية فى مكان بنى إسرائيل، وبذلك تطرد انجلترا من هذا المكان وتدعم الزعم البيوريتانى فى هذا الشأن بحيث يضم المستعمرات الثلاث عشرة جميعًا. وقد كان ذلك الامتياز هو حجر الزاوية الذى شيد أمريكا على فهم محدد لأغراض الرب. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا لم يعد الشعب المختار هم اليهود، ولا الكاثوليك، ولا الإنجليز، ولا سكان نيو إنجلاند فقط، ولكن كل الأمريكيين. ومنذ ذلك الحين فصاعدا «الكينونة الأمريكية»، مثل أن تكون يهوديًا أو مسيحيًا، كانت تعنى أن تحوز مكانة دينية متمايزة بوصفك واحدًا من المختارين.

وفى القرنين التاليين بقى إحساس بأن الدخول فى المواطنة الأمريكية كان مثل بدء احتفال بلحظة دينية، تماما مثلما كان التعميد هو عملية بدء العضوية فى كنيسة مسيحية. فقد غيرت الشخصية الأساسية للفرد المهتم، والذى صار يعتبر منذ ذلك الحين- بشكل ثابت- فردًا خاصًا بطريقة لم تكن موجودة من قبل. والمتقدمون بطلب الحصول على المواطنة الأمريكية يأخذون مقررًا دراسيًا عما تتطلبه عضويتهم فى الجنسية الجديدة منهم، ويتم اختبارهم فيه، ثم يقسمون يمين المواطنة الأمريكية فى عملية قسم طقوسية بالولاء فى ظل العلم الأمريكى. وهى تفهم على أفضل شكل باعتبارها جزءًا من عملية مستمرة يتصور فيها الأمريكيون جماعتهم قائمة بفعل من أفعال الإرادة الإلهية، وهى عملية بدأت الآن تبدو كما لو كانت فعلاً من أفعال الدين. وفضلاً عن ذلك، فكل مهاجر بالغ يصير أمريكيًا يفعل ذلك بفعل إرادة، وهو أيضا فعل لإخضاع الإرادة. إذ لا يكون بوسعه بعد ذلك أن يكون هو نفس الشخص الذى كان من قبل: وإنما يختار بدلاً من ذلك أن يخضع لما يتضمنه «أن يكون أمريكيًا».

وقد يشك المرء فى أن كثيرين جدًا من الأمريكيين سوف يعترفون بأن صورة

http://almaktabeh.com

أمريكا المثالية التي كتبها شاعر أمريكا والت هويتمان في مقدمته لطبعة سنة ١٨٥٥م لمجموعته الشعرية «Leaves of Grass» ، هي صورة صحيحة. وما يحتاج غير الأمريكيين إلى أن يتذكروه أن هذا وصف لما يجب أن تكون عليه الأمور، وليس وصفًا لما هي عليه فعلاً، على الرغم من استخدام هويتمان للصوت المباشر. وبعبارة أخرى، فإنه يتخيل أمريكا في الوجود.

«إن الولايات المتحدة نفسها - هي أساسًا - أعظم القصائد . . . وعبقرية الولايات المتحدة ليست أحسن أو أعظم في رجالها التنفيذيين أو المشرعين، وليست في سفرائها وكلياتها وكنائسها أو ردهاتها الفسيحة، ولا حتى في صحفها ومخترعيها . . . ولكنها دائمًا أعظم في عامة الناس. أساليبهم، كلامهم، ملابسهم، صداقاتهم - تجدد وصراحة نفسياتهم - والسعة البهيجة لحافلاتهم . . . وارتباطهم الحي بالحرية، والاعتراف العملي بالمواطن في إحدى الولايات من جانب المواطنين في كل الولايات الأخرى - وقسوة استيائهم إذا ما استثيروا - حبهم للاستطلاع وترحيبهم بالحداثة - اعتدادهم بأنفسهم والتعاطف المدهش - الشك في أقل شيء - ورأيهم في الأشخاص الذين لم يعرفوا أبدًا ماهو الشعور الذي يتولد في حضور من هم أعلى - وطلاقة كلامهم - وفرحهم بالموسيقى، والشعور الأكيد بالرقة الرجولية والرشاقة الوطنية للروح . . . أخلاقهم الطيبة وكرمهم - والمغزى الرهيب لانتخاباتهم - وخلع الرئيس قبعته لتحيتهم وليس العكس - هذا أيضا شعر لا يُنشد».

ثمة تشابهات واختلافات مهمة هنا مع رسالة القديس بولس الشهيرة إلى أهل كورنثوس، وهي تتناقض إلى حد ما مع موافقة هويتمان على «قسوة استيائهم» و«الشك في أقل شيء». تقول الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١٣ : ٤ - ٨):

«المحبة تتأنى وترفق. المحبة لا تحسد. المحبة لاتتفاخر ولا تنتفخ ولا تُقَبِّح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق، وتحتمل كل شيء. وتصدق كل شيء. وترجو كل شيء. وتصبر على كل شيء. المحبة لا تسقط أبدًا. وأما النبوات فستبطل والألسنة فستنتهي والعلم فسيبطل».

وعلى الرغم من هذه الاختلافات في المحصلة، فإن التشابه بين عملية بدء المواطنة الأمريكية والطقس المسيحي لبداية المعمودية (سر المعمودية) قوي. كما أن

http://almaktabeh.com

له نقاطًا مشتركة مع العملية التى بها يتم اعتناق شخص ما اليهودية. وقد تؤكد هذا التشابه عن الطريقة المعتادة التى يتحدث بها الأمريكيون عامة وموظفو الحكومة خاصة عن رفاقهم الأمريكيين كما لو كانوا شعبًا يقف بمعزل عن بقية البشرية. وربما لا يكونون واعين بهذا، ولكن ليست هذه هى الكيفية التى تفكر بها أو تتحدث بها بقية جنسيات العالم عن أنفسهم. فالإنجليزى الذى يذهب للعيش فى فرنسا، حتى لو أخذ الجنسية الفرنسية وتحدث الفرنسية، لن يكون أبدًا أى شىء غير إنجليزى فى نظر نفسه وفى عيون جيرانه الفرنسيين. فهو لا يمكنه أن يريد لنفسه ألا يكون رجلاً إنجليزيًا. فهو يكون ما تخبره ذاكرته أنه هو. لا يمكن أن يؤخذ هذا ضده. كما أن رجلاً فرنسيًا يعيش فى انجلترا لن يتوقف عن كونه فرنسيًا.

هذه إجابة واحدة على أولئك الذين يجادلون بأنه، مهما كانت الطريقة التى ترى بها أمريكا نفسها فى أواخر القرن السابع عشر وفى القرن الثامن عشر، فإنها فقدت منذ وقت طويل إحساسها بنفسها ككيان دينى. فهل ما يزال الأمريكيون يفكرون فى أنفسهم باعتبار أن لهم مصيرا ليس من ابتكارهم تماما؟ وهل يفكر الأمريكيون فى بنى جلدتهم الأمريكيين باعتبارهم مختلفين ميتافيزيقيا ومعرفيًا عن بقية البشرية؟ إن الإجابة يجب أن تكون بنعم، وكل من هاتين العلامتين للتعريف تبدو كأنها قويت إلى حد كبير بفضل الحوادث الجارية، ومنذ الهجمات الإرها بية التى وقعت فى سبتمبر ٢٠٠١م. هذا الشعور بالمصير والإحساس بالخصوصية يذهب إلى تشكيل ما يسميه المعلقون الحديثون «الاستثنائية الأمريكية» (كما فى كتابين حديثين يحملان هذا الاسم، ألفهما سيمور مارتين ليبست وديبورا ل. مارسن). والاستثنائية الأمريكية ليست سوى فكرة الاختيار التى ترجع للقرن الثامن عشر (والانتخاب هى الكلمة الأقل شيوعًا، وهى فى هذا السياق لا تعنى صندوق الانتخابات) فى ثياب حديثة. وتسمية الاستثنائية الأمريكية ديانة، كما لو كانت أمريكا كنيسة يمكن أن تضم إلى مجلس الكنائس العالمى بصورة قانونية، هذه التسمية غلطة تصنيفية واضحة. وتسميتها ديانة بمعنى أن الإسلام ديانة يكون أقرب للحقيقة(*). وستارة الدخان الكبرى التى أخفيت وراءها هذه الرؤية الدينية

(*) يريد المؤلف هنا (القول بأن الإسلام ليست به هيئة كهنوتية وليست به كنيسة مثلما هو الحال فى المسيحية). المترجم.

الأساسية لأمريكا فى التعديل الأول، هى الفصل بين الكنيسة والدولة ، وهو ما سنتأمله بمزيد من التفاصيل فيما بعد.

ويأخذ البريطانيون الأمر إلى الطرف المعاكس؛ إذ إن المتقدمين الذين يستوفون مؤهلات الإقامة وغيرها من مؤهلات التطبيع، حسبما يقول المصطلح، يتلقون خطابًا مقتضبًا من وزارة الداخلية يخبرهم بأنهم يحق لهم الآن أن يتقدموا بطلب الحصول على جواز سفر. والأمريكيون الذين يحصلون على الجنسية البريطانية - عادة فى شكل «جنسية مزدوجة» لا تتطلب منهم التخلى عن حقوقهم الأمريكية - يصطدمون عالميا بالتناقض المتطرف. وفى الوقت نفسه فإن البريطانيين قد بدأوا يفكرون فى أنه، تمامًا مثل متطلبات الإقامة، فإن متطلبات اللغة ستكون أيضًا عاملاً يساعد على إقامة علاقات جماعية طيبة. بيد أنه ليس هناك اتجاه إلى تحويل التطبيع البريطانى إلى سر مقدس كنسى خفى مثلما هو الحال فى أمريكا.

ومن الغريب أن هذه الوضعية الروحية المنافسة لم تظهر أنها تزعج أيًا من حراس الاستقامة الدينية فى أمريكا، ولا الكاثوليك أو البروتستانت أو اليهود أو المسلمين. وربما أعمتهم النظرية الدستورية بالفصل بين الكنيسة والدولة، فلم يلاحظوا أن أمريكا نفسها قد صارت كيانًا شبه دينى. وأما فيما يتعلق بالتساؤل عما إذا كانت معاملة العلم الأمريكى باعتباره مقدسًا ترقى إلى مستوى عبادة الأصنام، فإن الأمريكيين سوف يعتبرون مجرد ذكر هذا التساؤل تدنيسًا للمقدسات.

وكما لو كان يؤكد هذا التمييز، واصل مستر دويتشى قراءته للمزمور ٣٥ مع الصلاة، وفى كلمات هذه الصلاة صارت كلمة الأمريكيين هى الشعب، وهو أمر له مغزاه. وبفعل التكريس هذا أخضع الكونجرس الوطن الذى كان على وشك أن ينشئه لإرادة الرب فى مقابل حمايته، وهى الصيغة الكلاسيكية لميثاق الرب فى الكتاب المقدس. وقال دويتشى فى صلاته:

«أيها الرب أبانا فى السماء ، ملك الملوك وسيد الأسياد عاليًا قويًا، ومن عرشك ترى كل سكان الأرض، يا من تحكم بقوة عظمى مطلقة على كل الممالك والإمبراطوريات والحكومات؛ انظر برحمتك، تتوسل إليك هذه الولايات الأمريكية، التى هربت إليك لتلوذ بك من عصا الظالم، وألقت بنفسها تحت

http://almaktabeh.com

حمايتك الرحيمة، راغبة فى أن تكون من الآن فصاعداً معتمدة عليك فقط؛ إليك لجأت لتشكو عدالة قضيتها، وهى تتطلع إليك الآن طلبا للمساندة والدعم الذى لا يستطيع أن يقدمهما سواك؛ خذها إذن يا أبانا الذى فى السماء تحت رعايتك السامية؛ وامنحها الحكمة والمشورة. . . ولتكن حاضرا، بحكمتك يارب، ووجّه مشاورات هذا المجلس الشريف؛ وساعدهم على تقرير الأشياء على أفضل الأسس وأضمنها، بحيث ينتهى مشهد الدماء بسرعة، ويعود النظام والتوافق والسلام بصورة فعالة؛ وتسود الحقيقة والعدالة، والدين والتقوى وتزدهر بين شعبك».

وقد تأثرت مشاعر أعضاء الكونجرس بعمق. وفيما بعد كتب جون آدامز إلى زوجته: «لم أشهد أبداً تأثيراً أشد على السامعين. فقد بدا وكأن السماء قد رتبت قراءة ذلك المزمور فى ذلك الصباح. . .».

ولم تكن مصادفة أن أولئك الأكثر وعيًا بين السلالة الصاعدة من الوطنيين الأمريكيين تاريخيًا، اعتبروا التمرد الذى قام به كرومويل ضد الملك سابقة للثورة التى يقومون بها؛ إذ إن المثال الذى ساروا على هديه لم يكن قائما على الفعل الذى قام به فقط، وإنما أيضا على ما تمثله أرضيته بالنسبة لهم. إذ إن البيوريتان يجادلون بأن لأى شعب مسيحى الحق فى تحرير نفسه من اضطهاد الطاغية، وهى مسألة تجد لها جذوراً راسخة فى الكتاب المقدس، ولاسيما فى العهد القديم. وكان هذا موضوع آلاف الخطب الكنسية قبل الثورة فى جميع أنحاء المستعمرات الثلاث عشرة. والواقع، أن الحرب الأهلية الإنجليزية والثورة المجيدة التى تلتها ـ واللتان أطاحتا بكل من الملك شارل الأول وابنه جيمس الثانى، الأول عن طريق الإعدام والثانى بواسطة النفى ـ صارتا تقريبا النموذج العالمى للثوريين الأوروبيين والأمريكيين. ومثلما تلاحظ بريدجت هيل فى كتابها «The Republican Virago» وهى دراسة لها عن حياة كاترين ماكولى، المؤرخة المفضلة بين من كتبوا عن توماس جيفرسون:

«كان الثوريون الإنجليز فقط هم الذين يوضحون التشابهات ـ سواء كانت خاطئة أم لا ـ بين السياسات الحالية وسياسات فترة ما قبل الحرب الأهلية. وعندما تفاقمت الأزمة فى العلاقات مع المستعمرات الأمريكية، كان كثير من أبناء الحرية يفسرون سياسة الحكومة تجاه المستعمرات فى ضوء التجربة الإنجليزية فى القرن السابع عشر. وفى تفسيرها للمراحل الباكرة للثورة الفرنسية فى ضوء ما حدث فى إنجلترا القرن

http://almaktabeh.com

السابع عشر، لم تكن كاترين ماكولى هي الوحيدة التى فعلت ذلك؛ إذ إن كثيراً من الثوريين فى تسعينيات القرن الثامن عشر ممن اهتموا بشرعية خلع الملك، وربما إعدامه، عادوا بأنظارهم إلى انجلترا القرن السابع عشر. وكانت إدانة ولعنة بورك للثوريين الفرنسيين، مثل ردود كثيرة منها رد كاترين ماكولى، هذه الإدانة استفزت وأظهرت التفسيرات المختلفة لإنجازات الثورة المجيدة سنة ١٦٨٨م. فبالنسبة لأولئك المفكرين الثوريين ماذا كان أكثر طبيعية من فحص ثورة سابقة وأخذ الدروس منها. بينما المرء قد بعد عنها بما يكفى للقيام بتحليل عقلانى غير عاطفى نسبيًا؟ وبالنسبة للفرنسيين كما هو بالنسبة للأمريكيين الثوريين، كانت هناك تشابهات يمكن تخريجها ودروس يمكن تعلمها من حوادث القرن السابق فى انجلترا. وكانت المعرفة عن هذه الأحداث تعتمد على فهم التاريخ الإنجليزى فى القرن السابع عشر. وكتاب التاريخ لكاترين ماكولى لم يلعب دوراً صغيراً فى تقديم الأساس لمثل هذا الفهم[٩].

وبينما يتضح أن سابقة الحرب الأهلية الإنجليزية ساعدت فى حالة الوطنيين الأمريكيين، فإنهم كانوا أكثر تجريبية فيما يتعلق بالعلاقة مع حوادث سنة ١٦٨٨م. إذ كان النظام الذى أقيم فى مكان چيمس الثانى هو الذى أدى منطقيًا وبسرعة إلى ارتقاء آل هانوفر العرش، وأسبغ الشرعية على چورج الثالث. وكان الثوريون الأمريكيون أشد اهتمامًا بالمناقشات التى قوضت شرعية الملك چورج منهم بأية حجج ساندته.

وهناك إغراء يشد المرء إلى التساؤل عما إذا كان كريستوفر هيل، المؤرخ الإنجليزى المتميز والمتخصص فى فترة كرومويل، يفهم تأثير الكتاب المقدس على السياسات الثورية فى القرن الثامن عشر فى كتابه بحيث يقدم رؤية مضادة المغزى الكامن فى كتاب المؤرخة الإنجليزية الممتازة بريدجت هيل. إنها فكرة بهيجة. فإنهما على أية حال زوج و زوجته، وكل منهما يدين للآخر بكرمه فى المساعدة بمراجعة كتبه. وسواء من خلال شهامة الزوج أم لا، فإن الزوجة تكسب الجدل. فإذا كان الكتاب المقدس هو الحاسم فى تشكيل ثورة القرن السابع عشر، وكانت ثورة القرن السابع عشر بدورها عامل الحسم فى تكوين الثورة فى القرن الثامن عشر، إذن فالكتاب المقدس كان حاسمًا فى ثورة القرن الثامن عشر أيضا. وربما لم يعد هو كتاب الثوار فى حالة الثورة الفرنسية. ولكنه كان كذلك فى أمريكا.

http://almaktabeh.com

وتقول بريدچت هيل: إن ماكولى كان معجبًا بالمبشّر الأمريكى چوناثان إدواردز الذى كانت مواعظه الشهيرة عن نار الجحيم فى قلب الصحوة الأنجليكانية العظمى فى منتصف القرن الثامن عشر. وكما سنرى عندما ندرس أحدهما بدقة فيما يلى من هذا الفصل، فقد انغمس فى رؤية للعالم مستمدة من الكتاب المقدس ومقتنعة بالدور المخصوص لأمريكا فى خطة الرب للخلاص. وتقول بريد چت هيل: «خلف أفكار إدواردز كانت هناك أيضا نزعة ألفية، واعتقاد بأن الصحوة ألقت بظلالها على زمن وجب فيه على كل الأمم والبلاد أن تكون عامرة بالنور والمعرفة». وهى تقرر أيضا أن المؤرخين يرون بشكل متزايد أن روحا جديدة من الفردية المتمردة عند إدواردز «تلعب دوراً مركزيًا فى تجهيز أمريكا للثورة». ولكن مثلما سعت أيضا هيل للتوضيح، كانت كاترين ماكولى نفسها مؤثرًا قويًا للغاية على الفكر الثورى. كما كانت نظرتها أيضا متأثرة بالكتاب المقدس بقوة، بل إنها تميل إلى شكل معدل من الكالڤينية على الرغم من أنها لم تكن صحيحة تمامًا بمصطلحات المذهب الأنجليكانى فى القرن الثامن عشر.

والنظرة المستمدة من الكتاب المقدس لتاريخ العالم هى بالضرورة الإيمان بالعناية الإلهية. فقد كانت مصائر بنى إسرائيل القدامى تتشكل دائمًا بيد الرب الخفية، سواء بالخير أو بالشر. ووجد كثيرون فى الرابطة التى تجمع بين العهد القديم والعهد الجديد مبرراً للاعتقاد بأن عمل الرب كان يؤدى إلى حادث نهائى، ألفية دينية (تختلف نوعًا ما عن النوع الحرفى الذى تم الاحتفال به على مستوى العالم سنة ٢٠٠٠م). وهذه الفكرة أيضا كان لها تأثير قوى فى أمريكا. وكثير من الآباء المؤسسين قرأوا كتابات كاترين ماكولى وقدروها. فقد امتدح بنيامين فرانكلين كتاب التاريخ الذى ألفته؛ كما أن چيفرسون وضعه كمرجع مفضل، واشترى كل المجلدات الثمانى، ووضعها فى مكتبة جامعة ڤيرچينيا وكان چون آدامز يراه بمزيد من الإعجاب. وكانت هى المؤرخة التى كان يعرفها چورچ واشنطن أحسن من غيرها. وكذلك كان چوسياه كوينسى وبنيامين روسن معتادين على مؤلفاتها.

وكل هذا يوضح أهمية آرائها الخاصة فى العناية الإلهية، وهى آراء لا بد أنها كانت مؤثرة للغاية فى هذه الأوساط. والواقع، أنه فى السعى إلى توضيح أصول طريقة التفكير الأمريكية كلها، تستحق كاترين ماكولى جدارة أكثر كثيراً مما حصلت

http://almaktabeh.com

عليه. ولا غرابة في أن عميد المؤرخين الأمريكيين في تلك الفترة برنارد بايلين، لا يجعل لها أهمية أكثر من ذلك. ففي كتابه The Idological Origins of The « American Revolution » يقول فقط إن المؤرخة الجمهورية كاترين ماكولي، الذي سُمي كتابها الذي عنوانه «History of England» عملا خياليا لامتداح المبادئ الجمهورية تحت عنوان تاريخ انجلترا، كانت أيضا مفكراً مهمًا في هذا الجيل من المستعمرين... » ولكنها ليست في أهمية بعض الآخرين الذين أورد أسماءهم. أما ما كان يحول دون الإعجاب بماكولي بين المؤرخين المعاصرين. فكان بلا شك هو تجميعها المريب لأساطير ما قبل الغزو النورماني وميلها إلى توجيه اللوم إلى النورمان في كل شيء، الذين تزعم أنهم قد أضاعوا الفردوس الأنجلوسكسوني. كانت تلك نظرية غير سليمة، على الرغم من أن توماس چيفرسون وآخرين تقبلوها. ونحن هنا لا نهتم بدقتها التاريخية على أية حال، وإنما تأثيرها خصوصًا على الأمريكيين المعاصرين لها. إذ إن آراءها عن العناية الإلهية والألفية القادمة تستحق بالتالي أن تكون ماثلة أمام الممثلين الرئيسيين في هذه الدراما كما حدث فعلاً. فهل هي آراء تنتسب للكتاب المقدس؟ لابد أنها قالت ذلك بالتأكيد. وتصفها بريدچيت هيل كما يلي:

«رأت كاترين ماكولي أحداث الحياة البشرية، باعتبارها ليست سوى سلسلة من أفعال العناية الإلهية الخيّرة، ولكن حينما كانت ترى و«هي تعلن نفسها لصالح الكمال والسعادة المستقبلية للعالم الأخلاقي» فلا عجب إذا انتقل الناس بواسطة «الأمل والعرفان». وكتبت في سنة ١٧٩٠م أن هذا كان هو ما فشل بورك في أن يفهمه في ردود فعل الناس تجاه الثورة الفرنسية. وتساءلت عما إذا كان قد سمع عن الألفية سوى تلك الألفية الخيالية التي يفترض وجودها في مملكة القديسين. والرأي القائل بأن عقيدة ما بعد الألفية كانت مركزية في معتقدات ماكولي الدينية هو رأي صائب... فقد صورت كاترين ماكولي طبيعة الألفية على أنها فترة من الزمن ينكسر فيها الصولجان الحديدي للهيمنة الاستبدادية، حينما يسود الحق على الأرض كلها، ويحل نظام سليم للمساواة في توجه الإنسان. كان كل التحسن في الناس والمجتمع يتجه صوب مثل هذه الألفية. كانت هذه خطة الرب للعالم، ولكن بالتعاون مع الناس يمكن للقوة أن تؤثر في مجرى التاريخ».

http://almaktabeh.com

وتهمة أن بروك كان يؤمن فقط «بألفية خيالية» توجد فى مملكة القديسين ربما كانت إشارة إلى تعاطف بروك المزعوم مع الكاثوليك الرومان، وهو تلميح مهلك ومدمر. ويبدا وكأنها تقول إن البروتستانت الطيبين كانوا يعتقدون فى الألفية باعتبارها إمكانية قادمة، احتمال حقًا، فى العالم الحقيقى. وكسر الصولجان الحديدى للهيمنة الاستبدادية يمكن أيضا أن يكون قد سمع به مستمعوها المعاصرون باعتباره معنى، فى مصطلحات مستمدة من سفر الرؤيا، هو القضاء النهائى على المسيح الدجال (وهو البابا بعبارة أخرى).

وفى خلطة ماكولى التى تجمع بين غدم التملك والمذهب الجمهورى، والنزعة الألفية، من الصعب أن نتصور عبارات أكثر صراحة عما يكمن وراء المصير الواضح والحلم الأمريكى، ففى البداية كان المصير الواضح يحمل لونا مميزا من العداء للكاثوليكية. إذ كان أحد مهامه الأولى هو تحرير مناطق الجنوب فى أمريكا الشمالية التى تعيش تحت النير الإسبانى، أى الكاثوليكى. ولم تكن ماكولى أبداً تحظى بشعبية فى انجلترا، حيث كانت متورطة لصالح چون ويليكس الذى كان أبرز الثوار المتشددين الإنجليز فى زمانه. ولم يكن يعجب كل الناس ولم تكن هى أيضا، على الرغم من أن المستعمرين الأمريكيين صنعوا منه بطلاً.

ولكن دورها يؤسس هذه الأيديولوچية الدينية، إذ كان اللجوء إلى الكتاب المقدس سعيًا وراء الدعم العام، ما يزال قوة لها وزنها فى الشئون السياسية فى القرن الثامن عشر. والواقع أن تأثير الكتاب المقدس فى الطبعة الإنجليزية كان غاية فى العمق منذ القرن السادس عشر فصاعداً، ومن غير المصدق أن نفترض أن تأثيره كان يمكن إيقافه بطريقة ما فى القرون التالية. وبنهاية القرن السادس عشريكتب كريستوفر هيل عن الطبعة الإنجليزية للكتاب المقدس:

«كان بحوزة كل العلمانيين المتعلمين، وحاز المبشرون البروتستانت المتشددون نقطة فى محاولة توسيع نطاق المعرفة به فى كل مستويات المجتمع. وبحلول القرن السابع عشر كان الكتاب المقدس مقبولاً بوصفه مركز كل مجالات الحياة الفكرية؛ إذ لم يكن مجرد كتاب دينى بالمعنى الحديث الضيق لكلمة دينى. فقد كانت الكنيسة والدولة فى انجلترا فى عهد أسرة تيودور شيئًا واحدًا؛ وكان الكتاب المقدس، أو

http://almaktabeh.com

كان ينبغي أن يكون أساس كل جوانب الثقافة الإنجليزية. وعلى هذا المبدأ وافق معظم البروتستانت. وإذا لم نستوعب هذا فسوف نسقط في هوة فوضوية بالحديث عن عصر أكثر تدينا من عصرنا. وفي معان كثيرة كان ذلك عصراً أقل تديناً من عصرنا».

وبعض التدريب على النقاط البارزة في أساطير العهد القديم سيكون ضرورياً إذا ما كنا نريد أن نفهم تأثيرها الكامل. فهي لا تقرأ ببساطة لتاريخها. إذ كانت نبوءة أيضا. وتصف حكايات العهد القديم نماذج من السلوك الإنساني تكرر منذ ذلك الحين مرات ومرات. ومنذ ذلك الحين وهي تقدم متشابهات من الكتاب المقدس يمكن أن تضيء الحالات المعاصرة. فهي تصف تعاملات الرب مع الأفراد القدماء والمجتمعات القديمة حينما تضل عن الطريق الصحيح. وهم ما يزالون في ضلالهم اليوم، وسيكون الرب متسقًا في استجاباته. ومنذ ذلك الحين يمكن استخدام قصص الكتاب المقدس للتنبؤ بالعواقب. وهي ليست مثل مسرحيات شكسبير مجرد توضيح للطبيعة البشرية والمواقف الإنسانية. وأن نقول عن البعض إنهم مثل هاملت فإننا نصفهم بالتردد وتمزق الوعي. ولكن مجرد التورية لا يخبرهم كيف يحلون المصاعب التي تواجههم، وهذه هي الطريقة البروتستانتية لقراءة الكتاب المقدس على أية حال، فإن وصف أحد بأنه مثل موسى أو يوشع أو سليمان، يعني الإشارة إلى المسار الذي سلكه من قبل مع دعوة ضمنية إلى السير على هذا النهج مرة أخرى. والمصطلح الفني لهذا الاستخدام المخصوص للتورية أوالمجاز الوارد في الكتاب المقدس هو «التنميط». إذ إن موسى في هذا الاصطلاح نمط وجد قبل ظهور المسيح. ومن الممكن أيضا لأفراد آخرين أن يكونوا نمطا، بهذا المعنى، بالعلاقة مع موسى، وليس هذا بيان كيفية استخدام كلمة نمط بشكل شائع، ولكي نتجنب الارتباك فإن هذا الاستخدام المخصوص لكلمة نمط سوف يتم تجنبه بقدر الإمكان. وهو معرف في قاموس أوكسفورد الإنجليزي بأنه شخص أو شيء أو حادث في تاريخ العهد القديم، يسبق في تجسيد شخص ما أو شيء ما أوحى به في التجليات الجديدة. وكلمة التنبؤ تعني أمراً أشمل من الرمز أو التمثيل.

وتكشف حكايات العهد القديم ببطء عن علاقة واحدة مستمرة من بدايتها: علاقة إسرائيل بربها. وبينما تتكشف يصبح من الواضح تدريجيا أنها ليست فقط

http://almaktabeh.com

مفتاح العلاقة بين الرب واليهود، وإنما هي أيضا مفتاح علاقة الرب بالبشرية كلها على مدى الزمان. والرب اليهودي رب عالمي. وبهذا الفهم، يطور الرب علاقته بالبشرية من خلال ما يسمى المواثيق، وهي موافقات رزينة أو تعاقدات لها خاصية مقدسة. وأكثر المواثيق أهمية هو الذي يكافئ بني إسرائيل بوضعهم كشعب الله المختار. وكثير من القصص التي تروى تصف نفاذ شروط ذلك الميثاق، لاسيما ما يحدث عندما يتم الإخلال بذلك الميثاق. وفي الفكر اليهودي، في كل من العصور القديمة والعصور الحديثة، لا يمكن نقض الميثاق. فالرب دائمًا يصدق وعوده، حتى ولو لم يكن اليهود مخلصين في وعودهم. وفي حالة عدم كونهم مخلصين، تتدخل العناية الإلهية لكي تفرض الفقر والطغيان والهزيمة في الحرب، والأسر بل والنفي.

هذه الضربات التصحيحية المختلفة من يد الرب تنزل بالمعاناة دومًا فهم ممن نزلت بهم، حتى يظهر نبي يشير إلى ما كان من خطأ وما يجب على الشعب أن يفعلوه حتى يحوزوا رضاء الرب مرة أخرى. إذ يجب عليهم باستمرار أن يعودوا إلى ممارسة القانون وفي مقدمته الوصايا العشر. ومن بين كل الوصايا، التي يستجلب انتهاكها أكبر نقمة مقدسة ليس السرقة أو القتل، وإنما عبادة الأصنام، والرب الذي يصوره العهد القديم رب غيور. وهناك سبب جيد لهذا. إذ إن فكرة الرب الغيور تخدم كنوع من الحماية لمثال التوحيد: أن هناك ربًا واحدًا، وحده. وإذا تقبل المرء التتابع الزمني للكتاب المقدس الذي يضع النبي إبراهيم قبل الفرعون إخناتون، فإن اليهود إذن أول شعب في التاريخ اعتنق مثل هذه الفكرة(*). والشعوب القديمة تسلم بأن العالم كان مليئًا بالآلهة. والارتداد من التوحيد إلى تعدد الآلهة كان أمرًا سهلاً. والطريق إلى الاتجاه الآخر كان صعبًا وعرًا.

هذا هو المعنى الحقيقي للاختيار. فهو لا يعني بالضرورة أن الشعب المختار تحت حماية خاصة من الرب ورعايته المخصوصة؛ لأن هذا يمكن أن يعني أيضا أن له طريقة خاصة في تجاهلهم وعقابهم. وفي بعض الأوقات، حسبما اقترح بعض

(*) اليهود هم اتباع موسى عليه السلام. وكتابهم هو أسفار موسى الخمس (التوراة) ثم ما تلاها من أسفار العهد القديم من بعد موسى. وموسى من أحفاد يعقوب أو إسرائيل عليه السلام، الذي هو حفيد نبي الله إبراهيم عليه السلام، فكلام المؤلف تنقصه الدقة، ولا أحد يستطيع أن يجزم بمن هم أول الموحدين وأين عاشوا. المترجم.

http://almaktabeh.com

الأحبار اليهود، ينسحب الرب حينما تكون حماية العناية الإلهية، لأى سبب كان، متوقفة. وحتى فى ذلك الحين يعنى الاختيار أنهم تحت عنايته الخاصة. وكان هناك فكر يهودى، مثلا أن انسحاب الرب وتخليه عن حماية الشعب المختار خلال الهولوكوست النازى، كان هو الوسيلة للوصول إلى غاية توطين اليهود فى إسرائيل. وعلى الرغم من أن الفكرة قد تكون غير مريحة - سوى بالنسبة لأكثر الصهاينة المتدينين تشدداً - فإنها تلقى قبولاً لدى المفكرين اليهود أكثر من اقتراح أن الهولوكوست كان نوعًا من العقاب على ارتكاب الخطأ. وربما يلاحظ أنه على الرغم من أن الرب هو واضع القانون الأخلاقى، فإنه هو نفسه غير مقيد به.

ولكن من المؤكد أن اليهود مقيدون به. فالاختيار يعنى أنهم تحت واجب خاص بأن يراقبوا خطواتهم؛ فعليهم التزامات إضافية؛ ويمكنهم أن يتوقعوا عقابًا إضافيًا إذا ما تعدوا بالعدوان. والغرض من اختيارهم، بعيداً تماما عن أن يكون ذلك بسبب امتيازهم، هو ببساطة لكى يشيروا إلى خير الرب ووحدانيته قبل أى شىء. إنهم مختارون لكى يكونوا شهوداً مخصوصين على التوحيد. وهذا هو السبب فى أن عبادة الأصنام - أى عبادة آلهة زائفة، ورفض عبادة الإله الواحد - هى أسوأ أنواع الخيانة.

ويعلقّ الرباى لويس چاكوبس فى موسوعته «The Jewish Religion» بأن بعض الباحثين اليهود قد اعتبروا أن اختيار اليهود علامة توضح أن اليهود لهم شرارة أو عبقرية مقدسة تجاه الدين مقارنة بالآخرين. والإحساس بالاختيار ربما يكون قد برز فى زمن كان فيه بنو إسرائيل وحدهم الموحدين، ويحيط بهم وثنيون يعبدون آلهة متعددة. فقد اختارهم الرب ليؤمنوا به. ويضيف:

«يفخر اليهودى العادى باقتناعه بأنه ينتمى إلى شعب له دور خاص يلعبه فى عالم الرب. ونادراً ما كان مثل هذا الفخر يتعدى حدود التباهى غير الضار من جانب معظم الناس الذين يمارسونه بالنظر إلى المجموعة المعينة التى ينتمون إليها، أمتهم دينهم، بلادهم، أو حتى النادى أو فريق كرة القدم الذى يشجعونه. وبالفعل يؤكد كل المدرسين اليهود أن اختيار الرب لليهود ليس من أجل الامتياز وإنما من

http://almaktabeh.com

أجل الخدمة. وفى أفضل الفكر اليهودى، أن اختيار اليهود تم بواسطة الرب ومن أجل الرب ولتحقيق خطته للبشرية جمعاء».

وبطريقة مشابهة، نُقل عن الرباى الرئيسى ليهود بريطانيا العظمى السابق اللورد دكتور عمانويل جاكوبوفيتس قوله فى كتاب Lord Jakobovits in Conversation: «هنا تبرير فقط لدرجة امتلاكنا القيم المبنية على أساس الديانة اليهودية، القيم التى تسهم بشىء فى العالم بأسره.. لوجودنا المستمر... إن مهمة شعب إسرائيل هى أن يعملوا كعلامة إرشاد للعالم كله. وربما نكون قد تعبنا من تحقيق هذه الرؤية، ولكن بدونها، ما هو الغرض من استمرارنا يهود؟».

لقد شعر أن غير اليهود قد أخذوا يرون مغزى اليهودية فى هذه المصطلحات أيضا، وربما هى نظرة تفاؤلية عن الكيفية التى يرى بها بقية العالم إسرائيل الحديثة - التى كان تأسيسها، من وجهة نظره، تم بفعل العناية الإلهية(*).

وتقليديًا، فإن الاختلاف الأساسى بين الفهم المسيحى والفهم اليهودى للميثاق يتعلق بالمسيح. وحسبما يعتقد المسيحيون، فإما يكون اليهود قد نقضوا الميثاق بشكل نهائى ولا رجعة فيه؛ لأنهم لم يعترفوا بمسيحهم عندما جاء، وهى النقطة التى عندها نفض الرب يده منهم؛ أو أن اليهود ظلوا مستمسكين بالميثاق برفضهم الإغراء بتركه استجابة لمزاعم زائفة بمسيحانية يسوع. وفى الحالة الأولى افترض المسيحيون أن الميثاق قد استمر أو أعيد تجديده، ولكن منذ ذلك الحين فصاعدا كان الميثاق معهم وليس مع اليهود الذين بالتالى لم يعودوا «مختارين». ولذلك فإن عنوانى الجزئين الكبيرين للكتاب المقدس المسيحى، أى العهد القديم والعهد الجديد، ينبغى تسميتهما بشكل أكثر منطقية الميثاق القديم والميثاق الجديد.

(*) ما سبق فى الاقتباسين السابقين، وغيرهما، هو ما يقوله اليهود عن أنفسهم بطبيعة الحال. وهو كلام لا يقنع أحدًا سواهم وطائفة من المسيحيين، خاصة البروتستانت، وخاصة الصهاينة من بينهم وأتباع اليمين المسيحى. أما فيما يتعلق بإسرائيل الحديثة فإن ممارساتها العنصرية والوحشية، وجرائمها المتكررة ضد البشر الآخرين من العرب مسلمين ومسيحيين، وعدم التزامها بالقوانين الدولية، والقرارات العديدة التى بنيت على أساسها، فضلاً عن عدم التزامها بأية قواعد أخلاقية - كل هذا لا يبرر الزعم بأن خلقها كان بفعل العناية الإلهية، وربما يكون الأصح القول بأن خلق إسرائيل الجديدة، واستمرارها حتى الآن، إنما هو فعل من أفعال العناية الإمبريالية والغفلة والضعف العربى - المترجم.

وقد أظهر الرباى نورمان سولومون من جامعة أوكسفورد، فى ورقة غير منشورة ألقيت فى مؤتمر يهودى - مسيحى بالولايات المتحدة سنة ٢٠٠١م، التشابهات والتناقضات بين التعاليم اليهودية والتعاليم المسيحية التى تتضمنها النظريات المتنافسة لجوشانان نابشا، وهو مدرس يهودى بارز فى فلسطين القرن الثالث، وأوريجن أبو الكنيسة الذى كان يعيش فى قيصرية بفلسطين:

«علق كلاهما على نشيد الأنشاد الوارد فى الكتاب المقدس، وكلاهما فسره على أنه كناية ومجاز. وبالنسبة لأوريجن، فهذا النشيد يقف للرب أو المسيح وفخره، أى الكنيسة؛ أما بالنسبة لجوشانان فهو كناية عن الحب بين الرب وشعبه إسرائيل. وقد حلَّل رويفين كيملمان (١٩٨٠) تعليقاتهما ووجد خمسة فروق متسقة بينهما، يتعلق بخمسة مسائل كبرى هى التى قسمت المسيحين واليهود:

١ - يكتب أوريجن عن ميثاق توسط فيه موسى بين الرب وبنى إسرائيل؛ وهذا اتصال غير مباشر بين الاثنين، وهو ما يتناقض مع الحضور المباشر للمسيح. ومن ناحية أخرى، يشير جوشانان إلى الميثاق على أن موسى تفاوض بشأنه، ومنذ ذلك الحين تلقاه بنو إسرائيل مباشرة من الرب مثل «ليقبلنى بقبلات فمه»، (نشيد الأنشاد، ١ : ٢) ويؤكد جوشانان الاختيار والحب بين الرب وإسرائيل، على حين يضع أوريجن مسافة بينهما.

٢ - وفقا لأوريجن، فإن الكتاب العبرى كان مكتملاً، أو «تم تجاوزه» بالعهد الجديد. ووفقا لجوشانان، فإن الكتاب العبرى يكتمل بالتوراة الشفوية.

٣ - بالنسبة لأوريجن، المسيح هو الشخص المركزى، يحل محل إبراهيم ويكمل محو خطيئة آدم،. أما بالنسبة لجوشانان فإن إبراهيم يبقى فى مكانه والتوراة هى «الترياق» الذى يعالج الخطيئة.

٤ - بالنسبة لأوريجن القدس رمز، «مدينة سماوية». وبالنسبة لجوشانان القدس الأرضية تحتفظ بمكانتها كحلقة وصل بين السماء والأرض، المكان الذى سوف يتجلى فيه حضور الرب مرة أخرى.

٥ - يرى أوريجن أن معاناة بنى إسرائيل برهان على أن الرب تبرأ منهم؛ بينما يأخذ جوشانان المعاناة على أنها عقاب محب وتأديب من أب غفور.

http://almaktabeh.com

ومنذ ذلك الحين فإن العهد القديم في التراث المسيحي يبشر، ويتنبأ بالعهد الجديد. وإذا ما نُسخ الميثاق القديم، فإن الميثاق الجديد يحل محله ويتجاوزه.

وقد أصبح هذا يعرف في العصور الحديثة بنظرية «الإلغاء» (أو نظرية الإحلال) وكانت محل انتباه شديد للغاية؛ لأن الباحثين المسيحيين واليهود عملوا سويًا لكي يقفوا على أسباب تاريخ هذا الشقاق الذي استمر ألفي سنة.

والحل الذي يطرحه الرباي سولومون (في الخطاب الذي أشرنا إليه بالفعل) كان يدعو كلاً من المسيحيين واليهود إلى اعتبار الحديث عن «الميثاق» مجازًا شعريًا، وليس باعتباره حقيقة موضوعية راسخة. فإذا كان «موضوعا»، فإن مجموعة واحدة فقط هي التي يمكنها امتلاكه، وسيكون عليهم أن يتشاجروا بسبب ملكيته. أما إذا كان مجازًا فإنه ببساطة يصف العلاقة بطريقة توضيحية: فهو لا يفرض أية التزامات، ولا يعد بأي شيء في المقابل. وتتمثل الصعوبة في أنه بينما يمكن لهذا أن يخفف من حدة الزعم المسيحي بوجود ميثاق مع الرب إلى درجة لاتجعله يهدد الزعم اليهودي، فإنه أيضا يخفف الزعم اليهودي إلى الدرجة التي يبدو فيها أن الهوية اليهودية قد تم تقويضها. وإذا كان بوسع الجميع أن يختاروا تصور أنفسهم في علاقة تعاقدية مع الرب، فإن المفهوم يصبح فارغًا من معناه.

وما أضفى صفة العجالة على هذه المهمة، في أعقاب الهولوكوست النازي، هي الحاجة إلى فهم بزوغ معاداة السامية لكي يُتجنب حدوثها مرة أخرى. وعلى الرغم من أن معاداة السامية المسيحية غير عنصرية من الناحية النظرية، وربما يكون من الأصح فنيًا تسميتها معاداة اليهودية، فإن ثمة عاملاً مهمًا كان موجودًا على الدوام. فمن الصعب فصل العرق عن الدين في هذه الحالة. وربما يكون شرح ذلك هو أن اليهود لا يتحدثون عن أنفسهم باعتبارهم مجرد ديانة، ولكن باعتبارهم أتباع دين يستمر خطبهم عدة أجيال من خلال الوراثة بدرجة كبيرة. واليهودي هو أي شخص ولدته أم يهودية. ويتلاشى هذا بسرعة في المفهوم الحديث عن العرق، على الرغم من أنه حتى العصور الحديثة كان يناقضه الافتراض المسيحي بأن أي يهودي يتم تعميده يصير مسيحيًا. وعند هذه النقطة، بقدر ما يخص الكنيسة، لم يعد يعتبر يهوديًا. وثمة رؤية مسيحية معاصرة ستكون أقل فئوية. ففي العصور الحديثة كان

http://almaktabeh.com

كل من الأسقف الأنجليكانى لبرمنجهام هوج مونتيفيورى، وكبير أساقفة باريس الكاثوليكى الكاردنيال چان ـ مارى لوستيچيه ممن تحولوا من اليهودية إلى المسيحية، وكلاهما وصفا أنفسهما دوما لبس بأنهما يهوديان. وسيكون حقًا القول بأن الاستجابة اليهودية لهذا كانت متحفظة قليلاً. فعلى الرغم من أن اللياقة تمنعهما من الجهر بالقول بأن اليهودى الذى يصبح مسيحيًا ما يزال ينظر إليه باعتباره خائنا من نوع ما. [وماذا عن رد الفعل المسيحى إزاء هذا الموقف الغريب؟].

لقد سممت النزعة المسيحية لمعاداة السامية ومعاداة اليهودية أرض أوروبا على مدى مئات السنين، مما أدى فى النهاية إلى ظهور النازية فى القرن العشرين. ويتفق الباحثون المسيحيون الآن على أن موقف الديانة المسيحية الذى يحتقر اليهود يرجع إلى أصول الديانة المسيحية، حينما ظهرت نظرية الإلغاء للمرة الأولى. وهم لا يتفقون على ما إذا كان هذا يعنى أنه ينبغى التخلى عن النظرية (التى تقول إن العهد مع المسيحيين قد ألغى العهد مع اليهود)، أو ما الذى يمكن عمله بشأنها. وهكذا فإن الكاردنيال والتر كاسبر، رئيس بعثة الڤاتيكان للعلاقات الدينية مع اليهود، قال فى الاجتماع الذى خاطبه سولومون (الذى أوردناه سابقا) أن عقيدة الميثاق كانت «الموضوع المركزى فى الحوار اليهودى ـ المسيحى». وقال إن العلاقة بين الميثاق القديم لليهودية والميثاق الجديد مع المسيحية «معقد جدا بحيث لا يمكن النزول به إلى معادلة مختصرة».

والباحثون اليهود مشتبكون فى الموضوع بطريقة مشابهة. فهم لا يتفقون على ما إذا كانت نظرية الإلغاء سوف تؤدى بالضرورة إلى معاداة السامية، أو عما إذا كان من الممكن الإبقاء على النظرية بينما تظل معاملة اليهود بلطف ويستمر احترام معتقداتهم الدينية. وعلى أية حال، فإنه على أقل تقدير تحتاج نظرية الإلغاء الفجة إلى تعديل.

إنها كلمة جديدة فى لغة اللاهوت والعلاقات بين الديانات. وفى مؤتمر مشترك نظمه الڤاتيكان والمعابد اليهودية الإصلاحية فى بريطانيا العظمى سنة ٢٠٠٠م، لم يستطع الباحثون الواعون حتى أن يتفقوا على كيفية هجائها.

http://almaktabeh.com

وأشد تبرؤ مسيحى وضوحًا ودرامية وتأثيراً من نظرية الإلغاء. يؤكد أن اليهود ما يزالون مختارين، حتى ولو كانت الكنيسة محقة فى وصف نفسها بأنها مختارة أيضا. حدث خلال زيارة البابا حنا بول الثانى إلى إسرائيل سنة ٢٠٠٠م. فقد ذهب إلى الحائط الغربى فى القدس، الجزء الوحيد الباقى من معبد سليمان(*)، وصلى كما ينبغى ليهودى تقى أن يصلى، فى أكثر الأماكن قدسية بالنسبة لليهودية. وجريًا على عادة اليهود الذين يصلون عند الحائط الغربى، وضع ورقة تحمل صلواته الشخصية فى فتحة بالحائط. ويمكن القول إنه كان يستعير أحد خطوط اتصالاتهم مع الرب. وكان هذا توضيحًا لا لبس فيه أنه يؤمن أن القنوات التقليدية للرحمة والصلوات بين الرب واليهود ما تزال على فاعليتها. بل إن هذا تم توضيحه أكثر حينما نُشر نص صلواته فى وقت لاحق من ذلك اليوم. كان النص مكتوبًا بالإنجليزية وعلى خطاب فى أعلاه شعار الكرسى المقدس (البابوى)؛ وفى أسفله كان توقيعه، باللاتينية ونصّه: Johannes Paulus والتاريخ، وكانت تلك أفضل صلاة يمكن أن ينطق بها فى مثل هذه المناسبة، كانت توسلاً بغفران الخطايا الكبرى التى ارتكبها المسيحيون فى حق اليهود، وقال النص:

«يارب آبائنا، لقد اخترت إبراهيم وذريته لجلب اسمك إلى الأمم. نحن حزانى بعمق بسبب سلوك أولئك الذين تسببوا على مجرى التاريخ فى معاناة أبنائك ونسألك الغفران ونرغب فى أن نلزم أنفسنا بالأخوة الأصلية بشعب العهد».

(*) هذه أكذوبة صهيونية وواحدة من الأساطير التى تم الترويج لها فى غمرة العدوان الصهيونى على فلسطين، وهى إحدى الأساطير المؤسسة لإسرائيل. إذ إن البحوث الأثرية المحمومة طوال القرن الماضى لم تتمكن من إثبات وجود معبد سليمان. بالإضافة لأن العهد القديم، أى المرجع المعتمد لليهود والمسيحيين يتهم سليمان مراراً وتكراراً بالكفر وعبادة الأوثان. ومن ناحية أخرى فإن الحائط الغربى يرتبط بقصة الإسراء الواردة فى القرآن الكريم. وحقيقة الحائط الغربى (حائط المبكى) ترجع تاريخياً إلى عهد السلطان العثمانى سليمان القانونى؛ فقد كان اليهود يؤدون صلواتهم فى عدة أماكن، وكان ذلك يسبب مضايقات للمسلمين؛ فأمر السلطان مهندسه سنان باشا أن يبنى لليهود سورا فى الناحية الغربية ليؤدوا صلواتهم فيه. ولم تظهر فكرة حائط المبكى باعتباره من أطلال معبد سليمان سوى فى عشرينات القرن العشرين عندما اخترعت الحركة الصهيونية هذه القضية، وثارت بسببها انتفاضة البراق الفلسطينية ضد سلطات الاحتلال الإنجليزى التى استعانت بجنودها فى قاعدة قناة السويس لإخماد الانتفاضة. وحكمت لجنة دولية من عصبة الأمم بملكية المسلمين لهذا الحائط الغربى. المترجم.

http://almaktabeh.com

ونظرية الإلغاء نظرية يصعب الحفاظ عليها حين يعلن البابا نفسه أن اليهود هم شعب العهد. حقًا هو لا يتحدث باسم كافة المسيحيين، كما أن معظم البروتستانت سوف يحتفظون على الأقل بصيغة مختلفة مخففة من نظرية الإلغاء لكى تشرح بالضبط العلاقة بين اليهودية والمسيحية. ولكن تلك الأيام التى كان الاعتقاد المسيحى فيها بأن اليهود أخفقوا فى الاعتراف بأن المسيح هو مخلصهم يمكن أن يتحول إلى اعتقاد بأن اليهود ملعونون ومرفوضون من الرب بالتالى، ومن ثم يستحقون كل أنواع الإهانة - تلك الأيام ولت إلى غير رجعة.

ولم يتم استكشاف المضامين بشكل كامل. فعلى الأقل ينبغى إعادة النظر إلى النصوص المسيحية المرجعية. وفى بعض الحالات ينبغى التعامل معها بوصفها سوء تفسير متعمدًا. وكما يخبرنا العهد الجديد، فإن كلاً من عامة اليهود فى القدس والسلطات الدينية اليهودية كانت لهم يد فى موت المسيح. وقد وجدته هذه السلطات مذنبًا بالكفر والتجديف وسلموه إلى المحتلين الرومان لعقابة (وكان الشكل المعتاد لعقوبة الموت فى مثل هذه الحالات هو الصلب). وعندما أعطى الغوغاء اليهود الفرصة لإنقاذه، قاموا بدلاً من ذلك بالمطالبة بموته وهم يصيحون حسب رواية إنجيل متى (٢٧ : ٢٥):

«فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا»

وربما لم يقولوا شيئًا من هذا النوع؛ لأن مبدأ الذنب الجماعى أو الموروث كان مناقضًا للأخلاقيات اليهودية (تثنية ٢٤ : ١٦) «لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء. كل إنسان بخطيته يقتل»(*).

ولكن ما يهم هو أنه قد سجل أنهم قالوه، وأخذته مجامع مسيحية لا تحصى منذ ذلك الحين بقيمته الظاهرية (على الرغم من أن فكرة أن الأولاد يمكن أن يكونوا مسئولين عن جرائم آبائهم تتناقض أيضا مع الأخلاق المسيحية. والكلمة التقليدية لهذا الاتهام هى قتل الرب. ولا غرو أن يوم الجمعة الحزينة الذى يعتبر تذكرة باليوم

(*) وكذلك تكرر فى العهد القديم عدة مرات أن الله يتفقد ذنوب الآباء إلى الجيل الثالث والرابع من الأبناء، ولعن نوح كنعان بسبب ما فعله أبوه. المترجم.

http://almaktabeh.com

الذى صلب فيه المسيح كان هو اليوم فى جميع أنحاء أوروبا الشرقية والوسطى الذى يبقى فيه اليهود الحساسون فى بيوتهم، ويمنعون أبناءهم من الخروج حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. وحقيقة أن مثل هذه الاحتياطات لم تعد موجودة بعد الحرب ليست راجعة إلى أن المسيحيين قد صاروا متسامحين، ولكن لأن جميع اليهود كانوا قد ماتوا بالفعل. وكانت الغالبية العظمى ممن نفذوا أوامر القتل من المسيحيين على الأقل من حيث تعليمهم وخليفاتهم. هذا هو الميراث المرعب لتعاليم الازدراء التى يرى كثير من الباحثين اليهود (وبعض الباحثين المسيحيين) أنها من التوابع الطبيعية لنظرية الإلغاء المسيحية.

وكانت آثارها ما تزال محسوسة فى القداس المسيحى حتى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. ثم عدلت الكنيسة الكاثوليكية مضامينها المعادية للسامية (والمعادية لليهودية بوضوح)، لتأمر بالصلاة يوم الجمعة الحزينة لتكون كالتالى:

«فلنصلى أيضا من أجل اليهود غير المؤمنين، حتى يزيل ربنا وسيدنا الغشاوة عن قلوبهم، حتى يعترفوا أيضا بسيدنا يسوع المسيح.... الرب العظيم الخالد الذى لا يمنع الرحمة حتى عن اليهودى غير المؤمن، ولكن الصلوات التى نقدمها لأعمياء الشعب، حتى يمكنهم أن يعترفوا بنور حقيقتك، التى هى المسيح، ويتم خلاصهم من ظلامهم...».

ومن الواضح أن المترجم الحديث قد احتار فى ترجمة Perfidiam و Perfidies وخلطها بالكلمة التقليدية Perfidious، بما تحمله من مغزى الخيانة وقتل الرب. وحتى مع هذا، فإن عبارة «اليهود غير المؤمنين» عبارة قاسية والكتاب الأنجليكانى لمجموعة الصلوات العامة فى يوم الجمعة الحزينة يتخذ نغمة أنعم قليلاً فى هذه النقطة:

«أيها الرب الرحيم، يامن خلقت جميع الناس، ولا تكره شيئًا صنعته ولا حتى موت الخاطئ، ولكن أن يعتنق الدين ويعيش؛ اسبغ رحمتك على كل اليهود والأتراك(*) والكفار والهراطقة، وانزع عنهم كل الجهل، وقسوة القلب، وازدراء لكلمتك، وبذلك تحضرهم إلى البيت أيها الرب المبارك، إلى شعبك حتى يتم

(*) المقصود بالأتراك: المسلمين. المترجم.

http://almaktabeh.com

خلاصهم بين الباقين من بنى إسرائيل الحقيقيين، ويكونون قطيعًا واحدًا تحت راع واحد، يسوع المسيح سيدنا...».

ووجود الأتراك والكفار فى هذا الخليط أمر شاذ قليلاً، لأن الإشارة إلى الباقين من بنى إسرائيل الحقيقيين يهدف إلى دفع الصلاة إلى اليهود وحدهم.

والحوادث التى جرت عقب موت المسيح - أى تدمير المعبد على أيدى الرومان سنة ٧٠م وشتات الشعب اليهودى فى أماكن أخرى من العالم المعروف - تم دمجها فى الأساطير المسيحية بمثابة أدلة على تخلى الرب عن اليهود. وكان فى هذا المناخ أن كُتب جزء كبير من العهد الجديد، متضمنًا فقرات توضح درجة عالية من العداء. ويصدق هذا بشكل خاص على إنجيل يوحنا، حيث يروى أن المسيح قد قال: (يوحنا ٨: ٤٢-٤٥):

«فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى لأننى خرجت من قبل الله وأتيت. لأنى لم آت من نفسى بل ذاك أرسلنى. فلماذا لا تفهمون كلامى. لأنكم لاتقدرون أن تسمعوا قولى. أنتم من أب هو أبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت فى الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب. وأما أنا فلأنى أقول الحق لستم تؤمنون بى».

والعلاقات بين الديانتين كانت قد انكسرت بالفعل مع وجود مبشرين مسيحيين مثل اسطفان اضطهدهم الوكلاء اليهود مثل شاول (الذى صار فيما بعد القديس بولس الحوارى) وعلى الرغم من أن المسيحية كانت لها جاذبية فى عيون الأغيار، فإن أول من اعتنقوها خارج إسرائيل كانوا من اليهود إلى حد كبير، وغالبًا ما كانوا من العبيد العبرانيين فى خدمة السادة الرومان. والمجادلة بأن الرب قد أغلق الكتاب على اليهود ولكنه بدأ مجددًا مع المسيحية، كانت مجادلة ضاغطة على أولئك اليهود المنفيين، واستخدمها الكتاب التبريريون المسيحيون الأوائل بطريقة مفحمة. وأوضح تقرير فى العهد الجديد «للاهوت الإحلال» (الإلغاء) يمكن أن نجده فى الرسالة إلى العبرانيين والذى لا نعرف يقينًا من الذى كتبها، على الرغم من أن التقاليد تعترف بأنه تأثر ببولس على الرغم من أنه لم يكتبه. يقول عن المسيح: (العبرانيين ٨: ٦-١٣).

http://almaktabeh.com

«ولكنه الآن قد حصل على خدمة أفضل بمقدار ماهو وسيط أيضا لعهد أعظم قد تثبت على مواعيد أفضل. فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب لما طُلب موضع لثان؛ لأنه يقول لهم لائمًا هو ذا أيام تأتي يقول الرب حين أكمل مع بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهدًا جديدًا. لا كالعهد الذى عملته مع آبائهم يوم أمسكت بيدهم لأخرجهم من أرض مصر لأنهم لم يثبتوا فى عهدى وأنا أهملتهم يقول الرب. لأن هذا هو العهد الذى أعهده مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب أجعل نواميسى فى أذهانهم وأكتبها على قلوبهم وأنا أكون لهم إلها وهم يكونون لى شعبًا. ولا يعلمون كل واحد قريبه وكل واحد أخاه قائلا أعرف الرب؛ لأن الجميع سيعرفوننى من صغيرهم إلى كبيرهم. لأنى أكون صفوحًا عن آثامهم ولا أذكر خطاياهم وتعدياتهم فى ما بعد. فإذا قال جديدا عتّق الأول. وأما ما عتّق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال».

وما يؤسسه هذا ليس مجرد إحلال ميثاق محل آخر، أى إحلال الميثاق الذى أبرمه المسيح محل الميثاق الإبراهيمى/ الموسوى، ولكن ترحيل وإعادة توطن الشعب اليهودى - بيت إسرائيل وبيت يهوذا - بإسرائيل أخرى ويهوذا آخر، باستخدام نفس الاسم. وأن الشعب الذى تم عقد الميثاق الجديد معه، أى إسرائيل الجديدة ويهوه الجديدة، هى الكنيسة. وهكذا فإن رواية العهد القديم يُعاد تفسيرها باعتبار أنها تستمد معناها مما أدت إليه، أى قدوم المسيح.

وخروج بنى إسرائيل من مصر كناية عظيمة قوية عن عيد الفصح. وهكذا فإنه بينما أنقذ الرب شعبه الأول من العبودية الفعلية تحت قيادة موسى، كذلك فإن المسيح موسى الجديد يقود شعب الرب الثانى للخلاص من العبودية الروحية للخطيئة.

وعلى أية حال، كما يرد غالبًا فى الكتاب المقدس، يجب إزاحة تفسير بتفسير آخر. وربما كان القديس بولس، وربما لم يكن هو كاتب الخطاب إلى العبرانيين ولكن من المرجح أنه هو كاتب الرسالة إلى الرومان: رسائل بولس الرسول إلى أهل رومية: (١١: ٢٥-٢٩) التى تجادل بالمعنى المضاد:

«فإنى لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا هذا السر لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء أن القساوة قد حصلت جزئيًا لإسرائيل إلى أن يدخل ملؤ الأمم. وهكذا سيخلص

http://almaktabeh.com

جميع إسرائيل. كما هو مكتوب سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب. وهذا هو العهد من قبلى لهم متى نزعت خطاياهم. من جهة الإنجيل هم أعداء من أجلكم. وأما من جهة الاختيار فهم أحباء من أجل الآباء؛ لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة».

لأنها في ترجمة النسخة المعتمدة، على الرغم من رشاقتها، غامضة جداً بحيث لا توصل المعنى الكامل، ولذلك فنحن بحاجة إلى شيء أكثر وضوحًا، حتى وإن كان أكثر نثرية مثل ترجمة الكتاب المقدس الأورشليمية [أوردنا نص الترجمة السابق من طبعة أورشليم].

والواقع أن منطق ميثاق بنى إسرائيل مع الرب فى ثنايا العهد القديم هو أن اليهود ربما يكونون قد تمردوا وعصوا بشكل متكرر - بصفة مستمرة فى الحقيقة، بحيث إن أحد الباحثين اليهود أسمى الكتاب المقدس «كتابًا معاديًا للسامية». بيد أن الرب حافظ دائمًا على هدفه من الصفقة، وعدم الاعتراف بالمسيح ربما يكون فعلاً آخر من عدم الوفاء. ويبدو من الواضح أن القديس بولس كان يؤمن بهذا. ولكن كما هو الحال دائمًا يبقى الرب مخلصًا لميثاقه على الرغم من هذا.

وكان على أساس هذه القراءة للكتاب المقدس أن أدان مجمع الڤاتيكان الثانى المعاداة المسيحية للسامية سنة ١٩٦٥م فى مرسومه Nostra Aetate:

«تنطق الكنيسة معترفة بأن كل الذين يؤمنون بالمسيح - ابن إبراهيم حسب العقيدة - متضمنون ضمن دعوة نفس أبى الأنبياء، وكذلك أن خلاص الكنيسة، قد تمت النبوءة به بشكل غامض بخروج الشعب المختار من أرض العبودية . . .

وكما يشهد الكتاب المقدس، لم تعرف أورشليم زمن زيارتها، ولم يقبل اليهود بأعداد كبيرة الإنجيل. والواقع أن عدداً ليس بالقليل عارض انتشاره. ومع هذا فإن الرب يبقى على اليهود أعز عليه من غيرهم بسبب آبائهم. وهو لا يندم على الدعوات التى أطلقها - وكذلك تكون شهادة الحوارى . . . وبما أن التركة الروحية المشتركة بين المسيحيين واليهود تكون بهذا كبيرة للغاية، فإن هذا المجمع المقدس يريد أن يرسى ويوصى بالفهم والاحترام المتبادل الذى هو ثمرة الدراسات اللاهوتية ودراسات الكتاب المقدس وكذلك بالحوارات الأخوية . . .

http://almaktabeh.com

حقا أن السلطات اليهودية ومن تبع قيادتها قد ضغطوا من أجل موت المسيح؛ ومع ذلك، لا يمكن اتهام جميع اليهود الذين كانوا أحياء آنذاك، دونما تمييز، ولا ضد اليهود اليوم. وعلى الرغم من أن الكنيسة هى شعب الرب الجديد، فإنه لا يجب تقديم اليهود على أنهم مرفوضون أو ملعونون من الرب، كما لو أن هذا نابع من الكتاب المقدس».

وتعبيرات مثل «شعب الرب» و«الشعب المختار أو الشعب المخصوص» تستخدم عدة مرات فى العهد القديم للإشارة إلى بنى إسرائيل وإسباغ هذا اللقب بشكل محدد على المسيحيين فى العهد الجديد موجود فى رسالة بطرس الأولى (٢ : ٩ـ ١٠):

«وأمّا أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي، أمة مقدسة شعب اقتناء لكى تخبروا بفضائل الذى دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب. الذين قبلا لم تكونوا شعبًا وأما الآن فأنتم شعب الله الذين كنتم غير مرحومين وأما الآن فمرحومون».

وكلما كان القارئ لرسالة بطرس الرسول الأولى عارفًا أحسن بالكتاب المقدس، كلما فهم أكثر أن كلمة «شعب اقتناء» كانت وصفًا مميزًا للشعب اليهودى أعيد تخصيصها عمدًا لوصف المسيحيين. وربما سيجدها القارئ فى سفر الخروج (١٩ : ٥ـ ٦):

«فالآن إن سمعتم لصوتى وحفظتم عهدى تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب. فإن لى كل الأرض. وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة. هذه هى الكلمات التى تُكلّم بها بنى إسرائيل».

وفى سفر التثنية (١٤ : ٢):

«لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكى تكون له شعبًا خاصًا فوق جميع الشعوب اللذين على وجه الأرض».

وفى سفر التثنية (٢٦ : ١٨ ـ ١٩):

«وواعدك الرب اليوم أن تكون له شعبًا خاصًا كما قال لك وتحفظ جميع وصاياه. وأن يجعلك مستعليًا على جميع القبائل التى عملها فى الثناء والاسم والبهاء وأن تكون شعبًا مقدسًا للرب إلهك كما قال».

http://almaktabeh.com

وفى المزمور (١٣٥ : ٤):

«لأن الرب قد اختار يعقوب لذاته وإسرائيل لخاصته».

وعملية وضع اليد التى قام القديس بطرس بها للاستيلاء على عبارة «شعبًا خاصًا» قد حدثت أيضا فى رسالة بولس الرسول إلى تيطس، زعيم المسيحيين فى كريت، والتى لا تكتسب حياة أيضا سوى فى ضوء هذه الإشارات الواردة فى العهد القديم:

«لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس. معلمة إيّانا أن ننكر الفجور والشهوات العالمية ونعيش بالتعقل والبر والتقوى فى العالم الحاضر. منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح. الذى بذل نفسه لأجلنا لكى يفدينا من كل إثم ويطهر لنفسه شعبًا خاصًا غيورًا فى أعمال حسنة».

(رسالة بولس الرسول إلى تيطس ٢ : ١١ - ١٤).

وإشارة مرسوم Nostra Aetate إلى الخروج على أنه تبشير بـ «خلاص الكنيسة» هى قطعة نمطية من التنميط الكاثوليكى المعاصر. فهى تتصور الكنيسة على أنها جماعة مرئية مثل الأعداد الغفيرة من الإسرائيليين الذين هربوا من مصر، وكما تم إنقاذهم جملة، فهذا إذن نمط الخلاص المتاح للكنيسة ومن خلالها. ولكى تنال الخلاص عليك أن تكون كاثوليكيًا.

كان هذا المذهب فى كنيسة العصور الوسطى الذى أوجد الكثير من المصاعب التى واجهت المصلحين البروتستانت الأوائل؛ إذ إنهم رفضوا الكنيسة الكاثوليكية لا باعتبارها خطأ فحسب وإنما باعتبارها شرًا. وبحثوا فى الكتاب المقدس عن طريق بديل للخلاص. وإذا لم تكن عضوية الكنيسة الكاثوليكية هى الطريق الذى به يشارك المسيحى فى فعل المسيح الخلاصى، فأين كان إذن ذلك المجتمع الخلاصى الذى تحدث عنه الكتاب المقدس، شعب الرب الحقيقيون؟ هل يحتمل أن هذا الشعب خفى؟ أم أنه كان فى الواقع الدولة الوطنية البروتستانتية البازغة حديثًا؟ هل كانت هى انجلترا حقًا؟

http://almaktabeh.com

وبالنسبة لأولئك الباحثين عن أيديولوچيا ترتكز عليها الدولة الوطنية، كان ذلك حلاً مغريًا، وأخذوا به. وفى حالة انجلترا فضلا عن ذلك بدأت حركة الإصلاح الدينى مع الملك هنرى الثامن وتنصّله من السلطة البابوية وتنصيب نفسه الحاكم الأعلى للكنيسة. ومثلما ذكرّه توماس مور، أن هذا من الناحية النظرية يجعل ملك انجلترا رئيس الكنيسة الكاثوليكية؛ وبنفس النظرية فإن الكنيسة التى يحكمها البابا (التى مات توماس مور مؤمنًا بها) لا يمكن أن تحمل نفس الاسم بصورة حقة بعد ذلك، فى انجلترا على الأقل. إذ لم يكن ثمة مكان فى أى لاهوت لكنيستين كاثوليكيتين حقًا، سواء جنبًا إلى جنب أو كانت إحداهما فوق الأخرى. فقد تحدث مرسوم نيقية فقط عن «كنيسة كاثوليكية ورسولية مقدسة واحدة». فإذا كانت هناك كنيسة تحمل هذه الصفة، فإن الأخرى لا تكون كذلك. ومن ثم هل كان من الممكن غرس جذور الدولة الوطنية البروتستانتية الإنجليزية فى تربة لاهوت كاثوليكى كنسى؟ وقد جعل هذا الفكرة غاية فى القوة والثبات. أما كيف تغلبت السلطات الإنجليزية على الاعتراضات التاريخية العادلة على هذا المفهوم المستحدث ـ وهى اعتراضات ساقها مور نفسه ـ فإن هذا ما سوف نتناوله فيما بعد.

والاستخدام اليهودى للتنميط فى التفسير كان على الدوام يتميز بفردية أكثر من الاستخدام الكاثوليكى أو حتى الاستخدام البروتستانتى؛ إذ إنه غالبًا ما يشير إلى الأفراد أكثر من الجماعات، ولسبب وجيه هو أن الجماعة اليهودية كانت ترى نفسها نمطًا فريدًا، وليست مجازًا لأى شىء آخر. وكان بعض التنميط الجماعى ما يزال ممكنًا بالربط بين الجماعات اليهودية اللاحقة بالجماعات اليهودية الباكرة. فعلى سبيل المثال، فإن وجبة التناول اليهودية هى تمثيل نمطى للخروج.

وغالبًا ما كان التنميط لأغراض التعليم والقدوة الأخلاقية. وإذا أخذنا القصة الواردة فى سفر التكوين الإصحاح الثامن عشر عن أن إبراهيم كان يقدم الطعام والشراب إلى الأغراب الذين كانوا يزورونه فى خيمته، فإن ما كان مهما ليست هى التفاصيل الدقيقة لكرم الضيافة الذى أبداه إبراهيم، ولكن المهم هو أنه فعل هذا. فقد كانت القدوة الطيبة هى المهمة. ويصف الرباى لويس چاكوب فى كتابه

http://almaktabeh.com

«Companion to the Jewish Religion» إبراهيم فى التعاليم اليهودية باعتباره نمطًا قياسيًا:

«إنه الساعى إلى الحقيقة، هو الحكيم الذى اكتشف الرب بهدوء باستخدامه طاقاته العقلية حتى قبل أن يخاطبه الرب مباشرة . . . ومن ناحية أخرى فإنه يمثل الرجل المحب الذى يثق فى ربه ثقة مطلقة ويتبعه حينما يناديه. وفى القصة اليهودية القديمة يقول رجل إنه لا يريد لابنه أن يصبح بالضرورة عالمًا مشهورًا أو قديسًا ولكن «أن يكون ببساطة يهوديا مثل أبينا إبراهيم». وثمة فضيلة أخرى من فضائل إبراهيم هى كرم ضيافته. ويتصور المدراش الربانى خيمة إبراهيم على أن بها فتحات فى نواحيها الأربع بحيث يمكن لكل من يطلب المساعدة أن يدخل مباشرة من أى اتجاه جاء . . . ويتم تصوير إبراهيم على أنه شخص لا يتراجع عن عبادة الرب مهما كان الإغراء قويًا. ومما يثير الفضول، أن أحدًا من الربانيين التلموديين لم يكن اسمه إبراهيم، ربما لأن كل يهودى كان عليه أن يناضل لكى يصير إبراهيم آخر».

هذه الاستخدامات للكتب المقدسة أمثلة دالة على التنميط. وفى الحالة اليهودية، استخدام إبراهيم بوصفه نمطًا مثاليًا من الرجال؛ أما فى الحالتين البروتستانتية والكاثوليكية، فاستخدام الحكايات من التاريخ اليهودى باعتبارها سوابق مبشرة بحياة الكنيسة. والكنيسة الكاثوليكية وبنات عمومتها الكنائس الأرثوذوكسية الشرقية تقدم فى قداسها وفى الصلوات اليومية إشارة إلى نفسها على أنها إسرائيل وأورشليم وشعب الرب والشعب المختار، وبشكل متكرر تذكر أنبياء إسرائيل الكبار على أنهم أنبياء الكنيسة. والقانون الكنسى الذى ينظم قداس الثالوث والمستخدم منذ القرن السادس عشر حتى سبعينيات القرن العشرين كان يجعل القساوسة يقدمون القربان «المقدس تمامًا والنقى الخالص» من جسد المسيح ودمه مع تلاوة الصلاة: «تفضل بالنظر إليهم بمحياك المحب الرحيم، وتقبلهم كما سرّك أن تقبل تقدمة خادمك هابيل العادل، وقربان أبينا إبراهيم . . . تقدمه مقدسة، ضحية ليست ملطخة».

وأصداء المتشابهات من العهد القديم عميقة ومتنوعة، بيد أنها غالبًا ما تكون تلميحًا فقط بدلاً من التصريح بها. وهكذا يضحى إبراهيم (تكوين، الإصحاح

http://almaktabeh.com

٢١) بكبش بدلاً من ابنه إسحاق(*)، وهابيل العادل (تكوين ٤) يقدم حملاً إلى الرب شكرا، قبل أن يقتله قابيل، وملكى صادق (تكوين ١٤ : ١٨ - ٢٠) يقابل إبراهيم ويعطيه الخبز والنبيذ (والذى يأخذه اللاهوتيون الكاثوليك على أنه السابقة التى أخذ عنها طقس الأفخارستيا، أى القربان والتناول). بل إن ما هو أهم هو الإشارة الضمنية إلى الخروج، حيث أمر الرب كل إسرائيلى بذبح وأكل «حمل غير ملطخ» وذلك استعداداً لخروجهم من العبودية فى مصر. (ولابد أن المسيحيين كانوا على ألفة تامة بفكرة أن المسيح كان «حمل الرب» من إنجيل يوحنا (١ : ٢٩) «وفى الغد نظر يوحنا يسوع مقبلاً إليه فقال هذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم».

وفى سفر الخروج (١٢ : ١ - ٨):

«وكلم الرب موسى وهارون فى أرض مصر قائلاً: هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور. هو لكم أول شهور السنة. كلّما كل جماعة إسرائيل قائلين فى العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء شاة للبيت. وإن كان البيت صغيراً عن أن يكون كفواً لشاة يأخذ هو وجاره القريب من بيته بحسب عدد النفوس. كل واحد على حسب أكله تحسبون للشاة. تكون لكم شاة صحيحة ذكر ابن سنة تأخذونه من الخرفان أو من المواعز. ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر. ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل فى العشية. ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلونه فيها. ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويًا بالنار مع فطير على أعشاب مرة يأكلونه».

والمغزى هو أن القربان فى القداس (والذى يتضمن أيضا، فى عمل العشاء الربانى، أكل القربان المقدم) يعيد خلق قربان بنى إسرائيل. وكما لاحظنا سابقًا يكون التحرر هذه المرة من العبودية للخطيئة، وليس من العبودية فى مصر.

وما هو متضمن فى مثل هذه الإشارات، أى أن النظام اليهودى القديم قد توقف وأن نظامًا جديدا (مسيحيًا) قد حلّ محله - مقرر بشكل أوضح كثيراً فى رؤيا القديس يوحنا لنهاية العالم الشهيرة فى سفر الرؤيا (٢١ : ١ -٣):

(*) فى أصح القولين فى التراث الإسلامى، ضحى إبراهيم بالكبش فداءً لإسماعيل، وفى العهد القديم أن الكبش كان فداءً لابنه الوحيد، ولا ينطبق ذلك سوى على إسماعيل، ولكن جاء فى موضع آخر إسحاق بالاسم - المترجم.

http://almaktabeh.com

«ثم رأيت سماءً جديدة وأرضًا جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فى ما بعد. وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتًا عظيمًا من السماء قائلاً هو ذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبًا والله نفسه يكون معهم إلهًا لهم».

هذه الرحلة فى الفهم الذاتى الكاثوليكى والأرثوذوكسى، تمسّ أسئلة مؤلمة عن الإلغاء وعلاقته بمعاداة السامية، وهى ضرورية إذا ما كان علينا أن نفهم ماذا حدث بعد ذلك: أى تطوير نظرية إلغاء پروتستانتية متمايزة تركز على الدولة - الوطنية الإنجليزية البازغة. فقد كان اليهود غير مخلصين لميثاقهم، وحل محلهم المسيحيون الأوائل. بيد أن الكاثوليك قد برهنوا أيضا عدم إخلاصهم لميثاقهم، ربما فى الوقت الذى كانت فيه البابوية قد ظهرت، فيما بعد الإمبراطور قسطنطين، باعتبارها إمبراطورية رومانية جديدة (وليس هناك اتفاق بين المصلحين الپروتستانت الأوائل على التاريخ الدقيق الذى صارت فيه الكنيسة العالمية غير مخلصة؛ لأن وضع التاريخ فى فترة مبكرة جدا يمكن أن يدمر بعض القضايا التى آمنوا بها. وهم جميعًا يتفقون، على الأقل، على أنها كانت قد صارت غير مخلصة فى العصور الوسطى).

وهكذا كان من المفترض أن الكاثوليك أيضا قد تبرأ منهم الرب. فقد كانوا بالنسبة للپروتستانت مثلهم مثل اليهود بالنسبة للكاثوليك. والحقيقة أنه ليس من الصعب أن نرى نتيجة أخرى نجمت عن هذا: أن الإنجليز بدورهم برهنوا على أنهم غير مخلصين لميثاقهم، ولهذا عقد الرب ميثاقًا جديدًا مع الأمريكيين. والمسيحيون الأمريكيون السود سرعان ما سيمضون بهذه العملية خطوة أبعد. لقد أخفقت أمريكا البيضاء، وبذلك تم تمرير الميثاق مرة أخرى. (انظر تحليل مقولة مارتن لوثر كنج «أنا عندى حلم» فى فصل تال). كما أنها ليست مصادفة أن الهجوم الحانق واللاذع الذى بدأت الكنيسة الكاثوليكية تستخدمه فى معاملتها لليهود قد انعكس فى الهجوم المرير اللاذع الذى استخدمه الپروتستانت الأوائل فى تعاملهم مع

http://almaktabeh.com

الكاثوليك. وهو ما يوحى بأن جزءاً من المنطق المخبوء فى مذهب الإلغاء إنما هو رغبة من جانب الخلف لمعاقبة السلف اللذين حلوا محلهم والحط من شأنهم وتدنيسهم؛ لأنه إذا كان الرب قد تبرأ من شعبه، فلا بد أنه كان لديه سبب قوى للغاية، والبديل هو أنه إذا لم يكن اليهود غير جديرين ببركة الرب، فإن مزاعم الكنيسة الكاثوليكية بالحلول محلهم وإلغائهم محل تساؤل؛ وإذا لم يكن الكاثوليك غير جديرين ببركة الرب، فإن مزاعم البروتستانت المماثلة تكون محل تساؤل.

وليس من الصعب أن نرى مثالاً آخر لهذا التحقير الإحلالى الضرورى فى الطريقة التى كان الأمريكيون الأوائل يفكرون بها فى الإنجليز (أو البريطانيين كما كانوا آنذاك). وقد كان من الضرورى الاعتقاد بوجود مؤامرة استبدادية بريطانية ضد الحرية بقدر أكبر مما يمكن أن تقدمه الأدلة والبراهين، وذلك لتبرير العصيان (وفى مصطلحات الاختيار لتبرير الإلغاء والحلول). ومثلما يلاحظ فوستر فى سياق آخر (مقتبسًا عن إرنست رينان): «إن خلق وطن يتضمن فهم تاريخ المرء بطريقة خاطئة». والحقيقة أنه فى أواخر القرن الثامن عشر كانت انجلترا وأمريكا متساويتين فى كونهما بلدين حرين، ولم تكن أيا منهما قدوة يحتذى بها فى الحرية المدنية بمصطلحات القرن الحادى والعشرين. والواقع أن انجلترا كانت تسبق أمريكا بدرجة ما فى إلغاء الرق. وقد حكم رئيس القضاة اللورد مانسفيلد فى سنة ١٧٧٢م بأن چيمس سومرت، وهو عبد هارب من ڤيرچينيا تم إحضاره إلى المياه البريطانية، لايمكن إجباره على العودة إلى المستعمرات، موضحًا بذلك أن الملكية المطلقة لشخص واحد من قبل شخص آخر لم تكن أمراً يعترف به القانون الإنجليزى. أما السير وليام بلاكستون، الذى كان أكبر حجة فى القرن الثامن عشر فى القانون الإنجليزى العام (الذى تم الاعتماد عليه كثيراً فى مدارس القانون الأمريكية فيما بعد) فقد قال فى محاضرة له بجامعة أوكسفورد سنة ١٧٦٥م:

«إن فكرة وممارسة هذه الحرية السياسية أو المدنية تزدهر بأجلى معانيها فى هذه الممالك، حيث إنها تقرب من الكمال، ولايمكن أن نخسرها أو ندمرها سوى بحماقة وعدم جدارة من يمتلكها؛ إذ إن التشريع، وقوانين انجلترا بطبيعة الحال،

http://almaktabeh.com

التى تم تطويعها بشكل خاص لحفظ هذه البركة التى لا تقدر بثمن حتى فى أحقر موضوع، وهو مختلف تمامًا عن الدساتير الحديثة للدول الأخرى، فى قارة أوروبا، وهى تضفى - عمومًا - سلطة تعسفية واستبدادية للسيطرة على أفعال الرعية لصالح الأمير أو عدد قليل من الكبار. وروح الحرية هذه مغروسة بعمق فى دستورنا، بل إن جذورها ضاربة فى أرضنا نفسها، بحيث إن عبدًا زنجيًا، عندما يصل إلى انجلترا، يكون تحت حماية القوانين، وبالنظر إلى كل الحقوق الطبيعية يصبح فى الحال رجلاً حرًا».

أما ما كان يلهب خيال المستعمرين الأمريكيين فى السنوات التى سبقت الثورة مباشرة، فكان هو الاقتناع بأنه على الرغم من تظاهر الإنجليز بأنهم محبون للحرية، فإنهم قد نسجوا مؤامرة لنزع الحرية الأمريكية تمامًا، وكانت المنازعات على ضريبة الدمغة وعلى رسوم الاستيراد نذيرًا بالأسوأ الآتى. ويقتبس برنارد بايلين مثالاً على هذه الحال، هو قرار اجتماع عقد فى مدينة بوسطن سنة ١٧٧٠م أعلن أن «سلسلة من الأحداث، وكثيرًا من الأعمال الحديثة. . . توفر سببًا عظيمًا للاعتقاد بأن ثمة خطة عميقة وبائسة تم وضعها من جانب الاستبداد الإمبراطورى وتم تنفيذها جزئيًا، لاستئصال الحرية المدنية. . .». وبينما أخذ يعطى وزنًا كبيرًا لهذه الشكوك فى وجود مؤامرة قبيل العصيان، لم يجد أى دليل على مثل هذه المؤامرة نفسها. وهو يكتب:

«كان المستعمرون يعتقدون أنهم رأوا من غمار الحوادث التى وقعت خلال العقد الذى أعقب مرسوم ضريبة الدمغة، نموذجًا ظهر لايمكن أن يخطئ أحد فهم معناه. . . لقد رأوا من حولهم بوضوح متزايد، ليس مجرد سياسات خاطئة أو حتى شريرة تنتهك المبادئ التى عليها استقرت الحرية، وإنما ما ظهر على أنه دليل يؤكد ما ليس أقل من الهجوم المتعمد من جانب المتآمرين الأشرار ضد الحرية فى كل من انجلترا وأمريكا. وكان الاعتقاد أن الخطر على أمريكا، إنما هو فى الحقيقة مجرد الجزء الصغير الظاهر مباشرة من الكل الأعظم الذى سوف يتضح نهائيا فى تدمير الدستور الإنجليزى، بكل الحقوق والامتيازات التى يتضمنها».

http://almaktabeh.com

وكما لاحظنا فى الفصل السابق، فإن أحد المفاتيح المهمة للمقاصد البريطانية كان قد ظهر بسرعة فى التخفيف من مرسوم الاختبار فى كندا سنة ١٧٧٤م. إذ لم يكن فقط هدف بريطانيا هو استعباد المستعمرين تحت حكم ملك طاغية، وإنما كان سيتم استعبادهم بديانة مستبدة (الكاثوليكية) أيضا. (ولا حاجة للقول بأن هذا الحكم لم يكن قائماً على أى تجربة بالظروف السائدة فى كويبك). ولم يكن الفرض الفعلى للطغيان هو الذى أشعل شرارة العصيان، على الرغم من أن إجراءات مثل وقف المحاكمة عن طريق المحلفين بدت بالتأكيد نذيراً بالأسوأ القادم، كما أعلن البرلمان فى سنة ١٧٦٦م أن له الحق فى أن يفعل هذا إذا كان يريد هذا. وفى مرسوم «لضمان أفضل لاعتماد أملاك جلالته فى أمريكا على التاج وبرلمان بريطانيا العظمى»، تم الإعلان عن أن البرلمان البريطانى «كان له الحق وله الحق فى أن تكون له سلطة كاملة لسن القوانين والمراسيم ذات القوة والحيوية الكافية لربط المستعمرات وشعب أمريكا . . . فى كل الأحوال مهما كانت». ويبدو كما لو أن المذهب الإنجليزى عن الدولة الوطنية كاملة السيادة، والتى كان أول من أعلنها هنرى الثامن، قد أنتجت فى النهاية نظرية عن الحكومة البرلمانية، كانت فى جوهرها، استبدادية. وإذا ما كان بوسع الدولة الوطنية الإنجليزية أن تفعل كل شيء، بل وتغير وتخترع ديانتها إذا أرادت أو تعدم ملكاً أو تخلعه عن العرش، إذن فإن سلطة البرلمان تكون فى حقيقتها سلطات مطلقة.

وفيما بعد يلاحظ بايلين:

«كيف يمكن تقويم، أو تقويض، أو إعادة تفسير هذ العقيدة الجوهرية فى النظرية السياسية الإنجليزية، كانت هى المشكلة المركزية التى واجهت زعماء القضية الأمريكية؛ وليس هناك مشهد أكثر سحراً فى تاريخ الفكر السياسى الأمريكى من الجهود التى بذلت - بداية من الصراع مع انجلترا على مدى سلطة البرلمان واستمراراً مع المناقشات على إصلاح الدستور الفيدرالى - للوصول إلى حل لهذه المشكلة».

أما ما كان الإنجليز يعرفونه بحكم الألفة وما لم يكن الأمريكيون البعيدون يعرفونه، فهو أن نظرية السيادة البرلمانية المطلقة لم تكن سوى مجرد نظرية. وما كان يوقف السياسيين وخلفهم أغلبية عن دفع النظرية إلى حدود عبثية واستبدادية هو

http://almaktabeh.com

الدراما الإنسانية للسياسات التي يتم توجيهها حسب النظام البرلماني؛ إذ إن مجلس العموم ومجلس اللوردات كانت لهما قاعاتان صغيرتان نسبيًا وغالبًا مزدحمتان وتعجان بالضوضاء. وكان على السياسيين الذين يروجون لسياساتهم، كان عليهم أن يقفوا وهم ينظرون في عيون معارضيهم الجالسين في مواجهتهم على مسافة أقدام قليلة فقط - وهم يتهكمون، ويصيحون، ويلوحون، ويسخرون - على بعد يساوي طول سيفين فعلاً في مجلس العموم (ولم يكن مسموحًا لأي سياسي أن يعبر خط الأمان الذي يحدد هذه المنطقة المحايدة). ولكي يواجه أولئك الذين أمامه عليه أن يحمل معه أولئك الذين خلفه، أي فريقه.

بيد أن تأييدهم لم يكن غير مشروط؛ إذ إن الزعيم السياسي المتعصب أو غير المحبوب سوف يجدهم يبتعدون عنه بسرعة. وحتى الصمت وراءه بدلاً من التأييد المسموع المعتاد، كان مؤشرًا خطيرًا. وقد حدث هذا مرات ومرات، وقد حدث فعلاً لإدارة اللورد نورث حينما لم يعد مؤيدوه يثقون في متابعته للحرب الأمريكية. وسرعان ما انهار تحت وطأة النيران المضادة البرلمانية التي أطلقها الخصوم من أمثال تشارلز فوكس وإدموند بروك. وهكذا كان الطغيان تحت السيطرة، ولكن على مسافة تبعد ثلاثة آلاف ميل وأكثر لم تكن هذه الكوابح الإنسانية على نظرية السيادة المطلقة لم تكن تبدو أساسية بالقدر الكافي. وعلى أية حال، فإن المستعمرين كانت عقليتهم محكومة بالمؤامرة.

بل إن الاقتراح المعقول بتعيين أساقفة في كنيسة انجلترا بأمريكا - وبدونهم كان على القساوسة الأنجليكان أن يعبروا الأطلنطي ليتم ترسيمهم - كان يعتبر محاولة لمد النموذج الإنجليزي في الكهنوت، وهو مايعني بالنسبة للبروتستانت الأمريكيين نوعًا من السلطة الدينية من الباب الخلفي. وقد رأى أتباع الكنيسة المشيخية على نحو خاص فكرة الأساقفة الأمريكيين باعتبارها خطرًا على مصالحهم. وسرعان ما كان جون آدامز يشكو من أن اقتران «الطغيان الزمني والروحي» كان يمثل «كارثة على الحرية الإنسانية»، وأورد آراء الفيلسوف دافيد هيوم القائلة بأن «في كل عصور الدنيا كان الكهنة أعداء للحرية». وهكذا، كما يلاحظ بايلين «جلب الخوف من فرض أسقفية أنجليكانية إلى البؤرة، حزمة من الأفكار والمواقف والاستجابات التي

http://almaktabeh.com

ترتبط بشكل حى بالروابط مع البابوية وأسرة ستوارت والمذهب اليعقوبى التى تمتد قرنا فى الزمان، والتى دخلت مباشرة فى النزاع الثورى. . . ». ولذلك لم يكن ما ثار ضده المستعمرون هو الطغيان الفعلى، وإنما هو التهديد أو الخوف من طغيان ما. وطبقًا لإعلان الاستقلال نفسه «إن تاريخ الملك الحالى لبريطانيا العظمى هو تاريخ المظالم والاغتصاب المتكرر، وكلها تهدف مباشرة إلى تأسيس سلطة مستبدة طاغية على هذه الدول».

وبذلك كان التهديد بالطغيان هو نفسه استبداديًا، وهو ما يحمل بداخله منطقًا بعينه. وألم يقدم الكتاب المقدس أمثلة توضيحية تبين أن الملوك الذين صاروا طغاة قد تمت الإطاحة بهم؟

ودور كنيسة انجلترا فى هذا كله دور غريب. فمن ناحية، كما لاحظنا بالفعل، كانت الغالبية الكبرى ممن وقعوا على إعلان الاستقلال، على الأقل، أعضاء اسميين فى كنيسة انجلترا. وكان إكليروس تلك الكنيسة فى أمريكا، والذين يسمون الأسقفيين، مبرزين على كلا جانبى الحماسة التى اشتعلت فيما قبل الثورة. ولكن منذ بداية القرن الثامن عشر، إن لم يكن قبل ذلك، كانت كنيسة انجلترا مرموقة؛ بسبب أنها احتفظت بين أعضائها ببعض من أكثر نقادها صراحة. وفى الحقيقة، أن جزءًا من الاستقرار السياسى الذى ذهب بإعادة شارل الثانى إلى العرش، كان مفهوم الشمول الذى كان يعنى أن الكنيسة سوف تحتفظ داخل جدرانها بأولئك الذين يختلفون مع بعضهم البعض بشكل أساسى حول مسائل كانوا يعتبرونها حيوية. وقد اندمج خلفاء المحافظين فيما صار حزب الكنيسة السفلى، وتجمع الفرسان فى حزب الكنيسة العليا.

والرؤية العليا للكنيسة كانت تؤكد على أنشطتها الطقوسية ومكانتها المتجاوزة للطبيعة باعتبارها مؤسسة خلقها الرب، أما الرؤية السفلى فكانت ترى أنها ليست أكثر من تكتل ملائم للمسيحيين ذوى العقول المتشابهة. وكان معنى أن تكون عليا أن تكون أكثر كاثوليكية، وألا تهتم أكثر مما ينبغى بالتشابهات السطحية بينها وبين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وأن تكون الكنيسة سفلى كان يعنى أن تكون غير

http://almaktabeh.com

واثقة في أتباع الكنيسة العليا لهذا السبب بالذات. وفي القرن التاسع كان السفلير قد صاروا عمومًا أنجليكانيين (پروتستانت)، بينما صار العلويون أنجلو كاثوليك؛ وكان لكل جانب جمعياته التبشيرية وكلياته اللاهوتية الخاصة. ويوضح مصطلح «الأنجلو كاثوليك» وجهة النظر القائلة بأن كنيسة انجلترا جزء من كنيسة كاثوليكية أوسع، تشكل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية - على الرغم من أنها مخطئة في بعض مذاهبها - جزءًا منها أيضا. وفي كل من انجلترا وأمريكا جرت التقاليد على أن بعض الأسقفيات الأنجليكانية سوف يشغلها على الدوام أساقفة من الكنيسة العليا، وبعضها الآخر يتولاها بصفة دائمة أساقفة من الكنيسة السفلى.

لم يكن هناك حب مفقود بين الكنيسة العليا والكنيسة السفلى، وكان للتقسيم - وما يزال له في القرن الحادي والعشرين - شأن كبير بالمواقف تجاه روما. وأعلى القساوسة الأنجليكان في الكنيسة العليا يمكن ببساطة الخطأ في اعتبارهم قساوسة كاثوليكًا رومانًا، مثل بناياتهم الكنسية. وأدنى قساوسة الكنيسة السفلى الأنجليكان، من ناحية أخرى يختارون نقيضًا يكاد يكون پيوريتانيًا، سواء في الملابس التي يرتدونها أو في الطريقة التي يفرشون بها كنائسهم ويديرون بها احتفالاتهم. والكنيسة (الأنجليكانية) في أيرلندا، التي كانت تقليديا كنيسة سفلى، لم تكتف بمنع الصليب الذي يجسد المسيح فوقه، ولكنها منعت أيضا الصلبان المجردة (التي لاتحمل شخوصًا) حتى الستينيات من القرن العشرين، على أساس أنه حتى الصليب المجرد - وهي في انجلترا العلامة المميزة للكنيسة السفلى - كان صليبًا رومانيًا جدًا.

وربما لا تكون ثمة مفاجأة، إذا ما أخلنا في اعتبارنا أن المجموعتين السابقتين اللتين شكلتا حزب الكنيسة العليا وحزب الكنيسة السفلى قد خاضتا حربًا أهلية مريرة في انجلترا القرن السابع عشر، بحيث إنهما كانتا في قلوبهما لا تثق كل منهما في الأخرى على كل من جانبي المحيط الأطلنطي في القرن الثامن عشر. والواقع أن بعض انحيازات للمجموعتين الباقية ثقافيًا واجتماعيًا ودينيًا قدر لها أن تجرّ أمريكا إلى حربها الأهلية في القرن التالي.

http://almaktabeh.com

وفى مقدمته لكتاب «The Cousins Wars» يقول كيفن فيليبس: إن الصراع الكامن فى الجانبين، والذى تحول إلى حرب ضَرُوس، فى انجلترا أولاً: ثم بينهم الإنجليز والأمريكيون وأخيراً فى أمريكا (الحرب الأهلية) يؤدى إلى صياغته للموضوع:

«أنه من القرن السابع عشر، عرف الناس المتحدثون بالإنجليزية فى كلتى القارتين أنفسهم بالحروب التى حافظت على ثقافة سياسية مرشدة من الكنيسة السفلى البروتستانتية الكالفينية، بارعة تجاريًا، توسعية عسكريًا، ومقتنعة إلى حد كبير فى العالم القديم وفى العالم الجديد، أو فى كليهما، أنها تمثل شعبًا مختاراً ومصيراً واضحًا. وفى السياق الكامل للقرون الثلاثة، كان الفرسان والأرستقراطيون والأساقفة قد انسحبوا منها، على حين امتلك القيادة البيوريتان، والمقاولون العصاميون، الوطنيون الأنجلو سكسون والتوسعيون، وأصبحوا يمسكون بزمام الأمور، خاصة فى أمريكا».

ويوافق فيليبس جزئيًا مع مؤرخين آخرين ممن سلموا بتداعيات «ثلاثة مذاهب بيوريتانية على كلا جانبى الأطلنطى. وصل أولها إلى قمته فى منتصف القرن السابع عشر فى الحرب الأهلية الإنجليزية وانتصار كرومويل؛ ووصل الثانى إلى قمته فى نيوإنجلاند قبل الثورة الأمريكية مباشرة وكان عاملاً مهمًا فى قضاياها؛ أما الثالث فقد ظهر كذلك قبل الحرب الأهلية الأمريكية مباشرة:

«والفكرة ساحرة لأنها تساعد على التفرقة بين حركات الإحياء فى هذه الثقافات الثلاث - فهى جميعا ذات عقلية إصلاحية، ومشاعية وتجارية كما أنها صارمة دينيًا - وبين تأثيرات الإحياء والصحوات العظمى فى الجنوب الأمريكى (وقد يضيف البعض شمال انجلترا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر) والتى كانت أكثر عاطفية وأقل ارتباطًا بإصلاح الطبقة الوسطى أو القيم التجارية. وحروب أبناء العم الثلاث على أية حال تتطابق مع المذاهب البيوريتانية الثلاثة على الرغم من أن هذا الكتاب سوف يترك اللاهوت لآخرين».

والمذهب البيوريتانى، كما سنناقشه لاحقًا، هو شكل من المسيحية يضع تأكيداً

http://almaktabeh.com

كبيراً على العهد القديم، ويأخذ منه متشابهات مع الحاضر، وبذلك يرى أن هناك تشابهات قوية بين الجماعة البيوريتانية وبني إسرائيل الذين يتحدث عنهم الكتاب المقدس، فكلاهما هم الشعب المختار. وفي داخل المذهب البروتستانتي كان عليه أن يرضى من حين لآخر بأشكال غير كالفينية من المسيحية، سواء داخل المذهب الأنجليكاني أو في الطوائف المنفصلة مثل المنهجيين Methodists. وأولئك - وهم إنجيليون أساسًا - يضعون تأكيدًا أكبر على العهد الجديد، ويرون أن هناك عدم استمرارية أكثر من الاستمرارية بين جزئي الكتاب المقدس، وحركات الإحياء والصحوات الكبرى التي يتحدث عنها فيليبس كانت أنجيلية، وركزت على جهود تحويل الناس إلى المسيحية بالتبشير العاطفي الذي تم تصميمه على أساس إثارة خوفهم من اللعنة وحاجتهم إلى المواساة الروحية. أما البيوريتانية فكانت دائمًا أكثر برودة من ذلك. ولذلك فإن التفرقة اللاهوتية التي يلمح فيليبس لها تكمن في منطقة العهد القديم في مواجهة العهد الجديد، والقدرية ضد الإرادة الحرة، أو الأرمينية(*) ضد الكالفينية. وفي التاريخ الثقافي الأنجلو - سكسوني، يبدو المذهب البيوريتاني أكثر ارتباطًا بتقدم العلم (إسحاق نيوتن) أو بالثورة الصناعية (آدم سميث)، كما أن المذهب الإنجيلي قد ارتبط بالإصلاح الاجتماعي (ويلبر فورس وشافتسبوري). ولاشك في أن المذهب البيوريتاني كان هو المذهب الأكثر تشددًا وتحزبيًا، ويدخل إلى أعماق الروح. ولايمكن أن يكون ثمة شك أيضا في أن الفرسان كان لديهم الكثير المضحك.

بيد أن صعود البيوريتانية وسقوطها في بريطانيا يختلف قليلا في إيقاعه؛ لأنه كان مرتبطا في البداية بصعود الاقتصاد السياسي (الرأسمالية التي تؤمن بالحرية الاقتصادية Laisser - Faire) في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم مع التوسع الصناعي العظيم في النصف الثاني من هذا القرن. وكانت أمريكا الشمالية متخلفة عن هذه الدائرة بحوالي نصف قرن من الزمان، على الرغم من أنها حينما أخذت تقوم بالتصنيع فاقت بريطانيا التي كانت القوة الصناعية الأولى في العالم. وكان أثر التصنيع في بريطانيا كبيراً؛ إذ إنه أدى إلى النمو السريع للمدن مصحوبًا

(*) نسبة إلى أرمينلوس Arminius (ت ١٦٠٩) وهو لاهوتي بروتستانتي كان يعارض آراء جون كالفن لاسيما في القدرية. المترجم.

http://almaktabeh.com

بتحركات واسعة المدى للسكان من المناطق الريفية، ومصحوبًا كذلك بالفقر والجريمة وتدهور مستويات الصحة والإسكان، والنضال الصناعى والشغب من أجل الإصلاح السياسى. كانت بريطانيا بلادًا واقعة تحت ضغط اجتماعى لم يسبق له مثيل. والميثودية(*) هى التى يُعزى إليها غالبا فضل إنقاذ بريطانيا من الثورة فى القرن التاسع عشر، ولكن يعزى إلى الميثودية أيضا فضل ظهور اتحادات العمال وحزب العمال. (وكانت اجتماعات هذه الطائفة غالبًا أول ملاق للديموقراطية والمساواة تجربه الطبقة العاملة على الإطلاق).

وقد فشل فيليبس أيضا فى أن يجذب الانتباه إلى اختلاف كبير بين الإنجليز والأمريكيين فى زمن الحرب بينهما: وهو أن الأمريكيين كانوا فى ذلك الوقت أكثر «تدينا» بكل معنى الكلمة. لقد كانت الديانة الإنجليزية فى القرن الثامن عشر آخذة فى الركود. وربما كان الناس الذين أرهقتهم الانتفاضات الدينية فى القرنين السابقين، قد قنعوا بأن يتركوا المسائل تنساق مع التيار، والكنيسة تنساق معهم. وكان أحد تأثيرات إعادة الملكية هو تركيز السلطة على الكنيسة بأيدى طبقة أثرياء الريف، وكان هؤلاء من أعيان الريف الصغار والمتوسطين الذين يمارسون الفلاحة والصيد ويتزاوجون فيما بينهم، وكان لديهم خدم فى البيت وعمال فى الأرض، وكان القسيس المحلى مفيداً لهم كوكيل يحفظ القانون والنظام والتوافق الاجتماعى والأخلاقى. وكثير من أثرياء الريف، بجانب كونهم موظفين محليين، كان بوسعهم أيضا أن يمتلكوا مصادر معيشة الكنيسة المحلية الأبرشية - من خلال نظام كان يسمى الحماية، كان من حقهم تعيين من سيكون شاغل الوظيفة التالى من الأحياء، على الرغم من أنه إذا ما تم تعيينه، فإنه يتمتع بحق ما كان يسمى حرية القسيس - بحيث يضمن حيازة وظيفته والدخل الكافى. وكان الرجل الذى يمتلك مصادر المعيشة مسئولاً أيضا عن الحفاظ على الكنيسة؛ ولذلك كان هذا امتيازاً مكلفا فى بعض الأحيان.

وكان أثرياء الريف الذين يمتلكون أرضًا هم العمود الفقرى لما كان يسمى «برلمان

(*) الميثودية طائفة بروتستانتية أسسها جون ويزلى سنة ١٧٣٠م. المترجم.

الفرسان» الذى تشكل بعد عودة شارل الثانى، وكانوا هم الذين يرسمون خط التسامح مع الكاثوليك الرومان عندما قام دوق يورك، والذى صار فيما بعد الملك چيمس الثانى، باقتراح ذلك. وكان التسامح إزاء الانشقاق - انشقاق طوائف البروتستانت والطوائف التى انشقت عن الأنجليكان - أكثر سهولة بالنسبة لهم. بيد أن ديانة القرن الثامن عشر صارت أسرع بالتدريج، وعندما حاول شارل وچون ويزلى توجيه الأمور بحملاتهم التبشيرية الوطنية، استاء كل من القسيس المحلى وثرى الريف من التهديد الذى يواجه سلامهما. وكانت هذه قاعدة غير محتملة لمؤامرة أسقفية إنجليزية للإطاحة بحريات المستعمرين الأمريكيين، وما أن انتهى آخر عصيان يعقوبى (١٧٤٥م)، حتى كانت العاطفة البورجوازية الإنجليزية لا مبالية وراضية عن نفسها. وكانت طريقة التعامل مع الدين ليست هى إثارة الكثير من الضجة حوله.

بيد أن هذا لم يكن الانطباع السائد على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى. فقد كانت لدى الإنجليز خطة - حسبما اعتقد المستعمرون - لجلب كل رعايا التاج داخل جماعة الكنيسة الرسمية. وكانت جمعية الترويج للإنجيل، التى تأسست أصلا للتبشير بالمسيحية بين الهنود الحمر، محل شك بأنها طابور خامس تهدف إلى سحب أتباع المسيحية المخالفة؛ ليكونوا بين ذراعى الكنيسة - وهو ما كان يعنى فى عرف القساوسة الهيمنة الأسقفية، وتفوح منه رائحة السلطة البابوية. وإذ لم يكن لديهم أساقفة يخصونهم، كان من السهل المبالغة فى قدر الفعالية التى يمكن أن يكونوا عليها. والواقع، أنه فى هذا الوقت بالضبط كان المستعمرون يعرفون أن الأساقفة الإنجليز كانوا يظهرون ما هو مضاد تمامًا للحمية الدينية، التى كان يفترض أنهم يشعرون بها؛ إذ إنهم كانوا يرأسون مجتمعًا دينيًا كاسدًا ولم يكن لديهم مفتاح التعامل معه، كما أنهم لم يهتموا بهذا كثيراً. وكان ما يناسب أكثر كونهم من الأعيان أصحاب الأراضى الذين يمثلون طبقة أرقى. وهذه القراءة الخاطئة للمخططات الأسقفية حول الحرية الدينية الأمريكية كانت مثالاً كلاسيكيًا كافيًا على الإسقاط - فقد افترض البيوريتان فى نيوإنجلاند أن الأنجليكان الإنجليز كانوا متطرفين فى حماستهم، لأنهم غير قادرين على تصور أحد أقل استثارة بالأفكار الدينية

http://almaktabeh.com

منهم. وكانت أقسام كبيرة من السكان، وهم من الأنجليكان على أية حال، لم يتم ضمهم - «لا يمكن إقناعهم بسهولة بأن الحرية كانت تتهددها مؤامرة يحيكها رجال الكنيسة» على حد تعبير بايلين.

ومع هذا ولاسيما فى نيوإنجلاند فإن الرغبة المشروعة لدى الأنجليكان فى أن يكون لهم قساوستهم الذين يخصونهم زرع الشك فى أن المقصود كان أسوأ بكثير. فلماذا تمت المبالغة فى الخوف من الأساقفة بهذه السهولة؟ هذا هو ما يستحق مزيدًا من البحث. هناك فى الحقيقة تشابه ملحوظ بين الخوف الأمريكى قبل الثورة من وصول الأساقفة الإنجليز سنة ١٧٧٠ والخوف الإنجليزى فى العصر الڤيكتورى من وصول الأساقفة الكاثوليك سنة ١٨٥٠م، كما أن بعضًا من البلاغة المسرفة كان فى الحقيقة متبادلاً فى الحالتين. فعندما عرف أن البابا اقترح تعيين أساقفة كاثوليك فى انجلترا، قامت جريدة «The Times» اللندنية بقيادة الضجة العامة بمقالة بارزة أدانت «أحد أكبر أفعال الحماقة والوقاحة التى غامر بلاط روما بارتكابها منذ أطاح التاج والشعب فى انجلترا بالنير الرومانى...».

ومن الواضح أن هناك «شيئًا حول أسقف» ما ولكن ربما كان ذلك فقط قبل وصوله. وفى كلتى الحالين فإن المحصلة النهائية، حينما جاء الأساقفة محل السؤال واستقروا فى النهاية، كانت متواضعة تمامًا عن التوقعات. إذ لم يكن ثمة أثر للطغيان. ولكن فى كل حالة كان ثمة أسقف يمثل كنيسة تصوغ دعوى منافسة للشعب المختار، يتم الإحساس بأنها تهدد الجماعة التى تعتقد أنها تملك هذا اللقب، سواء بالتصريح أو التلميح. إذ كان الأسقف الأنجليكانى يمثل دعوى إنجليزية فى مواجهة الزعم الأمريكى، كما أن الأسقف الكاثوليكى كان يمثل الزعم الرومانى فى مواجهة الزعم الإنجليزى. ويلاحظ بايلين «أن الخوف من فرض السلطة الأسقفية الأنجليكانية على هذا النحو يجلب إلى البؤرة حزمة من الأفكار والمواقف والاستجابات التى تحيا مع روابط عمرها عدة قرون مع البابوية، وآل ستيوارت واليعقوبيين تدخل مباشرة فى الصراع الثورى...». وقد حفزت بين الزعماء الفاهمين تمامًا للرأى العام... «إحساسًا عامًا بأنهم يعيشون فى عالم تآمرى، كان كبار الموظفين فيه ينطقون بما لا يقصدونه فى الحقيقة، وأن كلماتهم كانت إشارة إلى خطة شريرة آثمة».

http://almaktabeh.com

وفى مفهوم سكان نيو إنجلاند، وچون آدامز على وجه الخصوص، كان الأساقفة سيئين بطبيعتهم، سواء كانوا أنجليكانًا أو كاثوليكًا، آدامز الذى كان أول نائب رئيس وثانى رئيس للولايات المتحدة كان من أكبر المؤثرين قبل الانفصال عن انجلترا. ولم يكن متاحًا أمامه أى مثال للسلطة الأسقفية يخلو تمامًا من السلطة السياسية أو العلمانية، مثل الأساقفة الميثوديين المحدثين فى الولايات المتحدة. وهكذا كان الأساقفة الذين عرفهم مربوطين دائمًا بنظام أكبر، إلى التاج الإنجليزى وحكومة جلالة الملك، أو إلى روما والڤاتيكان. وكان هذا هو السبب فى كونهم خطرين.

وكانت فى ذهن آدامز دراسة قام بها الڤايكونت موليسورث عن كتب الديموقراطية فى الدنمارك قبل قرن من الزمان: وكانت دراسة موليسورث المعنونة «An Account of Denmark» من القراءات المطلوبة فى أمريكا قبل الثورة. ويعلق بايلين بقوله:

«كان الخوف من اقتران الطغيان المدنى والطغيان الكنسى ببعضهما أمرًا مركزيًا بالنسبة لفهم چون آدامز للتاريخ الأمريكى وكذلك للأزمة الثورية. وكتب أنه كان كراهية، وفزعًا، ورعبًا من الاتحاد الجهنمى الذى سبق وصفه، الذى خطط ووجه وأنجز الاستيطان فى أمريكا" ، وكان نفس هذا الاتحاد بينهما هو الذى واجه الأمريكيين سنة ١٧٦٥ م. "ويبدو أن هناك تخطيطًا مباشرًا ورسميًا لاستعباد أمريكا كلها. وهذا على كل حال يجب أن يتم عمله على درجات، ويبدو أن أول خطوة مقصودة هى التدمير الشامل لنظام آبائنا كله باستخدام القانون الكنسى والقانون الإقطاعى إلى أمريكا" .

والسلطة البابوية، أى التزاوج بين كنيسة روما والسلطة المدنية العدوانية، كانت تُعتبر أكبر خطر، الخطر الكلاسيكى؛ ولكن كانت تلك مجرد حالة خاصة، على الرغم من كونها الحالة الأوضح فى الظاهرة الأكثر عمومية. وقد أشار موليسورث إلى "أنها كانت غلطة كبرى أن يُظن أن الديانة البابوية هى الوحيدة بين كل الطوائف المسيحية المناسبة لتقديم وتأسيس العبودية فى وطن يسود الظن فيه بأن السلطة البابوية والعبودية لايمكن أن ينفصلا عن بعضهما البعض. . . إنها ليست البابوية

http://almaktabeh.com

بحد ذاتها ولكنه مذهب الطاعة العمياء، أيًا كانت الديانة التى يوجد بها، هو الذى يدمر الحرية، وبالتالى يقضى على السعادة كلها فى أى وطن".

كان تصور أن كنيسة انجلترا تطلب من أعضائها الطاعة العمياء تصورًا عبثيًا بشكل واضح. والكاثوليكية التى كان آدامز يكتب عنها هى الصورة الكاريكاتورية لها فى كتاب فوكس الذى يحمل عنوان «Book of Martyrs» الذى كان قد صدر قبل مائتى سنة مضت، وليست هى الثقافة المعاصرة لڤينا هايدن وموزار وبيتهوڤن.

كانت هذه هى الخلفية العاطفية الحديثة التى تعين على مؤسسى أمريكا أن ينظروا فى مسائل الكنيسة والدولة على أساسها. إذ كان التراث الذى ورثوه تراثًا لا يرفض مبدأ المؤسسة، أى أن ديانة واحدة يجب أن تنفرد بنيل إعانة خاصة، والتمتع بمكانة وحماية خاصة، فى مقابل درجة من سيطرة سلطة الدولة على شئونها. فقد كانت مستعمرة ڤيرچينيا قد أسست كنيسة انجلترا على هذا الأساس، أما ماساشوستس وغيرها فقد أسست كنائس طائفية؛ وعلى مدى فترة من الزمان منحت ماريلاند حماية خاصة للعقيدة الكاثوليكية الرومانية على الرغم من أن ذلك انتهى سريعًا. وخلف الخوف من الأساقفة الإنجليز كان الخوف من أن التاج الإنجليزى يفترض أنه يهدف إلى الوحدة والاتساق فى هذه الأمور، مع وجود كنيسة انجلترا فى جميع أنحاء المستعمرات الثلاث عشرة ومع وجود الأساقفة فى كل المدن الكبرى.

ومثل هذه الكنيسة كانت ستكون قابلة للمساملة ليس فى أمريكا ولكن فى لندن، ولكن ذلك لم يكن يبدو مصدر القلق الرئيسى. وإنما كانت الديانات غير الراسخة، تلك الديانات التى شعرت أنها محرومة من الميزات بتجربتها مع كنيسة أخرى منافسة من الكنائس المستقرة، لدرجة أن البعض قاوموا بصراحة فكرة أن الولايات المتحدة الأمريكية البازغة يمكن أن تكون لها ديانتها الخاصة. وبعبارة أخرى فإنهم لم يثقوا فى رفاقهم البروتستانت. وهكذا ولنضرب مثلاً واحدًا، كان المعمدانيون فى كونكتيكت مستاءين من تأسيس الكنائس الطائفية فى تلك الولاية، لدرجة أنهم كتبوا إلى توماس جيفرسون عندما كان رئيسًا ليمتدحوا التعديل الأول (أى الفصل بين الكنيسة والدولة). وتلقوا منه رسالة جوابية فيض لها أن تصبح نصًا دستوريًا كلاسيكيًا.

http://almaktabeh.com

«إننى إذ أعتقد معكم أن الدين مسألة بين الإنسان وربه وحدهما؛ وأنه لايقدم حسابًا عن إيمانه لأحد غيره أو عن عبادته؛ وأن السلطات التشريعية للحكومة تصل إلى الأفعال فقط ولا تصل إلى الآراء، فإننى احترم الاحترام العظيم لهذا الفعل من جانب الشعب الأمريكى كله، الذى أعلن أن تشريعاتهم لايجب أن تجعل أى قانون يحترم مؤسسة [معينة] للدين، أو يمنع بالتالى الممارسة الحرة، وبذلك يبنى سورًا يفصل بين الكنيسة والدولة».

كان مايعنيه جيفرسون الكنيسة بوصفها مؤسسة خاصة، فليس هناك دليل على أن الكونجرس كان يرغب فى أن يستبعد الدين بحد ذاته. وأول رئيسين، واشنطن وآدامز، أعلنا عن أيام وطنية للصيام والتقشف. وهو بصراحة ما كان إعلانه من وظائف الكنيسة، وليس من واجبات الحكومة الفيدرالية. وبعيدًا عن الفصل، كانت مثل هذه الأعمال إشارة فى الاتجاه العكسى: الصهر الكامل للزعامة الروحية والزمنية فى منصب واحد (مثلما هو الحال فى إنجلترا). وكانت هناك أمثلة أخرى باكرة: إصدار نسخ الكتاب المقدس لقوات الجيش الثورى، وتلاوة الصلوات قبل الاجتماعات فى الكونجرس، وإقامة خدمات الكنيسة فى المبانى الفيدرالية. وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد ولدت وهى تعتقد أنها شعب الله المختار، فمن الصعب أن نراها فى الوقت نفسه باعتبارها كيانًا علمانيًا تمامًا. والفصل بين الكنيسة والدولة يسهل بالفعل هذا الدمج للشخصية الدينية والسياسية للوطن الجديد فى كيان واحد؛ لأن هذا يعنى أنه ليست هناك مؤسسة داخل الدولة، بحيث تكون لها مزاعم منافسة بديلة.

ولم تكن مسألة المؤسسة أحد المبادئ العلمانية، ولكنها كانت فى أساسها مسألة عملية - إذا كان لابد من تأسيس كنيسة، فأى كنيسة تكون؟ إذ إن بعض أجزاء المستعمرات الثلاث عشرة كانت تحت التأثير القوى للكنيسة البريسبيتارية الاسكتلندية، والبعض الآخر كان متأثرًا بالكنيسة الجماعية التى خرجت من عباءة الكنائس البيوريتانية المستقلة فى القرن السابع عشر؛ وكان المعمدانيون يتكاثرون فى كل مكان؛ وكان اللوثريون الألمان لهم مزاعمهم فى كل مكان، والكويكرز فى مكان آخر، والكالفينيون الهولنديون فى مكان غيره، وكان لمعظم الولايات روابط

http://almaktabeh.com

الأنجليكانية قوية، على الرغم من أن هذا لم يكن التوازن الحذر الشامل بين الكنيسة السفلى والكنيسة العليا الذى كان يجرى فى انجلترا، ولم تكن هناك صيغة واحدة للمسيحية يمكن أن توافق عليها فيرچينيا الأنجليكانية وماسا شوستس البيوريتانية. ومنذ ذلك الحين لم تكن هناك معارضة كبيرة عندما تم اقتراح تعديل الدستور بحيث يمنع الحكومة الفيدرالية من تأسيس أية كنيسة باعتبارها الكنيسة الرسمية. بيد أن هذا لم يوقف الولايات منفردة من تأسيس كنائسها الخاصة - أو على الأصح استمرار كنائسها التى كانت قائمة قبل الثورة، ولم تؤسس ماساشوستس كنيستها الجماعية Congregational حتى سنة ١٨٣٣م، وهذه السابقة هى التى أوحت بالتعديل الأول فى الدستور الأمريكى - الذى يقيد السلطة التشريعية الفيدرالية وليست سلطة التشريع فى الولايات - بحيث لا يمنعها من إعادة تأسيس كنيسة جديدة إذا ما أرادت، على الرغم من أن هذا احتمال مستبعد تماماً.

ولم تكن فكرة كنيسة مؤسسة غريبة بهذا القدر حتى بالنسبة للمفكرين الراديكاليين فى القرن الثامن عشر - إذ كان مفهوم الدولة العلمانية تماماً، هو المفهوم الذى يصعب استيعابه. وما حدث بخصوص الكنيسة والدولة فى أمريكا فى ذلك القرن كان بطبيعة الحال استمراراً لسياسات الكنيسة والدولة منذ القرن السابع عشر، وهو ما كان يعود بدوره إلى البداية الحقيقية لحركة الإصلاح الدينى فى انجلترا وانفصال هنرى الثامن عن روما سنة ١٥٣٢م.

كان استيلاؤه على سلطة الكنيسة قد طرح مباشرة السؤال التالى: طالما أن الدولة سيطرت على الكنيسة، فأى نوع من الكنيسة ينبغى أن تكون؟ وكانت إجابة چيفرسون «أنها لم تكن من شأن الدولة» قد استغرقت زمناً طويلاً حتى تصل؛ ذلك أن هنرى الثامن جعلها شغله الشاغل، وقتل أولئك الذين اعترضوا طريقه.

* * *

http://almaktabeh.com

الفهـــرس

الموضــــــوع	الصفحة
مقدمة	٥
تقديم	٧
١ـ المصير في مواجهة الهوية	١١
٢ـ القدس الجديدة	٤١
٣ـ تتابع المواثيق	٧٩

http://almaktabeh.com

http://almaktabeh.com

رقم الإيداع
٣٩٤٠ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977- 09- 0932-7

http://almaktabeh.com

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية

العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٢١٣

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانىء الأندلسى ت : ٤٠٣٨١٢٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

http://almaktabeh.com

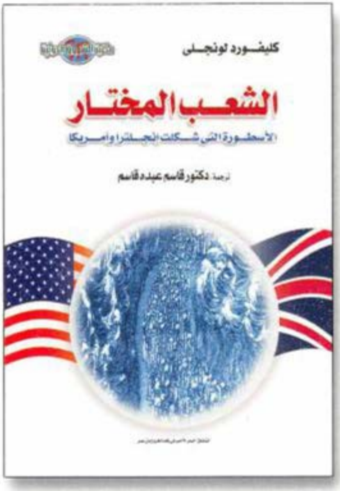

مكتبة الشروق الدولية

http://almaktabeh.com

كليفـــورد لونجـــلى

مكتبة الشروق الدولية

الشعـــب المختـــار

الأسطـــورة التى شـــكلت إنجـــلترا وأمـــريكا

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم

الجزء الثانى

"إنشقاق" البحر الأحمر فى وقت الخروج من مصر

http://almaktabeh.com

الشعب المختار

الجزء الثانى

http://almaktabeh.com

الطبعـــــة الأولى

١٤٢٣هـ ـــ ٢٠٠٣م

مكتبة الشروق الدولية

ش الفتح . أبراج عثمان أمام الدريلاند . روكسي . القاهرة

تليفون وفاكس، ٤٥١٤٤١٦٧ ـ ٢٥٦٥٩٣٩ ـ تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: adel almoalem < shoroukintl @ Yahoo. com >

http://almaktabeh.com

الشعب المختار

أسطورة الفكر الأنجلو أمريكى

الجزء الثانى

كليفورد لونجلى

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم

مكتبة الشروق الدولية

http://almaktabeh.com

تصميم الغلاف : منى العيسوى

http://almaktabeh.com

مقدمة

فكرة « الشعب المختار» يمكن أن تؤخذ على أنها تكليف ... تشحذ النفوس وتُعلى الهمم ... يتسامى بها " المختار" عن نقائص وعيوب البشر... ويضرب لهم المثل والقدوة ... كما فعل الأنبياء ومن تبعهم بإحسان ... بينما يأخذها البعض على أنها امتياز تجعله ينظر للآخر من علٍ ... فيُبطل بها المساواة ويلغى حقوق الآخر...

« أمـــا مدن الشعوب التى يهبها الرب إلهكم لكم ميراثًا فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها ».

(سفر التثنية، الإصحاح العشرون: ١٦-١٨)

وفـــى الجـــزء الحالى، يناقش المؤلف تلك الفكرة وتأثيرها على السياسة والـــتاريخ ... ومـــا أثارته من متناقضات وجدلية بين الآخذين بها ... فتارة تعتبر « الجماعة المختارة » أنها حلت محل أخرى؛ لأن الرب غضب على المخـــتارة الأولـــى ... وهذا « الاستبدال » أو « الحلول » أو « الإلغاء » للقديم يعرضه لكل أنواع التهم والاستبعاد ...

وتـــارة تعتبـــر الجماعـــة الجديدة أن شرعيتها من تمام شرعية القديمة، فتؤيدها بكل السبل والوسائل ...

فمـــثلاً مـــارتن لوثر، الذى أنشأ المذهب البروتستانتى فى أوائل القرن الســـادس عشر... أعاد للكتاب المقدس ــ بعهديه القديم والحديث ــ الأولوية فى المسيحية، فوق الكنيسة الكاثوليكية والبابا والتقاليد، وأعاد بالتالى الاعتبار لليهود وعمل بجدية لتحويلهم إلى المسيحية، فلما رفضوا، أصدر بيانه التالى فى كيفية معاملة اليهود:

http://almaktabeh.com

« أولاً، إشـعال النيـران فـي معابدهم أو مدارسهم ودفن ما لا يحترق وتغطيته بالتراب، بحيث لا يرى أحد مرة أخرى حجرًا أو رمادًا لهم ...

ثانـيًا، إننـي أنصح بإزالة منازلهم أيضًا وتدميرها؛ لأنهم يتابعون في داخلها نفس الأهداف التي يتابعونها في معابدهم. وبدلاً من ذلك يمكن إسكانهم تحـت سقف في جرن، مثل الغجر. فإن هذا سوف يذكرهم بأنهم ليسوا سادة في بلادنا، كما يتباهون، ولكنهم يعيشون في المنفى والأسر، وأنهم باستمرار ينوحون ويحزنون علينا أمام الرب.

ثالـثًا، أنصـح بأن كتب صلواتهم، وكتاباتهم التلمودية، التي فيها وثنية وأكاذيب، ولعنات وكفر يتم تعليمه، تنتزع منهم.

رابعًـا، أنصـح بمنع أحبارهم من التعليم منذ الآن فصاعدًا ومعاقبة من يخالف ذلك بالإعدام وقطع الأطراف... » .

وبصـفة عامـة، كانـت مصر وفرعون في التنميط البروتستانتي هي المعـادل لأي طغـيان، كمـا كـان بنو إسرائيل الاسم الذي يُطلق على أية مجموعة جديدة تقاوم الطغيان وتهرب منه...

فمصـر هـي رومـا في عيون البروتستانت في قرونهم الأولى، وهي انجلترا بالنسبة للثوار الأمريكيين، وبهذا أمكن القول إن جورج واشنطون هو موسـى. وقـبل ذلك كان أوليفر كرومويل الثائر الإنجليزي على الملك هو موسى وكان الملك الإنجليزي هو فرعون.

وتأيدت العنصرية بقصة نوح مع ابنه حام، الذي رأى عري أبيه، فلعن نوح كنعان ابن حام (وليس حام) ودعا أن يكون كنعان بن حام عبدًا لإخوته ..فمنذ اكتشاف أمريكا، وجد دعاة الرق والتفرقة العنصرية في ذلك مرجعًا توراتـيًا إلهيًا ... عندما نسبوا ــ بدون أساس مقبول ــ السود والزنوج إلى حـام ... ربما بنفس المنطق الذي لعن فيه نوح كنعان وليس حـام.

عـادل المعـلم

http://almaktabeh.com

(٤)

الأمل والتاريخ والكراهية

استخدم التنميط البروتستانتى، الذى نركز انتباهنا عليه الآن، العهد القديم بطريقة أصلية . إذ كان تشخيصًا على الطريقة اليهودية، من حيث إن الشخصيات فى العهد القديم تم تجنيدها؛ لتخدم بوصفها أيقونات بروتستانتية جديدة - أى أوليفر كرومويل أو چورچ واشنطن (أو حتى هنرى الثامن) مثل موسى الذى يقود شعب الله المختار هربًا من العبودية إلى الأرض الموعودة، على سبيل المثال. كما أن البيوريتان فى انجلترا وفى نيو إنجلاند على السواء أغاروا على الشخصيات الدرامية فى العهد القديم لأخذ أسماء جديدة لأولادهم؛ وذلك تجنبًا لاستخدام أسماء القديسين (وهى تنتمى إلى العصور الوسطى ومغرقة فى كاثوليكيتها بشكل زائد). إذ إنهم أرادوا لأطفالهم أن تُسبغ عليهم فضائل الشخصيات التى اختاروها. وثمة وسيلة أخرى لتحقيق ذلك تمثلت ببساطة فى تسمية الطفل باسم الفضيلة، وحذف الاسم الأوسط - وهى آلية بيوريتانية شائعة فى تسمية الأطفال. وهكذا أضيف إلى معجم التسميات (للبنات أساسًا) أسماء مثل Prudence أى حصيفة، Faith إيمان، وGrace أى نعمة، وFelicity هناء، Verity حق، و Constance وفاء، وJoy فرح.

ولكن ما هو أشد خصوصية أنهم أغاروا على روايات العهد القديم - أى القصص القصيرة التى بنيت القصص الكبيرة عليها - ليجدوا متشابهات مع تجاربهم الخاصة ليس بهدف استخراج الدروس الأخلاقية فقط ولكن للتنبؤ بالمستقبل أيضًا؛ إذ إنهم آمنوا بشكل ثابت أن الكتاب المقدس يتحدث عنهم أساسًا، وليس عن القبائل القديمة فى فلسطين ابتداء. ولم يكن تاريخا، وإنما كان حكاية معاصرة ونبوءة، ولكن فى شكل تشخيصى أو مجازى كان يحتاج جهدًا كبيرًا للفهم. وهذه

http://almaktabeh.com

طريقة مختلفة تمامًا فى تأمل الكتاب المقدس عن الطريقة الحديثة، حتى بين البروتستانت المحافظين، والتى تعيد الكتاب المقدس إلى التاريخ، وتعتبر أن التشابهات بين ذلك الزمان والآن مسألة مصادفة. وفى نيوإنجلاند القرن السابع عشر، كما كان الحال فى إيست إنجليا القرن السابع عشر، كانت إسرائيل هى الاسم الحقيقى للمكان الذى كانوا يعيشون فيه، كما كانوا هم الإسرائيليين فى نظر أنفسهم. ولا عجب فى أنهم أعطوا بعضهم بعضًا أسماء إسرائيلية.

وثمة توضيح جيد لعملية التفكير البروتستانتية الخارقة للعادة هذه يتمثل فى بداية أكثر المواعظ الكنسية الأمريكية شهرة، والتى تحمل عنوان «الخطاة بين يدى رب غاضب»، والتى ألقيت فى اينفيلد، بولاية كونكتيكت سنة ١٧٤١م، وألقاها جوناثان إدواردز (١٧٠٣ـ١٧٥٨م). وكان أحد المبشرين الرئيسيين الذين قادوا الصحوة الكبرى، وحركة إحياء الديانة الأنجليكانية فى فترة ما قبل الثورة والتوقعات الألفية فى نيو إنجلاند وغيرها من الأماكن فى العالم الجديد. (وكان ثمة إحياء مشابه يجرى فى الوقت نفسه فى انجلترا) وكانت خطبة إدواردز على النص الوارد فى سفر التثنية من الكتاب المقدس (تثنية، ٣٢: ٣٥) «لى النقمة والجزاء. فى وقت تزل أقدامهم»، وهو النص الذى يجلب إلى الذهن الصور المألوفة عن ساحات المزارع فى الشتاء والممرات الموحلة:

فى هذه الفقرة تهديد بانتقام الرب من الإسرائيليين غير المؤمنين الأشرار، الذين كانوا هم شعب الرب المرئى، والذين عاشوا فى وسائل الرحمة؛ ولكنهم بغض النظر عن أعمال الرب المدهشة تجاههم ظلوا بلا عقل ولا فهم. وتحت كل زراعات السماء زرعوا الثمار المرة والسامة؛ كما تقول الفقرتان التاليتان لهذه الفقرة التى أوردنا نصها. والتعبير الذى اخترته للنص، سوف تزل أقدامهم فى الوقت المناسب، يبدو أنه يتضمن الفعال التالية، التى تتعلق بالعقاب والتدمير الذى تعرض له هؤلاء الإسرائيليون الأشرار...

وهو يتضمن، أنهم كانوا على الدوام معرّضين لدمار مفاجئ وغير متوقع. مثل ذلك الذى يمشى فى أماكن زلقة وهو معرض فى كل لحظة للسقوط، ولا يستطيع أن يتنبأ لحظة واحدة ما إذا كان سيقف أو سيسقط فى اللحظة التالية؛ وعندما يسقط

http://almaktabeh.com

فعلاً يسقط في التو دونما تحذير، وهو ما تم التعبير عنه أيضًا في المزامير (٧٣: ١٨، ١٩): «حقًا في مزالق جعلتهم. أسقطتهم إلى البوار. كيف صاروا للخراب بغتة اضمحلوا فنوا من الدواهي».

وثمة شيء آخر متضمن هو، أنهم كانوا عرضة للسقوط بأنفسهم، دون أن تدفعهم إلى الأرض يد آخر؛ وكما أن ذلك الذي يقف على أرض زلقة لا يحتاج إلى شيء سوى ثقله لكي يقذف به إلى الأرض.

وكون السبب في أنهم لم يسقطوا بالفعل، ولا يسقطوا الآن، هو أن الوقت الذي حدده الرب لم يحن بعد. لأنه يقال إنه حين يحين الوقت، أو يأتي الوقت المحدد، فإن قدمهم سوف تزل. ثم سوف يتركون؛ لكي يسقطوا حسبما يميل بهم ثقلهم. ولن يبقيهم الرب في هذه الأماكن الزلقة أكثر من ذلك، ولكنه سوف يتركهم يذهبون: ثم في هذه اللحظة نفسها سوف يسقطون في الخراب، مثل ذلك الذي يقف على أرض زلقة متدهورة، على شفا حفرة، لا يمكن أن يقف بمفرده، وحين يتُرك يسقط في الحال ويضيع.

والدرس المرعب الذي كان إدواردز يسوقه بالتدريج من خلال سلسلته الطويلة من الأمثال التي أخذها من العهد القديم هو أن مستمعيه يستحقون عقوبة دائمة، وأن رحمة الرب المحبة فقط هي التي منعت العدالة من أن تنفذ في الحال. وعلى أي حال، فإن الأمثلة التي اقتبسها من العهد القديم قد أوضحت أيضا أن ذلك الذي تقبل رحمة الرب في وقتها قد تم إنقاذه. وهكذا فإن العهد القديم قد أشار إلى كل من المشكلة وحلها. وكما تعامل الرب مع بني إسرائيل القدماء في الألف السابقة على المسيح، فإنه سوف يتعامل كذلك مع الأمريكيين في القرن الثامن عشر، الإسرائيليين الجدد. وحين يسجل نص العهد القديم الرب يخاطب الإسرائيليين مؤنبًا بكلمة «أنتم»، فإن التنميط البروتستانتي يترجم ذلك على أنه مخاطبة جماعة المصلين هنا والآن والمجتمع الذي يمثلونه. وكان مطلوبًا من جماعة المصلين أن تقول لنفسها: إن كلمة «أنتم» في العهد القديم هي كلمة «نحن» الآن.

ويبدو استخدام قوي آخر للتنميط البروتستانتي في هذه الفقرة الأخيرة من موعظة إدواردز:

http://almaktabeh.com

«حينما نهض الرب العظيم الغاضب ونفذ انتقامه الرهيب على الخاطئ المسكين، والشرير يعاني حقًا العبء الباهظ والقوة اللا محدودة لسخطه، فإن الرب حينئذ سوف يدعو الكون بأسره لكى يتأمل الجلالة الرهيبة والقوة العظيمة التى تشاهد فيه. إشعيا ٣٣: ١٢ـ١٤ «وتصير الشعوب وقود مكس أشواكًا مقطوعة تحرق بالنار. اسمعوا أيها البعيدون ما صنعت واعرفوا أيها القريبون بطشى. ارتعب فى صهيون الخطاة. أخذت الرعدة المنافقين. من منا يسكن فى نار آكلة. من منا يسكن فى وقائد أبدية» إلخ.

«وهكذا سيكون معكم أنتم يا من لم تؤمنوا، إذ ظللتم هكذا؛ فإن القوة اللانهائية، والجلالة ورهبة الرب القادر على كل شىء سوف تتعاظم عليكم، فى القوة التى لا توصف لعذاباتكم. وسوف تعذبون فى حضور كل الملائكة، وفى حضور الحَمَل (المسيح)؛ وعندما ستكونون فى هذه الحال من المعاناة، فإن سكان السماء المجيدين سوف يتقدمون وينظروا إلى المشهد الفظيع، حتى يرى مدى غضب الرب القوى وقسوته؛ وعندما يرون هذا، فإنهم سوف يخرون وقد خلبتهم تلك القوة العظيمة والجلالة. إشعيا (٦٦: ٢٣ـ٢٤) «ويكون من هلال إلى هلال ومن سبت إلى سبت أن كل ذى جسد يأتى ليسجد أمامى. قال الرب. ويخرجون ويرون جثث الناس الذين عصوا علىّ؛ لأن دودهم لايموت ونارهم لا تطفأ. ويكونون رذالة لكل ذى جسد». إنه غضب دائم إلى الأبد. وسيكون أمرًا مهولاً أن تعانوا هذه القسوة والغضب من الرب القوى العظيم لحظة واحدة؛ ولكن يجب أن تعاونوه بشكل خالد. ولن تكون هناك نهاية لهذا البؤس المرعب المروع». . . [وهلم جرا].

وإذ جلد سامعيه بالمشهد الوشيك لنار جهنم شبه المؤكدة. عرف هذا النوع من المواعظ الكنسية باسم «تبشير الرعب». قذف إدواردز إليهم بطوق النجاة الأخير:

« ولاشك الآن كما كان الحال زمن يوحنا المعمدان، فى أن الفأس قد وضعت عند جذور الأشجار بطريقة خارقة للعادة، وأن كل شجرة لا تثمر ثمرًا طيبًا سوف يتم اجتثاثها وتلقى فى النار. ومن ثم ليستيقظ كل من خرج على المسيح ويهرب الآن من نقمة آتية. ونقمة الرب العظيم لاشك فى أنها تحوم الآن فوق جزء كبير من هذا الجمع: ليهرب الجميع من سدوم. . . . ».

http://almaktabeh.com

كان من المفترض أن الرب راض بأن يكرر نفسه. ومنذ ذلك الحين، إذا حدث موقف فى الحياة اليومية مشابه لموقف تحدث عنه العهد القديم - مدينة سدوم الخاطئة، مثلا - فإن الرب سيجعل العاقبة مشابهة أيضًا. وكما دمر الرب سدوم، فإنه أيضا سوف يدمر المدن الخاطئة اليوم. وما ينطوى تحت ميثاق ما سوف ينطوى تحت ما يليه من مواثيق. وإذا كان شعب إسرائيل الجديد قد مكثوا فى مياه تشابه أو تساوى البحر الأحمر، على حين يحثّ مطاردوهم الخطى خلفهم، فإن الرب سوف يتدخل مرة أخرى (ربما بواسطة رياح شرقية قوية) لكى يقودهم عبره ويدمر أعداءهم. وكان تطبيق متشابهات العهد القديم شخصيا بدرجة أكبر كثيرا بحيث يعكس تأكيد البروتستانت على أن الرب يختار (ينتخب) الأفراد أكثر من (أو تماما مثل) اختياره للجماعات الكاملة. هذا التوتر بين الانتخاب الفردى والانتخاب الجماعى كان ملمحًا مستمراً من أشكال البروتستانتية المأخوذة عن المذهب الكالفينى. وعادة ما كان المبشرون لا يحاولون حل هذا التوتر، ولكنهم كانوا يتنقلون بشكل مربك من شكل لغوى إلى شكل آخر. وكانوا يظهرون عدم اليقين، ومن ثم خطر التهلكة، الذى كان جزءاً من رسالتهم.

وإذا كان الإسرائيليون فى مشكلة مع الرب؛ بسبب عدم إخلاصهم للميثاق، كذلك فإن المسيحيين يعانون نفس المشكلة؛ بسبب عدم وفائهم بالعهد أيضا. وتمامًا مثلما كان يصدق هذا على الإسرائيليين عموما وعلى الأفراد الإسرائيليين، كان يصدق على المسيحيين بشكل عام وبصفة فردية أيضا. إذ كان يمكن أن يكون الفرد غير مخلص، كما كان يمكن أيضا أن يكونوا جميعا غير أوفياء.

وهكذا علمهم التنميط البروتستانتى أن العناية الإلهية التى يؤمنون بها بقوة لم تكن عشوائية أو هوائية. إذ إنه اتبع المبادئ والنماذج الواردة فى الكتاب المقدس التى يمكن السعى إليها واكتشافها. ومن ثم كان الكتاب المقدس رفيقا يوميًا مهمًا؛ لأنه يمكن أن يكشف كل الأسرار من كل نوع، ولم يكن تحديد خارطة الطريق إلى الأمام أقلها أهمية. وفى عالم غير مستقر للغاية، ومع وجود مبشرين مثل إدواردز أخذوا على عاتقهم ألا يجعلوه يبدو أقل من ذلك، كان الكتاب المقدس هو المادة الوحيدة التى يمكن الاعتماد عليها بأمان. ولا غرو أن القراءة اليومية للكتاب المقدس كانت تعتبر ضرورة ملحة.

http://almaktabeh.com

ومما يدعو إلى الدهشة قليلاً أن كثيراً من المؤلفات الشاملة للباحثين المسيحيين أخفقت تماماً فى ملاحظة مغزى هذا الشكل من التنميط البروتستانتى، وتعامل التنميط نفسه كممارسة عتيقة ماتت واختفت بشكل أو بآخر مع حركة الإصلاح الدينى. وهكذا فإن «Oxford Dictionary of the Christian Church» يحدد المادة تحت عنوان Types أى الأنماط فى خمسة عشر سطراً، تحددها كما يلى:

«فى اللاهوت فإن البشائر الدالة على المصير المسيحى موجودة فى أحداث وأشخاص العهد القديم. ومثلما كان بوسع يسوع المسيح نفسه أن يشير إلى يونس النبى (يونان) باعتباره رمزاً لإعادة تجسده، فإن القديس بولس كذلك وجد فى عبور الإسرائيليين البحر الأحمر نمط المعمودية، على حين كان ملكى صادق بالنسبة لكاتب الرسالة إلى العبرانيين هو الشكل السابق الذى يشبه المسيح. ويختلف النمط المسيحى عن القصة الرمزية فى الإشارة التاريخية بشكل لا يخطئه النظر . . . والتنميط مع التأكيد الرمزى المتزايد، قد استخدم كثيراً فى الكنيسة الباكرة . . .».

ولاذكر هنا للتنميط البروتستانتى؛ لأنه بغض النظر عن تأثيره الهائل، يعتبر الآن شيئا مرذولاً من الناحية الفكرية. والتنميط البروتستانتى هو سر الذنب فى البروتستانتية الحديثة. والحقيقة أن المذهب البروتستانتى الذى له تنميط من الكتاب المقدس من هذا النوع، والمذهب البروتستانتى الذى ليس له هذا التنميط، يختلفان عن بعضهما لدرجة أنه يمكن اعتبارهما نظامين منفصلين للإعلان؛ إذ إن كل ما يشتركان فيه هو أن أحدهما متداخل فى الآخر. وعندما نقول إن الأنجلو-أمريكيين فى القرن السابع عشر أو القرن الثامن عشر كانوا بروتستانت، فنحن فى خطر افتراض أن عقائدهم كانت قريبة من عقائد البروتستانت المحدثين. والحقيقة أن الحالة العقلية كانت مختلفة كلية. وأقرب مقاربة معاصرة لها ستكون شيئاً مثل مذهب كنيسة يسوع المسيح لقديسى اليوم الآخر (المورمون)، التى ما تزال تطبق نسخة أصولية من طراز القرن السابع عشر أو الثامن عشر. وفى بعض الأمثلة من الأدب المورمونى تعتبر حتى بعض الشخصيات المعاصرة مثل ونستون تشرشل شخصيات سبق تجسيدها فى الكتاب المقدس. وأن الأمة الأنجلو-أمريكية ما تزال بالقطع أمة مختارة. ومع هذا، فبينما التيار الرئيسى البروتستانتى الحديث الذى لم تعد تمثله التقاليد الرئيسية غير الأنجليكانية وغير الكاثوليكية فى بريطانيا وأمريكا

http://almaktabeh.com

يصنع تعادلاً مباشراً بين الدول الوطنية والشعب المختار، وبهذه الطريقة فإن النفوذ الكامن للتفكير السابق ما يزال قويًا. وكما سنلاحظ يمكن لرئيس مثل ريجان أو بوش أن يثير هذه الأفكار. كما أنها لم تكن بعيدة عن أفكار البريطانيين في السنوات الحديثة.

والمادة التي كتبها أندرولوث عن التنميط في Oxford Companion to « Christian thought » تشير إلى أن التنميط كان منهجًا معتادًا للمدرسين اليهود الربانيين؛ إذ إنهم كانوا يعاملون التوراة (الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس) باعتبارها «مصدراً ثقة للإرشاد عن كيفية عيش حياة تسر الرب داخل إطار الميثاق». والتنميط المسيحي نهب النصوص العبرية المقدسة ليس من أجل نصوص البرهنة على الوحي المسيحي فقط، ولكن لبيان كيف أن مجيء المسيح كانت له بشائر دائمًا - حتى بواسطة الكتّاب اليهود الذين لم يدركوا أن ذلك كان هو ما يفعلونه. وهكذا فإن قصة سقوط آدم وحواء كانت بشارة بتصحيح السقوط بالعمل الخلاصي للمسيح، آدم الثاني (ومريم هي حواء الثانية)؛ وقصة موسى وهو يخرج بني إسرائيل من مصر كانت بشارة بالخلاص الذي قدمه المسيح للجنس البشري، مع عبور البحر الأحمر باعتباره تشخيصًا سابقًا للمعمودية المسيحية؛ وقد نُظر إلى نشيد الإنشاد باعتباره احتفالاً بالعلاقة الخفية الصوفية بين المسيح والكنيسة؛ وهلم جرا.

وتحت تأثير آباء الكنيسة الأوائل (وهو لقب يتحدد عادة بمدى القرون الخمسة الأولى بعد المسيح) صار التنميط جزءاً من المقاربة المنهجية لفهم النصوص المقدسة. ووفقًا للوث، فإن أوريجن رأى طبقتين من المعاني في النصوص المقدسة، معنى حرفيًا وآخر رمزيًا:

«هذا المعنى المزدوج قام المفكرون اللاحقون بتكبيره، فقد ميزوا الطبقات المختلفة داخل المعنى الأعمق في أربعة معان للنص المقدس، وهو الأمر الذي صار معتادًا في العصور الوسطى الغربية. هذه المعاني الأربعة كانت (١) المعنى الحرفي أو التاريخي. (٢) المعنى الرمزي (الذي كان يعني عادة المعنى المسيحي، سواء كان مذهبيًا أو طقسيًا). (٣) المعنى الأخلاقي الذي كان يهتم بالسلوك المسيحي. (٤) المعنى التصاعدي الذي اهتم بمصير الحياة المسيحية. . . .

http://almaktabeh.com

هذه المقاربة للنصوص المقدسة التى تأسست فى الغرب جزئيا على النضال فى سبيل الصرامة العلمية، النافرة من الحياة المسيحية، والتى وجدت فى المذهب المدرسى، ثم أخيراً فى الجدل والمناقشات التى تولدت عن حركة الإصلاح الدينى . . . وقد صارت هذه المقاربة التقليدية للنص المقدس أشد بعداً بفعل حركة التنوير وبروز منهج النقد التاريخى باعتباره الوسيلة الوحيدة لتفسير النصوص، بما فى ذلك نص الكتاب المقدس، بحيث ينزل بمعنى النص إلى القصد الأصلى للكاتب».

وصار التنميط الجدلى فى فترة ما بعد الإصلاح الدينى، شكلا شائعا منذ منتصف القرن السادس عشر، وساعده على ذلك مؤلفات مثل كتاب فوكس «Book of Martyrs» . وهكذا كان أعداء إنجلترا هم أعداء الحرية والكتاب المقدس والرب: وهم عبدة الأصنام، يؤمنون بالخرافات، قساة، طغاة وفوق هذا وذاك أجانب تماما مثل أعداء بنى إسرائيل القدماء - فراعنة مصر وملوك بابل، وهكذا . والواقع أنه لم يكن من الضرورى أن تخرج وتفتش عن العدو؛ لكى ترى إذا ما يتصف بهذه الخصال حقًا . والتشابه مع بنى إسرائيل القدماء كان إجابة على السؤال بالإيجاب . بيد أنه لا يهم كم مرة تم الادعاء فيها بأن الكتاب المقدس يقف إلى جانب الحرية؛ لأن هذا لا يجعله أمراً صحيحًا . وكلمة الحرية نفسها ترد مرة واحدة فى العهد القديم، ومرة واحدة فى العهد الجديد، ولكنها لم ترد فى أى من المرتين بالمعنى الذى يشار إليه هنا . إذ إنها تقترب من استخدام الفكرة بهذا المعنى السياسى الوارد فى سفر إشعيا (٥٨ : ٦ـ ٧) حيث يشرح النبى لماذا كان صائماً :

«أليس هذا صومًا أختاره حل قيود الشر . فك عقد النير وإطلاق المسحوقين أحراراً وقطع كل نير . أليس أن تكسر للجائع خبزك وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك . إذا رأيت عريانا أن تكسوه وأن لا تتغاضى عن لحمك» .

وما كان يحدث فى الحقيقة هو أن الكاثوليكية الرومانية، التى كانت عدو الأمة العتيق خلال الفترة التى تم فيها إرساء إحساس إنجليزى متمايز بالهوية، كانت توصف تحديداً بأنها عبادة أصنام قبل أى شىء، ومؤمنة بالخرافات، وقاسية طاغية كما أنها أجنبية طبعًا (أو على الأقل بأنها وكيل لقوى أجنبية) دونما حاجة إلى

http://almaktabeh.com

الإشارة إلى البرهان الفعلى. لقد كانت شيئا من الأشياء التى يعرفها الجميع. والواقع أن التنميط فى العهد الجديد، والذى ارتكز إلى حد كبير على سفر الرؤيا، قدم محصولا أوفر من النعوت والأوصاف لهذا العدو الحقيقى (الكاثوليكية الرومانية): المسيح الدجال، الوحش، رجل الخطيئة، عاهرة بابل، المرأة ذات الثوب القرمزى. وهكذا فإن العدو هو سيد التنكر والتخفى، ماهر، مخادع، كذاب أشر، متآمر. وإذا لم يظهر العدو متآمراً دساساً فإن هذا مجرد جزء من الخداع. وسفر الرؤيا يشرح كيف أن هذه القوى الشيطانية سوف يطاح بها فى المعركة النهائية فى مكان يدعى هرمجدون. وربما لا يكون مدهشاً أن الباحثين المحدثين ذوى العقليات الأخروية من كل الاتجاهات يستبعدون هذا باعتباره مجرد تعصب ليس جديراً بالتأمل اللاهوتى الجاد. وبهذا فإنهم يقللون من دور واحد من أهم التأثيرات المكونة للثقافة الأنجلو-سكسونية على مدى القرون القليلة الماضية.

وفضلاً عن ذلك، فإنه يجدر بنا أن نلاحظ أن كثيراً من الصفات والخصال التى نسبها البروتستانت إلى الكاثوليك، وليس أقلها الميل إلى الانخراط فى المؤامرات المشئومة، مشابهة بشكل مذهل للصفات والخصال التى كان الكاثوليك ينسبونها إلى اليهود؛ إذ إن أحد أشكال الإحلال يعكس الشكل الآخر. ذلك أن الكاثوليك حينما اعتبروا أنفسهم خلفاء اليهود كشعب الله المختار، وقع اليهود فى براثن مبدأ أن من ليس معى فهو ضدى (إنجيل متى ١٢ : ٣٠) «من ليس معى فهو علىّ ومن لايجمع معى فهو يفرق» فقد وصفوا بأنهم أعداء لـ «الشعب المختار» سواء كانوا يرون أنفسهم على هذا النحو أم لا. إذ كان من المفروض أن يتصرفوا على هذا النحو. ومن المنطقى أنه لكى تكون عدو عمل الرب يعنى أن تكون فى عصبة الشر. وهذا هو بالضبط كيف رأى الكاثوليك فى العصور الوسطى اليهود، وكيف رأى البروتستانت الكاثوليك بعد العصور الوسطى. وفى أعقاب طرد اليهود من انجلترا سنة ١٢٩٠م، بعد المزاعم القائلة بطقوس قتل الأطفال كان الموت ينتظر أى يهودى يعود إلى انجلترا. وبعد حركة الإصلاح الدينى، صارت ممارسة الكاثوليكية جريمة خطيرة فى انجلترا، وكانت عقوبة أن تكون قسيساً كاثوليكياً هى الشنق والسحل وتقطيع الأطراف الأربعة. وكان البروتستانت الإنجليز أقل اهتماماً بحلولهم محل اليهود فى ميثاق الرب لسبب قوى هو أنه لم يكن هناك يهود فى المملكة: أما فى

http://almaktabeh.com

البلاد البروتستانتية التى كان بها يهود، مثل ألمانيا. فإن الطعن البروتستانتى المعادى لليهود غالبًا ما كان عنيفا بشكل خارق للعادة؛ إذ إن مارتن لوثر الذى كان يتوقع فى البداية أن ينضم اليهود إلى النوع الجديد من المسيحية الذى نادى به، خاطب السلطات العامة فيما بعد فى ألمانيا ينصحها كيف تتعامل مع اليهود:

«أولا: إشعال النيران فى معابدهم أو مدارسهم ودفن ما لا يحترق وتغطيته بالتراب، بحيث لا يرى أحد مرة أخرى حجرًا أو رمادًا لهم. . . ثانيا: إننى أنصح بإزالة منازلهم أيضًا وتدميرها؛ لأنهم يتابعون فى داخلها نفس الأهداف التى يتابعونها فى معابدهم. وبدلا من ذلك يمكن إسكانهم تحت سقف فى جرن، مثل الغجر. فإن هذا سوف يذكرهم بأنهم ليسوا سادة فى بلادنا، كما يتباهون، ولكنهم يعيشون فى المنفى والأسر، وأنهم باستمرار ينوحون ويحزنون علينا أمام الرب.

ثالثا: أنصح بأن كتب صلواتهم، وكتاباتهم التلمودية، التى فيها وثنية وأكاذيب، ولعنات وكفر يتم تعليمه، تنتزع منهم. رابعا: أنصح بمنع أحبارهم وربانيهم من التعليم منذ الآن فصاعدا ومعاقبة من يخالف ذلك بالإعدام وقطع الأطراف. . .».

وفى مناخ مثل هذا يمكن تصديق كل وشاية تقريبا مهما يكن الدليل الذى يناقضها قويًا. وفضلاً عن ذلك، فإن المجموعة التى استبعدت والتى لم تعد مختارة، يفترض أنها تتآمر لتدمير الجماعة التى خلفتها حسب رؤية هذه الجماعة. وهكذا فإن المؤامرات الكاثوليكية المزعومة والتى لا نهاية لها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، والتى تحمل بعض المصداقية فى انجلترا وأمريكا، تتماشى مع پروتوكولات حكماء صهيون ذات السمعة الرديئة التى ظهرت قبل الحرب العالمية الأولى داخل روسيا. وكانت «افتراءات الدم» التى ظهرت فى العصور الوسطى مثالاً سابقًا. وهناك صدى لنظريات المؤامرة هذه فى الطريقة التى كان كثير من المستعمرين الأمريكيين قد بدأوا يشكون فى دوافع البريطانيين قبل الثورة. وقد لاحظ كثير من المعلقين التشابه بين معاداة السامية ومعاداة البابوية، واللتين كانتا من الملامح العادية للوعى الأنجلو-سكسونى حتى وقت قريب نسبيًا. وما كانت هذه الانحيازات تشترك فيه هو أنه على الرغم من أن الناس العاديين المهذبين كانوا

http://almaktabeh.com

يأخذون بها، ومع هذا فإنهم لم يكونوا واعين بالمرة أنهم منحازون. وبقدر ما كانوا يعترفون بأنهم لايحبون الكاثوليك أو اليهود، فإنهم كانوا يزعمون أن موقفهم عقلانى وتبرره الأدلة والبراهين. والخوف من الإنجليز (الأنجلوفوبيا) فى أمريكا يمكن بالتالى رؤيته على أنه مشابه بديل لمعاداة السامية فى المسيحية ومعاداة الكاثوليكية فى البروتستانتية؛ ذلك أنه ميل إنسانى فى أن تظن أسوأ الظنون فى أولئك الذين استبعدوا أو استبدلوا بآخرين.

كما أن هذا الأمر ليس أمرًا نظريًا خالصًا. إذ يمكن أن تكون له تطبيقات شاملة فى السياق الذهنى لأولئك الذين يصوغون السياسة الوطنية. وهناك أمثلة مهمة على هذا حتى فى التاريخ الحديث مثل أزمة السويس سنة ١٩٥٦م، فقد حدث فى سنة ١٩٥٦م أن أمريكا، التى كانت إمبراطوريتها القائمة على السيادة العسكرية والمالية تتوسع على مستوى العالم، اقتربت جدا من رفض حق انجلترا فى أن تكون قوة استعمارية. وبفعل هذا كانت صادقة تماما بحسب منطق الاستبدال.

ولم يحدث أبدًا أن كان التنميط بعيدًا حقًا عن الطقوس الدينية المسيحية، على الرغم من أنه حتى العصور الحديثة لم يكن أحد يظن أنه موضوع يستحق الاهتمام والدراسة بصفة خاصة. ولكن الجهود التى بُذلت لاستئصال مصادر معاداة السامية كلها من الفكر المسيحى قد حفزت على إعادة فحص كل الفروض السابقة، وهى عملية مازال أمامها شوط طويل حتى تبلغ الكمال.

وثمة دراسة عن المواقف الحديثة تجاه إسرائيل واليهود، تمت بين أعضاء كنيسة انجلترا، أوضحت أن مذهب الاستبدال كان ما يزال واسع الانتشار. وكانت وجهة نظر الغالبية أن الوعود الواردة فى النصوص المقدسة والنبوءات عن أرض إسرائيل قد تحققت فى شخص يسوع المسيح (وهو ما يعنى أنها قد تمت ومن ثم لم تعد قائمة)؛ وكان هناك رأى قوى للأقلية يقول إن رجوع اليهود إلى إسرائيل هو استكمال نبوءة الكتاب المقدس. ويقول كتّاب التقرير إن هذا الرأى اعتمد على المعنى الحرفى لنصوص منتقاة من الكتاب المقدس، وهى نصوص قد يجادل الكثيرون بأنها لا تأخذ فى الحسبان أيًا من الدراسات الحديثة أو الحقائق السياسية المعاصرة فى الشرق الأوسط. وكل من وجهتى النظر إحلالية استبدالية من حيث إنهما تنطويان على استبدال الميثاق اليهودى بميثاق مسيحى. والاعتقاد بأن عودة

http://almaktabeh.com

اليهود متسقة مع النبوءة ليس رأيا محابيًا لليهود حسبما يبدو، لأن بقية النبوءة، تشير إلى تحول اليهود القادم إلى المسيحية، وبذلك يوفون بأحد الشروط الضرورية للقدوم الثانى للمسيح. وبعبارة أخرى فإن هذه النظرية نظرة تنميطية للغاية. وبقاء مثل هذه المعتقدات وانتشارها بين الأعضاء العاديين فى كنيسة انجلترا أدهش القائمين على هذه الدراسة بشكل ما. إذ كانوا يتوقعون أن تكون مثل هذه الآراء قاصرة على بعض الطوائف الأصولية فى أمريكا. وحيث يحتمل أن تكون أوسع انتشارًا من هذا، وربما يكون كذلك عاملاً مكونًا وراء التأييد الأمريكى طويل المدى لدولة إسرائيل.

ومهما كان الأمر، فإن كنيسة انجلترا أولت اهتمامًا بعملية الاستبدال المسيحية ـ اليهودية أقل بكثير مما أظهرته الكنيسة الكاثوليكية؛ إذ إنها على سبيل المثال لم تقم حتى الآن بتعديل طقوسها لتتضمن استئصال أى شىء يعطى أية أرضية جديدة لمعاداة السامية. والاهتمامات الحديثة المتجددة فى الأسئلة التنميطية كانت لها تفسيرات أخرى. وكما يلاحظ أندرو لوث، فإن الإحياء الطقسى فى التيار العام الحديث للمسيحية أيقظ مجددًا الاهتمام بالموضوع؛ بسبب التفضيل الحديث للجذور الشعرية والمجازية فى معرفة الرب على التقريرات الحقيقية الفئوية. ومحاولات ربط الحقائق الدينية فى شكل فروض أقل جاذبية للخيال من استخدام السر النثرى، ومن الاستعارة للمجازية الشعرية، أو الكناية التجسيدية. ومن الأمور المتصلة بهذا أيضًا أنه فى الكنيسة الكاثوليكية، فإن التأكيد المتجدد على جماعة المؤمنين باعتبارها «شعب الرب» كان قوة دفع لعملية التحرير فى زمن مجمع الفاتيكان الثانى (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م). وقد صار مناقشة وحجة لصالح المسئولية الجماعية، ولصالح إعطاء وزن أكبر للعلمانيين، كما أنه طرح طريقة بديلة، أكثر أفقية للنظر إلى الكنيسة، بدلاً من الطريقة الهيراركية (أو الرأسية) الصارمة.

وما لم يُشر إليه لوث وغيره ممن كتبوا عن التنميط، هو مثابرة التنميط فى العرض البروتستانتى للنصوص المقدسة، لاسيما حين تكتسى مستوى عاليًا من الأهمية السياسية. وهناك قدر كبير من الأمثلة المعاصرة. فعندما خاطب الرئيس رونالد ريجان مجلس العموم البريطانى سنة ١٩٨٢م، فلابد أن أولئك الذين

http://almaktabeh.com

يعرفون التنميط المتعلق بالكتاب المقدس قد راعتهم إشارته إلى «إمبراطورية الشر» - أى ذلك الجزء من العالم الذى كان يحكمه السوفييت - باعتبارها موازيًا لإمبراطورية بابل الجديدة التى أخذت اليهود فى الأسر البابلى سنة ٥٨٧ ق. م. وحقيقة أن اليهود لم يطلق سراحهم سوى عندما هزم الإمبراطورية وغزاها قورش الملك الفارسى، الذى يشير إليه سفر أشعيا على أنه «الممسوح من الرب»، هذه الحقيقة أخافت بعضًا من المعلقين العارفين من أن ريجان كان يرى نفسه صاحب قدر مشابه. أما أولئك الذين لا يعرفون التنميط من الكتاب المقدس فربما يكونون قد وجدوا أنفسهم على شفا الحرب العالمية الثالثة قبل أن يدركوا ذلك.

بل إن هناك استخدامًا أكثر حفاوة للتنميط على يد رونالد ريجان تمثل فى إشارته إلى أمريكا باعتبارها «مدينة تضىء على التل» وهو استخدام تنميطى لما ورد فى إنجيل متى (٥: ١٤): «أنتم نور العالم. لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل». ولم يكن هذا بأى حال أمرًا فريدًا، ففى خطاب الوداع الذى ألقاه بعد نهاية رئاسته قال إن مصدره ليس هو الكتاب المقدس، ولكن المستوطن البيوريتانى چون ويثروب الذى عاش فى نيوإنجلاند القرن السابع عشر. وبمعنى ما يكون هنا تنميطًا مزدوجًا: أى الاستعارة من ويثروب الذى كان بدوره يستعير من العهد الجديد. أو هو حتى تنميط ثلاثى؛ فإن كلمات يسوع التى أشار إليها إنجيل متى هى نفسها تنميط؛ ذلك أن مستمعيه لابد وأنهم فهموا فى الحال أنه كان يلمح إلى جبل صهيون الذى بنيت عليه مدينة القدس على يد داود قبل ألف سنة(*). وفى الأدب اليهودى يكون صهيون مرادفًا للوطن اليهودى الذى يشتاق إليه المنفيون على البعد. أما فى الأدب المسيحى فإن صهيون يصير روحيًا فى عاصمة مملكة السماء، وبعبارة أخرى أنه ليس مكانًا حقيقيًا على الأرض (إلا عندما يكون هو أمريكا حسبما يرى چون ويثروب ورونالد ريجان).

(*) الثابت تاريخيًا أن القدس بناها اليبوسيون قبل داود بألف وخمسمائة سنة على أقل تقدير، واليبوسيون قوم من العرب من كنعان. وقد أطلق عليها اسم يبوس، وأور سالم؛ أى مدينة سالم الذى كان من آلهة الكنعانيين. وفى القرن العشرين قبل الميلاد زارها النبى إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء. - المترجم.

http://almaktabeh.com

والسياق الذى جاء فيه النص (متى ٥ : ١٤) يقدم الحل، إنها موعظة الجبل، أى عرض يسوع المسيح لأخلاق جديدة جذرية للملكة الروحانية القادمة، وربما لم يكن ريجان يعرف هذا، على الرغم من أنه يُرجح أنه كان يعرف. أما ويثروب، فمن المؤكد أنه كان يعرف. وعبارة «مدينة على الجبل» فى نسخة الملك چيمس للكتاب المقدس التى لابد وأن ريجان كان يعرفها، هى مثل معظم الإشارات التنميطية ليست مجرد مجاز يستخدم فقط لوصف شىء ما. إنها مجاز يحمل رسالة؛ إذ إنها تقول ماهو كائن، ولكنها تقول أيضا ما ينبغى أن يكون. وفى الفقرة الكاملة، يصير من الواضح أيضا من أين حصل ويثروب على صفة اللامعة:

«ففتح فاه وعلّمهم قائلاً. طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السماء. طوبى للحزانى؛ لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء؛ لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر؛ لأنهم يشبعون. طوبى للرحماء؛ لأنهم يرحمون. طوبى للأنقياء القلب. لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعى السلام؛ لأنهم أبناء الله يدعون. طوبى للمطرودين من أجل البر؛ لأن لهم ملكوت السموات. طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين. افرحوا وتهللوا؛ لأن أجركم عظيم فى السموات. فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم.

أنتم ملح الأرض ولكن إذا فسد الملح فبماذا يُملح. لا يصلح بعد لشىء إلا لأن يطرح خارجًا ويُداس من الناس. أنتم نور العالم. لايمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل ولا يوقدون سراجًا ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة فيضىء لجميع الذين فى البيت. فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات.

لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل». (متى ٥ : ٢-١٧).

وبعد أن كرس معظم خطابه لمديح الطريقة الأمريكية فى الحياة، ولاسيما الحب الأمريكى للحرية، وصف ريجان كيف أنه اعتاد أن يرقب الفجر من نافذة خاصة فى البيت الأبيض:

«فى الأيام القليلة الماضية عندما كنت عند تلك النافذة فى الطابق العلوى،

http://almaktabeh.com

فكرت قليلا فى «المدينة المتلألئة فوق التل» . والعبارة مأخوذة عن چون وينثروب ، الذى كتبها ليصف أمريكا التى تخيلها . وما تخيله كان مهمًا ؛ لأنه كان حاجًا من الأوائل ، واحدًا من رجال الحرية الأوائل . وقد رحل إلى هنا على متن ما قد نسميه اليوم قاربًا خشبيًا صغيرًا ؛ وهو مثل الحجاج الآخرين كان يبحث عن وطن لكى يكون حرًا . لقد كنت طوال حياتى السياسية أتحدث عن المدينة المتلألئة ، ولكننى لا أعرف إذا ما كنت قد ربطتها على الإطلاق بما رأيته عندما قلت ذلك . ولكنها فى ذهنى كانت مدينة فخورة مبنية على صخور أقوى من المحيطات والرياح العاصفة . باركها الرب ، وتعج بالناس من كل نوع يعيشون فى انسجام وسلام ؛ مدينة ذات موانئ حرة تتدفق بالتجارة والحيوية . وإذا كان لابد أن تكون هناك أسوار للمدينة فإن الأسوار لها أبواب والأبواب مفتوحة لأى واحد يمتلك الإرادة والجسارة على أن يأتى إلى هنا . هكذا رأيتها وما زلت أراها .

وكيف تقف المدينة فى هذه الليلة الشتوية؟ إنها أكثر ازدهارًا وأكثر أمنًا وأكثر سعادة مما كانت عليه قبل ثمانى سنوات . ولكن ما هو أكثر من ذلك : أنها بعد ٢٠٠ سنة ، قرنين من الزمان ، ما تزال قوية وصادقة على الحافة الجرانيتية ، كما أن توهجها ثابت مهما كانت شدة العواصف . وهى ما تزال منارة ، وما تزال مغناطيسًا يجتذب كل من يجب أن ينالوا الحرية ، للحجاج من جميع الأماكن المفقودة الذين يهرولون فى الظلام ساعين صوبها» .

ومن المثير للسخرية - قليلا بطبيعة الحال - أن المجتمع الذى أسسه الرجل المحب للحرية الذى تحدث عنه ريجان ، وهو چون وينثروب كان استبداديًا شموليًا مثل أى استبدادى شمولى آخر . وكانت فكرته عن الحرية السياسية فكرة ضيقة . أما فى الأمور الدينية فلم تكن فكرة الحرية موجودة لديه على الإطلاق ؛ إذ إنه لم يستطع أن يتحمل الانتقادات الموجهة ضد إدارته كحاكم لمستعمرة ماساشوستس . فعندما سيطرت آن هتشنسون وهى مجرد امرأة ، على كنيسة بوسطن سنة ١٦٣٦م وعملت على تحويل المستعمرة كلها إلى موقف دينى جديد ، وصمها وينثروب بالتجديف والكفر . وحرص على ضمان نفيها ثم صدر قرار الحرمان الكنسى ضدها فيما بعد . وإذ كانت حياتها فى خطر هربت إلى جزيرة رود أيلاند . وتكتب دائرة المعارف البريطانية إن «كان وينثروب يتابعها بالعقوبات لكى يزيد من شقائها» .

http://almaktabeh.com

وكما كان يحدث دائمًا فى النظرية السياسية الأنجلو-أمريكية، وبدرجة أشد وضوحًا فيما يتعلق بما يسمى الثورة المجيدة سنة ١٦٨٨م، كانت كلمتا «الحرية» و«التحرر» مرادفين للعداء الكاثوليكية، التى كانت تعتبر القطب المعاكس بوصفها اضطهادًا شموليًا. وسواء أكان هذا حقيقيًا أم لا مسألة أخرى: إذ كان هذا يحظى بتصديق على نطاق واسع؛ لأن التنميط البروتستانتى من الكتاب المقدس، لاسيما من سفر الرؤيا، قال إنه يجب أن يكون كذلك. ألم يبرهن كتاب فوكس Book Of Martyrs. هذه النقطة؟ (وفى الحقيقة أن فوكس كان أيضا مدفوعًا بمنطق مسبق فى التنميط، وصور الدليل على الطغيان الكاثوليكى تحت حكم الملكة مارى فى هذا الضوء. وغاب عنه، مثلاً التأثير الكابح لإسپانيا الكاثوليكية على حمية مارى الدينية؛ لأن ذلك لم يكن يناسب النظرية).

أما معنى كلمة الحرية الذى كان اليوريتان فى نيوإنجلاند يهتمون به حقًا فكان الهرب من الاتجاهات الرومانية المزعومة فى الكنيسة الكاثوليكية، والتى كان من المعتقد أنها تهدد حرية الناس من أمثالهم ممن يسيرون على حلو الرسالة اليروتستانتية الكاملة لچون كالڤن. فقد كانوا هم المضطهدين الذين قال عنهم المسيح إنهم مباركون. وفاتهم أن يروا أنهم يمارسون الاضطهاد. وفيما يتعلق بتحويل النظم الكنسية فى عهد چيمس الأول وتشارلز الأول إلى الرومانية حقًا؛ فإن تلك أمور أرجأوا مناقشتها: إذ كان يكفى القول بالكاثوليكية الرومانية ليكون خرقًا خطيرًا للقانون فى انجلترا كما فى ماساشوستس، أما أن تكون قسيسًا كاثوليكيًا فتلك كانت الجريمة الكبرى. ومن المفترض أن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة لأناس لهم طبع ويشروب. إذ كان يعيش فى الوقت الذى لم يكن فيه التهديد الكبير لانجلترا اليروتستانتية مصدره الكاثوليك الظاهرون فحسب (والذين كان من حسن حظهم أنهم على قيد الحياة) ولكن من المعمودين السريين، حسب الرؤية السائدة. هؤلاء كانوا ما يسمون المعمودين الكنسيين الذين كانوا يتوافقون فى الظاهر مع الكنيسة القائمة، ولكن كان يفترض أنهم يتآمرون سرًا ضدها. وكان اليوريتان يظنون أن المؤسسات الرسمية الإنجليزية قد أعميت على أيديهم. والنفوذ المفترض لمثل هؤلاء الناس (والذى يفكر المؤرخون الآن أنه كان محل مبالغة كبيرة) كان من العوامل الكبرى التى أدت إلى الحرب الأهلية ضد تشارلز الأول وإلى الإطاحة بچيمس الثانى.

http://almaktabeh.com

والاستخدام السياسي للتنميط البروتستانتي، كما في خطب ريجان وكثير غيره، تجاوزهما أدريان هاستنج بشكل مدهش في دراسته عن الدين والهوية الوطنية The Construction of Nationhood . فهو يلاحظ وصف أمريكا باعتبارها «مدينة على التل»، وكذلك الطريقة التي كان چورج واشنطن يحتفى به على أنه موسى الجديد وينظر إلى بريطانيا باعتبارها مصر أخرى، وذلك في زمن الثورة الأمريكية، وهما إشارتان نمطيتان إلى الكتاب المقدس. بيد أنه لايربط هذا بأية صورة أكبر.

وكما يبدو شائعًا بين الباحثين المحدثين، فإن الحقيقة الحاسمة التي غفل عنها هي الطريقة التي كان البروتستانت منغمسين بها في النصوص المقدسة، من القراءة المنتظمة واليومية في الكتاب المقدس بحيث شكلت وعيهم وأمدتهم بخلفية شاملة لكل فكر آخر لديهم. وبالنسبة لكثير من المسيحيين البروتستانت الإنجليز والأمريكيين حتى الحرب العالمية الثانية على الأقل، كان الكتاب المقدس يقدم العدسات التي يُرى منها بقية العالم. ولا غرو أن لويد چورج كان أكثر ألفة بملوك بني إسرائيل منه بملوك إنجلترا؛ إذ إنه تربى في ثقافة پروتستانتية مستمدة من الكتاب المقدس كانت تعتبر تاريخ بني إسرائيل القديم كما لو كان تاريخ بريطانيا (إسرائيل الجديدة).

وإذا كان علماء اللاهوت الإنجليز من أمثال هاستنج قد فاتتهم هذه النقطة على أية حال، فإن المؤرخين الأمريكيين لم يغفلوا عنها؛ إذ إن ديبورا ماتسن في كتابها American Exceptionalism تسير على خطى ساكڤان بيركوڤيتش في كتاب في وصفه The Puritan Origins of American Self :

«الأمر اللازم الذي عمل تحته المؤمنون البيوريتان في سعيهم لتعريف أنفسهم وتقدم أرواحهم تجاه الخلاص بالوعود والنماذج الممثلة في الكتاب المقدس. وفي تقدير بيركوڤيتش أن أهمية التنميط بالنسبة للمؤمنين الفرادى يكمن في قوته التي تخلق مشابهات عبر الزمن وبذلك تسمح للفرد البيوريتاني أن يعرِّف بالحوادث الرئيسية في تاريخ العناية الإلهية.

الأفراد والأمم. كان لتطبيق وصف «الشعب المختار» على الإنجليز ثم فيما بعد على الأمريكيين أصل مخصوص في هذه الطرق البروتستانتية ثم البيوريتانية في النظر إلى الكتاب المقدس. ولكن كان له أصلان آخران، أحدهما - رغبة السياسيين في القرن الثامن عشر في ضم الأمم الثلاث التي تكوّن بريطانيا العظمى في كيان

http://almaktabeh.com

بروتستانتى واحد، وذلك لتدعيم السلالة الهانوفرية وتحويل الناس ضد اليعقوبيين الكاثوليك - وهو ما تمت دراسته بالفعل بشكل كبير فى كتاب ليندا كولى . ولكن جذورها تعود مباشرة إلى لحظة خلق الدولة الوطنية الإنجليزية، وبالتحديد انفصال هنرى الثامن عن روما بسبب مسألة طلاقه . وهذه منطقة لم تدرس نسبيًا.

وعلى مدى قرون فيما بعد كانت الرؤية المستقرة للمسيحية فى التاريخ الإنجليزى قبل عصر الإصلاح الدينى هى التى ترى الكنيسة باعتبارها كنيسة فاسدة، عقيمة، تؤمن بالخرافة، جاهلة، يركبها القساوسة، بحيث إن الناس لم يكونوا قادرين على الانتظار للتخلص منها. ولم يكن من الصعب الشك فى أنه كان لهذه النظرة مستوى عال من الدعاية، ولم يحدث سوى فى العقد الأخير أن صار من الممكن الحصول على صورة أكثر وضوحًا . ويوافق الباحثون فى تلك الفترة بدرجة أو بأخرى على أن كتاب إيامون دوفى، الذى يحمل عنوان «The Stripping of Altars» والقائم على أساس فحصه لوثائق ما قبل عصر الإصلاح الدينى، ويكشف عن ديانة شعبية فى العصور الوسطى العالية، هو الأقرب إلى الحقيقة. وهو يناقض تلك الرؤية المقبولة فى كل جانب تقريبًا ويستنتج دوفى:

«كانت الكاثوليكية فى العصور الوسطى تتمتع بسيطرة قوية مختلفة وعاتية على خيال الناس وولائهم حتى لحظة قيام حركة الإصلاح الدينى. إذ لم تكن الديانة التقليدية تشوبها أية علامات تدل على الإرهاق والذبول؛ والواقع أنه بمجموعة كاملة من الوسائل، من تكاثر الكتب الدينية باللهجات المحلية حتى التعديلات داخل عبادة القديسين الوطنية والإقليمية، كانت تبدى قدرة جيدة على مواجهة الحاجات الجديدة والظروف الجديدة. . . وعندما قيل كل شىء تم فعله، كانت حركة الإصلاح الدينى اضطرابًا عنيفًا، وليس التحقيق الطبيعى، لما كان قويًا فى ديانة العصور الوسطى المتأخرة والممارسات الدينية أثناءها».

لقد كانت بعبارة أخرى ثورة حقيقية، قطيعة حادة مع الماضى، ولكنها قطيعة تبدو وكأنها شىء آخر، لقد كان تخيل المجتمع الوطنى (حسب مفهوم بندكت أندرسون) ما يزال فعلاً من أفعال الذاكرة، بيد أنه كان لابد من تغيير الذاكرة - أو تزييفها فى الواقع. وكان لابد من إزالة الدليل المادى الذى يسند الذاكرة. وكان هذا

http://almaktabeh.com

يعنى الأديرة، والتى كانت أكثر من الكاتدرائيات والكنائس الأبرشية، هى العمود الفقرى لانجلترا المسيحية فى العصور الوسطى. إذ كانت النظم الديرية تستعصى على سيطرة الملك بدرجة أكبر كثيراً، وقد تنبأ بمعارضة أكثر رسوخًا لحركته الإصلاحية من هذه الجهة ما لم تتم إزالتها.

لم تكن أوروبا العصور الوسطى تتألف مما نسميه اليوم الدول الوطنية. كما أنها لم تكن دولة وطنية واحدة شاملة، تحكم من عاصمة واحدة. وعلى الرغم من أن التاريخ يقدم أمثلة من الدول الوطنية كنموذج يقوم على أساس نظرية سياسية عن السيادة الوطنية فإنها لم توجد حتى ابتكرها هنرى الثامن (وحسنتها ابنته إليزابيث الأولى).

كانت سيادة الممالك فى أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى سيادة جزئية؛ ليس فقط لأنها وجدت فى اتحاد فضفاض يضم السلالات الحاكمة التى كانت تتزاوج فيما بينها غالبًا، ولكنها كانت تعيش تحت تأثير سيادة من نوع آخر، هى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، التى كانت فى كل الأمور تتعلق بالعقيدة والأخلاق؛ إذ إن القانون المدنى ـ الذى وضعه الملوك ـ كان يوجد جنبًا إلى جنب مع القانون الكنسى ـ الذى وضعه البابوات ـ والذى غالبًا ما كانت له الأسبقية. واللجوء إلى روما كان ممكنًا، على الرغم من أن بعد المسافة ومشقة السفر، لم يجعل هذا أمرًا شائعًا. وكانت للبابا أيضًا صلاحيات باعتباره الحاكم الأعلى، والذى كان يمكنه حتى عزل الملوك فى الحالات المتطرفة. وكان الحرمان الكنسى والتحريم (أى منع الاحتفال بالأسرار الكنسية) من الأسلحة التى يُخشى منها، كما ظهر من هنرى الثانى.

فى بعض الأحيان كانت هذه العلاقات تفور وتغلى بحيث تتحول إلى صراع مكشوف، فملوك انجلترا فى العصور الوسطى مثلا قد حاولوا أن يكبحوا جماح الصلاحيات البابوية فى عدة مناسبات، واقترب هنرى الأول من النجاح. أما هنرى الثانى فقد تسبب فى اغتيال كبير أساقفة كانتربورى توماس بيكيت؛ لأنه كان يؤيد استقلال الكنيسة عن الدولة وتدخلها، وقاوم رغبة هنرى الثانى فى أن يترسم خطى جده فى هذه الأمور. أما البابوية بدورها فغالبا ما كانت تلعب السياسة بسلطتها، إما بإعطاء الموافقات على الزواج الملكى، أو برفض الموافقة، حسب اتجاه الريح

http://almaktabeh.com

السياسية وحسب من يكون محبوبًا أو مكروهًا لديها: إسبانيا أو فرنسا أو الإمبراطور الروماني المقدس، وهلم جرا. بيد أنها لم تكن فاسدة تمامًا: فقد كانت حركات الإصلاح من الملامح المتنظمة في الفضاء الكنسي الروماني. وفي بعض الأحيان كان يُساء استخدام القوة السياسية للبابوية، ولكنها في أغلب الأحيان كانت تستخدم بنزاهة.

ولم تكن فكرة الملكية في العصور الوسطى فكرة علمانية، ففي لاهوت ذلك الزمان كانت السلطة السياسية بأسرها مستمدة من الرب، وكان واجب إطاعة قوانين الدولة واجبًا دينيًا. ولكن الشيء الوحيد الذي لم يكن مسموحًا للملك بأن يفعله هو أن ينصب نفسه بابا، وأن يحل محل أسقف روما في دوره ويأخذ صلاحيات كاملة على الكنيسة وعلى الدولة أيضًا. ولم يكن هذا فقط ما فعله هنري الثامن، ولكنه انطلق بمساعدة من العبقري السياسي توماس كرومويل، في الادعاء بأن انجلترا كانت دائما متحررة من السيطرة البابوية. ومثال هنري الأول وهنري الثاني لم يخدماهما بشكل جيد؛ لأن كليهما كانا فرنسيين في الحقيقة، استمرا يحكمان جزءًا من فرنسا مثل انجلترا، وبسبب خروج هنري الثاني عن الكنيسة، وهو ما نتج عنه في النهاية مصرع توماس بيكيت سنة ١١٧٠م، والذي انتهى بخضوعه للبابا الكسندر الثالث ثم الصلح بينهما بعد سلسلة من التوبة التي حطت من قدر هنري الثاني، بما في ذلك الجلد علنًا بالسياط. وكانت إحدى تحركات هنري الثامن الأكثر أهمية هي أنه جعل مقبرة ومزار توماس بيكيت في كانتربوري - أحد مقاصد الحج الأكثر تبجيلاً في أوروبا - يتم تدميرها وتحرق بقايا القديسين، وحتى العظام، وتذروها الرياح. لقد كان بيكيت رمزًا لاستقلال الكنيسة عن الدولة، وحقيقة أنه بعد موته مباشرة صار أكثر القديسين شعبية في انجلترا أو في أوروبا كلها يدل ذلك على أن العامة اعتبرت أن ذلك المبدأ بمثابة ضمان ضد الاستبداد الملكي المطلق.

كان اللاهوت السياسي الذي هو تلك الصيغة من البروتستانتية التي ارتبطت باسم وليم تايندال في كتابه «The Obedience of a Christian Man» والذي نُشر سنة ١٥٢٧م، والذي أرسى دعائم الرأي القائل بأن طاعة كلمة الرب تتطلب طاعة

http://almaktabeh.com

الملك. وتشويش كروموبل المتعمد للتاريخ كان المقصود به أن تكون مثل هذه الآراء عادية وتقليدية، وليست شيئًا جديدًا.

وكنيسة انجلترا الحديثة، على خلاف الأجزاء الأخرى من الجماعة الأنجليكانية، تفتقر إلى القول الفصل فى شئونها الخاصة فى نفس المناطق التى كانت محجوزة للبابوية فى العصور الوسطى وانتقلت إلى التاج والبرلمان تحت حكم هنرى بقوانين الإصلاح الكنسى فى ثلاثينيات القرن السادس عشر: تعيين الأساقفة وتحديد العبادة والمذهب. وفى كل من المجالين فإن الدولة الآن قد قلصت سلطتها إلى أدنى حد. ومع هذا فإن الموافقة البرلمانية كانت مطلوبة على قرار كنيسة انجلترا برسامة النساء قساوسة سنة ١٩٩٢م، وموافقة رئيس الوزراء ما تزال ضرورية قبل تعيين أى أسقف كبير (وعادة ما يكون أمامه مرشحان يختار أحدهما). وعلى الرغم من تظاهر كروموبل بأن هذه السلطات كانت دائمًا بحوزة التاج، فإن هذه السلطات التى نقلها هنرى لنفسه كانت ذات مرة سلطات بابوية. ولم تكن أبدًا من سلطات الكنيسة فى انجلترا باعتبارها حقًا، وحتى اليوم فهى ليست كذلك.

ويشرح چونز كيف أن إعادة كتابة التاريخ هذه شكلت الوعى الذاتى الإنجليزى على مدى أجيال قادمة:

«نسى الإنجليز أنهم أوروبيون بسبب هذا التعمد المقصود لأن يسيئوا فهم تاريخهم، فقد قيض لهم أن يصبحوا وطنيين بدرجة متزايدة، وأن يكونوا جزئيين فى نظرتهم، على الرغم من حيازة إمبراطورية عظمى فيما وراء البحار. وقد طوروا صفات وخصالاً أخرى مستلهمة من هذه الرؤية لماضيهم، بما فى ذلك إحساس بالخصوصية والاكتفاء الذاتى، والتفوق والانفصال عن بقية شعوب العالم. هذه الذاكرة الزائفة أثرت على نفسيتهم ونظرتهم للعالم».

بيد أن هذا العامل النفسى لا يقدم تفسيرًا كاملاً. ، فالكاثوليك حتى زمن هنرى الثامن قد أخذوا من اليهود مكانة شعب الرب وصاروا بحسب نص رسالة بطرس الرسول الأولى (٢ : ٩) «وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكى أمة مقدسة، شعب اقتناء لكى تخبروا بفضائل الذى دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب».

هذا يصف الكنيسة نظريًا، ولكن أين كان يجب أن توجد الكنيسة فى الممارسة؟

http://almaktabeh.com

كان يجب أن تكون فى مكان ما، إن لم يكن فى أحد الأماكن، ففى غيره . وحتى عهد هنرى كانت الإجابة (بقدر ما كان يخص الجزء الغربى اللاتينى من العالم المسيحى) هى المؤسسة التى تتمركز فى روما. وزعم هنرى برئاسة الكنيسة كان يعنى تلقائيا أن هذه الكلمات، إذا لم تعد تنطبق على روما، يجب أن تنطبق آنذاك على كنيسة انجلترا. ومنذ ذلك الحين فإن كنيسة انجلترا وليست روما كانت « . . . أمة مقدسة شعب اقتناء» ولكن هذه لم تكن آنذاك مؤسسة منفصلة عن الدولة الهنرية، مثلما كانت كنيسة العصور الوسطى، بوصفها جزءاً من الكنيسة العالمية مؤسسة منفصلة. لقد كانت أقرب ما تكون إلى ما نعرفه اليوم باسم «وزارة الشئون الدينية» - أى إدارة حكومية. كان الملك يرأس الحكومة فى ذلك الوقت. وكان الجانبان الروحى فى سلطة الملك وجهين لعملة واحدة. لقد كانت انجلترا هى كل من الكنيسة والدولة، وفى كل من المجالين كانت «أمة مقدسة، وشعب اقتناء».

وهكذا فإن انجلترا (وانجلترا وحدها لكل المقاصد والأغراض) وقفت فى مكان يهود العهد القديم، ومسيحىّ العهد الجديد، باعتبارها أداة ليس فقط من أجل أغراض الملك وإنما لأغراض الرب. ومثل العبرانيين الذى يتحدث عنهم العهد القديم، كان هذا شعبًا مختاراً تم تعريفه دينيًا ووطنيًا على السواء. فقد كانت حدود التعريف الدينى هى حدود التعريف الوطنى والعكس صحيح تماما: إذ إن المواطنة فى إسرائيل سواء القديمة أو الجديدة كانت تعنى العضوية التلقائية فى شعب الرب. وقد حازت انجلترا مصيراً واضحًا فقد كان لها دور فريد تلعبه فى خطة الرب الرئيسية لخلاص بنى الإنسان. فقد كانت الصيغة التى اعتنقتها من المسيحية حقيقية بشكل فريد. ويجب أن تكون وإلا يكون الرب ضالعًا فى نوع من الخداع. وهذه الكنائس التى تختلف معها خاطئة (أو ما هو أسوأ، بين يدى الشيطان).

ولكن هذا كان تراثًا محافظًا، وما يزال كاثوليكيًا فى طرازه وأسلوبه، بالشكل الذى يعكس أذواق هنرى الدينية الخاصة. هذا الموقف المحافظ بقى فى الحركة داخل كنيسة انجلترا، والتى عرفت فيما بعد باسم الكاثوليكية الإنجليزية. وكانت دعواها المركزية أن كل أساسيات المسيحية الكاثوليكية قد حفظت سليمة داخل المذهب الأنجليكانى، ويجب الاعتراف بها كما هى من جانب روما والكنائس الوطنية الأخرى. وبعبارة أخرى كان ما منع المصالحة مع روما هو إصرار روما على رؤية

http://almaktabeh.com

متضخمة للصلاحيات البابوية . ولكن الكاثوليكية الإنجليزية كان لديها استعداد دائم لأن تسلم بأن روما يجب أن تتمتع «بأولوية الشرف بين الكنائس وهو شيء أقرب للمفهوم القائل بالأول بين أقرانه» ، ولذلك فإن اللوم في مسألة الانفصال يقع على عاتق روما لمبالغتها في المزاعم البابوية بشأن السمو . وكانت كنيسة انجلترا هي الكنيسة الكاثوليكية القديمة في الوطن . وإذا أثبتت هذه المعادلة أنها غير مقبولة لأكثر أنواع الأنجليكان بروتستانتية ، فإن الزعم تم تعديله بحيث يقال إنها كاثوليكية وإصلاحية في آن معا - على الرغم من أن الحقيقة هي أن كليهما سواء في البداية أو على مدى القرون التالية كان ذلك الجزء من كنيسة انجلترا الذي كان إصلاحيا أكثر منه كاثوليكيًا (وبعبارة أخرى وجدت أشكال عديدة من المسيحية الأنجليكانية جنبا إلى جنب داخل بناء كنسي أنجليكاني واحد) .

وترجمة هنري وكرومويل المحافظة لتراث المذهب الأنجليكاني لم تبق بلا تحدى وقتا طويلا ؛ إذ إن حركة الإصلاح الديني التي قاما بها تحولت لأن تكون مجرد القضمة الأولى فيما ثبت أنه وجبة ممتدة . وإلى حد كبير كان هذا راجعًا إلى مصادفة التوقيت : إذ إن نفاذ صبر هنري على معارضة الكنيسة لطلاقه وزواجه من جديد جاء بالضبط في الوقت الذي كانت فيه حركة الإصلاح الديني البروتستانتية الحقيقية تحث الخطى في القارة الأوروبية ، ولاسيما في ألمانيا وفرنسا وهولندا وسويسرا . (وبالنسبة للبروتستانت المؤمنين بالعناية الإلهية ، طبعا ، كانت مثل هذه المصادفات من تدبير الرب) . وقد أدى انتقال التاج الملكي من هنري إلى إدوارد السادس إلى دفع سياسات الديانة الإنجليزية بشدة صوب اليسار . أما البروتستانت المتشددون ، والذين كان على بعضهم أن يطردوا إلى المنفى في ألمانيا اللوثرية (نسبة إلى مارتن لوثر) وسويسرا الكالفينية (نسبة إلى چون كالفن) بسبب حركة الاضطهادات الشرسة التي شنتها ماري تيودور ضد البروتستانت - هؤلاء البروتستانت المتشددون أخذوا اعتراضاتهم على الصيغة الرومانية من المسيحية خطوة أبعد كثيراً من المنازعات الهنرية حول الصلاحيات البابوية .

وكان لهذا التطور تداعيات بعيدة المدى ؛ إذ إنه أوجد توتراً في قلب حركة الإصلاح الديني الإنجليزية بين نموذجين متصارعين . كان أحدهما محافظا على حين كان الآخر ثوريا راديكاليا ، كان أحدهما ملكيا وكنسيا ، والآخر جمهوريا ،

http://almaktabeh.com

يؤمن بالمساواة ، فهل كانت السلطة (سواء في الكنيسة أو في الدولة لم يكن مهمًا) تفيض من أسفل إلى أعلى أو من أعلى أسفل . من أسفل إلى أعلى منبثقة من شعب الرب ، أي العلمانيين (*) أو من أعلى إلى أسفل من الأمراء والكرادلة الذين مسحهم الرب والذين يحكمون باسمه؟ كان هذا صراعًا للأفكار أدى إلى نشوب الحرب الأهلية وتسبب في ثورتين في القرن التالي (ثورة أوليفر كرومويل والثورة المجيدة سنة ١٦٨٨م ضد جيمس الثاني)؛ والحجة التي يسوقها كيفين فيليبس في كتابه «The Cousins Wars» هي أن هناك أيضًا كانت ترقد بذور الحرب الثورية الأمريكية والحرب الأهلية الأمريكية . كما أن الجدل لم ينته بعد .

كانت المسيحية الأوروبية في العصور الوسطى تعتمد على نموذج السلطة من أعلى لأسفل ، ولكنها مع ذلك كانت قد طورت نظامًا مزدوجًا للسلطة ، أي السلطة الملكية والسلطة البابوية حيث كانت كل منهما تعمل لكبح وموازنة الأخرى . وقد حال النظام المزدوج بين كل جانب وبين حيازة السلطة المطلقة . فإذا تجاوز أحد الملوك الحدود في ممارسة سلطاته فإن الكنيسة التي كانت خارجة عن نطاق سيطرته ، كان يمكنها أن تسعى إلى كبح جماحه . وكان العكس ممكنًا أيضًا من الناحية النظرية ، على الرغم من أن الملك عادة هو الذي كانت له سلطة فعلية على الأرض ، ومن ثم كان تحت وطأة الإغراء الأكبر لإساءة استخدامها . ومن نافلة القول إنه في الممارسة كانت هذه الكوابح والموازنات تتطلب في الغالب قدرًا كبيراً من الدفع القاسي ، بل والحرب من حين إلى حين . فقد حدث قبل فترة غير طويلة من أزمة هنري الخاصة مع السلطة البابوية ، أن الإمبراطور الروماني المقدس ، شارل الخامس قد تمادى بحيث سار بجيوشه ضد روما ، التي نهبتها قواته وأسرت البابا أدريان السادس (الذي كان هنري الثامن يؤيده بقوة قبل ذلك) . وقصة توماس بيكيت التي شهدها القرن الثاني عشر ، والدور الذي لعبه كبير الأساقفة ستيفن لانجتون في القرن الثالث عشر للمساعدة في وضع الملك جون في الموقف الذي يجعله يوافق على توقيع الماجنا كارتا ، إنما هما مثالان على أن الاندفاع الملكي المؤدي إلى الطغيان قد عاد عن طريقه بفعل المعارضة التي أبدتها الكنيسة . كما أن شارل الخامس يقدم مثالاً على الجانب الآخر - أي القوة العلمانية التي تتصرف للتحكم في الكنيسة . هذا

(*) المعنى من ليسوا من رجال الكنيسة .

http://almaktabeh.com

الضغط كان المسئول أساسًا عن عقد مجمع ترنت سنة ١٥٤٥م الذى انطلق فى عملية إصلاح شاملة للكنيسة الكاثوليكية بجذورها وفروعها، عبادتها، ممارستها ومذهبها، وفى ضوء الانتقادات البروتستانتية جزئيًا.

والموضوع الدستورى الذى أثاره انفصال هنرى الثامن مع روما تمثل فى أنه إذا لم تكن الكنيسة مستقلة، فإنها لاتستطيع أن تقوم بوظيفتها لكبح سلطة الملك، التى سرعان ماصارت مطلقة، بل واستبدادية فى الواقع. وكان هذا، حسب رأى المؤرخ الأنجليكانى وراعى كنيسة القديس بولس الكاتدرائية القس چون هاليبيرتون، هو بالضبط ما تنبأ به توماس مور حينما استقال من منصب المستشار فى انجلترا بدلاً من أن يتعاون مع هنرى فى الاستحواذ على السلطة فوق الكنيسة. وفى موعظة بكنيسة شلسى القديمة سنة ١٩٩٢م، قال القس هاليبرتون:

«كان الشبح الماثل أمام ناظرى مور عندما خلع نفسه من أكبر منصب فى البلاد بلا شك هو شبح الطغيان. ففى وقت باكر من حياته كان يضع آمالاً كبارًا فى هنرى الشاب. فقد كان والد هنرى المتجهم بمثابة تهديد بالنسبة لمور؛ إذ كان مور يرى فيه طاغية، ورحب بموته، كما رحب بالعهد الجديد، ورحب بالأمير المتعلم الذكى وزوجته الجميلة، ورحب باهتمامه بالموسيقى والرقص، وكذلك رحب بروحه الاجتماعية واحترامه الكنيسة التى زوّجته وتوّجته. ويشك المرء فى أن مور لم يساوم من أجل ولسى، ولم يحسب حساب سيطرة الكرادلة على الملك الشاب، بحيث يدفعونه إلى حروب لم يكن يقدر عليها، وإلى علاقات مالية لا يمكنه مراعاتها، وفى شكوك حتى حول زوجته وحول زواجه.

كان ولسى بلا شك غير أمين، يجمع ويكون مصادر الدخل والامتيازات؛ لكى تؤمن له دخلاً يتماشى مع برنامجه السياسى. ولكن الكاردينال، كما بدا واضحًا، قاد الملك إلى حافة تأليه السلطة. وعندما قالت أوروبا والبابوية «لا» بصورة قاطعة على مشروعات هنرى وطموحاته، قام هنرى بصبيانيته المعروفة بإعلان أن المملكة والكنيسة من حقه. كانت سلطته مطلقة؛ ولم يكن بوسع أحد أن يقول له «لا». ورأى مور فى هذا بداية تدمير الحكم. وخمس زيجات فيما بعد والاقتصاد فى حال يرثى لها، وقد تهدمت الأديرة وتفككت أواصر الكنيسة، والمثقفون يضجون

http://almaktabeh.com

مطالبين بالإصلاح وشعب البلاد يشعل شرارة التمرد والثورة، وقدر لهنرى أن يموت بمرض الزهرى ولم يحقق جنونه شيئًا . وقد قاده الشك والغرور إلى إعدام أولئك الذين كان يمكن أن يكونوا أقرب حلفائه .

«وهكذا الأمر مع جميع الطغاة؛ وإذا كان هناك أى درس نتعلمه اليوم من حكمة توماس مور، فهو أن الطغيان لا يتحمل أى نقد، وأن الأنانية المقيتة للطاغية لا يمكن التغلب عليها سوى بطهارة الشهيد الذى يضحى بنفسه» .

وأدى موت هنرى واعتلاء إدوارد السادس العرش إلى انطلاق عملية ترميم جذرية للمسيحية الإنجليزية . كذلك لم يكن الإصلاحيون راضين عن مزاعم توماس كرومويل التاريخية بالاستمرارية بين كنيسة ما بعد حركة الإصلاح الدينى وكنيسة العصور الوسطى . وفضلوا ما صار هو الرؤية المقبولة (التى أشرنا إليها من قبل) أى أن كنيسة العصور الوسطى كانت قد تعفنت حتى قلبها . ولكن ديباجات كرومويل وإعادتها لكتابة التاريخ الإنجليزى كانت ما تزال تمثل أساسًا صالحًا .

وقد وجد چون فوكس، أمير الدعاة البروتستانت كتبًا أخرى مفيدة فى عمليته لإعادة بناء الهوية الوطنية الإنجليزية، ولا سيما مؤلفات صديقه چون بالى؛ ذلك أن رواية كرومويل للتاريخ كانت بها ثغرات أكثر مما ينبغى . وبشكل عام كان كتاب بالى عن تاريخ المسيحية الإنجليزية يعود إلى يوسف الرامى (*)، الذى قام، على ما يقال، بإحضار الإنجيل مباشرة إلى إنجلترا زمن المسيح، وليس عن طريق روما بالتأكيد . وفى الأسطورة التى شاعت فى العصور الوسطى كان يوسف هو الحارس على الكفن المقدس، وقد دفن فى جلاستونبرى . وثمة روابط قوية هنا مع أسطورة آرثر . فقد أورد الإنجيل أن يوسف كان رجلاً غنيًا وكان تلميذًا سريًا من تلاميذ المسيح قدم مقبرته الخاصة لدفن المسيح . وإعادة استخدام بالى ليوسف لخدمة روايته الخاصة عن التاريخ الإنجليزى لابد أنها تركت أصداء قوية فى الوعى الباطن الوطنى . فقد بدأ الأمر كله يكتسى قدرًا من المعنى .

(*) جاء فى إنجيل متى (٢٧ : ٥٧-٦٠) ولما كان المساء جاء رجل غنى من الرامة اسمه يوسف . وكان هو أيضا تلميذًا ليسوع . فهذا تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع . فأمر بيلاطس حينئذ أن يعطى الجسد . فأخذ يوسف الجسد ولفه بكتان نقى ووضعه فى قبره الجديد الذى كان قد نحته فى الصخرة ثم دحرج حجرا كبيرا على باب القبر ومضى .- المترجم .

http://almaktabeh.com

وهكذا كانت الكنيسة الإنجليزية قد تأسست على يد ملك واحد هو الملك لوسيوس وهو ملك كان معاصراً للإمبراطور قسطنطين (الذى اعترف بالمسيحية فى الإمبراطورية الرومانية): وبعد ذلك فإن قصة انجلترا إنما هى قصة صراع مستمر بين الملوك الوطنيين وشعبهم من ناحية، والغزاة الأجانب من مختلف الأنواع التى تمثل المسيح الدجال من ناحية أخرى. فقد كان الغزو السكسونى الوثنى، وبعثة القديس أوغسطين التبشيرية المفسدة فى نهاية القرن السادس، وحتى الغزو النورمانى وماجلبه من طابور مخادع من الأساقفة والرهبان كلها كانت فصولاً فى الحكاية الملحمية. وهكذا تم توضيح أن المسيحية الإنجليزية كانت هى أنقى الأنواع ؛ لأنها جاءت من المسيح ومن الحواريين مباشرة، وتم الحفاظ عليها على مدى القرون حتى وصلت إلى البروتستانت الإنجليز فى القرن السادس عشر لكى تبرز فى الضوء، ويتم إعلانها بوصفها العقيدة الأصلية التى قصدها المسيح. كانت تلك رؤية تتعلق بسفر الرؤيا الذى يتحدث عن النهاية، ومنحت الملوك الإنجليز دوراً مظفراً باعتبارهم المدافعين الشجعان عن التراث الوطنى المقدس ضد المضايقات المستمرة من جانب الحكام الأجانب، والمسيح الدجال البابوى على وجه الخصوص. وقد سار جون فوكس على خطى بالى بإخلاص، ويكتب چونز :

«كان مؤلفه الضخم « The Book of Martyrs » داخل نفس إطار الفكر الوطنى، فهناك الوصف التقليدى للبابوية بأنها قوة استبدادية تمثل سلطة المسيح الدجال وتهدد الاستقلال والحرية والدين الحقيقى للشعب الإنجليزى. وهناك أيضا التقرير بأن سمو الملك باعتباره نائب الرب الحاكم على الكنيسة والدولة كانت هذه هى الأعمدة القديمة التى بنى كرومويل عليها بناءه. والآن تمت إضافة عنصر جديد وأساسى إلى الأسطورة على أيدى بالى وفوكس».

وقد تبنى فوكس رؤية بالى للتاريخ الإنجليزى التى ترتبط بسفر الرؤيا: «أن التاريخ الإنجليزى بأسره قد أدى بفعل العناية الإلهية إلى حكم هنرى الثامن واليزابيث الأولى، اللذين عينهما الرب لقيادة الشعب الإنجليزى من أرض العبودية (أى السيطرة البابوية الأجنبية) إلى الحرية والنجاح الوطنى. . . هذا التضمين للتفسير البروتستانتى للتاريخ فى التاريخ الإنجليزى لخدمة حاجات رؤيته المرتبطة بسفر الرؤيا حول كتاب فوكس إلى فلسفة تاريخ. وقد أضفى هذا جاذبية صليبية

http://almaktabeh.com

على الأسطورة الشعبية عن الماضى الإنجليزى. فقد صار بوسع البروتستانت الإنجليز آنذاك أن يصيروا جزءاً من الرؤية المرتبطة بسفر الرؤيا فى الحاضر وفى المستقبل. . . هذا التراث المرتبط بسفر الرؤيا كان مقدراً له أن يصبح أكثر أهمية بالنسبة للوطنية الإنجليزية».

والإشارة إلى موسى فى تشبيه هنرى «يقود شعب انجلترا للخروج من أرض العبودية» واضحة. ذلك أن أولئك الذين قادهم موسى الجديد كانوا خلفاء بنى إسرائيل القدماء.

وعند البداية وضعت هذه الأيديولوجية الوطنية الجديدة المستمدة من سفر الرؤيا انجلترا مع غيرها من الأمم البروتستانتية، باعتبارها زعيمة مؤيدة وملاذاً وحليفاً وعدوا لإسبانيا وفرنسا الكاثوليكية. وكان المختارون فى البداية من جنسيات متعددة. ولكن الأيديولوجية الهنرية (إذا ما كان للمرء أن يضع لافتة على الأفكار الكامنة خلف القوانين الإصلاحية التى سنها البرلمان فى ثلاثينيات القرن السادس عشر) سحبتها فى اتجاه تركيز خاص على دور انجلترا تستبعد الآخرين، مثلما فعلت الحكاية التاريخية التى دبرها بالى. وربما يكون أبناء الأمم الأخرى بين المختارين ولكن كانت هناك أمة مختارة واحدة فقط، ومكان واحد حيث تم حفظ الإنجيل الحقيقى فيه بفضل العناية الإلهية منذ زمن المسيح: هو انجلترا.

وهكذا فإن توماس برايتهام فى كتيب نُشر سنة ١٦١٥م - أى قبل خمس سنوات من نزول الحجاج على صخرة بلايموث، فى ماساشوستس، وزراعة هذه الأفكار فى التربة الأمريكية - أشار إلى المكان الخاص الذى أعطى للكنيسة الإنجليزية الإصلاحية فى خطة الرب التى يوضحها سفر الرؤيا قائلا: «لم يكن هناك أى مشابه ينافسها باعتبارها نموذجًا كاملاً لا نظير له». لقد كانت ديانة ما تزال محاصرة بالأعداء (فى عصبة مع روما بشكل مباشر أو غير مباشر) بحيث يتطلب الأمر شن حرب أهلية لكى تدافع عن نفسها فى مواجهتهم. وهكذا تقارب هذان التياران - حاجة هنرى إلى نوع من الاستقرار الدستورى، والرؤية البيوريتانية المستمدة من سفر الرؤيا - فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر. كانت أوجه الغموض والتناقضات، التى نجمت عن هذه الأفكار غير المتوافقة العديدة بالفعل

http://almaktabeh.com

مصدر قوة على مدى فترة من الزمان - إذ نقض أحد جوانب التناقض يؤدي في الحال إلى تألق الجانب الآخر في قوة. وقد حدث أول ازدهار كبير لها، بحيث اتضح مدى نضج هذه الأفكار وكمالها في تاريخ العالم، في عهد الملكة الطيبة Bess التي تجسد انجلترا البروتستانتية. كما يكتب چونز:

«لم يكن هناك شيء يلهم اهتمام إليزابيث بالوطنية أكثر من فكرة أن قضية الديانة الحقة مرتبطة بصعود دولة السيادة الوطنية الإنجليزية تحت حكم ملكتها، التي عينها الرب لحماية الأمة البروتستانتية ضد شرور القوى الكاثوليكية مثل فرنسا وإسبانيا اللتين في عصبة المسيح الدجال - أي البابوية. وقد أحس أحد قساوسة الملكة إليزابيث وهو الأسقف چون آليمر، بالثقة الزائدة بحيث أعلن أن الرب إنجليزي».

وچونز نفسه كاثوليكي ولكن نقضه للتاريخ البرسبتاري المزيف للمسيحية الإنجليزية الذي تم ارتكابه لأسباب سياسية يحظى بموافقة كبيرة من جانب اللاهوتي والمؤرخ إيان برادلي، وهو اسكتلندي على المذهب البرسبتاري. ويلاحظ برادلي أن الشكل القديم المفترض للمسيحية النقية التي زعم أوائل المصلحين البروتستانت أنهم ورثوها كانت إلى حد كبير هي ما يسمى الآن المسيحية الكلتية، وهو يقترح، لأنه لم يصادف أي استخدام للمصطلح قبل چون بالي صديق چون فوكس، أن نفس مصطلح «كلتي» كان اختراعًا بروتستانتيًا. ويقرر أن مسألة ما إذا كان هناك على الإطلاق شيء مثل الكنيسة الكلتية حسب الفهم الشائع اليوم من عدمه، إنما هي مسألة غير مؤكدة. وعلى الرغم من هذا فإنها برهنت على كونها فكرة مفيدة؛ لأنها كانت شاشة بيضاء يستطيع الناس أن يسقطوا عليها ما يريدون. ويقول برادلي إن المصلحين الدينيين الإنجليز الأوائل:

«أوجدوا الكنيسة الكلتية لتكون مؤسسة بروتستانتية تماما، وتتحدد ملامحها بالنقاء الإنجيلي والاستقلال التام عن روما. وبعيدًا عن جلب مبادئ جديدة من القارة الأوروبية، كما يزعم خصومها، جادلوا بأن حركة الإصلاح الديني كانت تمثل رجعة إلى قيم مسيحية بريطانية أصيلة في عصرها الذهبي».

«وعملية إعادة كتابة التاريخ لكي تمنحه نسيجًا بروتستانتيًا جديدًا كانت قد بدأت على يد وليم تايندال. ففي كتابه الذي يحمل عنوان The Obedience of

http://almaktabeh.com

Christian Man وكتابه : Practice of prolates اللذين كتبهما في منفاه بهولندا، قدم صورة كنيسة بريطانية مستقلة كانت تقف بثبات فى وجه السيادة الرومانية خلال العصور الوسطى. وكان بطل تايندال المتصور من العصر الكلتى الذهبى هو جيلداس، الراهب البريطانى الذى عاش فى القرن السادس، والذى صوره فى صورة الشخص الذى يحمل نبوءة وأرسله الرب لكى يمنع أبناء بلده من التخلى عن النصوص المقدسة. وإذا ما تجاوزنا عن تعاطفه القوى مع كنيسة روما، فإن جيلداس قد صار بالنسبة لكثيرين من الكتاب التبريريين الذين روجوا لحركة الإصلاح الدينى نمطًا من الأنبياء البروتستانت يدعو أبناء بلده إلى التوبة ويبشر بالإنجيل الحقيقى.

وجهود تايندال الرائدة لإيجاد سابقة للبروتستانتية فى تاريخ الكنيسة البريطانية الباكر التقطها چون بالى وطورها. . . إذن أن أهم مؤلفاته. . . قدم صورة فارغة لكنيسة بريطانية بدائية ونقية لا تسيطر عليها روما. وإذا التقط أساطير جلاستو نبرى جعل تحول بريطانيا إلى المسيحية زمن الحواريين وبالتحديد بعثة يوسف الذى من الرامة سنة ٦٣م. . . وفكرة أن هذه كانت الطريق التى جاءت المسيحية بها إلى الجزر البريطانية أول مرة، قيض لها أن تبقى دعامة رئيسية فى التاريخ البروتستانتى والدعاية البروتستانتية على مدى المائة وخمسين سنة التالية تقريبا.

وتُنسب أسطورة لوشيوس إلى مؤلف الأساطير الذى عاش فى العصور الوسطى چيوفرى المامونى (وهو مؤرخ جمع أسطورة الملك آرثر و دونها فى القرن الثانى عشر) الذى يحكى أن المسيحية جاءت إلى انجلترا فى القرن الثانى بناء على دعوة ذلك الملك، الذى كتب إلى البابا إليوثيريوس يطلب منه إرسال مبشرين. وقد تم إسقاط الجزء الخاص بالبابا فى القصة. ولكن يقول برادلى:

«ثمة عدة أشخاص كبار فى كنيسة انجلترا بعد الإصلاح الدينى، وتحديدا ماثيو بيكر وچون چويل، أخذوا بحماسة مفهوم أن لوشيوس هو أول ملك مسيحى لانجلترا، وجادلوا بأن هذا يوضح أن الكنيسة البريطانية كانت منذ البداية الأولى مؤسسة وطنية تأتى فيها المبادرات والقيادة من الملك وليس من البابا. . . ومهما كانت اختلافاتهم حول كيف ومتى وصلت الديانة إلى هناك فإن هناك اتفاقًا بين

http://almaktabeh.com

المؤرخين البروتستانت على أن الكنيسة البريطانية كانت فى الأصل مستقلة وحرة عن النفوذ الرومانى».

وقد حدث التلوث المميت بالبابوية مع وصول أوغسطين سنة ٥٩٧م حسبما يواصل برادلى قصته، والذى كان البابا جريجورى الكبير قد خوله السلطة لأن يرسى هيراركية كنسية جديدة. ترتكز على كانتربورى، كان لابد للأساقفة البريطانيين الموجودين أن يخضعوا لها. وقد صار سبّ أوغسطين علامة مميزة فى تاريخ الكنيسة البروتستانتية على مدى القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكان نتيجة لهذه البعثة، كما يقول المؤرخون البروتستانت، أن خضعت المسيحية البريطانية للمرة الأولى لسلطة روما، وساومت الشخصية النقية لعبادتها ومعتقداتها بقبول عبادة الأصنام الرومانية وممارساتها مثل الشمعدانات والملابس والذخائر المقدسة التى لم تكن معروفة حتى ذلك الحين.

ولكن على نحو ما يوضح برادلى لم تكن پروتستانتية المسيحية الكلتية القديمة (إذا ما كان هناك شىء من هذا القبيل) واضحة للكلتيين القدماء. أولا لأن ديانتهم كانت رهبانية إلى حد كبير، والرهبنة ليست من سمات البروتستانت. وكانوا ملتزمين بالخلاص بالديانة وحدها، وبالنسبة لهم كان الوصول إلى السماء عملاً يمتد طول العمر. وكانت المسيحية الكلتية ترتكز إلى حد كبير على تبجيل القديسين المحليين، وهم عادة من الرهبان أو الأساقفة أو كليهما، وهى عبادة كانت تنشأ بعد موتهم، وفيها صلوات تُتلى لهم، وكانت مزاراتهم ورفاتهم محل تبجيل، ويتم تكريس آبار مقدسة بأسمائهم، وتنسب كثير من المعجزات إلى تدخلهم فى السماء. وبدا أن عبادة القديس الكلتى مثل سانت بريچيت متأثرة بقوة بمثال مريم العذراء. وكان فيها مذهب كاثوليكى عن الحضور الحقيقى والمطهر. وهذا كله بالنسبة لأى پروتستانتى مخلص كان سيبدو ضربًا من الكفر. وكذلك لم يتجاهل القادة المسيحيون روما. ففى مجمع هويتبى سنة ٦٦٤م، قبلوا أن من سلطة البابا تثبيت تاريخ عيد الفصح، كما قبلوا أموراً أخرى متنوعة. والواقع أنه على الرغم من أن برادلى لم يضع هذه الرابطة فإن

http://almaktabeh.com

المسيحية الكلتية تبدأ فى الظهور بشكل مماثل لكاثوليكية العصور الوسطى كما يصورها إيامون دوفى، فى كتابه The Stripping of The Altars.

ومع هذا فإن حمولات أرفف كاملة من الكتب تمت كتابتها منذ القرن السادس عشر فصاعدا لتطوير أو مراجعة النظريات التى قال بها بالى وباكر وچيول، لكى تبين مثلا، أنه إذا لم يكن يوسف الرامى قد جاء بالمسيحية إلى بريطانيا، فلابد إذن أن القديس بولس الرسول، وأن المسيحية الأيرلندية كانت پروتستانتية فى الأصل، أو أن القديسين الكلت القدماء كانوا فى الحقيقة من الپريسبتاريين الاسكتلنديين الطيبين. وأى دليل على العكس من ذلك كان يتم تجاهله ببساطة أو يتم استبعاده ومثل هذا الشرح يفترض أن الاستخدام الكلتى لكلمة صلاة القداس غير الپروتستانتية للدلالة على الصلاة الجماعية لم تكن مشتقة فى الحقيقة من الصيغة اللاتينية Itemissa التى كانت تختم بها صلاة القداس الكاثوليكية، ولكنها كانت تعديلاً لكلمة Mistletoe التى كانت تستخدم فى الطقوس الوثنية وأخذت فى المسيحية الكلتية حينما تم القضاء على الوثنية.

ومن وجهة النظر الإنجليزية فإن الاستنتاج الأكثر أهمية الذى نخرج به من إعادة كتابة التاريخ هذه، هو أن الرب قد حفظ بعنايته العقيدة الپروتستانتية منذ زمن المسيح، والتى هى الآن، تحت قيادة الملوك والملكات الپروتستانت (بدءاً من هنرى) قد أعيدت إلى مكانها الصحيح. وفى ضوء هذه الحقيقة المدهشة، كيف كان يمكن وصف إنجلترا بصفة أخرى غير الشعب المختار، وبأنها كهنة ملكيون؟ وأنها بالطبع هى الأمة الوحيدة.

* * *

http://almaktabeh.com

(٥)
أساطير ومزيد من الأساطير

لكى نفهم عقلية إسرائيل الجديدة من الضرورى أن نتفحص بقدر أكبر من الدقة ما يحويه التاريخ اليهودى الباكر؛ لكى نرى بالضبط ما الذى اعتبره الإنجليز والأمريكيون قصتهم الخاصة ـ لكى نرى، كيف فكروا فى أن الرب قد تعامل مع أسلافهم ومن ثم كيف سيتعامل معهم. وليس أقل أهمية لأن العهد القديم يتضمن نسقًا شاملاً من التعاليم الأخلاقية التى تبناها الرواد البروتستانت عن الديموقراطية الأنجلو سكسونية باعتبارها قابلة للتطبيق عليهم.

وعلى أية حال فإنه ربما يكون ما يُنصح به أولا أن نأخذ حفنة من الملح من علماء الآثار، ولا سيما علماء الآثار المصرية؛ إذ إن أهمية تاريخ العهد القديم للفهم البروتستانتى الذاتى لا تتمثل فى أنه كان حقيقيًا، ولكن بسبب الظن فى أنه كان حقيقيًا. وبسبب هذا المبدأ يعتمد هذا الفصل بشكل كبير على الطبعة المعتمدة من الكتاب المقدس، وهى الطبعة المعروفة فى أمريكا تحت اسم طبعة الملك چيمس. وثمة ترجمات أكثر دقة موجودة على الرغم من أنها ليست على نفس درجة جودة النثر الإنجليزى الموجود فى الطبعة المعتمدة. ولكن حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت الطبعة الوحيدة التى تعودت عليها الغالبية العظمى من سكان بريطانيا وأمريكا هى طبعة سنة ١٦١١م التى عُينت للقراءة فى الكنائس بأمر من الملك چيمس الأول. ولأننا نهتم هنا أساسًا بما ظنوا أن الكتاب المقدس قد قاله، بدلا من الاهتمام بما قيل فعلا، فإن هذه هى الطبعة التى سوف نقتبس منها. وثمن ذلك هو قدر أقل من الوضوح فى بعض المواضع؛ ولكن إذا لم تكن واضحة تمامًا لنا المعانى التى يحملها النص، فلابد إذن أنها لم تكن واضحة للقرّاء فى القرون السابقة.

والدليل الأثرى يدل على أن كثيرا من الحكايات فى العهد القديم لا تكاد تتصل

http://almaktabeh.com

بالحقيقة التاريخية على الإطلاق، أو أنها فى أفضل الأحوال مبالغات ضخمة ونفخ كبير فى حوادث صغيرة . ولا شك في أن التاريخ الشفاهى يصير أفضل عند الحكى، وكما حدث عدة مرات منذ ذلك الحين، فإن الحكاية الأصلية للأمة الجديدة كانت تفترض أهمية ما يمكن تبريره تاريخيا. وكما لاحظ إرنست رينان سنة ١٨٦٣م فى كتابه الشهير Life of Jesus « ليس هناك شىء عظيم تأسس لم يرتكز على أسطورة»؛ ذلك أن الأمم تحتاج إلى الأساطير وتبحث عن الحوادث التاريخية لتكون المادة الخام التى تصنعها منها. والعملية الإبداعية بأيدى الشعراء والقصاصين والرواة، تكمن مهارتهم فى الاستحواذ على الخيال، وليس فى سيطرتهم على الحقائق الجافة. والأساطير تعمل كأفضل ما يكون، على أية حال، إذا ما كان أولئك الذين يتلقونها يصدقونها باعتبارها صادقة بالفعل. والمشكلة هى أنه بينما تهلل مثل هذه الأساطير للأمة التى ينتمون إليها، فإنها غالبًا ما تفعل ذلك بالحط من شأن الأمم الأخرى. وهكذا تتحول الأساطير بسهولة إلى بغضاء طويلة الأمد تجاه جيرانهم، وإلى انحياز طويل المدى أو كراهية لا أساس لها من الحقيقة. وليس هذا موضع التاريخ الخالى من الأساطير، فليس هناك شىء من هذا القبيل، ولكنها حجة فى عملية إعادة الفحص اللانهائية لقصة كل أمة؛ لكى تتقدم بها أقرب صوب الحقيقة، والوعى العام بأن الحقائق البديهية، لا يجب الثقة بها بشكل مطلق.

وثمة مشكلات تاريخية مشابهة هنا. هل حدث أبدا أن حاز العبرانيون عملاً يعتبر سندا للقب صنع فى السماء للأرض التى تسمى أرض كنعان؟ هل حدث أبدا أن اضطهد المصريون القدماء العبرانيين؟ على الرغم من الجهود المضنية التى بذلها الأثريون فى القرن التاسع عشر للبرهنة على قصة العهد القديم.حتى سيجموند فرويد كانت له يد فى مقالته Moses and Monotheism . فليس هناك أثر فى الكتابات المصرية القديمة عن وجود عدد كبير من العبرانيين قبل الأحداث الواردة فى سفر الخروج، كما لم يرد أى ذكر لحادث الخروج نفسه. أما بالنسبة لكنعان فإن الأدلة الأثرية توحى أن عملية الاستيطان كانت تدريجية للغاية. وليس ذلك نموذج الغزو المفاجئ الذى قامت به إحدى القبائل لأخرى على حد ما هو وارد فى العهد القديم. وثمة حقيقة لم تنقلها حكايات الكتاب المقدس وإنما كشفت عنها الأدلة الأثرية، هى أن الكنعانيين كانوا مجتمعا أكثر تقدما وحضارة من العبرانيين. ومن

http://almaktabeh.com

المحتمل أن الكنعانيين كانوا هم أول من استخدموا الحروف الهجائية المنظمة فى لغتهم المكتوبة .

وفى انجلترا القرن التاسع عشر ، تأسست جمعية الاستكشاف المصرية ، أشهر رعاة العالم لعلم الآثار المصرية ، للبحث عن آثار مدينة فيثوم . مدينة الكنوز ومدينة رمسيس ، التى قال الكتاب المقدس (خروج ١ : ١١) إن العبيد العبرانيين قد بنوها . وموضع هاتين المدينتين معروف . فرمسيس التى ذكرها الكتاب المقدس من الواضح تماما أنها بى رمسيس ، التى بنيت لتكون عاصمة للفرعون العظيم رمسيس الثانى . ولكن لا يوجد دليل على أن اليهود ساعدوا فى بنائهما . وعلى أية حال فإن هذا لا يغير من الإمكانية الكامنة بأن فرعون الخروج كان هو أعظم الفراعنة جميعا . ولا حاجة بنا إلى القول بأنه ليس هناك دليل على الرواية التى أنتجتها هوليوود على أن العبيد اليهود هم الذين بنوا الأهرامات ، إذ إن تاريخها يرجع إلى أكثر من ألف سنة سابقة .

كما أن لا يوسف الذى صار وزيراً للفرعون بعد أن فسّر أحلامه تفسيرا صحيحًا ولاموسى ، الذى ارتقى أيضا مرتبة عالية بعد أن تبنته ابنة فرعون ، يظهرا فى التاريخ المصرى المسجل . فقد كان رحيل بنى إسرائيل من مصر وعبور البحر الأحمر محل تجاهل ، على الرغم من أن بعض الأوبئة التى سبقت الخروج تتصل فعلا بحوادث طبيعية شائعة الحدوث ، مثل فيضانات النيل الكارثية التى يملك الأثريون أدلة عليها . وهو أمر أكثر من التخمين أنه كان يمكن أن يكون هناك بعض الصلة بين وجود العبرانيين (الموحدين) والعبادة التوحيدية التى عاشت زمنًا قصيراً للفرعون إخناتون حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وأحسن دليل قوى هو التشابه بين أنشودة آتون والمنسوبة إلى إخناتون نفسه ؛ وآتون وهو الشمس ، هو أيضا إله واحد خلق العالم والمزمور رقم ١٠٤ فى العهد القديم على سبيل المثال :

«تجعل ظلمة فيصير ليل . فيه يدب كل حيوان الوعر . الأشبال تزمجر لتخطف وتلتمس من الله طعامها» (مزامير ١٠٤ : ٢٠ ـ ٢١) :

وتقول أنشودة آتون :

«حينما تجلس أنت فى الأفق الغربى يلف الظلام أرض العالم مثل الموت . . . ويخرج كل أسد من مكمنه» .

هذه التشابهات التى يصفها عالم الآثار المصرية چون رومر بأنها واضحة ودقيقة

http://almaktabeh.com

ليست موجودة فقط فى مثل هذه التشابهات، ولكن أيضا فى تتابع الأفكار. والخلاصة هى أن كاتب المزمور كان يعرف أنشودة آتون أو صيغة منها، واتخذها نموذجا. ويوحى هذا بأن الإسرائيليين كانوا مدركين تماما بالفترة التوحيدية القصيرة فى تاريخ مصر. وفضلا عن ذلك، ربما كانت هذه معرفة معاصرة حيث إن الفراعنة التالين اعتبروا إخناتون منشقا ومخالفا وبذلوا ما فى وسعهم لمحو ذكراه. كما يوحى أيضا بأن العبرانيين كانوا قادرين على قراءة النصوص الهيروغليفية: إذ إن أنشودة آتون محفورة على مقبرة الفرعون آى بتل العمارنة فى مصر الوسطى.

ومع هذا فإنه دليل غير جازم، والإشارة الوحيدة التى لا جدال فيها إلى بنى إسرائيل فى أى نص مصرى قديم، هى ما يسمى «لوحة إسرائيل» فى المتحف المصرى بالقاهرة، والتى يبدو أنها تصف الإسرائيليين على أنهم تبددوا شذرا على يد الفرعون مرنبتاح خليفة رمسيس الثانى، ربما فى كنعان، بيد أنه لا توجد قصة كهذه فى العهد القديم.

وحتى مع الأخذ فى الاعتبار المبدأ القائل بأن كل محارب لابد وأن يبالغ فى حجم انتصاراته ولا يسجل هزائمه (أو يحولها إلى انتصارات أيضا)، فمن المذهل كيف أن الهبات الكبرى التى وصفها الكتاب المقدس لم تترك على الأرض سوى آثار ضئيلة، فهل حدثت فعلاً بالمرة؟ وما تلى الهروب من مصر حسبما حكى فى سفر الخروج هو التيه الإسرائيلى فى البرية على مدى أربعين عامًا فى سيناء، وهو أمر لم يكن من الممكن أن يترك وراءه أى دليل أثرى. ولكن ما حدث بعد ذلك كان لابد وأن يترك أثرًا. وحسبما يجادل رومر:

«على النقيض من القصة التى أوردها الكتاب المقدس عن أن جيشًا إسرائيليًا متوحشًا قد دمر مدن كنعان القديمة الشريرة وأسس دينا جديدا ووطنا جديدا مكانها، فإن علم الآثار يوضح أن حقيقة التغير بين عصر البرونز وعصر الحديد فى فلسطين، كان تحولا تدريجيا تم الحفاظ فيه على أشكال العبادة التقليدية، كتعبير قوى على علاقة الإنسان بالمقدس، سواء مع يهوه الذى ذكره الكتاب المقدس أو آلهة كنعان القديمة. . . ولذلك فإنه على الرغم من أن الكتاب المقدس يؤكد على الجدة والتفرد الذى يتميز به يهوه، فإن علم الآثار يكشف عن أن الفروق بين الطقوس التى ذكرها الكتاب المقدس لعبادته وعبادة كنعان القديمة كانت طفيفة.

http://almaktabeh.com

والحقيقة أن هذا كان بلا شك هو السبب فى أن الأنبياء هاجموا الآلهة القديمة على مر القرون، حتى لا يتم ذوبان الديانة الجديدة فى الأساليب القديمة».

وهى نقطة تتشابه مع النقطة التى أوردناها بالفعل للربای لويس جاكوبس. وعلى أية حال فإنه ينبغى ملاحظة أن الربى جاكوبس ظل وقتا طويلاً على خلاف مع السلطات اليهودية الأرثوذكسية، بسبب تساؤله عمّ **إذا كان موسى هو الكاتب الحقيقى للأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (التوراة)؟.**

وهنا يحل المسألة تماما ـ فإذا كان الكتاب المقدس تاريخا، فأى نوع من التاريخ هو؟ والإجابة التقليدية بين اللاهوتيين اليهود والمسيحيين على السواء خارج معسكرات الأصوليين فى كل من الديانتين هى أنه تاريخ الخلاص ، ولا يبدو أن معظم الناس (بما فى ذلك غالبية أتباع الديانتين) قد سمعوا تعريفا مثله. إنه سرد قصصى بؤرته الأساسية العلاقة النشطة بين البشرية والرب. والعهد القديم كله تقريبًا لا يهتم بعلاقات الرب مع البشرية جمعاء ولكن بجزء صغير منها، مجموعة من قبائل الشرق الأوسط تزعم انحدارها من صلب أب واحد، هو إبراهيم. وتظهر القبائل والأمم الأخرى وتختفى حسب دورهم فى القصة الرئيسية. ويدخل الرب فى القصة؛ لأن معظم نجاحات وإخفاقات هذه القبائل منسوبة إلى تدخله، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وفى بعض الأحيان تسير الأمور معهم سيراً حسنًا؛ وفى بعض الأحيان يتركها تسوء. وعلى طول الطريق يتعلمون المزيد عنه، وتصبح أفكارهم الدينية أكثر حذقًا ودقة، وأشد تعقيدا وأكثر إثارة. والحقيقة أيضا أنهم كانوا على طول الطريق يلتقطون تأثيرات من قبائل أخرى، وديانات أخرى، وبعض هذا الحذق ربما جاء من هذه المصادر الخارجية. بيد أنهم نادرا ما يعترفون بهذه الحقيقة إذا اعترفوا بها على الإطلاق، كما لو أن فعل ذلك قد يقلل من تفرد علاقتهم مع الرب.

وما يزيد من تعقيد مفهوم العهد القديم باعتباره تاريخا للخلاص هو أن الكثير منه يروى كما لو كان تاريخا حقيقيا، حسبما نفهم المصطلح. وما يزال من خصائص الأصوليين، لاسيما فى الولايات المتحدة، أن يتعاملوا معه كما لو كان حقيقيا بشكل حرفى وكما لو أنه زعم أنه سجل علمى. إنه ملىء بقصص من عينة أن X فعل Y لـ Z وكانت النتيجةABC . والأسلوب الصحيح لمقاربة تاريخ الخلاص الذى يتخفى تحت قناع التاريخ الحقيقى هو بحفنة من الملح طالما أن الحقائق

http://almaktabeh.com

هى موضع الاهتمام، ولكن بعقل مفتوح فيما يتعلق بما كان الكاتب يحاول حقًا أن يقوله. وبعد ثلاثة آلاف سنة من الزمان لا تكون للتفاصيل الدقيقة لما فعله X لـ Z مهمة على الإطلاق. أما قد يكون ما يزال مهمًا فهو لماذا فعلها X، ولماذا كان رد فعل Z على هذا النحو، وماذا كان غرض الرب وراء هذا كله؟ هل كانت ABC هى النتيجة التى أرادها؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا؟ وبالنسبة لنا - مع افتراض أننا فى سياق عقلى يجعلنا نطرح مثل هذه الأسئلة - فما الذى ينبئنا به هذا؟

وثمة معنى أبعد يمكن استخراجه إذا ما كنا مهتمين بتعاملات الرب مع هذه المجموعة المخصوصة من القبائل السامية، والسبب الدقيق هو أنها كانت أو يظن أنها كانت مختارة بشكل خاص، لأننا إذا كنا جزءاً من جماعة تشعر أيضا أنها مختارة بشكل خاص، بل والأكثر من ذلك إذا كانت تلك الجماعة تعتبر نفسها بمثابة الخليفة للجماعة الأصلية، فإن بوسعنا إذن أن نتعلم من التجربة التى مرت بها تلك الجماعة الأولى الكيفية التى يتوقع الرب من جماعتنا أن تتصرف بها. بل إننا يمكن حتى أن نتنبأ بالمستقبل، لأنه بينما لايعيد التاريخ الحقيقى نفسه، فإن تاريخ الخلاص كان من عادته أن يعيد نفسه. ولكى تزيد من تعقيد المسألة فإن هذه الممارسة سوف تتضمن الطمس المستمر للخط الفاصل بين التاريخ الحقيقى وتاريخ الخلاص.

هل كتب موسى أسفار التوراة الخمسة؟ نعم، إذا ما طرح السؤال داخل قواعد تاريخ الخلاص - وبعبارة أخرى فإن تاريخ الخلاص يدعونا إلى قراءة الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس كما لو كانت قد كتبت بيد موسى. ولكن لا إذا ما جرى اعتبارها تاريخا حقيقيا؛ لأن الإجابة بنعم لاتناسب الحقائق التى كشف عنها التاريخ الحقيقى (كما أنها لاتفسر لنا كيف أن كتابًا كتبه موسى يصف موت موسى نفسه).

كل هذا يغير من الطريقة التى تتم بها قراءة الكتاب المقدس وتفسيره. فبالنسبة لأولئك الذين يريدون للكتاب المقدس أن يكون إما صحيحًا أو مزيفا، دون التروى عند هذه الدرجات التى يتدرج بها المعنى، يكون هذا غير مشبع بالمرة. وهذه مشكلة ضاغطة بالنسبة للبروتستانتية الحديثة، على نحو ما سنناقشه فيما بعد. فهل المسيحيون المحدثون، مثلاً، ملتزمون بالاعتقاد بأن الرب أعطى الأرض الموعودة للعبرانيين؟ وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا الحصاد النهائى - عودة اليهود إلى ما يزعمون أنه أرض أسلافهم فى القرن العشرين كانت سببًا فى صراع دموى مطول فى الشرق الأوسط - فإن هذا ليس سؤالا أكاديميا بأى حال من الأحوال. بيد أن المسيحية الحديثة ليست مجهزة جيدًا للإجابة عنه.

http://almaktabeh.com

وتتعقد المقارنة المنهجية بين تاريخ بنى إسرائيل القدماء والمنافسين الرئيسيين على لقب «إسرائيل الجديدة» أى انجلترا وأمريكا بسبب عدة عوامل. أولا: أن النظام الزمنى لتتابع الأحداث مختلف. فإذا ما تتبعنا توالى المواقف والأحداث التى ورد ذكرها فى العهد القديم، بحثًا عن مواقف وأحداث فى التاريخ الإنجليزى والأمريكى كان مفهوما زمن حدوثها أنها يمكن مقارنتها بمواقف وأحداث العهد القديم، فإن التتابع الزمنى لابد وأن يكون مختلفا. فمثلا فى الكتاب المقدس جاء موسى قبل جدعون. أما فى التاريخ الأنجلو أمريكى فإن أوليفر كرومويل الذى يقرن بجدعون فى القرن السابع عشر، على حين أن چورج واشنطن الذى يقرن بموسى كان فى القرن الثامن عشر، وهو ما يعنى بالمصطلح التاريخى النظام الخطأ، ولكن لأن اهتمامنا منصب أساسًا على التاريخ الخلاصى وليس على التاريخ كما حدث بالفعل، فانه يكون من الأصوب أن نقتفى تتابع الأحداث فى العهد القديم، وبالتالى نقبل أن هذا يعنى رواية التاريخ الأنجلو أمريكى فى أسلوب قد يبدو مربكًا، خارج نظامه الزمنى التتابعى (الكرونولوچى) ؛ ولذلك فلأن موسى جاء قبل جدعون، فإننا سوف نتناول چورج واشنطن (بمنطق التنميط) قبل أن نتناول كرومويل.

هذا التناول غير المتسق زمنيا يمكن تبريره أكثر بحقيقة أن تاريخ الخلاص له نموذج دورى خاص به. وربما يكون هناك تقدم من دورة إلى دورة تالية - فتاريخ الخلاص لا يعيد نفسه تماما أبدا - ولكن النماذج المتشابهة تظل تتوارد. وهكذا فإن الحرب الأهلية الأمريكية قد تم التنبؤ بها من جانب هاريت بيشر ستو باعتبارها عقابًا إلهيا جزاء الشر الأمريكى الذى تمثل فى السماح بالعبودية، والنكسات التى عاناها البريطانيون على الجبهة الغربية فى الحرب العالمية الأولى، كانت فى نظر أسقف لندن عقابًا إلهيًا جزاء التهاون البريطانى فى المسائل الدينية والأخلاقية. هذان المثالان، واللذان تفصل بينهما أكثر من ستين سنة، وليست بينهما أية علاقة سببية أيا كانت، إنما هما مثالان على الفكرة نفسها - أن الرب يعاقب شعبه المختار عندما يسىء السلوك. وحقيقة أن أمريكا ما قبل الحرب الأهلية وبريطانيا أبان الحرب العالمية الأولى لا يمكن أن تكون كلتاهما سويا شعب الله المختار، على الرغم من أن هذا الاعتبار قد يسوقنا إلى استنتاج أنه فى الحقيقة لم تكن أيتهما شعب الله المختار، وتلك الحقيقة لايجب أن تضللنا، فنحن نتعامل مع ما اعتقده الناس عن أنفسهم وكيف أثر ذلك على أفعالهم فى الزمان، وليس مع ما نعتقده نحن عنهم الآن.

http://almaktabeh.com

يبدأ الكتاب المقدس بحكاية مختصرة عن خلق العالم. والسفر الأول يصف كيف تم خلق كل شيء في ست فترات أو أيام. شهد اليوم الأخير منها وصول الإنسان الرجل (وبعده مباشرة المرأة) وعاشا حياة زوجية هانئة وبراءة أصلية حتى أغواهما الشيطان، وخرقا الناموس وطردا من جنة عدن، التي كانت موطنهما الأصلي الكامل. والفعل الرمزي للعصيان هو أكل تفاحة من شجرة معرفة الخير والشر، والتي جاءت منها عبارة الفاكهة المحرمة Forbidden Fruit لتدخل اللغة الإنجليزية. هذا العصيان وعواقبه عرف باسم السقوط. وكل البشر منحدرين من صلب هذين الزوجين، على نحو ما يؤكد الكتاب المقدس، وهي إحدى المعلومات الواردة في الكتاب المقدس التي أيدها البحث الحديث في الچينات الوراثية. ففي العصور الحديثة تؤخذ السلالة العامة للبشرية على أنها مناقشة وحجة لاهوتية ضد العنصرية، ولكن لايبدو أن ذلك هو ما حدث مع المفسرين المسيحيين الذين فسروا الكتاب المقدس قبل القرن العشرين بزمن طويل. وعلى أية حال، فإن البحث في الچينات الوراثية لا يعطي أي وزن علمي لنظرية السقوط نفسها.

وكانت نتيجة تعدي آدم وحواء وتجاوزهما الكارثي هي أنهما وكل ذريتهما قد وصموا بالخطيئة (الخطيئة الأصلية). ولأن القصة الأصلية تقول إن حواء كانت هي التي أغوت آدم، فإن المعالجة اليهودية المسيحية للأنوثة كانت دائما تتسم بعدم الثقة. وفي حالات إساءة السلوك الجنسي يتمثل الانحياز الكامن في القول بأن المرأة دائما هي مصدر الغواية، والرجل ضحية الإغراء: و بالتالي تتحمل المرأة النصيب الأكبر من اللوم. وكانت إحدى العقوبات القاسية وغير العادية التي أنزلها الرب على النساء نتيجة للسقوط هو الألم الشهري الذي يعتريهن نتيجة الحيض، والتي ما تزال تسمى (في أوروبا) اللعنة لهذا السبب. إنه من خصائص الصيغة اللوثرية والكالڤينية من البروتستانتية أن تأخذ الخطيئة الأصلية على أنها تعني أن البشرية كانت مجردة تمامًا وغير قادرة على إنجاز أي فعل ذي جدارة، فالإنسانية خاطئة في صفاتها كما أنها خاطئة في الأفعال الفردية، ومن ثم فإن البشرية التي لم تكفر عن ذنوبها مدانة ومحكوم عليها بالجحيم، ولا يمكنهم فعل شيء حيال ذلك، فالرب وحده الذي يمكنه أن يغير الحكم. وقد اتخذت الكاثوليكية والبروتستانتية المتحررة رؤية أكثر لطفا للإنسانية، ولا حاجة بنا إلى القول بأن النصوص الواردة في الكتاب المقدس يمكن اقتباسها لتبرير كل من وجهتي النظر. (بيد أن ذلك لا يجب أن يقودنا

http://almaktabeh.com

منطقيا لاستنتاج أن كلاً منهما كانت غير حقيقية. فالطبيعة الإنسانية أكثر تعقيداً من ذلك، وكذلك اللاهوت المسيحى). وقد اصطدم وصف الكتاب المقدس بنظريات تشارلز دارون فى القرن التاسع عشر صداماً مدوياً؛ مما أحدث ضرراً دائماً على الإحساس العام بإمكانية الاعتماد على الكتاب المقدس بوصفه تاريخاً. والآن فقط يمكن التمسك بالحقيقة الحرفية للكتاب المقدس وإنكار التطور تماماً، وما يزال هناك عدد كبير من الأمريكيين يؤمنون بنظرية الخلق التوراتية. وما تزال عقيدة السقوط والخطيئة الأصلية تضع مشكلات خطيرة ينبغى على المسيحية الحديثة (أى ما بعد الداروينية) أن تحلها بشكل نهائى. ولكن هناك مشكلات لم يتم حلها عن أصول البشرية ليست أقل خطورة بالنسبة للداروينية. ومن السابق لأوانه أن يزعم أى من الجانبين أنه حقق نصراً كاملاً، والمرجح أن الحكمة سوف تستقر فى نهاية المطاف على شىء يصالحهما سوياً. وخارج معسكرات الأصوليين، بل وفى داخل هذه المعسكرات إلى حد ما، فإن الحقيقة العريضة لنظرية دارون تلقى الآن قبولاً عاماً. وسيكون من الإنصاف القول بأن العلم عندما قوّض رواية الكتاب المقدس عن الخلق من خلال الداروينية، فإنه لم يلبث أن أعاد لها بعض المصداقية من خلال نظرية القرن العشرين عن الانفجار الكبير، وبعدها مع ما يسمى بالمبدأ الإنسانى (الذى يقرر أن الكون يبدو أنه كان مبرمجاً بشكل مسبق لتطور الحياة النهائى).

فبعد السقوط، بدأ آدم وحواء عائلتهما ذات العدد الكبير بابنين هما قابيل وهابيل، اللذان تشاجرا فى مشاجرة دفع هابيل حياته ثمناً لها. وقد طرد قابيل، وحكم عليه بلبس علامة دائمة (حملها نسله أيضا من بعده). وقصة قابيل القاتل الأول كانت رائجة جدا بين المبشرين البروتستانت، على الرغم من أنه كان هناك خلاف بينهم حول تفسيرها النمطى. فقد رأى البعض قابيل بوصفه النمط العتيق للكاثوليكية الرومانية، أو بعبارة أخرى مصدر كل القلق من وجهة النظر البروتستانتية؛ وزعم آخرون أنهم يعرفون أن «العلامة الشهيرة» إن هى إلا البشرة السوداء فى الواقع، بحيث إن قابيل كان الجد الأعلى للأفريقيين السود. كذلك استخدمت معاملة قابيل لتبرير تحديد المنبوذين أو فرزهم. وبصرف النظر عن فعل العصيان الأصلى من قبل آدم وحواء، فإن قتل قابيل لأخيه هو الخطيئة الأولى التى سجلها تاريخ الكتاب المقدس، والنمط العتيق لكافة الخطايا التى ارتكبت منذ ذلك الحين. وحقيقة أن الرب لم يطلب موت قابيل وأمر بأنه لايجب أن يتعرض

http://almaktabeh.com

للمضايقة ربما بدت حجة قوية ضد عقوبة الإعدام، بيد أن البيوريتان الأصليين، الذين كان يروق لهم الشنق من حين لآخر، لم يكونوا يبحثون عن مثل هذا الإلهام. وحقيقة أن الذى قتل هابيل هو أخوه قدمت ذخيرة قوية من الكتاب المقدس ضد العدو فى الداخل، وغذت الخوف من المؤامرات والدسائس الذى كان من سمات البروتستانتية التى تعتمد على الكتاب المقدس فى عز أيامها - لاسيما عندما انقسمت العائلات بسبب الحرب الأهلية.

وإذا كانت لقابيل ذرية، فإن الكتاب المقدس لايشرح كيف عمروا بعد الطوفان الذى هو الحادث التالى الكبير فى مايرويه الكتاب المقدس عن فترة ما قبل التاريخ. وهكذا يئس الرب من الفوضى والتشويش الذى كان نسل آدم وحواء يفعلونه فى الدنيا لدرجة أنه قرر أن يبدأ من جديد. وكان للطوفان أن يقتل كل شىء حى فيما عدا أولئك الذين تم إنقاذهم بالسفينة التى بناها نوح، والذى كان هو الإنسان الوحيد الطيب بين كل الحفنة البشرية السيئة. وقد وجد المبشرون مادة غنية فى هذه القصة. ويعتبرها الباحثون الآن تجميعا لمختلف الملاحم والأساطير البابلية، باستثناء العامل الجديد القائل بأن نوح تم إنقاذه؛ لأنه كان رجلا صالحا «يسير مع الرب». وربما تكون القصة وربما لاتكون، على صلة بحادث حقيقى ما فى الإقليم الذى نشأت فيه القصة أصلاً، والتى تحددت الآن بنهرى دجلة والفرات فى العراق حاليًا.

والاستنتاج الذى نخرج به من قصة نوح هو أن الرب يعاقب الأشرار بالتدمير ولكنه ينقذ الصالحين الباقين - وهو موضوع منتظم فى نصوص الكتاب المقدس اللاحقة. فكرة أن الباقى قوى - وكان الباقون من اليهود هم الذين نجوا من الأسر البابلى، وقد رأى المسيحيون الأوائل أنهم هم الباقون من بنى إسرائيل والذين قدر لهم أن يكونوا إسرائيل الجديدة. ومن الواضح أن مستوطنى نيوإنجلاند كانوا يرون فى أنفسهم بقية صالحة أخرى. نجوا من الدولة الخاطئة التى كانت هى إنجلترا تحت حكم جيمس الأول وشارل الأول. وفى العصور الحديثة ما يزال البروتستانت فى شمال أيرلندا يفهمون وضعهم على أنهم البقية المؤمنة بهذا المعنى الوارد فى العهد القديم، وهم مخلصون لنموذج مثالى خيالى عن بريطانيا البروتستانتية تستحوذ على خيالهم، ومايزال التنميط على نمط شعب الرب أحد ملامح التبشير البروتستانتى فى أيرلندا الشمالية.

وكان اللاهوت المسيحى التقليدى يرى فى مياه الطوفان تورية عن مياه

http://almaktabeh.com

المعمودية؛ وأن فناء الجميع، باستثناء القلة الصالحة (نوح وأقاربه) كناية عن يوم الحساب. ومن المنظور البيوريتاني فإن لهذه القصة ميزة أنها تؤكد على أن المختارين، أي أولئك الذين تم اختيارهم لإنقاذهم، أقل كثيرا من المدانين. ومن وجهة نظر خضراء أكثر حداثة، فإن القصة تؤكد على كيفية أن أفعال البشر السيئة، أي ذنوبهم، يمكن أن تهدد العالم الحي بأسره. لقد كان الطوفان أول كارثة بيئية يتم تسجيلها.

وبعد نجاة نوح وعائلته، يصف الكتاب المقدس كيف دخل الرب حينئذ في عهد معه ومع البشرية بأسرها من خلاله. وفي مقابل عدم تدمير العالم مرة ثانية، طلب الرب وضع نهاية لإراقة الدماء البشرية والتخلى عن أكل الطعام الذى يحتوى على دماء الحيوان. ومن التفاصيل المسلية أن الكتاب المقدس - طبعة أورشليم الجديدة - يضع عنوانًا على هذا الإصحاح هو النظام العالمي الجديد. والواقع أنه في التراث اليهودي تم توسيع العهد الذي عقده الرب مع نوح ليكون عهدًا مع الجنس البشرى كله، وهو ما صار إجابة يهودية مشتركة على الشكوى من أن الرب يدخوله في ميثاق مع اليهود وحدهم، إنما يظهر تفضيلاً لجماعة صغيرة ويتجاهل بقية البشر.

وبالتالي فإن الكتاب المقدس يحكي كيف أن حام ابن نوح جاءه وهو مستغرق في النوم وعار من ثيابه، وأخبر أخويه اللذين لم ينظرا إلى عريه ولكنهما غطيا أباهما بثوب. وعلى أساس هذه الحادثة التافهة وضع نوح اللعنة، لا على حام وإنما على ابنه كنعان! :

«فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما. ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته» - تكوين ٩ : ٢٢ - ٢٥.

وفيما بعد أعطى كنعان اسمه للأرض الواقعة إلى الجنوب؛ وربما تفسر حالته المتدنية لماذا لم يستمر إطلاق اسم قبيلته على الأرض ساريًا أبدًا، ومن ثم أمكن دفع الكنعانيين جانبا كلما وجدوا في الطريق. والأرض التي تسمى أرض كنعان عرفت فيما بعد باسم الأرض الموعودة التي أعطاها الرب للعبرانيين.

http://almaktabeh.com

وشريعة نوح حسبما يسمى التراث الرباني اليهودي الجانب الإنساني من الصفقة ليس معبراً عنها بشكل واضح في الكتاب المقدس، ولكن تم استخراجها من الدليل الوارد في الكتاب المقدس. وإذ تم جمعها على هذا النحو كونت «توراة الأمميين» (لأن توراة اليهود هي الوصايا العشر). وبمقتضى هذه الوصايا السبع التي تمثل شريعة نوح يحرم على الأمميين عبادة الأصنام، والكفر، والقتل، والزنا، وإتيان للمحارم والسرقة وأكل اللحم وبه الدماء. وهم مأمورون أيضًا بوضع نظام للعدالة. ولكنها ليست موجودة بشكل واضح في الكتاب المقدس، وإنما تعتمد على سلطة الأحبار اليهود، فإن شرائع نوح لم تأخذ الاهتمام الذي تستحقه في العالم المسيحي. وربما يكون السبب في هذا أن المسيحيين لا يشعرون بقوة مشكلة ميثاق نوح حتى يحلوها. لماذا اختار الرب اليهود وحدهم؟ وربما يكون السبب أنه نتيجة للجدل المثار حول الاستبدال، والذي أشرنا إليه في الفصل السابق. يستحق ميثاق نوح أن يعود إليه الباحثون المسيحيون. وقصة نوح هي أيضا جزء من الإيمان الإسلامي.

والقصة النهائية قبل أن يحول سفر التكوين انتباهه إلى إبراهيم، هي عن برج بابل، الذي يظن الباحثون المحدثون أنه كان في مكان ما ببلاد ما بين النهرين. فقد رأى الرب برجا عظيما، ورأى أن الجنس البشري يتعاظم بشكل متزايد. ولكي يحول دون حدوث أي تعاون من هذا النوع في المستقبل، كسر وحدة اللغة التي كان الجنس البشري يستمتع بها حتى ذلك الحين. وكثيرا ما كان المبشرون يوظفون قصة برج بابل باعتبارها كناية عن شرور حياة المدن. ومرة أخرى كان الدرس هو أن الرب سوف يتدخل لعقاب البشر الذين يسلكون مسلكًا سيئًا. وكل من قصة حام وقصة برج بابل، توحي لأي شخص يأخذهما حرفيًا، أن الرب الذي يصوره العهد القديم كان من الممكن إغضابه بسهولة ولم يكن ممكنًا التنبؤ بأفعاله! أي نوع من الأب سريع الضيق الذي يحرص الأبناء على عدم إغضابه. والحقيقة أن هذا بالضبط هو نوع الانطباع الذي كان المبشرون البيوريتان يريدون إعطاءه.

أما إبراهيم، الذي يرد الكلام عنه غالبًا باعتباره الجد الروحي لليهود والمسيحيين والمسلمين، فقد بدأ حياته في آرام، رجلاً مسنًا من أبناء القبائل عاش في مدينة أور جنوب العراق. وقد تمكن علماء الآثار من إعادة بناء عناصر من الديانة والثقافة التي كانت للسكان الأصليين في الإقليم قرب زمن إبراهيم، وهي توضح درجة مدهشة

http://almaktabeh.com

من الاتفاق مع رواية الكتاب المقدس. وقد غير هذا من الرأى السابق للعلماء بأن إبراهيم ومن عاصروه إنما كانوا فى الحقيقة أنماطًا أسطورية عتيقة، تم اختراعها لتجسيد وإحياء قصة ضبابية معتمدة عن ذكرى الأصول العبرانية.

ويقدم سفر التكوين إبراهيم بوصفه مؤسس ما كان فى الحقيقة حركة دينية جديدة. إذ كانت لها ربها الخاص، الذى عقد معه إبراهيم ميثاقًا. والإخلاص للميثاق أو العهد كان لابد له أن يُعتمد ويُصَدَّق عليه بطقس الختان، وفى المقابل وعد الرب إبراهيم بأنه سيجد وطنًا. وبأمر الرب قاد قبيلته للخروج من أور؛ وبعد قدر من التأخير، استقروا فى أرض كنعان. وقد منح الله كنعان لإبراهيم وذريته باستمرار، وهى هبة تجددت تحت قيادة موسى. وبعد نوح كان العهد مع إبراهيم هو العهد الثانى بين الله والإنسان، وهو أول عهد يعقد مع شعب واحد دون سواه.

وتدور حول إبراهيم عدة قصص مهمة فى الكتاب المقدس، وهى قصص صارت كتابات محببة فى الكتابات اليهودية اللاحقة، وعلى مرّ الزمان دخلت فى التنميط الكاثوليكى والبروتستانتى. وأشهرها ما يخص المناسبة التى تلقى فيها إبراهيم أمرًا من الرب بأن يستعد للتضحية بابنه المحبوب إسحاق (هو إسماعيل عند المسلمين) وهو مشهد بدا أنه كان ذا جاذبية خاصة لدى البروتستانت فى العصر الفيكتورى. وكان إبراهيم سيمضى فى تنفيذ الأمر لولا تدخل الرب، الذى أخبره بأن هذا كان مجرد اختبار لطاعته وإيمانه. وهو موضوع منتظم فى العهد القديم أن «أول الثمار» إنما هى للرب، وكان إسحاق هو «الثمرة الأولى» بمعنى من المعانى. وهكذا أعطاه إبراهيم للرب الذى أعاده إليه مرة أخرى. وهنا أيضا بعض أصداء رفض التضحية بالأطفال، التى يحتمل أنها كانت جزءًا من الممارسات الدينية للكنعانيين. لقد كان الرب يعلم إبراهيم بصورة درامية أن ذلك ما لم يكن يريده منه. وفى الكنيسة الباكرة كانت تضحية إبراهيم تتصل بتضحية المسيح.

وثمة قصة أخرى هى قصة تدمير سدوم، صارت أساسًا للإدانة المسيحية التقليدية للشذوذ الجنسى؛ ذلك أن لوط ابن أخى إبراهيم كان قد استوطن فى مدينة بهذا الاسم. وعندما جاء الرجلان ـ اللذان يوصفان بأنهما من الملائكة ـ للزيارة رحب بهما لوط فى منزله. ولكن رجال المدينة تجمهروا فى الخارج، وطالبوا بإحضار الزائرين إلى

http://almaktabeh.com

الخارج للتعرف عليهما. وبدلا من ذلك قدم لهم لوط ابنتيه العذراوتين، لكى يفعلوا بهما ما يحلو لهم. ويبدو واضحًا أن الجمهرة كان فى ذهنهم عملية اغتصاب جماعية. ومن الواضح أن تقديم بنات المرء بديلاً لإنقاذ رجلين غريبين من مثل هذا المصير كان فى أخلاقيات ذلك الزمن يبدو محل ثناء كبير؛ لأنه حين شرع الرب فى تدمير المدينة جزاء خطاياها رتب لهرب لوط أولا. وكان هذا إكرامًا للصفقة التى عقدها الرب مع إبراهيم. وبينما كانوا يهربون صدر الأمر إليهم بألا ينظروا إلى الوراء؛ ولكن زوجة لوط نظرت وراءها فتحولت إلى عمود من الملح.

ومرة أخرى يبدو معنى العدالة عند الرب غامضًا قليلاً، بيد أن هناك قدرًا كبيرًا من الدروس الأخلاقية الأخرى التى يستخرجها المبشرون من هذه الحكاية الخارقة (ليس أقلها ما يحدث للزوجات العاصيات والاتصال الجنسى فيما بين الرجال، سواء رضوا أم لم يرضوا، وهو أكثر شرًا من اغتصاب النساء). وربط سدوم بالشذوذ الجنسى كان أقوى فى البروتستانتية، وبقدر أقل فى الكاثوليكية، وأقل من ذلك فى البحث اليهودى حيث يعتبر عدوان السدوميين الحقيقى على الأخلاق هو رفض احترام الغريب، ومن ثم فهى خطيئة ضد واجب الضيافة. والسدومية لاتوجد فى الكتابات اليهودية باعتبارها مرادفًا لممارسة الشذوذ الجنسى، كما هو الحال فى المسيحية. وفى أماكن أخرى من العهد القديم تستخدم سدوم مثالاً على البغى والإثم المتزايد. ولوط تذكرة أخرى بموضوع البقية الصالحة فى التمليط اليهودى. وفى العهد الجديد (لوقا ١٧ : ٢٩) يرد ذكر تدمير سدوم على أنه نذير بيوم الدينونة؛ وعلى أنه مثال للشر الذى لامثيل له (وهو ما كان يمثل إغراء للمبشرين البروتستانت لمساواته بروما).

وكان لإبراهيم ابن من جارية زوجته هاجر. أما إسحاق فكان ابنه من زوجته سارة. وعندما خشيت هاجر من أن مولد ابن شرعى ووريث شرعى يهدد ابنها صلت للرب تطلب المساعدة (سفر التكوين ٢١ : ١٨).

ولا يتابع العهد القديم هذا الأمر لأبعد من ذلك، ولكن بعد أكثر من ألفى سنة ضمن النبى محمد قصة إسماعيل فى روايته عن أصل الإسلام. ولم يكن الإسلام شيئا غير ديانة إبراهيم على بساطتها القديمة، وإبراهيم هو أبو إسماعيل وجد العرب، تمامًا مثل إسحاق الذى ينحدر اليهود من نسله. وأعلن أن ديانة إبراهيم

http://almaktabeh.com

الحقيقية قد تشوشت باليهودية والمسيحية؛ وأنه هو محمد خاتم الأنبياء أرسله الله لإعادتها إلى نقائها. وفى الإسلام يقدم ميثاق إبراهيم مع الرب نسخة أخرى من نظرية الشعب المختار؛ إذ إن أصحاب الزعم الجديد فى استحقاق هذا اللقب هم «الأمة الإسلامية»(*). ومثل الدعاوى الأخرى، استبعدت هذه الدعوى كل الدعاوى الأخرى وأنكرتها. ولا يمكن أن يكون هناك سوى شعب مختار واحد، وكل جماعة أخرى تزعم لنفسها هذا اللقب كانت تؤخذ على أنها تهديد قاتل. ومثلما أخذ اليهود طقسهم فى الختان من إبراهيم، كعلامة علىٰ العهد كذلك فعل المسلمون(**)، والكتاب المقدس يسجل ختان إسماعيل بشكل محدد (تكوين: ١٧ : ٢٣). كان يعقوب أصغر أبناء إسحاق، وحاز يعقوب على الاسم الإضافى إسرائيل. وفى حينه جاءت الزوجات والأبناء وأبناء الأبناء فى حياة يعقوب-إسرائيل لكى يؤسسوا عائلة من سبعين شخصًا. وكانت هذه نواة الشعب الإسرائيلى. وابن يعقوب يوسف تم بيعه فى سوق النخاسة على يد إخوته، ولكنه ارتقى إلى مركز عال فى البلاط المصرى، وفى النهاية ساعد عائلته على الاستقرار فى مصر هربًا من المجاعة، وقصة كيفية تعرفه على إخوته المعدمين ومسامحته لهم قطعة قوية من الأدب. وكان أبناء يعقوب-إسرائيل هم الأسباط الإثنا عشر من القبائل الإسرائيلية. ولأن مفهوم الرب القبلى كان عاديًا، استغرق الأمر بعض الوقت لكى تتسع الألوهية المحلية إلى مفهوم الرب العالمى الواحد، ليس فقط رب إسرائيل ولكن أيضا خالق العالم. وبحلول وقت الأسر المصرى. فقد تم الترحيب بعائلة يوسف فى بداية الأمر، ولكن فرعون قرر استعبادهم فيما بعد. كان تاريخ الخلاص جاهزا للعنصر الثالث لكى يوضع فى مكانه من القصة التى تكشفت. فقد

(*) الإسلام لا يعتبر المسلمين شعب الله المختار، وذلك لأنه دين للعالمين، أى لكل البشر، خلقهم الله من ذكر وأنثى وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا وأن أفضلهم عند الله أتقاهم، فهم سواسية، وفى القرآن ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزى به ولا يجد من دون الله وليا ولا نصيرا﴾، ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾. من ناحية أخرى فإن الإيمان بالله ورسله وكتبه شرط أساسى من شروط الإيمان الإسلامى؛ وهو ما لا يستقيم مع منطق الشعب المختار واستبعاد من قبله. المترجم.

(**) لا يمثل الختان أى عهد عند المسلمين، فما هو إلا سنة. المترجم.

كان رب إسرائيل وخالق العالم على وشك أن يتجلى أيضا باعتباره واضع القانون الأخلاقى ؛ أى السلطة وراء الوصايا العشر.

ففى البداية كان لابد من إنقاذ العبرانيين من المصريين. وكانت قصة الخروج من بين أهم القصص فى يهودية العهد القديم، والتى أشير إليها بشكل منتظم فى النصوص اللاحقة. وكان أهم احتفال يهودى فى السنة هو العبور، الذى كان يتم به تذكر تخليص العبرانيين بخروجهم من مصر، ويعاد تمثيله بشكل رمزى، بمعنى انتقالى ارتبط بكل تحول وبكل لغة. وكان النص مصدراً غنيًا للمادة التنميطية سواء فى اليهودية أو المسيحية. وقبل حركة الإصلاح الدينى، استخدم الخروج بشكل تنميطى للإشارة إلى المعمودية، والفصح، والعشاء الربانى. كما أن العبودية التى تم الهروب منها كانت عبودية للخطيئة. وهكذا فإن أبطال العهد القديم - إبراهيم نفسه وموسى وجدعون وشاءول وداود وهلم جرا - كانوا كلهم أنماطًا سبقت المسيح وبشرت به. فقد ناضلوا ضد أعداء إسرائيل الماديين، على حين ناضل هو ضد أعداء إسرائيل / إسرائيل الجديدة الروحيين الذين كانوا أشد خطورة تماما. وقبل حركة الإصلاح الدينى، لم يكن هناك زعيم مسيحى يرضى بأن يسمى نفسه «موسى آخر»؛ فإذا فعل فإن الكنيسة كانت تسرع إلى تذكيره بأن المسيح وحده هو الذى يحق له أن يحمل هذا الاسم.

وكانت مصر (وفرعون بالتالى)، فى التنميط البروتستانتى، هى المعادل لأى طغيان وجد منذ ذلك الحين فصاعدا، كما كان بنو إسرائيل هو الاسم الذى يطلق على أية مجموعة قاومت الطغيان وهربت منه. ومن ثم كان ممكنًا أن تكون مصر هى روما فى عيون البروتستانت فى القرن السادس عشر، أو هى إنجلترا بالنسبة للأمريكيين فى القرن الثامن عشر (وبذلك أمكن القول بأن چورچ واشنطن هو موسى). لقد أسقط موضوع «الهروب من الخطيئة» الذى تنادى به الكاثوليكية؛ لأن المذهب البروتستانتى سواء فى صيغته اللوثرية أو الكالڤينية، كان يرى أن الهروب من الخطيئة إنما يكون عن طريق الإيمان وحده ومن خلال التسليم لرحمة الرب. والهروب بمجهودات المرء الخاصة كان يوحى «بالأعمال الخيرة» فى المذهب الكاثوليكى التى تلقى أكبر قدر من الرفض لدى البروتستانت.

وهكذا يمكن إسباغ وصف موسى باعتباره نمطًا عتيقًا للمُحرِّر، على أى شخص يستحق هذا اللقب عن جدارة فى رأى البروتستانت. وقد تم وصف كل من أوليڤر كرومويل

http://almaktabeh.com

وشارل الثاني بموسى، بيد أن مزاعم چورج واشنطن كانت أقوى (أو هكذا ظن معاصروه). وكان واحد من كثيرين نسجوا هذه الرابطة هو الباحث العظيم في جامعة يل، تيموثي دوايت الذي ضمّن ما جاء في سفر التثنية (٣٤: ١٠ - ١٢) في خطابه بمناسبة موت واشنطن سنة ١٨٠٠م، «ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه. في جميع الآيات والعجائب التي أرسله الرب ليعملها في أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه، وفي كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التي صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل» وأضاف: «إن واشنطن مثل موسى الذي ولد لأبوين بسيطين ولكنهما جديران بالاحترام؛ ومثل موسى الذي تعلم في البرية؛ ومثل موسى الذي كان مترددا في الاستجابة لدعوة الرب بخدمة الناس»، وهلم جرا. وكانت دوايت قد كرس بالفعل كتابه المسمى The Conquest of Canaan إلى واشنطن: وكانت تلك محاولة الربط بين النبوءة في الكتاب المقدس وتقدم الشعب الأمريكي وهروبه من الطغيان البريطاني تحت زعامة موسى جديد.

ما حجم الحقيقة التاريخية في قصة العهد القديم عن هروب بني إسرائيل من عبوديتهم لفرعون؟ يحذف الكتاب المقدس أي ذكر عن عاصفة سياسية كبرى حدثت في الحياة المصرية يمكن أن يشير هذا إليها. وتوفيق التواريخ بين التاريخ المصري القديم والتاريخ كما يرويه الكتاب المقدس كانت باستمرار مسألة تخمين بدرجة كبيرة؛ بسبب نقص الأدلة. بيد أن المراجع لم تذكر أن نفي العبرانيين في مصر لم يحدث. وما يزال هناك الكثير يحتاج إلى شرح، إذ يقرر الأستاذ جوزيف ميليتنز مودرز يچيوسكي، أستاذ التاريخ القديم في السوربون، في كتابه The Jews of Egypt: على النقيض من غياب الأدلة عن الحوادث السياسية، فإن الكتاب المقدس يضع كثيراً من ملامح الحياة الاجتماعية المصرية في ظل الدولة الجديدة، في لغة تصلح معياراً للتحقيق التاريخي والأثري بدرجة معقولة.

وهو يجد نمطًا يمكن أن يكون شبيهًا بيوسف الذي ذكره الكتاب المقدس في آبر- إل الأجنبي الآسيوي الذي ارتقى لدرجة وزير تحت حكم أمينوفيس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة. وفي الأسرة التاسعة عشرة تحت حكم الملك مينبتاح، ارتقى آسيوي اسمه بن- آزن إلى مرتبة عليا بين حاملي الأكواب الملكية. ولا يمكن افتراض أنهما كانا يوسف وموسى، ولكنهما يوضحان أن ترقية يوسف وموسى

http://almaktabeh.com

لمنصب عال لم يكن أمراً مستحيلاً . وعلى نفس المنوال ، فإن قصة الطفل موسى ، ابن أحد العبيد ، الذى تم إنقاذه من سلة طافية على سطح النهر ، وُضع فيها ليهرب من القتل المعتاد للأطفال الذكور ، يمكن أن يتوافق بسهولة مع حكايات مصرية أخرى ؛ إذ إن الشخصيات العليا كانوا أحيانًا يتبنون بالفعل أطفال العبيد الشاردين .

كانت هناك جماعات عديدة خاضعة من غير المصريين فى البلاد ، ولم يكن العبرانيون هم الأكثر عدداً بينهم بالضرورة . وقد عرفوا أحيانًا باسم " الشوسو " وعملوا فى الأعمال اليدوية كما عملوا جنوداً . وكلمة "عبيد" تبالغ فى تبسيط وضعهم . وحسبما يرى مودرزيچيوسكى ، فهم :

« لم يكونوا جماعة عريقة أو أمة وحسب ، وإنما كانوا فئة اجتماعية لها أسلوب حياة مشترك . كان أسلاف بنى إسرائيل جزءا من جماعة هامشية أكبر ، غامضة لكنها كاملة ، محل شك ولكنها مفيدة أحيانًا . . . وكان لابد وأن يجىء اليوم الذى تقوم حفنة قليلة من هؤلاء المهاجرين ، الذين لم يعد لديهم استعداد للحياة الكادحة فى بلد معاد ، بمغادرة مصر تحت قيادة رجل اسمه موسى . وبالنسبة للحكومة الفرعونية كانت تلك حادثة صغرى : رحيل مجموعة واحدة من بين عدة مجموعات من الشوسو . أما بالنسبة لبنى إسرائيل ، فقد كانت على العكس، لحظة تاريخية ذات أهمية كبرى » .

وربما لا يكون موسى قد كتب أسفار التوراة الخمسة كلها ولكنه كان بالضرورة مصدر مثل هذه القصص؛ إذ إن نضاله مع الفرعون حتى يسمح للعبرانيين بالرحيل تحول إلى قدرته بالتهديد بعدة محاولات (أوبئة) على عائلة فرعون ورعاياه . وأهمية هذه ليست فيما كانت ماهيتها بالضبط ، على الرغم من أن البثور والضفادع والهوام والجراد موصوفة فى سفر الخروج بشكل يجعل منها مخزنًا عامراً بالكنايات للمبشرين اللاحقين . ولكن الحقيقة أنه لم يكن بوسع موسى أن يشن حملة التهديدات المرعبة التى شنها دون مساندة واتفاق مباشر مع الرب . ولا يواجه الأثريون صعوبات كبيرة فى العثور على تفسيرات طبيعية ، ولهذا فليست هناك حاجة للقول بأن هذه الأوبئة كانت إعجازية . بيد أن توقيتها يوضح أن الرب كان يوجه عنايته على مدى الزمان لصالح بنى إسرائيل . هذا فيما يتعلق بالدور المركزى الذى يلعبه الهروب من مصر فى تاريخ الخلاص : إذ إنه فى الحقيقة مفصل الحبكة

http://almaktabeh.com

كلها . فليست ثمة موضع آخر يتدخل فيه الرب بشكل أكثر مباشرة لإنقاذ ربه من الدمار الوشيك أكثر مما فعله حينما توقفوا عند البحر الأحمر ، والفرسان المصريون يجدّون في أثرهم ، ثم تنشق المياه فجأة لكي يمروا ، وتُطبق مرة أخرى على مطارديهم حينما يحاولون العبور . حسبما يقول مودرزيچيوسكي :

« الحقيقة أنه بالنسبة لجيوش الفرعون ، كانت هذه القصة مناوشات بسيطة مع عصبة من عمال السخرة الذين قرروا الهرب ، حادثة ليست بذات أهمية تذكر . أما بالنسبة للعبرانيين فعلى العكس ، كانت حادثة عظمى تجلت فيها يدُ الرب ، بحيث سمحت لهم بالهرب من العبودية وبأن يصيروا أمة . كان هذا هو الميلاد الحق لإسرائيل ؛ إذ إنه ذاكره محفورة إلى الأبد في عقيدتها» .

ومن ناحية التنميط ، كان موسى أكثر جاذبية لصانعي الأساطير في أمريكا منه في انجلترا ، وكان اسمه يستخدم في المقارنات مع أشخاص مختلفين مثل چون وينثروب وچورج واشنطن ومارتن لوثر كنج . وتم رفع الأخير إلى مرتبة نبي في الكنيسة الإبيسكوبية في الولايات المتحدة.وله عيد خاص في تقويم الكنيسة في يوم ٥ أبريل .

أما الربط بين دور موسى وچون وينثروب فكانت فكرته هو . ففي خطبته الشهيرة التي تحمل عنوان «A Modell of Christian Charity» والتي كتبها على ظهر السفينة آرابلا وهو يقترب من الشواطئ الأمريكية سنة ١٦٣٠م ، كانت الخاتمة :

«إنني سوف أنهي هذه الخطبة بتلك الوصية التي قالها موسى ، ذلك الخادم المخلص للرب ، في وداعه الأخير لإسرائيل . في سفر التثنية ٣٠ : «انظر قد جعلت قدامك الحياة والخير والموت والشر . بما أني أوصيتك اليوم أن تحب الرب إلهك وتسلك في طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه لكي تحيا وتنمو ويباركك الرب إلهك في الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها» (سفر التثنية ٣٠ : ١٥ـ١٦) .

وثمة حادث له أهمية أكبر حدث خلال المسيرة الطويلة لبني إسرائيل عبر الصحراء صوب الأرض الموعودة . وهي أرض كنعان التي كانوا قد تركوها منذ مئات السنين قبل أن تسوقهم المجاعة إلى الجنوب . وفي مواجهة تتسم بالسرية العظيمة والسمو ، رأى موسى الرب وجها لوجه عند جبل سيناء وتلقى منه ألواح الشريعة التي نقشت عليها الوصايا العشر . كانت هذه هي المبادئ الأخلاقية والدينية

http://almaktabeh.com

التى كان على شعب الرب أن يرتبطوا بها منذ ذلك الحين فصاعدا. وبهذا كان الرب يجدد ميثاقه معهم، ويحدد الواجبات التى ترتبط بالميثاق. ومنذ ذلك الوقت، كان واجب شعب الرب تجاه الرب وواجب شعب الرب تجاه كل منهم والآخر، جزءاً من نظام متحد من الإيمان والممارسة. والتوحيد الأخلاقى يرجع فى تاريخه إلى تلك اللحظة. ولم يكن ممكنا أن يكون واضحا لمن جاءوا قبل ذلك، أن الطريق الصحيح لعبادة الرب له علاقة بالسلوك الأخلاقى.

وربما يثور اعتراض بأن الميثاق بين الإنسانية والرب، والذى تم على يد نوح بعد الطوفان، بوصاياه السبع التى تماثل بعض الوصايا العشر، يوضح أن ثمة ميلاداً سابقًا للتوحيد الأخلاقى. ولكن إذا كان موسى هو الذى كتب قصة نوح حسب أكثر الحسابات تحفظًا، فلابد أنه فعل ذلك بعد تلقى الألواح على جبل سيناء. وباختصار فإن التوحيد الأخلاقى كان سراً احتفظ به موسى لنفسه. وتنطبق نفس النقطة على القصة الواردة فى سفر التكوين عن أن إبراهيم قد تم اختياره أبًا لشعب جديد، وأنه وعد بأرض كنعان لهم، وهو ما يمثل بشيراً بنفس الوعد الذى أعطى لموسى. وربما يفترض أن كاتب سفر التكوين أو محرره (إذا لم يكن هو موسى) لم يكن يعمل بشكل منفصل عن كاتب سفر الخروج، ومن ثم لايمكن اعتبار القصتين معضدتين لكل منهما الأخرى بشكل مستقل. وإنما يمكن اعتبار كاتب سفر التكوين يقدم مادة تاريخية سابقة، لكى يعزز هبة الأرض الموعودة التى سجلها سفر الخروج، التى كان يعرفها جيدا فى زمن الكتابة.

والوصايا العشر لاسيما تلك التى تمنع شهادة الزور والقتل والسرقة والزنا، تحتل مكان القلب فى الحضارة الغربية. والوصية التى تأمر بعدم القسم باسم الرب عبثا استمرت على مدى عدة أجيال تحدد مفهوم اللغة السيئة، كما أن الوصية بالراحة فى اليوم السابع أعطت للحضارة الغربية نموذجها الأساسى فى الأسبوع الذى يتكون من سبعة أيام واليوم السابع تغطيه قواعد مختلفة. بعضها أشد صرامة وبعضها أكثر استرخاء. عن الأيام الأخرى.

وعلى الرغم من أن العقل العلمانى لا يفهم الوصية بعدم عمل الأصنام لآلهة مزيفة، بمثل هذه السهولة، فإن لها صدى قويًا فى الجدل الأخلاقى المعاصر، بل وحتى الوصية بتكريم الأب والأم مثل الوصية بتحاشى الزنا، ما تزال تعتبر مبدأ ساريا وفعالا.

http://almaktabeh.com

بيد أن هناك ملمحًا مثيرًا يبرز من أصول هذه الوصايا ليس واضحا بهذا القدر. فحينما قدمت الوصايا للمرة الأولى اعتبرت أنها تنطبق فقط على شعب الرب الذى كان هو بنى إسرائيل، تماما مثلما كان الإله الواحد هو رب الإسرائيليين. ويصبح هذا واضحا إذا ما نظرنا إلى الوصايا العشر فى سياق الكتاب المقدس، باعتبارها جزءًا، وإن يكن هو الجزء المركزى، من نظام أكثر تعقيدًا من القوانين والعادات الشعائرية للعبادة الصحيحة للرب الحقيقى. وبعض الشرائع سوف تصدم أى قارئ حديث باعتبارها أمرا غريبا؛ إذ إن سفر اللاويين (٢٠ : ٢٤-٢٧) مثلا يقول:

«وقلت لكم ترثون أنتم أرضهم وأنا أعطيكم إياها لترثوها أرضا تفيض لبنا وعسلاً. أنا الرب إلهكم الذى ميزكم من الشعوب. فتميزون بين البهائم الطاهرة والنجسة وبين الطيور النجسة والطاهرة فلا تدنسوا أنفسكم بالبهائم والطيور ولا بكل ما يدب على الأرض مما ميزته لكم ليكون نجسا. وتكونون لى قديسين لأنى قدوس أنا الرب. وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى.

وإذا كان فى رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل. بالحجارة يرجمونه. دمه عليه.

لا تقتل مثلا كان معناها الأصلى لا تقتل الإسرائيليين بنى جلدتك، أى أنها لا تنطبق خارج حدود الشعب المختار، وهو ما يتضح من عدة نصوص مثل سفر اللاويين (٢٦ : ٣-٨):

«إذا سلكتم فى فرائض وحفظتم وصاياى وعملتم بها. أعطى مطركم فى حينه وتعطى الأرض غلتها وتعطى أشجار الحقل أثمارها. ويلحق دراسكم بالقطاف ويلحق القطاف بالزرع فتأكلون خبزكم للشبع وتسكنون فى أرضكم آمنين. وأجعل سلاما فى الأرض فتنامون وليس من يزعجكم. وأبيد الوحوش الرديئة من الأرض ولا يعبر سيف فى أرضكم وتطردون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف يطرد خمسة منكم مئة ومئة منكم يطردون ربوة ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف».

هذا عالم أخلاقى أصعب كثيرا على الفهم مما قد يبدو للوهلة الأولى. وأحد تفسيرات الشريعة الموسوية فى مجملها، هى رؤيتها باعتبارها مصممة لتحقيق الانسجام بين الإسرائيليين داخليا، وتحقيق النصر على أعدائهم بأى ثمن، والواقع أن الحوادث التالية يبدو أنها تستبعد أية قراءة أكثر كرمًا، ومن ناحية أخرى فإن الرب لا يبدى عدم اكتراثه الواضح بتعاليمه الأخلاقية فحسب، وإنما هو يقود الإسرائيليين لكى

http://almaktabeh.com

يفعلوا هذا. ويبدو أن المبدأ هو أن شعب الرب يجب أن يعامل كل منهم الآخر بطريقة صحيحة وعادلة، ولكنهم يمكن أن يعاملوا بقية البشرية بالطريقة التي تلائمهم.

وسفر اللاويين لا يدور فقط حول الشعائر. ففي سفر اللاويين يظهر لأول مرة ما يسمى شريعة الحرب «بالعدل تحكم لقريبك. لاتسع في الوشاية بين شعبك. لاتقف على دم قريبك. لاتبغض أخاك في قلبك لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك، بل تحب قريبك كنفسك» (لاويين ١٩ : ١٥-١٨). على هذا النص ألقى يسوع موعظة عن السامري الطيب، متحديا الرأي الراسخ حول من يكون الجار أو القريب، ومن لا يكون، بأن مد نطاق هذه الفئة لكي تشهد السامرة، وهي فرقة يهودية ينظر إليها اليهود الربانيون وهم الأغلبية، على أنها طائفة غير نقية، وعلى الرغم من أنه كان يزيح الحدود فإنه حتى لم يوضح أن القريب الذي أشار إليه سفر اللاويين، الإصحاح ١٩ يمكن أن يكون أي إنسان يعيش في أي مكان على كوكب الأرض.

هذا تفسير حديث حقًا؛ إذ إنه حتى في العصور الوسطى للمسيحية لم تكن صفة جار ممتدة في نطاقها بحيث تشمل اليهود والمسلمين الذين كان المسيحيون يشعرون أنهم أحرار في قتلهم بالآلاف زمن الحروب الصليبية، ولم يكن المنشقون على الكنيسة الكاثوليكية جيرانا، على نحو ما اكتشف الألبيجنسيون(*). ومثلما كان الحال زمن موسى، كان لابد للجار أن يكون ضمن من يؤمنون بالدين أو العقيدة، أي أن يكون عضوا آخر من شعب الرب. وبعد حركة الإصلاح الديني ولاسيما في المستعمرات التي استوطن بها البيوريتان، لم ينطبق مفهوم الجار بشكل عام على السكان الأصليين «المتوحشين»، كما أنه لم ينطبق بعد ذلك بوقت قليل على العبيد في الجنوب، وإحدى التهم الموجهة إلى حكم جورج الثالث والواردة في إعلان الاستقلال لا تشير فقط إلى الهنود الحمر بمصطلحات تتجاوز المقبول، وإنما تذكر كذبًا الزعم بأن البريطانيين قد حاولوا توجيه العبيد للتمرد ضد سادتهم. والأمريكيون الأصليون الذين يطلق عليهم اسم الهنود، سرعان ما اكتشفوا مثل الكنعانيين قوة النص الوارد في سفر اللاويين: «يطرد خمسة منكم مئة، ومئة منكم

(*) الألبيجنسيون طائفة مسيحية ظهرت في جنوب فرنسا في العصور الوسطى (القرن الثاني عشر)، وقد عرفوا أيضا باسم «الأطهار» أو «الكاثاريين»، وكانوا ينكرون بعض مذاهب الكنيسة الكاثوليكية. وقد شنت عليهم البابوية بالتعاون مع الملكية الفرنسية الإقطاعية حربا خربت جنوب فرنسا المزدهر والأرقى من الشمال، واستمرت الحرب أكثر من ربع قرن. المترجم.

http://almaktabeh.com

يطرد ربوة ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف». وحتى الكنديون الفرنسيون، الذين غزاهم جيش ثورى أمريكى ذاقوا لفترة قصيرة، طعم أن يكونوا كنعانيين سنة ١٧٧٦م.

والحقيقة أن المبدأ العام لايزال ساريا؛ ذلك أن تلك الأمم التى شكلت هوياتها سواء فى الحاضر أو فى الماضى تحت لافتة «الشعب المختار» ما تزال تعمل على تحديد «الجار» بحيث يكون معناه أعضاء فى نفس الوطن. أما واجب التضامن العالمى الكونى - أى مفهوم نظام لحقوق الإنسان ينطبق بالتساوى على الجميع بغض النظر عن الجماعة الوطنية أو العرقية التى يتمون إليها - فهو فكرة حديثة للغاية. وكل ما يرخص به العهد القديم، فى المعنى الواضح لنصه على الأقل، مجموعة من الحقوق لأولئك الذين هم فعلاً داخل الشعب المختار.

ومع هذا فإن الرسالة الواضحة لأفضل الزعماء اليهود كانت متسقة على مر العصور: إذ إن العبرة بكون جماعة «الشعب المختار» ليست تسيدها فوق الآخرين ولكن أن تكون «نورا للأمم». فالرب لم يختر ولا يختار شعبًا واحدًا من بين بقية الشعوب؛ لأنه يسره أن يكون له من يؤثرهم؛ إذ إن على الشعب المختار واجبًا باستخدام مكانتهم ووضعهم لصالح البشرية جمعاء، وعليهم أن يتوصلوا بالقدوة لتعليم درس الأخلاق ودرس عبادة إله، واحد حقيقى. وهما الدرسان اللذان أحضرهما موسى من جبل سيناء. ولكن إذا اختفت الميزة التى لصالح البشرية، وكل ما يمكن أن يراه أولئك الذين ينظرون إلى الشعب المختار هو الفساد، والظلم، وإساءة استخدام القوة والثروة، والتخلى بشكل عام عن الأسمى فى سبيل المباهج المادية قصيرة المدى، فإن الرب حينئذ سوف يسحب حمايته، سيغرق الشعب المختار فى زمن من الويل والمصائب، وقبل أن يعترى الرب اليأس من الشعب المختار، يحاول أن يعيدهم إلى الإحساس الحقيقى بالنداء الدينى الداخلى. وسوف يرسل الأنبياء لتحذيرهم، والمصائب لعقابهم والثواب لراحتهم، وإذا ما كانوا مؤمنين فسوف يرسل إليهم الانتصارات على أعدائهم والسلام والانسجام الداخلى والخارجى، وزمنا من الازدهار والرفاهية.

وسوف تكون أحكامه الحاسمة عن كيف عامل الشعب المختار الضعفاء ومن لا حيلة لهم - فى العهد القديم (سفر الخروج ٢٢ : ٢٢) «لا تسىء إلى أرملة أو يتيم»

http://almaktabeh.com

والعدالة فى أعين البشر تتصل صلة وثيقة بالتبرير فى عينى الرب. وهذا هو المعنى الحقيقى للميثاق، فى أعين أولئك القادة اليهود الذين هم أكثر انغماسًا فى حكمة دينهم. فهم يعرفون أحسن من معظم الناس؛ لأنهم يعرفون كتابهم المقدس أفضل من معظم الآخرين، إن مجرد التمتع بامتيازات الاختيار قد يجلب غضب الرب.

قال الرباى الرئيسى لليهود فى بريطانيا العظمى، الدكتور جوناثان ساكس، فى مقالة بصحيفة الجارديان كتبها فى ضوء الهجمات الإرهابية على مركز التجارة العالمى بنيويورك:

«لقد صار الدين قوة عظمى فى تشكيل حوادث العالم. وإذا لم يصبح الدين جزءا من الحل، فلا شك فى أنه سيكون جزءا من المشكلة.

إن القوى الخلاقة والقوى المدمرة فى الديانات الكبرى غالبا ما تعملان سويا؛ إذ إن الدين يربط الناس بعضهم كجماعات؛ وهذه هى قوتهم فى عصر فيه البنايات الأخرى للمعنى والعلاقات مشوشة ومقهورة. بيد أن نفس الأسوار التى نبنيها حول أنفسنا للحماية المتبادلة تفصلنا عن أولئك الذين يقفون فى الخارج؛ إذ إن كل «نحن» تخلق «هم». وذلك هو السبب فى أن الديانات، على الرغم من أنها تجلب السلام داخل حدودها يمكن أن تكون باعثًا على الحرب عبر هذه الحدود.

لقد مرت البشرية بهذا من قبل؛ ذلك أن صفحات التاريخ ملطخة بالدم الذى أريق فى الحملات الصليبية، والجهاد، ومحاكم التفتيش، والمذابح والفتن، والحروب الدينية التى مزقت وجه أوروبا وشوهته فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. وفى الماضى كان معظم الناس محاطين بآخرين يشاركونهم التاريخ والتقاليد وأحد المذاهب الدينية. أما اليوم فإن حياتنا تضطرم بصراعات بعيدة عنا وثقافات تختلف عن ثقافتنا تمامًا. ولم يحدث أبدا من قبل أن واجهت الديانات تحديا مصيريا بالسماح بفضاء للاختلاف مثلما هو حادث الآن. الآخر، الكافر الذى لم يؤمن.

هل يمكن أن نرى صورة الرب فى فرد ليس على صورتنا؟ هل يمكن أن نسمع صوته فى لهجات غير لهجتنا؟ هل يمكن أن نتعلم أن نحب الغريب؟ لقد أعطانا الرب ديانات كثيرة، ولكن واحدة فقط يجب أن نعيش فى رحابها سويا، بيد أنها تصغر كلما مضى الزمن».

http://almaktabeh.com

(٦)

جرائم الحرب والعبودية

إذا كان تاريخ الخلاص هو قصة الشعب المختار وهو يتحرك ببطء، وفى شرود ولكن بإصرار صوب هدف أسمى، فإن التاريخ الحقيقى الذى يصاحبه - أى التاريخ حسبما نفهم المصطلح عادة - يمكن أن يبدو دمويًا. فالإصحاح ٣١ من سفر العدد، مثلا يسجل كيف أن بنى إسرائيل تحت زعامة موسى هزموا ثم دمروا إحدى القبائل الوثنية وهم المديانيين، الذين كانوا قد أفسدوا بعض الإسرائيليين بالممارسات الوثنية - يوحى الدليل بأن الديانة الكنعانية كانت تركز على آلهة الخصوبة والجنس الطقوسى. وقتلوا كل الرجال واستولوا على جميع ممتلكاتهم، وكانت بعضها قربانًا لشكر الرب. ثم أمر موسى بقتل كل الأطفال الذكور وكل النسوة المتزوجات(*) أيضًا. ومن بين الأسلاب التى وزعت على المتصرين كانت هناك ٣٢٠٠٠عذراء. ولكن لم يكن ممكنا الاستمتاع بهن حتى يتم تنفيذ طقس النظافة بعد القتل: أما كيفية عمل هذا فقد تم شرحه بعناية.

وقد اقترح الباحثون المحدثون أن هذه النقطه فى قصة ليس لها أساس من الحقيقه - إنها وسيله تعليمية، توضيح الممارسات الطقسية - وهدفها أن تعلّم بنى إسرائيل النفور من عبادات الخصوبة لدى القبائل المحلية. ومع هذا فإن درجة الوحشية المقيتة والتعطش للدماء التى أوضحتها القصة صادمة للمشاعر؛ كما أن هذا ليس نصًا معزولاً. هكذا:

« متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوبًا كثيرة من أمامك الحثيين و الجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين

(*) وقال لهم موسى . . . فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً . . . وتغسلون ثيابكم فى اليوم السابع فتكونون طاهرين. سفر العدد، إصحاح ٣١ : ١٧ - ٢٤ . .

http://almaktabeh.com

والحوريين واليوسيين سبع شعوب أكثر وأعظم منك . ودفعهم الرب إلهك أمامك فإنك تحرمهم. لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم » [سفر التثنية ٧: ١-٢].

« وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما. بل تحرمها تحريماً. الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحوريين واليوسيين كما أمرك الرب إلهك لكى لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التى عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم» (سفر التثنية ٢٠: ١٦-١٨).

والتعليمات الأخيرة توضح أن التدمير الكلى لهذه القبائل المجاورة تم الأمر به وإلا فإن دياناتها ستكون إغراء ماثلا بالكفر، كما حدث بالفعل. ذلك أن الآلهة الوثنية كانت باستمرار مصدر جاذبية لبنى إسرائيل الذين كان يتم باستمرار إغوائهم بعيدا عن عبادة الرب الواحد الحقيقى.

كانت هناك مصادقة كافية من الكتاب المقدس على المذبحة والإبادة والاستعباد وما يسمى الآن التطهير العرقى، التى ارتكبت كلها باسم الرب وغالبا بأمر مباشر منه.

وسفر التثنية (٣٢: ٤٩-٥٠) و (٣٤: ١-٥) يسجل اللحظة المحددة التى نظر فيها موسى، قبل موته مباشرة من فوق جبل عباريم على الأرض التى وعد بها الرب بنى إسرائيل:

«اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل نبو الذى فى أرض موآب الذى قبالة أريحا وانظر أرض كنعان التى أنا أعطيها لبنى إسرائيل ملكا ومُت فى الجبل الذى تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات هارون أخوك فى جبل وضم إلى قومه» (تثنية ٣٢: ٤٩-٥٠).

«وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نبو إلى رأس الفسحة الذى قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان. وجميع نفتالى وأرض أمزايم ومنسى وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربى. والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر. وقال الرب هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها. قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر. فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض موآب حسب قول الرب» (تثنية ٣٤ : ١-٥).

ونقل موسى قيادة الجيش اليهودى المتوحش إلى يشوع، الذى كانت مهمته

http://almaktabeh.com

الأولى أن يختن كل الذكور الذين لم يختتنوا من قبل. من الواضح أنهم تجاهلوا الختان. أما مهمته الثانية فكانت غزو كنعان بالقوة. ويسجل سفر يشوع مصير مدينة أريحا (يشوع ٦ : ٢١) بعد سقوطها بالاستراتيجية الغريبة بالسير حول الأسوار في دورات متتابعة مع نفخ الأبواق ويصحبهم تابوت العهد. «وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف . . . وأحرقوا المدينة بالنار»

ولاشك في أن هذه كانت الميزات العادية للنصر في العالم القديم؛ ذلك أن المصريين والإغريق والرومان لم يكونوا يتصرفون بشكل مختلف، ولكن لابد أنه كان سيبدو غير واضح بالمرة، بالنسبة لمن عانوا من مثل هذه الوحشية التي صادق عليها الرب، ما هي بالضبط الرسالة التي اختار الرب شعب الرب لكي يوصلوها - سوى رسالة بدائية مؤداها أن «ربنا أفضل من ربكم».

وإذا ما كان لتفسير الكتاب المقدس أن يهتدي بالسلطات الدينية اليهودية أو المسيحية بدلا من أن يترك لكل فرد، حسبما كان الحال حتى حركة الإصلاح الديني فإن الوحشية التي غالبًا ما يرد وصفها في العهد القديم يمكن تفسيرها إلى حد ما وهكذا فإن الحكايات التي تكشف عن الأحوال العسكرية والسياسية لقبائل بني إسرائيل، توضح أيضا أن رحلتهم الروحية تجاه فهم أفضل لما يريده الرب منهم. ففي البداية يظهر الرب في أفضل الأحوال وكأنه لايبالي بمعاناة أعداء بني إسرائيل (حتى نساؤهم وأطفالهم) وفي أسوأ الأحوال يسوق لهم الأسباب ويتلذذ بهذه المعاناة، بل ويتوقع أن يُشكر على فعل هذا. وبالتدريج تدخل القصة نغمة أكثر نعومة؛ ذلك أن سيف الغضب الحق قد ثُلم وتعلم العبرانيون أن ربهم هو رب العطف والرحمة الذي يفضل السلام على الحرب. ففي سفر إشعيا (٢ : ٤):

«فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد».

وبينما تعمق فهمهم للرب، تعمق فهمهم للإنسانية أيضا؛ إذ إن النصوص بدأت تهتم بالحالات العاطفية - السعادة والحزن والإحباط والفرح والشوق، بل وحتى الحب الرومانسي - مثلما تهتم بالأمور السياسية والعسكرية. وكان إله الحرب يبرز بالتدريج في الضوء بوصفه إلهًا للعدالة والحب.

http://almaktabeh.com

ولكن حتى القرن التاسع عشر على الأقل - بل ولا حتى فى ذلك الحين فى بعض الحالات - كانت المسيحية البروتستانتية تتجه إلى التعامل مع الكتاب المقدس بوصفه كتابا للتعاليم الدينية له قيمة متسقة، وكل جزء له قيمة مساوية لقيمة كل جزء آخر دونما مفهوم للتطور، وحتى إذا كانت هناك نظرية للتطور تعتبر مفضلة لدى الباحثين المتخصصين فى الكتاب المقدس، فإن مبدأ أن لكل بروتستانتى الحق فى تفسير الكتاب المقدس بطريقته الخاصة كان مبدأ غالبًا، وكان هذا يصدق بصفة خاصة حين يتم التعامل مع تاريخ الخلاص على أنه قرين للتاريخ الحقيقى، وباعتباره وصفا دقيقا لما حدث بالفعل، وكانت أية قصة يرويها الكتاب المقدس عن تدخل الرب ليست سجلا لما كان الناس فى ذلك الزمان يؤمنون به، وإنما كانت مجرد حكاية عما يحتمل أن يكون الناس قد أساءوا فهمه، ونتيجة لهذا فإن السلوك الهمجى الذى يظهر بشكل أساسى فى بداية الفترة التى أعقبت الخروج يمكن أن يعطى وزنا باعتباره مثالا يتبع من العبرانيين الأكثر سلما وتحضرا فيما بعد. ويمكن وضع نهب ومذبحة أريحا مثلا باعتبارها موافقة إلهية على النهب والمذبحة التى ارتكبها كرومويل فى دروغيدا وويكسفورد سنة ١٦٤٩م أثناء حملته الإيرلندية. وكذلك لم يكن المثال الوارد فى الكتاب المقدس يعتبر غير مفيد، عند مواجهة المستوطنين البيض للناس الأصليين فى أمريكا والذين يطلقون عليهم اسم الهنود. لقد كانوا تماما مثل الكنعانيين يقفون فى طريق «الشعب المختار» ويمتلكون أرضهم الموعودة.

والحقيقة أن كرومويل يتشبه بجدعون أكثر مما يتشابه مع يشوع، وجدعون هو الذى يدخل القصة بعد أن رسخ الاستيطان فى أرض كنعان تماما. وبعد يشوع جاءت فترة من حكم القضاة الذى جمعوا مثلما فعل موسى، بين الزعامة الروحية والزعامة السياسية. وكان المديانيون العدو القديم الذى قضى عليهم موسى ما يزالون نشطين فى أرض كنعان، وبلغوا درجة من القوة لدرجة أنهم أخضعوا الإسرائيليين وأبقوهم فى حال من الخوف على مدى سبع سنوات. وكان جدعون فلاحًا يخفى قمحه بعد درسه حتى لا يأخذه المديانيون، ثم جاءه ملاك وأمره أن يطيح بالطغاة، وكان المديانيون ما يزالون يعبدون إلههم بعل، وكانوا قد أغروا عددا من الإسرائيليين، بما فيهم أبو جدعون يوآش ليدخلوا فى دياناتهم الوثنية.

http://almaktabeh.com

وكان يوآش قد بنى مذبحا كبيرا (أو برجا) ليكون صنما لعبادة الإله بعل، وتلقى جدعون أمرا بأن يهدمه. وعندما صاحت الجماهير مطالبة بإعدامه عقابا له حماه أبوه الذى توسل من أجله وتكلم ضد بعل. وبعد اتصالات أخرى مع الملائكة الذين قاموا بعدة معجزات ليبرهنوا على صدق جدعون وأبيه، جمع جدعون قوة لمحاربة المديانيين. بيد أن الرجال البالغ عددهم ٣٢٠٠٠ رجل تحت خدمته حكم الرب بأنهم أكثر من اللازم وصرفوا جميعا فيما عدا ٣٠٠ حتى يمكن للرب أن يبرهن قوته. وبمساعدة إلهية - تلقى الرجال أمرا باقتحام معسكر العدو وهم يحملون المشاعل المضيئة، وينفخون فى الأبواق ويصيحون «سيف للرب ولجدعون» وجدعون بحيث تسببوا فى فوضى كبيرة - هُزم المديانيون، وتم أسر ملكيهما وذبحهما، وسرعان ما جرت المذابح المعتادة.

ولأن أهل مدينة سكوت رفضوا أن يقدموا الطعام والشراب لجيش جدعون، عاد إليهم، ورجع جدعون بن يوآش من الحرب عند عقبة حارس، وأمسك غلاما من أهل سكوت وسأله، فكتب له رؤساء سكوت وشيوخها سبعة وسبعين رجلا، ودخل إلى أهل سكوت وقال هو ذا زبح وصلمناع اللذان عير تمونى بهما قائلين هل أيدى زبح وصلمناع بيدك الآن حتى نعطى رجالك المعيين خبزا - وأخذ شيوخ المدينة وأشواك البرية والنوارج وعلم بها أهل سكوت. وهدم برج فنوئيل وقتل رجال المدينة (سفر القضاة ٨: ١٣ - ١٧). ومع كل هذا النجاح الذى أحرزه جدعون طلب منه أن يكون ملك العبرانيين ولكنه قال لهم: «. . . لا أتسلط أنا عليكم ولا يتسلط ابنى عليكم، الرب يتسلط عليكم» (قضاة ٨: ٢٣)، ولكنه ظل قائداً لهم، فى دور القاضى على مدى أربعين سنة أخرى، وهكذا كان هو نمط الحاكم المسيحى المثالى والقائد فى المعركة.

ولا غرو أن جدعون كان شخصية مفضلة من شخصيات الكتاب المقدس فى عيون البيوريتان الإنجليز، كما كان بالنسبة لجون كنوكس والإصلاحيين الأسكتلنديين، الذين استخدموا مثاله لتبرير مقاومتهم للملكة الكاثوليكية مارى ملكة اسكتلندا. ومن الناحية التنميطية كان المديانيون يساوون الكاثوليك؛ بسبب عبادتهم المفترضة للأصنام (فقد كان الكالفينيون يعارضون بشدة كل أشكال التصوير الدينى) وعبادة الآلهة المزيفة. لقد سحق جدعون المذبح الوثنى، وكسب

http://almaktabeh.com

الجماهير حوله بالتبشير، كما أنه قد هزم العدو بعصبة ضئيلة من الرجال المخلصين باسم الرب، وقد راق هذا بشكل كبير للغاية لكرومويل. وفى معركة مارستون مور الحاسمة سنة ١٦٤٤م، كان مصير المعركة معلقا حتى قام كرومويل على رأس قواته المتعصبة بمهاجمة خطوط الملكيين وهم يصيحون «سيف الرب وسيف جدعون» ونجحوا فى اختراق صفوفهم. كانت هذه لحظة حاسمة فى مصير الملك. هزيمته الكبرى الأولى. وفى صعود كرومويل إلى سيطرته النهائية على قوات المحافظين الملكية. وبالنسبة للعقلية البروتستانتية فى القرن السادس عشر أو السابع عشر، كانت قصة جدعون تناسب موقفهم تماما. وتخلى جدعون عن دور الملك كان أيضا مصدر إلهام لقرار كرومويل الشخصى بألا يتوج ملكا، ولكن بأن يحكم انجلترا «باسم الرب».

وقد كرّس أندرو مارڤل قصيدته الطويلة «السنوية الأولى للحكومة تحت حكم سموه السيد الحامى» لتحية كرومويل فى مصطلحات تنميطية تماما.

وتماما مثلما كان انتصار جدعون على المديانيين هو فى الحقيقة انتصار الرب، كذلك كانت انتصارات كرومويل على قوات الملك هى انتصارات الرب. وبعد معركة ناسبى سنة ١٦٤٥م كتب إلى وليام ليتهول: «هذا النصر ليس سوى يد الرب؛ وإليه فقط يعود المجد، حيث ليس لأحد أن يشاركه».

كانت قصة جدعون هى أكثر سابقة يذكرها الكتاب المقدس للرأى القائل إن إرادة الرب هى التى شاءت للحكام الطغاة والذين يعبدون الأصنام ممن تسلطوا على شعب الرب. مثل المديانيين أو الملكيين الإنجليز فى القرن السادس عشر. أن تتم الإطاحة بهم بالقوة. ومثل جدعون أحس كرومويل أنه مدعو شخصيا ليكون محاربا فى خدمة الرب. وقد أسماه ميلتون «رجل الرب الإنجليزى» وقبل النداء كان كلاهما فلاحًا.

والتعطش للدماء الذى أبداه البيوريتان فى الحرب الأهلية عندما تم إقناعهم بأنهم يقومون بعمل الرب اتخذ مثالا فى قصيدة لميلتون تتغنى بأمجاد كرومويل فى الانتصارات التى حققها بما فى ذلك هزيمته الدموية للملكيين، والاسكتلنديين، والقوات عند دونبار فى اسكتلندا سنة ١٦٦٠م، وقبل ذلك عند برستون بلانكشير على نهر داروين.

http://almaktabeh.com

والعلاقة بين الحرب الأهلية الإنجليزية فى القرن السابع عشر وحرب الاستقلال الأمريكية فى القرن الثامن عشر قد ذكرناها بالفعل. وفى حالة كرومويل كان المديانيون هم الملكيين الموصومين بعبادة الأصنام. وفى القرن التالى فى أمريكا الشمالية كان المديانيون هم البريطانيين، والتشابه النمطى هذه المرة لم يكن عبادة الأصنام وإنما كان هو الطغيان، على الرغم من أنه كان عند البداية ثمة تهديد كاثوليكى للپروتستانتية الأمريكية محسوسًا فى خلفية الأحداث.

بيد أنه كان هناك مشابهات شخصية أقل مع جدعون فى الحالة الأخيرة؛ وبدلا من ذلك كان أحد أكثر التلميحات شيوعا فى الكتاب المقدس هو الربط بين چورج واشنطن وموسى، كما لاحظنا من قبل. وثمة مثال على الإشارة إلى مثال جدعون يرجع تاريخه إلى ما قبل معركة كنجز ماونتين فى بلو ريدج ماونتينز فى جنوب كارولينا سنة ١٧٨٠م عندما قام الوطنيون المحليون، وهم قوة تتألف أساسًا من البرسبيتاريان جُردت ضد البريطانيين، تم جمعهم قبل المعركة بخطبة ألقاها القسيس المحلى بلغت ذروتها بصيحة الحرب الكرومويلية القديمة «سيف الرب وسيف جدعون» التى رددها الجميع بحماسة جنونية. ومن نافلة القول أن نقول إنهم كسبوا المعركة، ومثل معركة مارستون مور كانت تلك علامة البداية لنهاية الملكيين. وكما كان معتادًا فى التنميط الپروتستانتى ما أن يتم تحديد نمط عتيق من الكتاب المقدس، فإن الرب يفترض أنه يريد أن تجرى الأحداث بنفس الطريقة ويمكن طلب مساعدته، ولا شك فى أن أولئك الذين عرفوا أن الرب بجانبهم كانوا يستخدمون سيوفهم بمثل هذه الحمية العظيمة.

كانت نهاية معركة كينجز ماونتين واحدة من أكثر القصص وحشية فى حرب متوحشة، وهناك واحد من الناجين من الموالين، نقل عنه روبرت هارفى فى كتابه A Few Bloody Noses قد أخبر أحد زملائه كيف أنه بينما كان الجبليون يمرون عليه كان يتظاهر بالموت ولكنه كان قادرًا على ملاحظة وجوههم وعيونهم بشكل واضح؛ وبالنسبة له كان هؤلاء المحاربون بالبنادق الجسورون الشجعان يظهرون مثل شياطين عديدة من الأقاليم الجهنمية؛ تملأهم الإثارة وهم يندفعون فوق الجبال مثل الأسود» . أما البريطانيون (أى أولئك الأمريكيون الموالون للتاج أساسًا) فلم يلبثوا أن استسلموا، ولكن كثيرين منهم قتلوا على الرغم من ذلك، انتقاما من

http://almaktabeh.com

المذبحة البريطانية التى جرت فى وقت سابق من الحملة . وبقى ميدان المعركة تتناثر فيه جثث الموتى والجرحى الذين مات منهم كثيرون نتيجة الإهمال أو سوء العلاج ، وتم شنق تسعة من الموالين . ومات كثيرون من السبعمائة أسير عند مسيرتهم صوب الشمال فيما بعد . أما الجنرال كورنواليس القائد البريطاني العام ، فأدرك أن عدد الأمريكيين الموالين للتاج والمنضمين إلى قواته يتناقص ، وأن الوحشية التى مورست ضد الأسرى الموالين بعد معركة كينجز ماونتين هى أحد الأسباب الرئيسية فى ذلك ، بيد أن سلوك الموالين تجاه الوطنيين لو أنهم كسبوا المعركة لم يكن ليفضل هذا السلوك بالضرورة ، فهذه هى طبيعة الحرب الأهلية . وكان فيرجسون قائد الموالين قد أصدر بالفعل إعلانا يهدد بشنق الزعماء الوطنيين وأن «يضع البلاد طعاما للنار والسيف» .

وثمة لاهوت لتاريخ الخلاص يكشف عن نفسه بوضوح فى سفر القضاة ، وهو يوضح نموذجا في العلاقة بين الرب والشعب المختار يحدث مرات ومرات فى العهد القديم وفى قصة الشعبين المختارين الجديدين فى انجلترا وأمريكا ، وهو نموذج دورى إلى حد كبير عن الصحة الروحية الضائعة ، والتى يتم استرجاعها بحيث يمكن للمرء أن يضعها تحت لافتة «أعراض الشعب المختار» و«نموذج الشعب المختار» .

إما أن يبقى شعب العهد مخلصين ومطيعين للرب ، وإما يتوجب عليهم أن يعانوا عواقب عصيانهم ، والتى يمكن أن تكون من خلال فعل متعمد أو بمجرد عدم الاهتمام بالحفاظ على وعود العهد . فالطاعة تجلب السلام والرخاء ؛ ويؤدى هذا بدوره إلى التراخى التدريجى ، وعدم الإخلاص فى نهاية الأمر ؛ وتضعف الجماعة فى وحدتها ونسيجها الأخلاقى ، ومن ثم فى قدرتها على مقاومة العدوان . وإذ يتم غزو الجماعة واضطهادها على أيدى الأعداء الوثنيين - أى غير المختارين - تستعيد الجماعة وضعها وتدرك أسباب متاعبها . ولهذا تتوب الجماعة وترجع إلى ممارسات الدين الحقيقى وتستعيد القوة على المقاومة وتحرر نفسها ، وتتوازى مع هذه الدورة الإنسانية دورة الرب . فحين يرى شعبه متراخيا أولا ، ثم غير مخلص ، يسحب بالتدريج حمايته ويسمح للأشياء السيئة بأن تحدث ، وبصورة مباشرة أو من خلال أحد الأنبياء من فترة لأخرى ، يرسل لهم مفاتيح ما جرى بطريق الخطأ حتى يفهموا

http://almaktabeh.com

الرسالة. وبينما يرجعون إلى الإخلاص يسامحهم ويساعدهم على الإطاحة بأعدائهم مرة أخرى؛ وبذلك يعيدون الموقف إلى بداية الدورة (التى ما تلبث أن تبدأ إن عاجلا أو آجلا).

ويتحدث ساكفان بيركوفيتش فى «The Puritan Origins of the American Self» عن انجلترا فى القرن السابع عشر، ويصفها على النحو التالى:

«ألم يكن الإنجليز مثل العبرانيين الذين ذكرهم الكتاب المقدس، قد جمعهم الرب لهدف أرضى، بشرط أن يلتزموا بسلوك شرعى؟ وألم يحمل هذا التواصل دور انجلترا الخاص، بدون التجنى على حقوق للمختارين؟ إن إسرائيل الروحية كان لابد أن ترث المملكة: وكان بوسع إسرائيل الإنجليزية أن تزيح العقبات من طريق عودة المسيح. لقد كان حقا أن الإسرائيليين فشلوا فى عهدهم؛ بموت نحميا تخلى المتدين عن مكانه للنفاق، وبمرور الوقت انتقم الرب انتقامًا عادلاً لنفسه؛ لأنهم أخلوا بوعودهم. بيد أن هذا لم يكن سببا لأن نفترض أن سفينة انجلترا القابلة للهلاك سوف تتبع مسار سفينة العبرانيين المؤدى للغرق. وعلى العكس فإن السابقة طوقتهم بطوق مزدوج للنجاح: باعتبارها تذكرة لفوائد الطاعة وتحذيرا من مغبة عدم الوفاء بالتزاماتهم. فإذا ما عاش الإنجليز ملتزمين بدورهم فى الصفقة، فإن الرب سوف يمنحهم الحماية الدنيوية، والقوة والامتياز الذى أسبغه من قبل على العبرانيين. وأكثر من ذلك، فإنه سوف يجعلهم سيفه ذا الحدين ضد تنين روما، وأداته فى التقدم السياسى والكنسى تجاه الألفية».

وقد تم تبنى هذا النموذج باعتباره تحذيراً تنميطيًا يصف الطريقة التى سوف تسلكها المجتمعات البروتستانتية ـ الذين يلعبون دورهم باعتبارهم شعب الرب الجديد ـ إذا ما صاروا هم أيضا متراخين وغير مخلصين. والأمر ليس بهذا الوضوح فى التنميط الكاثوليكى حيث يوجد افتراض راسخ منذ زمن طويل بأن الكنيسة لا يمكن أن تقع فى الخطيئة (على الرغم من أن الزعماء والأعضاء الأفراد فى الكنيسة يمكن أن يخطئوا).

كان الخوف من فقدان محاباة الرب حقيقيا بين المستوطنين البيوريتان الأوائل فى نيوإنجلاند الذين كانت فرصهم فى النجاة ضئيلة على الدوام.

http://almaktabeh.com

وكان حتميا أن تسبب تطورات الحياة الاستعمارية توسيع الفجوة الثقافية بين انجلترا وأمريكا اللتين افتقرتا بصورة متزايدة إلى إحساس بالهوية المشتركة والمصير المشترك. ومع هذا كان ما يزال ممكنا الإيمان بشعب مختار أنجلو سكسونى واحد معرض لمحاباة الرب وغضبه. وكان ما يزال يمكن تطبيق التنميط البروتستانتى على هذا الكيان المشترك.

وقد أنهت الحرب الثورية بالضرورة هذا الإحساس الأنجلو-أمريكى المشترك نهاية مفاجئة. وكان الافتراض الأمريكى أن الاختيار قد انتقل إليهم من بريطانيا؛ بسبب انتهاكها الميثاق الإلهى بالسقوط فى هاوية الطغيان، ومنذ ذلك الحين فصاعداً كانت هذه المكانة الفريدة من حق أمريكا وحدها. ولكن البريطانيين كانوا يرون العكس. فقد كانت خسارة المستعمرات الأمريكية عقابا أنزله الرب على شعبه المختار، جزاء سلوكهم غير القويم. وقد دعاهم نبى-يدعى وليم ويلبرفورس-لكى يقوموا بتعديلات لكى يستعيدوا حب الرب. وكان لهذا أن يتم بإلغاء الرق. وإذا كانت أمريكا قد استمرت فى ممارسة الرق على حين حرمته بريطانيا فمن سيكون إذن الطاغية بين الأمم؟

وكان توماس چيفرسون قد حاول أن يضمن تطوير تجارة الرقيق كواحدة من التهم الموجهة ضد چورچ الثالث فى إعلان الاستقلال، وقد ضمّن فقرة اتهمت الملك «بشن حرب قاسية ضد الطبيعة البشرية نفسها، وانتهك أكثر حقوقها قداسة فى الحياة والحرية فى أشخاص ينتمون لشعب بعيد لم يحدث أبدا أن أساء إليه بأسرهم وحملهم إلى رق العبودية فى نصف الكرة الأرضية الآخر». وتم إسقاطها من الوثيقة النهائية نتيجة الضغط من جانب مزيج من ملاك العبيد الجنوبيين والتجار الشماليين، ولم يصدر أى حكم حول الملكية الفعلية للعبيد. فقد كان چيفرسون نفسه من ملاك العبيد.

وكان أول طلب بإلغاء تجارة الرقيق هو الذى جمعه الكويكرز البريطانيون وقُدّم إلى البرلمان سنة ١٧٨٣م، وهى السنة التى أنهت فيها معاهدة باريس العداوة بين الإنجليز والأمريكان نهاية رسمية، وجاء الدعم القوى لهذه المطالب من الناس الذين يطلق عليهم اسم الميثوديين، وإلى حد كبير من خلال تأثير چون ويسلى الذين بدأ إدانته للرق فى مقالة عنوانها «Thoughts upon Slavery» فى سنة ١٧٧٤م.

http://almaktabeh.com

ولم يبذل أية محاولة لتناول الموضوع فى مصطلحات الكتاب المقدس مناشدا إحساسا فطريا لدى الإنجليز بالعدالة. كما أنه لم يفعل أى شيء بحقيقة أنه فى الوقت الذى كان يكتب فيه كان قد تم تحويل عدد كبير من العبيد إلى المسيحية (على الرغم من أن موجة التنصير الكبرى بين العبيد لم تكن قد حدثت بعد).

وبحلول سنة ١٧٨٨م - أى بعد ست سنوات من معاهدة السلام التى أنهت الحرب الأمريكية البريطانية رسميا - كانت هناك طلبات أخرى لإلغاء الرقيق تكتب فى جميع أنحاء البلاد. كانت تلك هى السنة التى صدر فيها أول تشريع لتنظيم تجارة الرقيق البريطانية وتقرر ليندا كولى فى كتابها:

«Britons : Forging The Nation 1707 - 1837 .»

«أسهم أيضا فقدان المستعمرات الأمريكية فى تنامى الحماسة للإصلاح البرلمانى والإصلاح الإمبراطورى، والتحرر الدينى، ولإصلاح السجون، ومستشفيات المجانين، والحماسة لأى تغيير يمكن أن يحول دون حدوث إهانة وطنية مماثلة فى المستقبل. ومع هذا فإن الحماسة الجديدة ضد الرق كانت مرتبطة بتجربة الهزيمة بطريقة خاصة. وكما رأينا كان البريتون أسرى إيمان قوى بالعناية الإلهية. ومثلما نسبوا انتصارهم فى الحروب السابقة إلى محاباة الرب للأمة البروتستانتية الرائدة، فقد كثيرون منهم يسعون آنذاك إلى تفسير الهزيمة التى بدت غامضة على أيدى المستعمرين بإخفاقهم أمام عينى الرب. لقد كانوا فاسدين ومتكبرين، كما أنهم شنوا الحرب ضد إخوانهم البروتستانت. وقد استحقوا العقاب الذى نالهم. فى هذه الحالة ظهرت تجارة الرقيق، التى من الواضح تماما أنها تثير تساؤلات كثيرة بالمصطلحات الأخلاقية، كما أنها تجلب المكاسب الدنيوية والرفاهية، أبعد ما تكون عن الضمان».

وقد أعلن أسقف دورهام، الذى كان يؤيد الدعوى الناجحة لإلغاء تجارة الرقيق فى مجلس اللوردات سنة ١٨٠٧م: «لقد كنا شعبا مفضلا لدى السماء أكثر من أية أمة أخرى منذ بداية الزمان، ولكننا يجب أن نعى كيف أننا خسرنا حماية العناية الإلهية بالظلم المستمر».

غامرت بريطانيا بخسارة مساعدة الرب، التى ضمنت لها الانتصارات على

http://almaktabeh.com

الأساطيل الفرنسية عند نهر النيل وفى «الطرف الأغر» كان هذا كلاما خطيرا إذا آمنت به؛ لأن نجاة الوطن تعتمد عليه. وإذا أخفقت بريطانيا فى تحقيق مستوى السلوك المتوقع منها باعتبارها الشعب المختار، فإن الرب كان سيسمح للهزيمة فى الحرب أن تنزل عليها. كما أن ويلبرفورس، الذى صار واحدا من أكثر رجال الكنيسة تأثيرا فى جيله، جادل بأن إلغاء الرق سوف يكون عملا ضروريا للتكفير عن الذنب إذا ما كانت بريطانيا تريد أن تتطهر وتستعيد حماية الرب. وكما تلاحظ كولى: «بالنسبة لهذه الثقافة البروتستانتية المهيمنة، صارت معاداة الرق حقلاً يتسم بصرامة خاصة مع الرب. فإذا ازدهرت بريطانيا العظمى، فمن الواضح إذن أنها يجب أن تحافظ على العمل الطيب». وهكذا صارت معاداة الرق وسيلة وطريقًا لتوضيح أن لقب «الأمة المختارة» كان ما يزال بحوزة بريطانيا، وليست أمريكا، وصارت سببًا لمعاملتها على أنها أدنى من الناحية الأخلاقية.

إنها نقطة جدل حول ما إذا كان ويلبرفورس قد انضم إلى قضية معاداة الرق على يد قبطان بحرى سابق، هو جون نيوتن، أو بطريقة أخرى. إذ كان نيوتن قد مر بتجربة اعتناق المذهب الإنجيلى المميزة - التى تعرف باسم التغيير العظيم - عندما كان مسئولاً عن سفينة لنقل العبيد، وعلى الرغم من أن هذا لم يكن معتادًا بالنسبة للبروتستانت، فإنه قد تأثر أيضا بالكتاب الكاثوليكى الشهير الذى صدر فى القرن الرابع عشر «The Imitation of Christ» الذى ينسب إلى توماس آكمبيس. كان نيوتن هو كاتب الترنيمة الشهيرة «الرحمة المدهشة» التى لعبت دوراً مهمًا ومناسبًا بما فيه الكفاية فى حركة الحقوق المدنية الأمريكية فى ستينيات القرن العشرين. كما كتب كتابًا أدان فيه الرق بعنوان: Thoughts Upon the African Slave Trade واعترف نيوتن بخجله من البؤس والشقاء الذى كان واحدا من الذين تسببوا فيه. وقد كتب صديقه المقرب وليام كاوبير قصيدة عنوانها «شكوى الزنجى» تساءلت بأى حق إلهى استعبد الإنجليز الأفريقيين.

قرر ويلبرفورس، فى الوقت الذى حدث فيه «التغيير العظيم» له أن الرب وضع أمامه هدفين مبكرين «إلغاء تجارة الرقيق وإصلاح السلوك والعادات». وللمساعدة فى تحقيق إصلاح السلوك، أخذ قائمة من القضايا الطيبة الأخرى تتدرج من إصلاح السجون إلى عمل الأطفال، متضمنة إعفاء الكاثوليك من القوانين الجنائية، وهو

http://almaktabeh.com

أمر يبدو غريبا بالنسبة لبروتستانتيه الراسخة. و هو بدوره جند أصدقاءه المقربين فيما يسمى طائفة كلافام. وهم إنجيليون كانوا عادة من أبناء الطبقة العليا أو الطبقة الوسطى. وشنوا سويًا حملتهم فى البرلمان. و فى البداية واجهوا سخرية كبيرة! إذ إن جمعية الأصدقاء (الكويكرز) فى بريطانيا كانت تشن حملاتها ضد تجارة الرقيق منذ سنوات عديدة. ومن بين الأعضاء الإثنى عشر الأصليين فى جمعية إلغاء تجارة الرقيق التى قامت سنة ١٧٨٧م، كان هناك تسعة من الكويكرز. وكان معظم زملاء ويلبرفورس فى مجلس العموم من حزب التورى ضد القيود على تجارة الرقيق، وكان عليه أن يعتمد على الهويج من أمثال تشارلز فوكس، ووليم جرينفيل، وريتشارد شريدان. وكان طلبه الأول لإلغاء الرق الذى قدمه سنة ١٧٩١م، قد لقى هزيمة عندما صوت ضده ١٦٣ مقابل ٨٠ صوتا معه. وقدم طلبات مماثلة عدة مرات مصحوبة بضجة عامة تتزايد باستمرار ـ على شكل اجتماعات، وطلبات ومنشورات ـ للمساندة. وأخيرا كسب أغلبية مجلس العموم سنة ١٨٠٥م، ولكنه هُزم فى مجلس اللوردات. وعلى أية حال فإنه تخطى آخر عقباته سنة ١٨٠٧م.

وفى ذلك الوقت كان جزء كبير من تجارة الرقيق فى أيادى البريطانيين ـ فقد بنيت ثروة موانئ مثل بريستول عليها ـ وكان على الأسطول الملكى وقفها. كانت عقوبة حمل العبيد مائة جنية استرلينى على كل عبد. وعندما كان القباطنة يواجهون مخاطر التفتيش ولكى يقللوا من الغرامات، كان قباطنة سفن العبيد يجبرون العبيد على القفز من السفن حيث يكون مصيرهم الغرق. وكانت الدوريات البحرية لفرض السياسة البريطانية أخذت ضريبة ثقيلة من رجال البحر البريطانيين على مر السنين. وقد زاد هذا من الاهتمام بإلغاء الرق نفسه وليس مجرد حركة نقل الرقيق. وفى البداية لم يوافق ويلبر فورس قائلا «إن منحهم الحرية فى الحال يعنى ضمان تدمير سادتهم وتدميرهم أيضا. يجب تدريبهم وتعليمهم الحرية». بيد أنه فى النهاية انضم إلى الجمعية الجديدة للتخفيف والإلغاء التدريجى للرق. وبعد موته بشهر واحد، فى يوليو سنة ١٨٣٣م، تم تمرير مرسوم إلغاء الرق، ليحرر كل العبيد فى الإمبراطورية البريطانية ـ وهو ما كان يعنى فى سياقه جزر الهند الغربية البريطانية أساسا. واستمر الرق على مدى جيل آخر فى الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة الأمريكية، على الرغم من أن مورد العبيد الجدد قد تم قطعه بصورة فعالة بفضل الإغلاق البريطانى للسواحل الأفريقية.

http://almaktabeh.com

كان دافع ويلبرفورس له جانب خارجي وجانب داخلي. وقد كتب في إحدى مقالاته المنشورة سنة ١٧٩٧م تحت عنوان:

Apractical view of the Prevailing Religion System of proffessed Christions in the Higher and Middle Classes in this Country Contrasted with Real Christianity ».

وأخذ من العهد القديم مبدأ أن مصائر الأمة تعتمد على رضاء الرب، الذي يعتمد بدوره على السلوك بطريقة أخلاقية ودينية إنجيلية مناسبة.

وهكذا كان نجاح الأمة هو السبب الأولى لإصلاح سلوكها. ولكن النجاح كان بيد الرب، وليس بيد الإنسان. وكذلك كان الحال مع الأفراد أيضا. أما دافعه الداخلي فكان هو الذي تعلمه من الحركة الإنجيلية التي بقيت داخل كنيسة انجلترا وحاولت إصلاحها من الداخل. وقد شعر الإنجيليون، بخلاف الكالڤينيين، أنه لايمكن لأي واحد أن يكسب الخلاص، ولكن يمكنهم الاستجابة - بالتغيير العظيم - للنبضة الإلهية (التي تسمى الرحمة). وعلى عكس البيوريتان، كان الإنجيليون أقل ثباتا على العهد القديم وزرعوا إحساسًا بالعلاقة الشخصية مع المسيح. وإذا تم إنقاذهم، فإنهم أظهروا خلاصهم بأعمالهم الطيبة، التي كانت بالتالي استجابة للخلاص، وليس طريقة لتحقيقه. وكان الإنجيليون مثل معظم البروتستانت حتى منتصف القرن العشرين على الأقل، على قناعة ثابتة بأن الكنيسة الكاثوليكية تعلم مذهبا صارما للخلاص بالأعمال؛ وباعتبارهم بروتستانت طيبين كانوا مرتبطين بواجبهم، بالتالي، يستبعدون من أية فكرة دينية أية تكاليف تشير إلى هذا.

كان الإنجيليون، مثل الكالڤينيين واثقين من خلاصهم، ولم يقلقوا بشأنه. وكان كثير منهم يحتفظون بمذكرات يسجلون فيها كل خطيئة مهما كانت ضآلتها، خوفًا من أن تكون علامة على أنهم يرتدون إلى الوراء. وكان العلاج للمختار دائما هو المزيد من التكريس للخدمة العامة. وكانت النتيجة أنهم كانوا ملتزمين ككل «بديانة أعمال» على حين كانوا ينكرون ذلك. وقد أسس ويلبرفورس نفسه أو تزعم جمعيات إنسانية لا تحصى، وحملة ضد الرق، وكان نشطًا لصالح كل هذه القضايا، كما أنه كان يؤمن بأن الرب قد اختاره - وذلك قبل أن يكتب إليه چون

http://almaktabeh.com

ويسلى مؤسس طائفة الميثوديين، خطابا يخبره فيه بهذا، وذلك قبل - بزمن طويل - أن يكتب، والواقع أن خطاب ويسلى كان آخر شيئًا كتبه، وعبر فيه عن تكريسه لقضية محاربة الرق. والسبب فى أن كلا من ويسلى وويلبرفورس قد انتهى بالانضمام إلى كنيسة مختلفة، كان هو أن ويسلى توجه بدعواه إلى الرجل العادى، أما ويلبرفورس فقد توجه بها إلى الخاصة والنخبة. ووفقا لرأى ويلبرفورس فإن المسيحية علّمت الغنى أن يكون متحرراً ومحسنًا، وعلمت الفقير أن يكون متواضعًا ومثابراً وصبوراً. واعتقد أن كل الفروق الإنسانية ستختفى فى العالم الآخر، وليس فى هذا العالم.

ولاغرو أن ويسلى كان له أتباع فى أمريكا. وفى تقدمة قوية لإيمانه فى رعاية الرب، أخبر ويلبرفورس أنه لن ينجح مالم يشأ الرب أن يساعده. وقد أشار إلى مقالة كتبها أحد العتقاء هو جوستافوس ڤاسا، كان قد تم خطفه من أفريقيا، وأخذ إلى بربادوس ثم أحضر إلى انجلترا واعتنق مذهب المسيحية الإنجيلية، وتم إقناعه أن المسيحية والرق لا يتفقان. وفى ذلك الوقت تقريبا كان كتيب عنوانه Treatment and Conversion in The British Sugar Colonies كتبه چيمس رامزى، وترك أثرا هائلا يجادل بأن العبودية تحول دون اعتناق المسيحية. وفى مجادلة من المجادلات التى استخدمتها هاريت بيشر ستو بعد حوالى سبعين سنة، استخدمت بقايا هذه الحجة، وكان رامزى يجادل بأن «الرجال لن يستجيبوا للدروس الخلاص التى يلقيها على مسامعهم أولئك الذى يستعبدونهم على الأرض، أو للدروس عن السماء على حين أنهم محجوزون فى الجحيم».

بيد أن التبرير الأصلى للرق ورد فى الكتاب المقدس، واعتمد المسيحيون عليه على مدى عدة قرون، وهذا يوازن إلى حد ما الزعم بأن المسيحية عموما، والمسيحية الإنجيلية خصوصا يمكن أن تأخذ جدارة أخلاقية كبرى؛ لأنها كانت على رأس حركة لإلغاء الرق، فى كل من بريطانيا وأمريكا. فإذا كانت شرا محاه المسيحيون فإنه بالقدر نفسه كان شرا خلقه المسيحيون ودافعوا عنه. وحقيقة أن كثيرا منهم لم يكونوا إنجيليين، بينما هم مؤمنون صادقون، قد تم تفسيرها بشكل كاف من خلال الحقيقة القائلة بأن المذهب الإنجيلى كان ظاهرة لاحقة نسبيا فى تاريخ البروتستانتية، وحقيقى أيضا أن الإنجيلية باهتمامها الخاص بتجارب اعتناق الكبار

http://almaktabeh.com

لمذهبها كان لها لاهوت لاينحصر المسيحية البروتستانتية فى حدود جنس واحد أو عقيدة واحدة؛ إذ إن القدرية الكالفينية الصارمة - بأن الرب قد قرر سلفا من سيتم خلاصه ومن لن يتم خلاصه - والتأكيد الأنجليكانى على عضوية الكنيسة بفضل كون المرء قد ولد إنجليزيا، لم يكن كلاهما يحبذ فكرة أن أى واحد يمكن أن يتم خلاصه بغض النظر عن جنسه أو لونه أو وطنه. كان الإنجيليون مهتمين بشكل خاص بتصيير الناس أو تحويلهم إلى ملهبهم. وحقيقى أيضا أن عقيدتهم كانت أكثر ارتكازا على العهد الجديد منها على العهد القديم. وتوصف كنيسة العهد الجديد بأنها كنيسة مفتوحة لكل القادمين، على حين كان اعتناق اليهودية أمرا صعبًا وإن لم يكن مستحيلاً، وربما كان الإنجيليون أقل تأثرا بالمجادلات التى قامت على أساس تأييد العهد القديم للرق. وهم كانوا أكثر ميلا إلى رؤية عدم الاستمرارية، بل والتناقضات بين العهد القديم والعهد الجديد أكثر مما يرون فيهما الاستمرارية والاتفاق بينهما - لقد كانوا باختصار إحلاليين بدرجة أكبر. ومع هذا فإنه ليس هناك صراع واضح بين ما قاله العهد القديم عن العبودية وما قاله العهد الجديد. فقد أباحها العهد القديم: أما العهد الجديد فلم يمنعها.

لم يكن تبرير العهد القديم للعبودية مما يمكن أن نسميه اليوم عنصرية، أى أن جنسا يعلو فوق جنس آخر. بيد أن الكالفينية بشكل خاص لجأت إلى العهد القديم على أسس مشابهة، فاقتبست قصة لعنة نوح على كنعان ابن حام بعد أن أهان حام أباه عندما لفت الانتباه إلى عُرْيه. وكان يفترض أن الأجناس السوداء قد انحدرت من نسل حام، على أنه لم يحدث أبدا أن كان هناك أدنى دليل يثبت مثل هذه النظرية، وكان النص الخاص الذى اعتمدوا عليه من سفر التكوين (٩: ٢٥ - ٢٧):

«فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته. وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام. وليكن كنعان عبدا لهم».

هذا النص اعتمد عليه البروتستانت فى أعماق الجنوب فى الولايات المتحدة، ليس فقط لتبرير الرق حينما كان موجوداً، وإنما أيضا لتبرير استمرار خضوع السود حتى بعد أن انتهى الرق، وبذلك يبررون التفرقة العنصرية.

http://almaktabeh.com

وهناك أمثلة متكررة من العهد القديم عن الإسرائيليين المنتصرين وهم يأخذون الأسرى أرقاء وعبيدا، وهي عادة راسخة في العالم القديم. وقد رسم سفر اللاويين قواعد صارمة لأخذ العبيد؛ إذ لا يمكن للإسرائيلي أن يستعبد إسرائيليا آخر سوى بموافقته (لتسوية دين مثلا)، ويكون ذلك حتى السنة اليهودية اليوبيلية التالية فقط، والتي تجيء كل سبع سنوات، ولا يجب بيع مثل هذا العبد لآخر، كما لا يجب معاملته بقسوة، ولكن العبيد يمكن أن يؤخذوا من القبائل الوثنية دونما حدود ويبقى أولادهم وأولاد أولادهم في رق العبودية. ويمكن شراؤهم وبيعهم، ولا تنطبق عليهم قاعدة عدم المعاملة بقسوة. وفي بعض الدول الكاثوليكية في العصور الوسطى، فسر البعض القاعدة الواردة في سفر اللاويين عن تحرير العبد الإسرائيلي في السنة اليوبيلية القادمة بأن العبد الذي يعتنق المسيحية (أي انضم إلى الشعب المختار) ينبغي إطلاق سراحه في الحال. ولا حاجة للقول إن هذا لم يطبق في أمريكا البروتستانتية أو جزر الهند الغربية البريطانية البروتستانتية، وكان أحد الأسباب وراء عدم قدرة العبيد المسيحيين على رؤية سادتهم على أنهم مسيحيون مثلهم. وفي سفر اللاويين (٢٥ : ٣٩-٤٦):

«وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد. كأجير نزيل يكون عندك إلى سنة اليوبيل يخدم عندك. ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته. وإلى ملك آبائه يرجع لأنهم عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر لا يباعون بيع العبيد. لا تتسلط عليه بعنف بل اخش إلهك. وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم. منهم تقتنون عبيدا وإماء، وأيضا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم. منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكا لكم. وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث مُلك. تستعبدونهم إلى الدهر. وأما إخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف».

ويشير سفر الخروج أيضا إلى القاعدة بتحرير العبيد العبرانيين كل سبع سنوات، وهو يوضح مدى ما يمكن أن يذهب إليه المالك من وحشية في معاملة عبيده (غير العبرانيين)، ويعلن مبدأ أن العبد ملك خاص من أملاك سيده: يقول سفر (الخروج ٢١ : ٢٠-٢٧):

http://almaktabeh.com

«وإذا ضرب إنسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده يُنتقم منه . لكن إن بقى يومًا أو يومين لا ينتقم منه لأنه ماله . وإذا تخاصم رجال وصدموا امرأة حبلى فسقط ولدها ولم تحصل أذية يغرم كما يضع عليه زوج المرأة ويدفع عن يد القضاة . وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس . وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برض . وإذا ضرب إنسان عين عبده أو عين أمته فأتلفها يطلقه حرا عوضا عن عينه وإن أسقط سن عبده أو سن أمته يطلقه حرا عوضا عن سنه» .

وكان العهد الجديد أكثر اعتدالا ، ففى رسالة غلاطية يبدو القديس بولس الرسول وكأنه يقترح أنه لا يهم ما إذا كان شخص ما عبدًا ، عندما يعلن :

«ليس يهودى ولا يونانى ليس عبد ولا حر . ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعا واحد فى المسيح يسوع» .

(رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣ : ٢٨) .

وفى رسالته إلى أهل كولوسى (٣ : ٢٢) يؤكد على واجب الطاعة :

«أيها العبيد أطيعوا فى كل شىء سادتكم حسب الجسد لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل ببساطة القلب خائفين الرب» . ولكن هذه التعاليم تلوم مالكى العبيد الذين يتسيدون عبيدهم ، والواقع أنهم يستمتعون بأملاكهم أيًا كانت . وحب التملك والفخر والغطرسة صفات لا تليق بالمسيحى : وفى رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس (٦ : ١ ـ ٧) :

«جميع الذين هم عبيد تحت نير فليحسبوا سادتهم مستحقين كل إكرام لئلا يفترى على اسم الله وتعليمه ، والذين لهم سادة مؤمنون لا يستهينوا بهم لأنهم إخوة ، بل ليخدموهم أكثر لأن الذين يشاركون فى الفائدة هم مؤمنون ومحبوبون . علم وعظ بهذا .

إن كان أحد يعلّم تعليما آخر ولا يوافق كلمات ربنا يسوع المسيح الصحيحة والتعليم الذى هو حسب التقوى ، فقد تصلف وهو لا يفهم شيئا ، بل هو متعلل بمباحثات ومماحكات الكلام التى منها يحصل الحسد و الخصام والافتراء والظنون الردية ومنازعات أناس فاسدى الذهن وعادمى الحق يظنون أن التقوى تجارة . تجنب

http://almaktabeh.com

مثل هؤلاء. وأما التقوى مع القناعة فهى تجارة عظيمة؛ لأننا لم ندخل العالم بشيء وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء».

وفى رسالة بطرس الرسول الأولى (٢ : ١٨ ـ ٢٠) يتخذ بطرس الرسول نفس الخط :

«أيها الخدم كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ليس الصالحين المترفقين فقط، بل للعنفاء أيضا. لأن هذا فضل إن كان أحد من أجل ضمير نحو الله يحتمل أحزانا متألما بالظلم. لأنه أى مجد هو إن كنتم تلطمون مخطئين فتصبرون. بل إن كنتم تتألمون عاملين الخير فتصبرون فهذا فضل عند الله».

وكثيرا ما أكد مؤرخو الرق مزاياه الاقتصادية بالنسبة للأمم التى تقوم بالاسترقاق، لاسيما بالطريقة التى تستخدم العبيد فيها فى زراعة المحاصيل التى تتطلب عملا كثيفًا مثل زراعة قصب السكر، أو الدخان والقطن، بحيث تكون أرباحها عالية، ومن ثم كانت تجارة الرقيق وافرة الأرباح أيضا. **هذا التركيز على اقتصاديات الرق قد حجب الجانب الدينى، الذى ربما كان أكثر أهمية، فقد كان أول ملاك العبيد فى القارة الأمريكية هم الإسبان والبرتغاليين الذين أحسوا أن لهم الحق فى امتلاك العبيد، ليس فقط على أساس من الكتاب المقدس، ولكن لأن ذلك كان يتماشى مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية؛ إذ إن القديس أوغسطين والقديس توماس (الأكوينى) أباحاه، كما أن بعض البابوات ومنهم جريجورى الكبير، كانوا من مالكى العبيد.** ويمكن أن يكون هناك قليل من الشك فى أن الكنيسة الكاثوليكية لو أدانت الممارسة فى البداية لما كان للرق أن يجد له مكانا فى الجزء الكاثوليكى من العالم الجديد، ولما كان سينتشر أيضا فى المستعمرات البروتستانتية فى الشمال، التى لم توافق فى البداية على ممارسات الرق الإسبانية والبرتغالية باعتبارها أمثلة إضافية على الطغيان الكاثوليكى.

وسرعان ما صار استرقاق الأهالى الأصليين، لا سيما من جانب الإسبان قصة من قصص الرعب البروتستانتية، وحسبما يقول إدموند س. مورجان فى كتابه :
«American Slavery, American Freedom»

«انحط قدر الأهالى الأصليين إلى أن يصيروا عينات من العبودية أو الرق

http://almaktabeh.com

وتدهورت أعدادهم بصورة كارثية. وفى مكانهم جلب الإسپان عبيدا من أقاليم أخرى، خصوصا من أفريقيا، وبينما انتشرت القصة فى أرجاء أوروبا فى الصفحات المدهشة للمؤرخ الإسپانى پيتر مارتير، وفى الصفحات المثيرة للراهب الدومينيكانى بارتيلميو دى لاسى كاساس، فإنها أضافت أبعادا جديدة للصورة الأوروپية التقليدية عن القوة الإسپانية».

وأثناء حكم مارى تيودور (مارى الدموية) التى تزوجت من ملك إسپانيا، كان اضطهاد المنشقين وإحراقهم فى انجلترا مرتبطا فى الذهن العام بقسوة الإسپان تجاه الهنود الذين استعبدوهم. وقد استعار چون بونيت، الأسقف السابق لوينشيستر من پيتر مارتير (الذى كان من أوائل الپروتستانت الإيطاليين) قصة العبيد الذين أرغموا على العمل فى التنقيب عن الذهب تحت الشمس الحارقة دونما راحة؛ مما تسبب فى موت الكثير منهم، ولم يكن الإنجليز ليقسون بهذا القدر؛ إذ كان على مارى أن تتذكر أنها تحكم «أمة من الرجال الأحرار وليست من الأرقاء» حسبما حذر بونيت، واستخدم أمثلة من الكتاب المقدس ليبين كيف أن النصوص المقدسة أباحت الإطاحة بالحاكم الطاغية.

وحينما صارت القرصنة ضد السفن الإسپانية وإثارة المتاعب فى الممتلكات الإسپانية هى سياسة الدولة تحت حكم الملكة إليزابيث، فإن قادتها البحريين، والذى كان رئيسهم فرانسيس دريك، أثاروا العصيان بين العبيد الأفريقيين الهاربين والهنود المحررين. بيد أن هذا لم يكن تماما لصالح قضية الحرية ومعاداة الرق بصورة خالصة؛ ذلك أن دريك أيضا كان يتعامل فى الرقيق.

ولم تكن الجهود التى بذلتها الكنيسة الكاثوليكية فى إسپانيا لتحديد القيود على حقوق المالك على العبد فعالة سوى بصورة جزئية؛ ولكنها على الأقل أرست معياراً قياسيا كان يمكن للقساوسة فى أمريكا الوسطى والجنوبية أن يوجعوا ضمائر ملاك العبيد فى مناطقهم الكنسية. وبفضل جهود القسيس الإسپانى الدومينيكانى لاس كاساس، الذى يستحق جائزة كونه أول أوروبى يقدر هول الرق الأفريقى والهندى الأحمر، تغيرت القوانين الإسپانية بحيث لم تعد وضعية العبد وراثية، وعندما صار أسقف خياباس فى جواتيمالا سنة ١٥٤٥م جلب تنظيمات ترفض إجراء الطقوس والأسرار المقدسة لمالكى العبيد الذين لا يستجيبون لها. وإدانته

http://almaktabeh.com

للرق والاستعمار الإسپانى عموما، حظيت ببعض التعاطف من جانب السلطات الإسپانية بما فيهم الملك، ولكنها لقيت مع ذلك اعتراضا من المكائد التى دبرها المستوطنون الإسپان، وكتب تقريراً مسهبًا عن شرور النزعة الاستعمارية التى شاهدها، مع تحذير بأن الرب سوف يعاقب إسپانيا إذا لم تعدل طريقتها. وصار اسمه إلهاما لحركة معاداة الرق مرة أخرى فى القرن التاسع عشر.

وطبقًا لكتاب تاريخ الكنيسة الزنجية The History of Negro Church الذى كتبه كارترج. وودسون، فإن ماريلاند التى كانت فى الأصل ولاية كاثوليكية، كانت هى المستعمرة الأمريكية الوحيدة التى أخذت بجدية واجبها فى التبشير بالإنجيل بين العبيد السود، وقبلت أن النتائج ستكون تحرير الأرقاء الذين يعتنقون المسيحية.

« بعد قدر من المعارضة، واجه شعب تلك المستعمرة اختيار التبشير بالإنجيل للكل بغض النظر عن اللون. وكان أوائل القساوسة والمبشرين العاملين فى ماريلاند يعتبرون أن من واجبهم أن ينوروا العبيد، وأن يجعلوا استعدادهم كافيًا، عندما صارت تعليمات وسطاء الكنيسة أكثر انتظاما للفهم الصحيح لمذهب الكنيسة، وتم تقديم نوع من التعليمات للزنوج المرتبطين بهذه المؤسسات فى التمسك بالعاطفة التى تم التعبير عنها فى القوانين الأولى التى أصدرها الحكام الإسپان والفرنسيون، وفيما بعد فى القانون الأسود الذى يحكم الأرقاء فى المستعمرات التى كان يسيطر عليها اللاتين.

وعلى الرغم من أن موقف الرواد الكاثوليك لم يكن مشجعا بالمرة لحركة تحويل الزنوج إلى المذهب الإنجيلى، فإن المساعدة التى جاءت من البروتستانت المستوطنين فى المستعمرات الإنجليزية كانت أقل.

وقليل من الرواد، إذا كان هناك أحد منهم على الإطلاق، من بريطانيا العظمى هم الذين كانت لهم الروح التبشيرية التى كانت لبعض اللاتين. وإذ كان الإنجليز مهتمين أساسا فى تأسيس أوطان جديدة فى أمريكا، فإنهم ظنوا أن الزنوج ليسوا موضوعا للعمل الخيرى الإنسانى المسيحى، وإنما هم أدوات يمكن بها أن يصلوا إلى هذا الهدف. ومن ثم فإنه ليس غريبا أنه مع تقديم الرق باعتباره عاملاً اقتصاديًا فى تطور المستعمرات الإنجليزية، لم يتم توجيه سوى قدر قليل من الاهتمام

http://almaktabeh.com

لحاجات الزنوج الروحية، وخاصة عندما جابهوا القانون غير المكتوب الذى يقضى بأنه لا يمكن استرقاق المسيحى.

أما فى المستوطنات الشمالية البروتستانتية، لم تكن أى قيود دينية تكبح تجاوزات أى مالك للعبيد، سوى فيما يتعلق باستخدام عبيده للأغراض الجنسية. ومع هذا فإن كثيرا من ملاك الرقيق ممن كانوا مسيحيين بروتستانت أخيارا قد حاولوا بالفعل معاملة عبيدهم بطريقة إنسانية عموما، واستخدام العبيد خدمًا فى المنازل ومربيات للأطفال خاصة؛ أدى فى بعض الأحيان إلى وجود روابط محبة حقيقية بين المالك والمملوك.

والحقيقة أن الأساس الفلسفى للرق، إذا ما تناولناه كفكرة خالصة، ليس خطأ بهذا القدر من الوضوح. فالإمبراطورية العثمانية مثال على مجتمع أمكن فيه للرقيق أن يرتقوا المناصب العليا ويمتلكوا الممتلكات ويتزوجوا ويكونوا عائلات. وكانت بعض ممارسات الرق فى أفريقيا مشابهة، وحتى فى المجتمعات الغربية الحديثة، يمكن إتاحة فرصة العمل أمام المسجونين. والتجنيد فى الجيش الوطنى زمن الحرب نوع من العبودية: إذ إن القوات البريطانية التى صدرت لها الأوامر بحفر الخنادق على الجبهة الغربية سنة ١٩١٦م لم تكن أكثر حرية فى الرفض من عبيد فرعون، كما أنهم كانوا عرضة مثلهم للإعدام إذا رفضوا، والعامل الأجير يبيع عمله بالساعة؛ وليس من الواضح مباشرة لماذا لا يبيع عمله طوال عمره، إذا ما كان يريد ذلك. بيد أن هذه الفلسفة النظرية عن الرق تخفى حقيقة ما حدث بالفعل للملايين الذين تم اختطافهم من العبيد الأفريقيين فى المستعمرات الأوروبية فى العالم الجديد، ثم فى أمريكا المستقلة فيما بعد؛ إذ إنهم لم يكونوا يعاملون بوصفهم بشرا وإنما كالحيوانات، وحيوانات الحمل والجر. ولم يكن عملهم هو المملوك قانونا وإنما وجودهم كله، حياتهم، جسدا وروحا. وحتى الرومان لم يخضعوا عبيدهم لمثل هذا الهوان.

وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا كيف أنه غالبا فى تاريخ الأسطورة الأنجلو - أمريكية عن الشعب المختار يكون الحب البروتستانتى للحرية معارضا للكاثوليكية باعتبارها تجسيدا للطغيان والعبودية، فإن السجل الحقيقى للكنيسة الكاثوليكية فى مسألة العبودية يستحق دراسة أكثر تفصيلا. والحوار الذى جرى فى إسبانيا القرن السادس

http://almaktabeh.com

عشر والقرن السابع عشر حدث فى كل مكان آخر فى العالم الكاثوليكى الأوروبى، مع كثير من المناقشة العقلية عمّا كان وعمّا لم يكن مسموحا به فى طريق الرق. وكانت الخلفية هى حقيقة أنه منذ العصور الإمبراطورية الرومانية لم يختف الرق من منطقة البحر المتوسط، كما أنه مورس على نطاق واسع من جانب الدول الإسلامية. بما فى ذلك الأتراك. ففى العصور الوسطى تم وضع فروق دقيقة بين الطرق المختلفة للرق. وكان أكثر هذه الطرق شيوعا هو الأسر فى المعركة (فقد كان الرق هو المصير المشترك لأسرى الحرب)، وثمة طريقة أخرى تمثلت فى إدانة المرء كمجرم؛ مما كان يؤدى إلى عبوديته مدى الحياة أو لفترة من الزمان. وكان يمكن دفع فدية لأسرى الحرب الأرقاء، بطلب من بلادهم أو من عائلاتهم. وأيًا كانت الطريقة فقد كان يمكن بيع العبيد وشراؤهم، ولكن ثمة تفرقةً وتمييزاً تم فى زمن مبكر بين النخاسة (حيث كانت ملكية العبد مثل ملكية حيوان للنقل) أو الرق المسيحى حيث كان يسمح لمالكى العبيد أن يمتلكوا ويبيعوا عمل العبد، ولكن لا يسمح لهم بقتل العبد أو بتر عضو من أعضاء جسده، أو إيذاء أخلاقه أو أخلاقها (وهو ما كان يمنع العبودية الجنسية).

وكان الملاك الذين يشترون عبدا يؤمرون بأن يتحروا إذا ما كان العبد قد خضع للاسترقاق بطريقة عادلة، أو ظلمًا، حسب المعايير المذكورة من قبل. وطالما أن العبد الذى تم استرقاقه ظلما كان يجب إطلاق سراحه، فإن هذا كان يجعل الملاك يحجمون عن شرائهم. كان الملاك يسمح لهم بشراء العبيد الذين تم استعبادهم ظلما، على أية حال، بشرط إطلاق سراحهم بعد أن يؤدوا أعمالاً تكفى لاستعادة الثمن الذى دفع فى شرائهم، وكانت هناك مناقشات كثيرة حول ما إذا كان العبيد من الهنود الحمر، الأهالى فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية، قد استرقوا بصورة عادلة أم بصورة ظالمة، وهو الأمر الذى اعتمد على ما إذا كانوا قد أسروا فى الحرب، أم تم خطفهم فى غارة قامت بها إحدى العصابات أو المجموعات. وفى الواقع غالبا ما كان يتم تجاهل هذه النظريات الدقيقة، بيد أنها كانت أكثر تحضراً بكثير إذا ما قورنت بممارسات الرق الأنجلو أمريكية فيما بعد. وفى بعض الأحيان كان الفاتيكان يتدخل بقوة لصالح العبيد. فمثلاً فى سنة ١٥٩١م صدر مرسوم بابوى إلى أسقف مانيلا فى الفيليبين حول الموضوع، وحسب ما أورده چون

http://almaktabeh.com

فإن هذا Slavery and The Catholic Church فرانسيس ماكسويل فى كتاب أوضح «أن كثيرا من الإسبان فى جزر الفيليبين قدروا أن عليهم واجبا بعمل تعويض للهنود عن الأضرار والدمار الذى لحق بهم وبممتلكاتهم على أيدى الإسبان. واتباعا لشروط المرسوم الملكى أمر البابا بتحرير كل العبيد الهنود الذين يمتلكهم الإسبان فى الفيليبين وإلا تعرضوا لعقوبة الحرمان الكنسى».

وبعد ذلك بأقل من مائة سنة، أى فى سنة ١٦٨٦م، صار الڤاتيكان مهتما بتجارة الرقيق الأفريقية، وأصدر المكتب المقدس لمحاكم التفتيش تعليمات إلى الكاثوليك الذين ربما يجدون أنفسهم متورطين فيها، ويقرر ماكسويل:

«بصفة عامة يجب على التجار الكاثوليك أن يفرقوا بين الزنوج الذين تم استعبادهم بطريقة عادلة، وأولئك الذين استعبدوا ظلما، والأسر بالقوة أو الخداع ثم ما يتبعه من المتاجرة فى الزنوج الأبرياء المسالمين وغيرهم ممن يعيشون فى أقاليم الغابات، غير قانونى من الناحية الأخلاقية. والتجار الذين يحتجزون مثل هؤلاء الأشخاص الذين تم استرقاقهم بطريقة غير عادلة، عليهم أن يحرروهم ويعوضوهم عن الأضرار التى لحقت بهم. وإذا شك المشترون فى أن المعروضين للبيع قد استعبدوا بصورة ظالمة فإن عليهم أن يستفسروا عن عدالة اللقب الذى يحتجزون بمقتضاه».

وفضلاً عن ذلك أصرت الكنيسة على حقوق العبد الذى تم استعباده ظلمًا فى أن يرفض أن يشتريه مسيحى إذا كان ذلك ضد ضميره. واضطرب هذا التناول الأخلاقى السامى فى مسألة ملكية العبيد عندما تعلق الأمر بتدبر حقوق أبناء العبيد. إذ كان من المسلم به عموما فى داخل الكنيسة الكاثوليكية حتى القرن التاسع عشر أن ابن العبد الذى دخل العبودية بصورة عادلة يمكن امتلاكه أيضا بصورة عادلة إلى مابقى من عمره.

وهذا كله لا يتعلق إلى حد ما بتجارة الرقيق عبر الأطلنطى بطبيعة الحال؛ لأن أحدا لم يكن يتظاهر بشكل جدى أن العبيد المنقولين من أفريقيا لكى يباعوا فى أمريكا تم استعبادهم بشكل عادل كأسرى حرب، أو مجرمين، أو أطفال لعبيد. لقد كانوا رقيقا مثل الممتلكات المنقولة، ليست لهم أية حقوق على أشخاصهم، أو

http://almaktabeh.com

حياتهم، وليست هناك حماية لأخلاقياتهم أو اعتبار لأرواحهم أيًا كان. وبعد إلغاء تجارة الرقيق على أيدى البريطانيين، وافق البابا بيوس السابع على طلب الحكومة البريطانية بمساندة الجهود فى مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥م لاعتبار تجارة الرقيق غير قانونية على المستوى العالمى.

وليست مصادفة أن الرق كان له تاريخ طويل كموضوع مثير للجدل الأخلاقى. إذ كان كثير من المسيحيين الأوائل من الطبقات الأدنى فى الإمبراطورية الرومانية. بل إن المسيحية ذاتها صارت تعرف بأنها ديانة العبيد. ولم يكونوا يعتبرون أن من تعاليم الدين الجديد أن يرفعوا راية العصيان ضد سادتهم. والواقع، أن هذا المثال غالبا ما كان يقدم عندما كان المدافعون عن الرق فى أمريكا الجنوبية يجيبون على الحملة الدينية المتصاعدة لإلغاء الرق فى الشمال، فى السنوات الستين الأولى من القرن التاسع عشر.

ومع هذا فقد خسروا هذه المجادلة، وكان جزء من السبب راجعًا إلى أن أنصار الإلغاء تبنوا حججًا دينية تشبه تلك الحجج التى كانت سائدة فى بريطانيا قبل نصف قرن. ومؤداها أنه إذا كان الشعب المختار لا يتصرف بشكل عادل فإنهم يخاطرون بخسارة رضى الرب، وستكون الأمة حينئذ عرضة للمصائب. فلم تكن العبودية بحد ذاتها ضد إرادة الرب، ولكن ما كان ضد إرادته هو الفقر والقسوة الفعلية التى كانت تصاحبها فى الممارسة التى كانت تصاحب العبودية دائما.

وفى حالة أمريكا، على نحو خاص، اختلط موضوع الرق بمسألة حقوق الملكية. وأية محاولة لرفع نوعية الحياة التى يحياها العبيد بإجبار ملاكهم على أن يسلكوا سلوكا أفضل، كانت تقابل بالشكوى من أن هذا تدخل فى حرية ممارسة حقوق الملكية، وهو نوع من «البقرة المقدسة» كان شائعا بين الملاك فى أمريكا. ونتيجة لهذا التردد فى تنظيم الرق، كان توزيع القوة بين العبد والمالك مختلا لدرجة أن أبشع أنواع الظلم كانت أمورًا حتمية.

ولم يكن هناك كتاب أشد تأثيرًا لصالح أنصار الإلغاء من رواية «كوخ العم توم» التى كتبتها هاريت بيشر ستو ـ والتى حياها إبراهام لنكولن أثناء الحرب الأهلية بوصفها السيدة الصغيرة التى أشعلت هذه الحرب الكبيرة». وقد كتبت آن دوجلاس

http://almaktabeh.com

فى تقديمها لطبعة پنجوين من هذه الرواية : «لم يكتب أحد تقريبا فى أمريكا المعادية للحرب عن الرق فى مصطلحات علمانية ؛ إذ إن المدافعين عن الرق شرحوه باعتباره ضرورة اقتصادية وترتيبًا إلهيًا ؛ وقد أشاروا بفخر إلى كل العبيد الذين تحولوا من الوثنية إلى المسيحية ، بسبب ارتباطهم بسادتهم المسيحيين . وكان كثير من معارضى الرق يعتقدون أنه لعنة على السيد والعبد سواء بسواء» .

كانت رواية هاريت بيشر ستو ، وهى أول رواية تكتبها كاتبة أمريكية على الإطلاق ، قد أثارت ضجة عندما نشرت على حلقات ، وفى النهاية صارت الأفضل مبيعًا فى أمريكا القرن التاسع عشر . ووصف لنكولن لها بأنها السيدة الصغيرة يشى بالمزيد عن موقفه تجاه لجناح الأنثى أكثر من موقفه إزاء حجمها الجسدى أو قامتها . وباستثناء السيناريوهات المتوقعة عن الحب الرومانسى وتضحية المرأة بنفسها ، لم يكن متوقعًا من الكاتبات النساء فى أمريكا أن يخضن فى موضوعات خطيرة ، على الرغم من أنه على مدى أكثر من قرن كانت النسوة على قمة الفضاء الأدبى فى انجلترا (مع أنه فى حالة أعظم كاتبة بينهن ، وهى مارى آن إيفانز ، كانت تكتب تحت اسم مستعار ذكورى هو چورچ إليوت) . ومع هذا فإن رواية ستو العاطفية عن الرق والحرية كان لها تأثير كبير بالقدر الذى جعلها تحفز المشاعر فى الشمال بحيث ترفص اتفاق ١٨٥٠ م ، ليس فقط بسبب الشرط الوارد فيه بأن العبيد الذين يفرون إلى الشمال تجب إعادتهم إلى أسيادهم . ولم تكن ستو تعترض على الرق بالمعنى الأخلاقى السائد اليوم . ولم تتحدث عن حقوق الإنسان . وفى تناولها لشخصية رئيسية فى الرواية ، وهو العبد چورچ هاريس ، حسبما تشرح آن دوجلاس :

«ما كان يهم ستو أكثر فى چورچ هاريس لم يكن ما إذا كان أو لم يكن له حق الهرب (ومن الواضح أنها كانت تؤمن أن من حقه أن يهرب) أو حتى إذا ما كان ينبغى له أن يعود إلى أفريقيا أم لا . أما ما كان يشغلها أكثر فهو إذا كان الظلم الذى ناله بهذا القدر من العنف ، سيجعل من المستحيل عليه أن يؤمن بأى شكل بالرب الذى يؤمن به أسياده نظريًا ، وإذا ما رفض المسيحية فما هو الشىء الذى سيعيش من أجله وكيف؟ . لأن أكبر تهمة وجهتها ستو ضد الرق هى أنه سوف يقتل الروح داخل العبيد . . . .» .

لقد كان اهتمامها اهتمام مبشر وقس ، وليس اهتمام أحد المشاركين فى حملة

http://almaktabeh.com

من أجل الحقوق المدنية. ولكن أيضا، بمعنى دينى، أنها وطنية أمريكية. وهى فى الصفحة الختامية من روايتها تنحى جانبا ما تتفق عليه الروايات الخيالية فى منتصف القرن التاسع عشر وتعتلى منبر الوعظ. إذ كانت تؤمن، كما تقول دوجلاس؛ بأن الرب سوف يوقع العقاب جزاء الرق على أساس من النص الوارد فى إنجيل متى (١٨ : ٧):

«ويل للعالم من العثرات. فلابد أن تأتى العثرات. ولكن ويل لذلك الإنسان الذى به تأتى العثرة».

وبسبب كل ما تحمله رواية «كوخ العم توم» من أهمية سياسية، فلا غرابة فى أنه صار من الشائع، حسب النقد الأسود الحديث، استبعاد هذه الرواية باعتبارها صورة مهينة للناس السود. وبالنسبة لدى بوا، الكاتب الأسود المشهور ومؤسس الرابطة الوطنية لتقدم الملونين، كان الضرر الذى سببته الروحية السوداء الخانعة ضرراً أساسيا.

«هذه الجبرية الدينية العميقة، التى تم تصويرها بصورة جميلة للغاية فى رواية العم توم، سرعان ما صارت، مثل كل العقائد القدرية، تربى الشهوانى مثلما تربى الشهيد. وفى ظل الحياة الأخلاقية المسترخية فى المزرعة، حيث الزواج أضحوكة، والكسل فضيلة، والملكية سرقة، كان من السهل أن تؤدى إلى ديانة قوامها الانسحاب والخضوع، وفى العقول الأقل نشاطًا إلى فلسفة للتساهل والجريمة. وكثير من أسوأ خصائص الجماهير الزنجية اليوم كانت بذرتها فى تلك الفترة التى شهدت النمو الأخلاقى للعبد. هنا حدث تخريب للوطن تحت ظل الكنيسة...».

هذا الاعتراض يركز اهتمامه على شخصية توم نفسه، الذى صورته الرواية مؤدبا، مثل الأطفال مطيعًا وسلبيًا، بل حتى مستكين فى وجه تجاوزات القوة والظلم. وفى نهاية الكتاب، وهو يموت ألما بعد جلده جلدًا مبرحًا بالسياط، يسامح توم مالكه الأبيض ومعذبه، ويرى المسيح فى رؤيا. ويفترض النقاد السود المحدثون أن ستو تحث هذه الروح التسامحية عند السود حينذاك والآن - التسامح حتى قبل أن يقبل البيض الاعتراف بأنهم فعلوا شيئا يستحق التسامح.

وتقترح آن دوجلاس أن هذا لم يكن قصدها، على الرغم من أنها ربما لا تعطى

http://almaktabeh.com

وزنًا كاملاً للمغزى اللاهوتى لمقاربة ستو؛ إذ إنها تعمل داخل منظومة أخلاقية كالفينيه لكى تصور العبد توم فى صورة واحد من المقدر لهم أن يكونوا من المختارين، أو قديس (بالمصطلحات الكالفينية) الذى يضمن مكانه فى السماء. وحضور المسيح عند فراش موته ربما لم يكن يعنى شيئًا سوى هذا. وكانت فكرة أن السود يمكن أن يكونوا بين الشعب المختار بحد ذاتها نقطة قوية ضد العنصرية، وتحدت الافتراض الشائع بين الكالفينيين الشماليين بأن العهد الذى عقده الرب كان مع الجنس الأبيض وحده. كان هذا موضوعًا حيًا: ففى سنة ١٨٥٧م وفى قضية دريد سكوت الشهيرة حكمت المحكمة العليا بأنه لا العبيد ولا السود الأحرار يمكن أن يكونوا مواطنين أمريكيين. كانت واعية ـ وقالت هذا فى كتابها ـ أن العنصرية فى الشمال كانت جزءًا من مشكلة العدل إزاء السود فى أمريكا، مثلما كانت العبودية جزءًا من المشكلة فى الجنوب تمامًا. واقتربت ستو من القول بأن توم كان شبيهها بالمسيح، بيد أن هذا كان أقرب إلى الفهم الكاثوليكى للقداسة ـ وهو نوع من التمميط لم تكن بروتستانتية مثل هذه الكاتبة على ألفة به.

كانت الطريقة التى مات بها المسيح على الصليب (حسب الاعتقاد المسيحى) تتسم بالخضوع، والطاعة لمصيره، والتسامح إزاء من حكموا عليه وأعدموه. ومنذ ذلك الحين واجه كثير من الشهداء المسيحيين الموت فى عملية تقليد للمسيح، محاولين أن يخلقوا فى أذهانهم من جديد الحالة الذهنية والروحية التى أظهرها المسيح ـ أى القبول بقدر ومصير لا يمكن تغييره. ولكن لم يكن من المفترض أبدًا أن هذا يعنى أنه كانت هناك طريقة واحدة فقط للموت تناسب الفرد المسيحى. وأولئك الذين انتقدوا ستو، على أساس أن تصويرها لموت توم كان فى واقع الأمر بمثابة نصح لكل السود العبيد بأن يعيشوا ويموتوا بطريقة سلبية ومتسامحة مثل هذه الطريقة التى مات بها توم ـ أولئك أساءوا فهم اللاهوت الذى كتبته. «لقد مات توم حتى يمكن للآخرين أن يعيشوا»؛ لأنه رفض أن يخون أصدقاءه. وكان من حق ستو أن تجادل بأنه من المسموح للمسيحيين فى ظروف أخرى ألا يموتوا لمثل هذا السبب، وإنما يمكن لهم أن يقتلوا لسبب مثل هذا. فالغضب الحق ليس ضد المسيحية. وبعبارة أخرى، فإن هذا ليس دفاعًا عن المسالمة أو الخضوع فى مواجهة الشر كشر.

http://almaktabeh.com

ومع هذا فإن الغموض الذى يعترى السرد - وهو الذى أتاح لناقديها الفرصة - كان من فعلها، ولم تقل ما يكفى لتبديده. وأجيال من السود كانوا يتلقون النصح حتى من زعمائهم ورعاتهم الكنسيين بعدم التمرد ضد المعاملة السيئة، على حين أن المقاومة المحسوبة لهذا، ربما كانت خدمتهم بصورة أفضل على المدى الطويل. ولذا فإن الميراث الدائم لرواية ستو لم يكن الاعتراف العالمى بإسهامها الفريد فى إنهاء الرق، وإنما تمثل فى الاستخدام المحط «للعم ترم» باعتباره نمطًا للأسود الخانع المؤدب المتسامح، والذى يفتقر إلى الشجاعة أساسًا، والذى هو ضحية للرق، وهو نوع من النموذج تعلم المجتمع الأسود فى أمريكا أن يحتقروه وهم محقون فى هذا تمامًا. وسيحتاج هذا إلى مزيد من الدراسة حينما نتدبر التجربة السوداء الحقيقية فى النضال ضد العنصرية والعبودية، بدلاً من تخيل البيض لها، ولاسيما التنميط القوى والمحرك للجماعة السوداء الأمريكية، باعتبارها صورة أخرى من شعب الله المختار. ولم تكن الصورة المفضلة صورة العم توم «الخادم الذى يعانى»؛ وإنما كانت صورة العبيد السود كقبيلة بيعت فى رق العبودية تحتاج إلى واحد منهم يقودها خارج مصر إلى الأرض الموعودة.

وكانت ستو غافلة عن هذا كله؛ إذ إنها طعمت قصتها بتحذير رصين إلى أمريكا البيضاء - التى كانت ما تزال هى شعب الله المختار فى عينيها - من مصيرها المحتمل، فى مصطلحات تتوقع بشكل مدهش، بل هى نبوءة فى الواقع، بالحرب الأهلية المرعبة التى وقعت بعد أقل من عقد من الزمان:

«هذا زمن ترتعش فيه الأمم وترتج. وثمة تأثير عظيم فى الخارج؛ مما أدى إلى إثارة العالم ودفعه، مثلما يحدث فى الزلزال. وهل أمريكا آمنة؟ وكل أمة تحمل فى صدرها ظلمًا كبيرًا، فى داخلها عناصر هذا الارتجاج الأخير».

يا كنيسة المسيح، إقرئى علامات الأزمنة! أو ليست هذه القوة هى روح الرب الذى لم تأت مملكته بعد، والذى ستنفذ مشيئته على الأرض كما هى فى السماء؟.

ومن يثبت عند ظهوره. لأنه مثل نار المحمص... وأكون شاهدًا سريعًا على السحرة والفاسقين وعلى الحالفين زورًا وعلى السالبين أجرة الأجير، الأرملة

http://almaktabeh.com

واليتيم. . . « . . . لأنه هو ذا البعداء عنك يبيدون»[*] «أو ليست هذه كلمات مرعبة لأمة تحمل فى صدرها مثل هذا الظلم الفادح؟ أيها المسيحيون، فى كل مرة تصلون فيها لكى تأتى مملكة المسيح، هل يمكنكم أن تنسوا أن النبوءة تربط يوم الحساب بيوم خلاص الرب على نحو رهيب؟

ومع هذا فإن أمامنا يومًا مهلة يعرضه الرب علينا. إذ إن كلا من الشمال والجنوب قد أذنبا أمام الرب؛ وعلى الكنيسة المسيحية أسئلة كثيرة تستوجب الإجابة، ليس بالاندماج سويًا لحماية الظلم والقسوة، ويعمل رأس مال مشترك من الخطيئة، يمكن إنقاذ هذه الأمة - وإنما بالتوبة، والعدل والرحمة؛ لأن القانون الخالد الذى يجعل حجر الطاحونة يغوص فى المحيط ليس مؤكدًا أكثر من القانون الأقوى القائل بأن الظلم والقسوة يجلبان على الأمم غضب الرب العظيم!».

كانت اقتباساتها من النصوص المقدسة مأخوذة من سفر النبى ملاخى، واستكملت بعبارة من المزمور الثالث والسبعين. ولكى نقدم السياق الذى لابد وأن قراءها البروتستانت كانوا سيدركونه فى الحال، يستحق الأمر منا أن نقدمه هنا كاملاً. وهذا على أية حال، إذا كان الرئيس لنكولن محقًا، هو النص الرئيسى فى الكتاب الذى تسبب فى نشوب الحرب التى ألغت الرق. وفى هذه النسخة الموسعة، يصبح الاقتباس من سفر ملاخى واضحًا كتهديد من الرب بأن يدمر أمة تخون التزامها بالميثاق. وفى بلد كانت تعتبر الحماية الخاصة من الرب بمثابة مفتاح لماضيها وحاضرها، فإن هذا يكون تحذيرًا وخيمًا بقدر ما هو ممكن الوقوع. ونبوءة ستو بالعقاب الإلهى الوشيك كانت أيضا ستعزز من تردد الشمال فى القبول بمطالب الجنوب فى الاستقلال، حينما صارت خلافاتهما بشأن الرق غير قابلة للتسوية. و«ترك الجنوب يذهب» ربما كان سيحل المأزق السياسى، ولكنه لم يكن ليؤجل حكم الرب. وبالمثل، ففى هذا الضوء يمكن تفسير القتال «لإنقاذ الاتحاد» ليس كمجرد محاولة لمنع انقسام الولايات المتحدة إلى قسمين. فقد كان أيضا قتالاً لإنقاذ

(*) هذا نص مركب من عبارات سفر ملاخى الإصحاح الثالث، والمزمور ٧٣ استخدمته كاتبة النص الذى أورده المؤلف بصورة تضمينية فى كتابها. ورأيت أن أثبته هكذا دون تصرف حتى لا يفسد النص - المترجم.

http://almaktabeh.com

الاتحاد من غضب الرب - أى الخلاص بالمعنى الدينى الصارم . ففى المزمور الثانى والسبعين (١ - ٤) :

«اللهم أعط أحكامك للملك وبِّرك لابن الملك . يدين شعبك بالعدل ومساكينك بالحق . تحمل الجبال سلامًا للشعب والآكام بالبر . يقضى لمساكين الشعب . يخلّص بنى البائسين ويسحق الظالم» .

وفى ملاخى (٣ : ١ - ٧) :

«ها أنذا أرسل ملاكى فيهىء الطريق أمامى ويأتى بغتة إلى هيكله السيد الذى تطلبونه وملاك العهد الذى تسرون به هو ذا يأتى قال رب الجنود . ومن يحتمل يوم مجيئه ومن يثبت عند ظهوره . لأنه مثل نار المحمص ومثل أشنان القصّار . فيجلس ممحصًا ومنقيًا للفضة فينقى بنى لاوى ويصفيهم كالذهب والفضة ليكونوا مقربين للرب تقدمة بالبر . فتكون تقدمة يهوذا وأورشليم مرضية للرب كما فى أيام القدم وكما فى السنين القديمة . واقترب إليكم للحكم وأكون شاهدًا سريعًا على السحرة وعلى الفاسقين وعلى الحالفين زورًا وعلى السالبين أجرة الأجير الأرملة واليتيم ومن يصد الغريب ولا يخشانى قال رب الجنود . لأنى أنا الرب لا أتغير فأنتم يا بنى يعقوب لم تفنوا .

من أيام آبائكم حدتم عن فرائضى ولم تحفظوها . ارجعوا إلىّ أرجع إليكم قال رب الجنود . فقلتم بماذا نرجع» .

وجاء فى سفر ملاخى (٤ : ١ - ٦) :

«فهو ذا يأتى اليوم المتقد كالتنور وكل المستكبرين وكل فاعلى الشر يكونون قشًا ويحرقهم اليوم الآتى قال رب الجنود فلا يبقى لهم أصلاً ولا فرعًا .

ولكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها فتخرجون وتنشأون كعجول الصيرة . وتدوسون الأشرار لأنهم يكونون رمادًا تحت بطون أقدامكم يوم أفعل هذا قال رب الجنود :

اذكروا شريعة موسى عبدى التى أمرته بها فى حوريب على كل إسرائيل الفرائض والأحكام .

http://almaktabeh.com

«أننا أرسل إليكم إيليا النبى قبل مجىء يوم الرب العظيم والمخوف فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم لئلا آتى وأضرب الأرض بلعن».

وإذا ما استبعدنا الكتب المعروفة بالأبوكريفا(*)، فإن هذه الكلمات التى أوردها سفر ملاخى فى الإصحاح الرابع هى آخر كلمات العهد القديم. وبطبيعة الحال كانت ستو تتكلم من داخل تراث كان غائصًا فى الكتاب المقدس؛ إذ إنها، بل والأهم أولئك الذين قرأوا كتابها، كانوا يعيشون جميعا أثناء فترة من التوقعات الدينية العالية ارتبطت بالصحوة الدينية الكبرى الثانية، وهى حركة إحيائية اجتاحت أمريكا من نيوإنجلاند فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد تطور شكلها الرئيسى إلى ظاهرة اجتماع المعسكر، أى تجمع الأهالى المحليين حول مبشر رَحّال تحتوى مواعظه وخطبه على الكثير من الكلام عن نيران الجحيم والترانيم الجذابة. وقد أدت اجتماعات المعسكر والحميمة الإحيائية التى نتجت عنها إلى تنصير كثير من العبيد للمرة الأولى، وكان التحسن الأخلاقى الذى بدا من تداعيات هذا، قد راق فى عيون ملاك العبيد المحليين. وكتبت ستو أن العم توم نفسه قد اعتنق المسيحية فى أحد اجتماعات المعسكر. وقد نشرت الصحوة الثانية المذهب الإنجيلى من طراز نيوإنجلاند فى الجنوب والغرب الأوسط، وهى المناطق التى عرفت فيما بعد باسم «حزام الكتاب المقدس». وأحدى النتائج الجانبية للمناخ الدينى بالغ السخونة الذى انتجته الصحوة الثانية تمثل فى ظهور أنواع من التبشير الطائفى الصارم لدى عدة طوائف تعتمد على القراءة الألفية، بل وشديدة الحرفية للكتاب المقدس. وكان أكثرهم تمايزاً طائفة المورمون بكتابهم المقدس الخاص (سفر المورمون) وأعادوا إحياء الممارسة الإسرائيلية القديمة فى تعدد الزوجات. ولم يكونوا هم الوحيدين الذين أصروا على أن خلاص العالم سوف يأتى من خلال الجنس الأنجلو-سكسونى «المختار».

كذلك أعطت الصحوة الثانية قوة دافعة لحركة إلغاء الرق، على الرغم من أن بعض المؤرخين يرى بأن بعض آثارها كانت آخذة فى الشحوب فى وقت عقد اتفاقى

(*) هى الأسفار التى لم يعترف بأنها ضمن أسفار الكتاب المقدس، وكلمة أبوكريفا تعنى المزيفة أو المزورة. وقد استبعدت المجامع الكنسية هذه الأسفار فى زمن باكر - المترجم.

http://almaktabeh.com

سنة ١٨٥٠م. وقد شعرت ستو نفسها بأنها بحاجة إلى أن تبدأ من جديد، وكان هذا هو السبب فى أنها ألفت روايتها. بيد أن تأثيراً أشد ثباتًا وأطول استمرارًا جاء عن طريق غير مباشر بنفس القدر. وتمامًا مثلما قيل إن الصحوة الأولى قد شجعت المثل الجمهورية فى السنوات التى سبقت حرب الاستقلال، كذلك فإن الصحوة الثانية اعتبرت وكأنها أرست بعض الأسس الأيديولوجية التى أدت إلى الحرب الأهلية. وكما لاحظنا بالفعل، هناك توتر داخل المسيحية، سواء البروتستانتية أو الكاثوليكية، بين الخلاص باعتباره أملاً وإنجازًا للجماعة المسيحية بأسرها- بحيث يتم خلاص الأفراد لكونهم أعضاء فى هذه الجماعة- والخلاص باعتباره مسألة فردية، خارج الجماعة، بل حتى على الرغم منها. ويتمثل الخطر الروحى للشكل الأول فى أن الأفراد يخضعون لإغراء التساهل، تاركين مسألة الخلاص لعمل الجماعة. وكانت الصحوة الكبرى الثانية موجهة إلى السبات الروحى الجماعى المزعوم الذى انغمس فيه الناس، ودعتهم إلى أن يستيقظوا فرادى، ولا ينتظروا الجماعة من حولهم. وصار هذا التأكيد على الفردية، نتيجة الصحوة الثانية وانتصار الشمال البروتستانتى، علامة ثابتة من معالم الشخصية الأمريكية. بيد أنها لم تتطور إلى معارضة لفكرة أن الشعب الأمريكى، باعتباره جماعة مسيحية، له خصوصية فى نظر الرب، حسبما كان متوقعًا؛ إذ إن رفع الفرد قد حمل الجماعة بأسرها إلى أعلى معه.

بيد أن هذه مرة أخرى هى بالضبط رؤية العهد القديم. فقد كان الوعد الممنوح من خلال إبراهيم وعداً جماعيًا، كما أن الإنقاذ الذى تم تأمينه من خلال موسى كان إنقاذًا جماعيًا. وفى صوت كاتب المزامير تعنى كلمة ربى بالضبط عبارة رب إسرائيل، ربنا. والحركة ذهابًا وإيابًا بين «أنا» و«نحن»، الفرد والمجموع، هى إحدى خصائص المزامير. والمزمور الخامس خير مثال على ذلك. فهو يفتتح، مثل معظم المزامير، بالمفرد، بالفرد ينادى الرب العظيم طلبًا للمساعدة:

«لكلماتى أصغ يارب. تأمل صراخى. استمع لصوت دعائى يا ملكى وإلهى لأنى إليك أصلى. يارب بالغداة تسمع صوتى. بالغداة أوجه صلاتى نحوك وأنتظر» (مزامير ٥: ١-٣).

http://almaktabeh.com

ولكن هذا المزمور ينتهى فى صيغة الجمع :

«ويفرح جميع المتكلين عليك . إلى الأبد يهتفون وتظللهم . ويبتهج بك محبو اسمك . لأنك أنت تبارك الصدّيق يارب . كأنه بترْس تحيطه بالرضا» (مزامير ٥ : ١١ـ١٢).

ولكن فى نهاية الأمر ، لايمكن التوفيق بين هذين الاتجاهين . ويمكنهما فقط أن يتعايشا فى حال من التوتر ، سواء التوتر الهدام أو التوتر الخلاق . وفى حالة ويلبرفورس وستو ، فإن استقامة الفرد ستؤدى فى النهاية إلى استقامة الجماعة بأسرها . وهناك أيضا أمثله دالة على العكس : حيث نجد أن مصير الجماعة المستقيمة قد تم خذلانه ـ وسحبه إلى أسفل ـ بسبب السلوك المعوج للأفراد . وأحد الأمثلة هو فشل تجربة أوليفر كرومويل فى «الحكومة بواسطة القديسين» ، خلال فترة منتصف القرن السابع عشر للكومنولث الإنجليزى (تسمى أحيانًا الحماية) . فقد أراد كرومويل أن يتوج ثورته الپيوريتانية بتسليم السلطة السيادية إلى مجلس دولة ، أطلق على نفسه فيما بعد اسم البرلمان ، وهو لقب مده ناقدوه فيما بعد إلى ما يسمى Barebones Parliament ، وبما أن الدولة كانت مسيحية ، كان لابد للمجلس أن يكون كذلك . وكان كرومويل قد استدعى حوالى مائتين من أصحاب الاستحقاق ، ممن كان يفترض أنهم يتمتعون بمؤهلات پيوريتانية خالصة النقاء ؛ وخاطبهم سويا . وأخبرهم أن تسلمهم السلطة إنما هو ذروة المهمة التى قام بها .

«وأعلن حقا أن الرب استدعاكم لتحكموا معه ومن أجله . إننى أعترف أننى لم أتطلع أبدًا لأن أرى يومًا مثل هذا ـ وربما لم تتطلعوا أنتم أيضا لرؤيته ـ حين يكون المسيح قريبا كما هو اليوم ، وفى هذا العمل . . . وقد يكون هذا هو الباب الذى يقودنا إلى الأشياء التى وعد بها الرب ، والتى تم التنبؤ بها ، والتى فطر قلوب الناس على أن ينتظروها ويتوقعوها . . . إنكم على حافة التنبؤات والوعود» . ومن الواضح أن كرومويل كان يشعر بأن الوقت قد حان لأن يعلن وصول الألفية ـ أى عودة المسيح (أو المجىء الثانى) وبداية حكمه الذى يمتد ألف سنة . واستقامة الأمة الإنجليزية ، الشعب المختار ، كانت على وشك أن تصير مضمونة إلى الأبد . وكانت النظرية ، بنفس القدر من الوضوح ، أن استقامة الأمة سوف تجعل الشعب مستقيمًا ،

http://almaktabeh.com

مثل الأفراد. (وكلمة مستقيم فى هذا السياق تعنى الأبرار، الذين نالوا الخلاص، تعنى أيضا الطاهرين أخلاقيًا). ولكن النظرية لم تنجح، ولم تصل الألفية، وبدلاً من الجماعة التى تشد الأفراد إلى أعلى، سحب الأفراد الجماعة إلى أسفل. فقد تكررت قصة آدم القديم. وبرزت الفرق والعصب المتنافسة، المحافظون على جانب، والراديكاليون على الجانب الآخر؛ والاقتراحات بإلغاء عشور الكنائس وبوقف الدفع للجيش، لقيت مقاومة قوية من أصحاب المصالح الراسخة. وشعرت طبقة الأعيان أن حقوق الملكية عرضة للخطر. وبعد خمسة شهور تفرق البرلمان - تجربة انجلترا الوحيدة فى حكم دينى كلى - وتم حله. وحكم الألف سنة للمسيح لم يتم تأجيله إلى أجل غير مسمى فقط؛ إذ إن كرومويل تخلى عن الفكرة برمتها تحت وطأة خيبة أمله العميقة.

وبعض مؤرخى المذهب البيوريتانى، ومن بينهم بيركوفيتش وكريستوفر هيل، يتعاملون مع تخلى كرومويل عن الاعتقاد فى أن الأمة الإنجليزية، كما هى، كانت قادرة على أن تصير مملكة المسيح كما لو كان يعنى أن كل الأفكار عن كون انجلترا مختارة، قد طرحت خارج الأجندة منذ ذلك الحين فصاعداً. ويعترف بيركوفيتش بأن إعادة شارل الثانى بعد موت كرومويل تم ربطها، بطريقة تنميطية، بإنقاذ موسى الشعب المختار من عبودية فرعون فى مصر. وهذا على أقل تقدير كان دفعًا للأمور بأكثر مما تحتمل، حتى على الرغم من أن الانعتاق من قبضة البيوريتانية لابد أنه ولد شعوراً بالتحرر آنذاك. بيد أن هذه كانت أنجليكانية الدولة أكثر منها تنميطًا بيوريتانيا - بروتستانتيًا، ولم تكن تحمل المضامين الألفية والمتعلقة بنهاية العالم (حسب سفر الرؤيا) التى كانت تحملها الفكرة فى السابق؛ إذ إن شارل الثانى قاد الشعب المختار من عبودية الاستقامة إلى حرية الانفلات: وهو نوع من الخروج مثير للسخرية حقًا.

* * *

http://almaktabeh.com

http://almaktabeh.com

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة	٥
الأمل والتاريخ والكراهية	٧
أساطير ومزيد من الأساطير	٣٩
جرائم الحرب والعبودية	٦٣

http://almaktabeh.com

http://almaktabeh.com

رقم الإيداع
٣٩٤٠ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977- 09- 0932-7

http://almaktabeh.com

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٢
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٢٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

http://almaktabeh.com

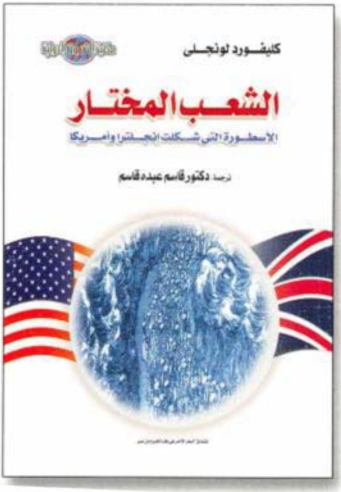

مكتبة الشروق الدولية

http://almaktabeh.com

مكتبة الشروق الدولية

كليفورد لونجلى

الشعب المختار

الأسطورة التى شكلت إنجلترا وأمريكا

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم

الجزء الثالث

"إنشقاق" البحر الأحمر فى وقت الخروج من مصر

http://almaktabeh.com

الشعـــب المخـــتار

الجزء الثالث

http://almaktabeh.com

هذه ترجمة لكتاب

Chosen People

the big idea that shaped England and America

ومؤلفه كليفورد لونجلى

الصادر بالإنجليزية عن دار نشر:

Hodder & Stoughton

فى لندن عام ٢٠٠٢م وأعيد طبعه عام ٢٠٠٣م

الطبعة العربية الأولى

١٤٢٤هـ ـــ نوفمبر ٢٠٠٣م

مكتبة الشروق الدولية

شارع الفتح . أبراج عثمان أمام الميريلاند . روكسى . القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ ـ ٢٥٦٥٩٣٩ ـ تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: shoroukintl @ hotmail. com

shoroukintl @ yahoo.com

http://almaktabeh.com

الشعب المختار

أسطورة الفكر الأنجلو أمريكى

الجزء الثالث

كليفورد لونجلى

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم

مكتبة الشروق الدولية

http://almaktabeh.com

http://almaktabeh.com

مقدمة

أسطورة الشعب المختار

قد لا تكون هناك أسطورة فى تاريخ البشرية لها ذلك التأثير مثل أسطورة «الشعب المختار»..

وبينما تحمل الفكرة معنى تكليفيًا بأن يقوم ذلك «المختار» بتبليغ رسالة إلهية، وضرب النموذج والمثل البشرية، فقد حملها البعض على أنها تفضيل إلهى له، بصرف النظر عما يقول ويفعل، وينظر إلى «الآخر» من علٍ، فهو ذلك «المرفوض» أو «المستبعد».

وسببت تلك الأسطورة عند بعض اليهود تكبّرا على «الآخر» واحتقارًا له واستهانة بحقوقه.. فكان رد فعل ذلك «الآخر» كراهية ونفورًا من الشعوب(*)، مع مصادرة الأموال، بل والأرواح.. تكررت تلك الدورة فى أوروبا عدة مرات على مدى قرون طويلة..

كذلك اعتنق الأنجلوساكسون تلك الأسطورة.. فكانت البروتستانتية هى «المختار» من الكاثوليكية.. وأصبحت الكاثوليكية هى بابل العاهرة.. أو مصر وفرعونها.. ثم انشق البيوريتانز عن انجلترا، فأصبحوا هم إسرائيل «المختار» وانجلترا هى بابل العاهرة، ومصر وفرعونها.. ثم أصبحت الولايات المتحدة ـ فى حرب استقلالها عن بريطانيا ـ هى إسرائيل «المختار» وبريطانيا وملكها بابل العاهرة ومصر وفرعونها.

(*) فى معظم فترات تاريخ اليهود، كانوا على صلات وثيقة بالحكومات فى معظم أنحاء العالم، بينما كانوا فى حالة «الجيتو» مع الشعوب.

http://almaktabeh.com

ونظر الأنجلوساكسون لبقية العالم ـ آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ـ على انهم ذلك «المرفوض»، وعلى «المختار» حمل وعبء «الرجل الأبيض» في تمدين وتحضير ذلك الآخر «المرفوض». وبالطبع كان للمصالح الاقتصادية دورها ودافعها لتبني تلك الأسطورة، خاصة مع ضعف ذلك الآخر ـ آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ـ مقارنة ببقية دول أوروبا..

وبجانب تلك الأسطورة، هناك قناعة عند البعض الأخر في أوروبا وأمريكا بالداروينية الشاملة.. أي البقاء للأصلح، في كل المجالات.. الثقافة، القوة العسكرية، القوة الاقتصادية والمالية...

ويعتنق البعض الثالث ليبرالية انتقائية .. تظهر في مناسبات وتختفي في مناسبات.. تنطبق على البعض، ولا تنطبق على البعض الآخر..

تتنازع تلك الاتجاهات الرئيسية ـ من بين اتجاهات ودوافع اخرى ـ السيادة في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، وبين اليهود.. ونرى حصيلة ذلك في الشرق الأوسط.. أو قل ندفع ثمن ذلك في الشرق الأوسط..

وفي هذا الكتاب.. يستعرض الصحافي الإنجليزي الكاثوليكي «كليفورد لونجلي» تلك الأسطورة التي يرى انها شكلت انجلترا وأمريكا.

وتباع النسخة الإنجليزية من هذا الكتاب ـ الذي طبع مرتين ـ بسبعة جنيهات وتسع وتسعين بنس إنجليزي، أي ما يزيد عن ثمانين جنيهًا مصريًا، وطبعتنا المصرية في أجزائها الثلاثة تباع بـ ٢٧ جنيهًا فقط، أي أكثر قليلا من جنيهين استرليني.

عادل المعلم

http://almaktabeh.com

(٧)

الإمبراطورية والإرسالية والحرب

كانت الظاهرة التى عرفناها بأنها خصائص وأعراض الشعب المختار عاملاً فى التاريخ الإنجليزى بقدر ما كانت عاملاً فى التاريخ الأمريكى. وجنبًا إلى جنب مع التوسع التجارى والعسكرى قدمت قوة رائعة لتأسيس ما سمى فيما بعد بالإمبراطورية البريطانية الثانية؛ إذ كانت الإمبراطورية الأولى هى التى قامت فى أمريكا الشمالية (والتى لم تبق منها سوى كندا ونوفا سكوشيا). كانت القوة الدافعة إلى تأسيس الإمبراطورية الأولى دينية إلى حد كبير - تمثلت فى رغبة البيوريتان فى امتلاك أراض يمكنهم فيها ممارسة معتقداتهم دونما إزعاج - وكذلك كانت الإمبراطورية الثانية وإن كانت أسبابها مختلفة تمامًا. ومثلما حدث مع الإمبراطورية الأولى، اختلطت الدوافع العليا بالدوافع الأدنى، المثالية مع السعى وراء الربح، واللتان أمكن التوفيق بينهما تحت مبدأ «أن الرب يساعد من يساعدون أنفسهم»، أو بمصطلحات أكثر كالفينية: «إن الله يغدق نعمته على أولئك الذين يعملون بإرادته». بيد أن البيوريتان كان لديهم اعتقاد كالفينى بالمصير المقرر سلفًا - أى أن الرب قد قدر سلفًا من سيكونون الشعب المختار الذى سيذهب إلى السماء [أى المكتوب أو المقدّر]. وعلى الرغم من أن الإنجيليين فى القرن الثامن عشر كانت لهم جذور قوية فى المذهب الكالفينى، فإنهم اختلفوا بشكل عام حول هذه النقطة.

وكان المبشر الإنجيلى الذى يمثل النموذج الأصلى هو چورچ هوايتفيلد، وهو قس أنجليكانى وجهت عظاته الصحوة الكبرى الأولى فى كل من انجلترا وأمريكا الشمالية فى منتصف القرن الثامن عشر. وكان متحالفًا بشكل وثيق مع چون

http://almaktabeh.com

وتشارلز ويسلى، وكان اهتمامه الأساسى مثلهما موجهًا إلى التبشير الحماسى بالإنجيل وليس إلى القواعد الكنسية. وقد كسروا القواعد حيثما كانت هناك ضرورة لذلك ـ فقد أدى قرار چون ويسلى بترسيم القساوسة للكنيسة الأمريكية إلى قطيعة محددة مع السلطات الأنجليكانية، وإلى ظهور فرقة منشقة عرفت باسم الميثودية (المنهجية). ويبدو أن أحدًا من الإنجيليين الأوائل لم يتخذ خطًا كالڤينيًا صارمًا يتعدى القدرية؛ وعلى الرغم من أن «هوايتفيلد» سمى نفسه كالڤينيًا، ولم يفعل چون وتشارلز ويسلى ذلك؛ إذ إنهما مالا تجاه الكالڤينية المعدّلة لـ«جاكوبويس أرمينيوس»، الذى كان معاصراً تقريبًا لكالڤن الذى أراد أن يؤكد على دور الإرادة الحرة فى عملية الخلاص.

وكانت الأرمينية فى طريقها لأن تصبح الانشقاق القياسى عن الكالڤينية الصارمة فى المذهب الأنجليكانى فى ذلك الوقت، وكانت بمثابة حل لمعضلة أن القدرية الخالصة بدت وكأنها تدين وتردى إلى الجحيم بكثير جدًا من الناس الذين لم يكن لديهم خيار فى المسألة، وهو ما بدا دعاية سيئة لحب الرب. وكان هوايتفيلد وويسلى والإنجيليون يعتقدون أن الرب يحب كل روح بشرية ويرغب فى خلاص الجميع، وليس مجرد قلة مختارة. وهذا الخلاص يمكن كسبه بالإيمان، والذى يتجلى معظمه فى لحظة معينة من الزمن، وهى لحظة اعتناق الدين، حينما تستجيب الروح بشكل جذرى للتبشير بكلمة الرب. فى هذه اللحظة كانت الروح (كما لو أنها) وُلدت من جديد، أو وُلدت مجددًا على حسب وصفهم هم. وهكذا فإنهم جميعًا وضعوا الأهمية على اجتماعات الصلاة العامة المشحونة عاطفيًا، حيث يكون هناك مبشر بارز يناضل هناك فى تلك اللحظة؛ لكى «يكسب الأرواح من أجل المسيح» بقوة فصاحته. وكان جوناثان إدواردز هو المثال الأمريكى الرائد على هذا النمط، وعلى الرغم من أنه لم يتخل أبدًا عن القدرية بشكل كامل فقد طورها إلى مفهوم أكثر تفاؤلاً. إذ كان إدواردز، بقدر ما كان مبشراً مؤثراً، فيلسوفًا ولاهوتيًا عظيمًا أيضًا، وعيّن رئيسًا لجامعة پرنستون قبل موته بوقت قصير.

وفى زمن الصحوة الأولى كان الفرق بين أرمينية ويسلى المعدّلة وكالڤينية

http://almaktabeh.com

هوايتفيلد وإدواردز المعدّلة قد بات نظريًا أكثر منه عمليًا. وفى كل من الحالتين كانت النظرية هى أن ما يهم هو استجابة الفرد إلى التبشير بكلمة الرب. وسواء كان مقدرًا له أن يقوم بهذه الاستجابة، أو أنه قام بها بدافع من اختياره الحر، فإن ذلك لم يحدث سوى فرق قليل فى المحصلة العملية؛ إذ إنه كان يتقل، أى يتحول، صوب الإيمان. وكانت أهمية هذه الفكرة هائلة؛ لأنها كانت تعنى أن الفرصة للخلاص متاحة لكل واحد. وكانت المسيحية البروتستانتية قد صارت طريقًا عالميًا إلى الخلاص، ولم تعد قاصرة على نخبة مقدرة سلفًا، وكان يمكن التبشير بها فى أوساط «الهنود الحمر المتوحشين»، كما كان يمكن التبشير بها بين العبيد الأفريقيين، ولم يعد الخلاص محفوظًا للرجل الأبيض نظريًا. وفى عملية الخلاص مرّ مفهوم الشعب المختار بثورة، بيد أنها كانت أبطأ كثيرًا مما كان ينبغى لها؛ لأن العادات القديمة ماتت بصعوبة فى هذه المنطقة مثلما يحدث فى أى مجال آخر. والتوسع النظرى لمفهوم الشعب المختار باعتناق المسيحية لم يغير عادة اعتبار الاختيار أساسًا، حقًا محفوظًا للجنس الأبيض.

والواقع أنه، كما حدث غالبًا قبل التاريخ المسيحى، كانت هناك فكرتان متصارعتان، هما فى هذه الحالة القدرية والأرمينية «نسبة إلى جاكوبوس أرمينيوس» تعيشان جنبًا إلى جنب، بل إنهما تتطابقان أحيانًا داخل الشخص نفسه. من الأسهل التعامل مع الناس المنطقيين، ولكنهم غالبًا ما يضمرون أفكارًا لا يمكن التوفيق بينها بصورة تبادلية وبرباطة جأش (ولكنهم لا يتسرعون أبدًا فى توجيه الشكر إلى الشخص الذى يبرز هذا). وفكرة أن «المختارين» يشكلون كل المؤمنين فى جميع أنحاء العالم كانت تتعايش مع الفكرة (التى لا يمكن التوافق معها فنيًا) القائلة بأن المختارين هم الأمة الإنجليزية أو الجنس الأبيض، ولا سيما ذلك الجزء من الجنس الأبيض الذى ينتمى إلى الطبقات الوسطى والعليا. وكان هذا يميل بالحتم تجاه وضعية من الدرجة الأولى و وضعية من الدرجة الثانية بين من ينالهم الخلاص - كان أصحاب الدرجة الأولى أفرادًا مختارين داخل الأمة المختارة. وكان ذلك زمنًا كان فيه التدرج الدقيق فى المكانة الاجتماعية يلقى قبولاً عامًا باعتباره جزءًا من النظام الطبيعى. إذ لم تكن هناك فقط عربات سكك حديدية

http://almaktabeh.com

من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، ولكن معظم الناس كانوا يعرفون بالغريزة أية طبقة تناسبهم، وكان لا يريحهم السفر فى الدرجة الخطأ، سواء كانت عالية أو متدنية بالنسبة لهم. ولهذا كان التميز فى الواقع بين الكنيسة المحلية المنشقة - التى تعنى الخارجين ولا سيما الميثودية - والتى تشغل مكانة اجتماعية أدنى «الكنيسة» التى كانت تعنى الأنجليكان. وفى الدين مثلما هو الحال فى كثير غيرها، كانت المكانة الاجتماعية تقاس ضمنًا فى انجلترا بمدى «المسافة من التاج»، والذى كان من يرتديه، تحديدًا، هو قمة الهرم الطبقى.

لقد كان لا بد لشعب العهد القديم أن يولدوا فيه؛ لكى يكونوا هم الشعب المختار. وكان من الممكن أن يصير المرء يهوديًا إذا ما اعتنق اليهودية، بيد أن ذلك لم يكن أمرًا سهلاً وكان نادرًا للغاية. وفى ظل الانصهار الكامل بين الكنيسة والدولة بعد «هنرى الثامن»، كان كل مواطن إنجليزى يفترض أنه مسيحى أنجليكانى فى عرف قانون البلاد. وفى هذا الصدد لم تكن مكانة غير الإنجليزى واضحة بالمرة. ففى أيرلندا مثلاً، كانت عضوية كنيسة انجلترا - التى أعيدت تسميتها الآن كنيسة أيرلندا - تكاد تكون محصورة تمامًا فى نطاق أولئك الذين ينحدرون من أصول إنجليزية. ولم يخطر أبدًا ببال «كرومويل» أن يحول الكاثوليك فى دروغيدا أو ويكسفورد إلى الأنجليكانية بدلاً من اغتيالهم: فقد كانوا فى نظره مثل الكنعانيين الذين اغتالهم بنو إسرائيل القدماء. وفى كل من ويلز وأيرلندا تم تأسيس الفرع المحلى من كنيسة انجلترا بالقانون، وهو ما كان يعنى أن من واجب كل المواطنين أن يدفعوا الضرائب الكنسية لها - أى العشور - أيًا كانت معتقداتهم الدينية. ولم يحدث فى أيرلندا أو فى ويلز أن كان لكنيسة انجلترا أتباع كثيرون. وتم تأسيس كنيسة أيرلندا سنة ١٨٧١م كجزء من عملية التخفيف عن الكاثوليك، كما كان تأسيس الكنيسة الأنجليكانية فى ويلز سنة ١٩٢٠م كجزء من عملية مشابهة تحاول التخفيف عن المنشقين (والميثوديين بصفة رئيسية). والكنيسة الأبسكوبية الاسكتلندية كنيسة أنجليكانية، ولكنها ليست مؤسسة وليست لها روابط مع كنيسة اسكتلندا وهى كنيسة بريسبتارية (ولكنها مؤسسة).

http://almaktabeh.com

وإلى أن جاء الإنجيليون بمذهبهم البروتستانتى الذى يصلح عالميًا، لم يكن الأنجليكان أو البيوريتان (ولا الأنجليكان البيوريتان فى الواقع) قد أظهروا اهتمامًا كثيرًا فى العمل التبشيرى. والواقع أن عملية تنصير الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية كانت حتى ذلك الحين قاصرة إلى حد كبير على البعثات التبشيرية الفرنسية والإسپانية الكاثوليكية، ولم يكن هناك ما يعادل سلسلة محطات البعثات التبشيرية الكاثوليكية التى كانت تمتد على ساحل كاليفورنيا، والتى أسسها المبشرون الفرنسيسكان الإسپان فى القرن الثامن عشر (ولا تزال ذكراها عالقة فى أسماء سان فرانسيسكو، ولوس أنجلوس، وسكرامنتو، و سان دييجو، وسانتا بربارا، وسانتا كلارا، وسانتا ماريا، وما إلى ذلك).

ولم يكن الاختلاف مجرد مسألة أسلوب أو شخصية؛ إذ إن البروتستانتية ذاتها كانت تمر بثورة شاملة، كانت أصولها متنوعة وغامضة إلى حد ما. وكان التحول فى التركيز من القدرية على الإرادة الحرة مجرد جزء منها فقط، بل إن الأكثر أهمية كان هو التحول من العهد القديم إلى العهد الجديد. ومعها ذهب اهتمام أكبر وتأكيد أكثر على الأهمية الخلاصية للمسيح نفسه. وربما لا تكون مصادفة بحتة أن أول ما ألهم «چون نيوتن» فى اتجاه المسيحية الإنجيلية هى قراءته فى كتاب «Immitation Of Christ» ؛ إذ كان دعوة لقدسية الحياة، وهى دعوة صارت من خصائص المذهب الإنجيلى لا سيما فى شكله الميثودى، ولكنها دعوة خلبت لب ويلبرفورس إلى حد كبير أيضًا. ومع الاهتمام المتجدد بالمسيح تدهور الاهتمام بالعهد القديم، مع تحول تجاه الطريقة الكاثوليكية القديمة التى عرفتها العصور الوسطى، فى قراءة العهد القديم باعتباره نبوءة بقدوم المسيح نفسه، بدلاً من التبشير بالحوادث السياسية فى حياة الأمم.

وتنسب «بربارا توخمان» فى كتابها «Bible and Sword» إلى البيوريتان الإنجليز فضل إرساء أسس اثنين من المبادئ الرئيسية للمجتمع الغربى الحديث، الحكومة البرلمانية والحق فى حرية العبادة. لكن الواقع أكثر ضآلة مما تشير إليه. فقد كان البيوريتان هم الذين شنقوا الكويكرز وجلدوا المعمودبين، وكان

http://almaktabeh.com

«كرومويل» هو الذى أمر رجاله المسلحين بالدخول إلى قاعة البرلمان لحله بالقوة، وهو پيوريتانى فى الأساس! . ونبذ الپيوريتان الرحمة والعفو لصالح الخصائص الأكثر حربية فى العهد القديم: ولكنهم أيضاً مثل الإسرائيليين، حسبما تقول «توخمان»: كانوا يحاربون ضد الأغراب؛ لكى يؤسسوا أسلوبًا جديدًا للحياة. وهى تقتبس من مؤرخ القرن التاسع عشر الاقتصادى «وليم كننجهام» الذى قال فى كتابه «Growth of English Industry and Commerce» سنة ١٨٩٦م إن «الاتجاه العام للپيوريتانية كان نبذ الأخلاق المسيحية وإحلال العادات اليهودية محلها». ويستمر فى القول بأن الپيوريتان اتبعوا «خطاب قانون قديم بدلاً من الثقة فيما ينطق به الضمير الذى توجهه المسيحية . . وكان هناك بالتداعى تراجع إلى نمط أدنى من الأخلاقيات التى أظهرت نفسها فى الوطن وفى خارجه».

وتستمر «توخمان» فى القول: «على الرغم من أن الپيوريتان لم يرفضوا العهد الجديد بأية حال، فإن بعض المتطرفين بينهم يرفضون ألوهية يسوع. وحتى الپيوريتان المعتدلون ضمنوا فى التماسهم الألفى إلى جيمس الأول كأحد مطالبهم ألا يطلب منهم بعد ذلك فى الكنيسة أن ينحنوا عند ذكر المسيح. وفى جهدهم لتطهير الدين من الملابس والطقوس والشعائر وما إلى ذلك، عاد المتطرفون إلى الاعتقاد فى الرب الذى لا يمكن أن يشاركه أحد ألوهيته، وهو نفس الاعتقاد الذى يعبِّر عنه فى المعبد اليهودى: «اسمعى يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد».

كذلك ذكر «ماثيو أرنولد» فى كتابه «Culture and Anarchy»، أن المذهب الپيوريتانى كان إحياءً للروح العبرانية كرد فعل للروح الإغريقية التى حركت النهضة. وكان أثرها الدائم على الأمة الإنجليزية هو «إعطاءها نصيبًا قويًا من ثبات وإصرار وقوة العبرانيين. هذا التحول أوضح نفسه فى المذهب الپيوريتانى، وكان له نصيب كبير فى تشكيل تاريخنا على مدى المائتى سنة الأخيرتين».

وليس هناك شك فى أن العهد القديم مفتوح على القدرية أكثر من العهد الجديد. ولكن كون المرء إسرائيليًا كان يعنى بالضرورة أنه من المقربين إذا ما قورن بواحد من الوثنيين. ويكون المرء إسرائيليًا بالميلاد. ولا يختار المرء أن يولد

http://almaktabeh.com

هكذا، فقد كان ذلك اختياراً لصالحه ولم يكن اختياره. وهنا كان الاعتقاد اليهودى قريبًا من القدرية الكالڤينية. ولم يكن هناك مبشرون يهود، كما كان الذين اعتنقوا اليهودية قلة قليلة. ولكن هناك دائمًا يهود مارقون.

ولكن البروتستانتية الجديدة فيما بعد البيوريتانية، والتى نادى بها هوايتفيلد ونيوتن و ويسلى و ويلبرفورس قدمت إعادة اكتشاف للعهد الجديد. ومعها فكرة المذهب الإنجيلى - أى نشر الكلمة عن طريق التبشير بها، والبحث عن متنصرين جدد أينما يكونوا. وصارت الحدود المغلقة حتى ذلك الحين للشعب المختار مثل خيمة إبراهيم فى الصحراء مفتوحة من كل الجوانب للترحيب بالأغراب. وكان التبشير حتى ذلك الحين يتم أكثر بمصطلحات التحذير من الأشياء المرعبة التى سوف يفعلها الرب إذا لم يحسن الناس سلوكهم. ولم يكن هناك قدر كبير من الحب فيه، أو ما أطلق عليه الإنجيليون المحدَّثون فيما بعد «المتهى».

ومن ثم فإن أهمية المذهب الإنجيلى الذى نادى به هوايتفيلد و ويسلى كانت هائلة بالنسبة لمستقبل الإمبراطورية البريطانية. فبدون إعدادهم، لما كان لـ«ويلبرفورس» وطائفة الكافلام مثل هذا التأثير. لقد كان انتصار الإنجيليين الأنجليكان على الرق فى بداية القرن التاسع عشر هو الذى فتح حقًا أبواب التبشير المغلقة؛ إذ إن منع تجارة الرقيق صار بمثابة نقطة القفز للتوسع الثانى للإمبراطورية. فقد رأى البريطانيون أنفسهم كشعب نبيل بالقدر الذى جعلهم يحرِّمون التجارة فى الرقيق، وأنهم شرفاء بحيث استمروا فى عملية حصار بحرى لهذا الغرض على مدى أربعين سنة أخرى، وأنهم يضحون لدرجة أنهم فعلوا هذين الأمرين على نحو كبدهم نفقات جسيمة، وخلصوا من هذا إلى أنهم مناسبون بالتأكيد لحكم العالم وتعليمه ديانتهم. والواقع أن مثل هذه الكلمات - نبيل، وشريف، ومستعد للتضحية - كانت هى بالضبط الدوافع النابعة من الضمير لأولئك الذين قاموا بالتوسع، واستوطنوا وحكموا الإمبراطورية. وفوق هذا وذاك كان ثمة إحساس بالواجب. وكان الأمر كما لو أن الإنجليز أحسوا بقناعة أنهم محظوظون؛ لأنهم من ذلك الجنس وتلك الأمة التى يدينون لها بدين، وكان هذا الدين كبيراً بحيث لا يمكن

http://almaktabeh.com

الوفاء به مهما فعلوا، على الرغم من أنه تعين عليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم. ولذلك كان الموت فى سبيل القضية لا يعد شيئًا استثنائيًا: فالواقع أن كثيرين منهم تحدثوا عنه كما لو كان امتيازًا.

وحقيقة أن بعضهم أيضًا كوّنوا ثروات كبيرة أثناء العملية، وأنهم كانوا جميعًا على قناعة تامة بالتفوق الإنجليزى ـ دونما جهد ـ على كل جنس آخر. ويقول دافيد إدواردز فى كتابه «Christian England»: «فى النهاية، ساعدت الهيبة التى تحققت بواسطة هذه الانتصارات الأخلاقية الكبيرة ويلبرفورس ورفاقه الإنجيليين على فتح أفريقيا والهند أمام العمل التبشيرى المسيحى، الذى فُهم على أنه نوع آخر من التحرير. وكان عليهم أن يركزوا فى البداية على سيراليون، التى أسسوها سنة ١٧٧٨م مستعمرة على الشاطئ، لمساعدة العبيد العتقاء ـ الذين يواجهون الفقر والإملاق أو الجريمة فى انجلترا ـ على الاستقرار فى أفريقيا كفلاحين وتجار. وكانت المستعمرة الصغيرة حول فريتاون تعانى مصائب عديدة، وتعرضت للتدمير الفعلى على أيدى فرقة عسكرية فرنسية سنة ١٧٩٤م، لكى يعاد بناؤها على يد «زخارى ماكولى» الذى كان على استعداد لأن يمضى خمس سنوات هناك حاكمًا. وبقى الإنجيليون جامدين فى دعمهم حتى حدث أخيرًا سنة ١٨٠٨م أن برهن العمل التبشيرى على أنه دائم وتم تأسيسه ـ ومع استخدام نهر عظيم هو ريو بونجاس ـ وفى السنة نفسها استولى التاج على المستعمرة. وتدريجيًا انتشرت القناعة بأن البيض يدينون بشيء ما «للقارة الداكنة» بعد كل صنوف الرعب التى تسببت فيها تجارة الرقيق، وأن الإنجيل المسيحى كان من بين البركات التى تخص الرجل الأبيض، والتى ينبغى أن يشارك فيها الأفريقيون على الرغم من العنف الذى غالبًا ما يواجههم، وعلى الرغم من المهانة التى خلفتها التجارة فى اللحم البشرى، وعلى الرغم من الأمراض القاتلة بما فيها الملاريا. وهذه البعثة التبشيرية قد زُرعت على التربة الأفريقية أثناء الحرب الكبرى ضد نابوليون».

والإصرار على المثل العليا وراء الجهد الاستعمارى البريطانى فى أفريقيا، تم توضيحه على يد الدكتور «ديفيد ليفينجستون»، أعظم مستكشف وتبشيرى فى

http://almaktabeh.com

زمانه، وهو الذى كان يشارك الإنجيليين تمامًا احتقارهم للرق. فقد كان واحداً من أشهر الرجال فى جيله، وهو مكتشف أعالى النيل، ومكتشف شلالات ڤيكتوريا وهو الذى أطلق عليها هذا الاسم؛ إذ إنه كان رجلاً أحب أفريقيا والأفريقيين وكان محبوبًا فى المقابل. لقد كان يريد أن يدخل بأفريقيا مضمار الحضارة، ولكنه لم يكن يريد غزوها. ولم يكن ليريد لها أن تُستغل وتُستنزف، ومع هذا فإنه كان مسئولاً بصفة رئيسية عن حقيقية أن ذلك كان مصيرها. وقد أعلن فى خطاب له بجامعة كامبريدج سنة ١٨٥٧م: «إننى أتوسل إليكم لتوجيه انتباهكم إلى أفريقيا. إننى أعلم أننى فى غضون سنوات قليلة سوف أكون معزولا فى تلك البلاد المفتوحة الآن، فلا تتركوها لكى تغلق مرة أخرى. إننى أعود إلى أفريقيا لكى أحاول أن أصنع ممراً مفتوحًا للتجارة والمسيحية، فهل ستنجزون العمل الذى بدأته...».

ورحلة ليڤينجستون الاستكشافية كانت مدفوعة بعاطفة لنشر الإنجيل وإنهاء تجارة الرقيق. وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا تربيته الكالڤينية الاسكتلندية الصارمة، فربما تكون كلمة «مُساقة» أقرب لوصف الرحلة. فقد اكتشف بسرعة، بغض النظر عن الإلغاء البريطانى للرق، أن الممارسة كانت منتشرة انتشاراً واسعًا، بل كانت مرضًا مستوطنًا فى الواقع، وقد أطلق عليها وصف «جرح العالم المفتوح». وكان تجار الرقيق عادة من العرب والسواحليين، وكانوا يجمعون حصيلتهم من العبيد باصطيادهم ببساطة(*). كانت بعثة اصطياد الرقيق تقوم بدورة خلال الريف الأفريقى بحيث تأسر من يصلح وتقتل من لا يصلح، ثم يساق العبيد الذين تم القبض عليهم باتجاه الشمال أو إلى ميناء مناسب على الساحل. وفى بعض

(*) هناك دراسات عديدة عن قيام السفن الأوروبية بغارات على سواحل أفريقيا الغربية لخطف العبيد وشحنهم على سفن أوروبية إلى أمريكا الشمالية للعمل فى المزارع لا سيما مزارع الجنوب. ولا يمكن تبرئة تجار الرقيق العرب من دورهم فى منطقة القرن الأفريقى والشواطئ الشرقية للقارة السوداء، ولكن الدور الأكبر لتجارة الرقيق بأعداد ضخمة كان من نصيب الحركة الاستعمارية الأوروبية والأمريكية. ولمن أراد الاستزادة يمكنه قراءة «العبودية فى إفريقيا» تأليف عايدة العزب موسى، مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٣. المترجم.

http://almaktabeh.com

الأحيان لاحظ «ليفينجستون» أن الريف الذى كان يسافر خلاله مع الحمالين العاملين فى خدمته، كان خاليًا بشكل يثير الدهشة، ومن الواضح أنه قد تم إخلاؤه منذ وقت قريب. لأن الناس المحليين قد فرّوا للاختباء فى الغابات، مفترضين أنه لم يكن سوى واحد آخر من صائدى العبيد. أو تقوم قبيلة بالإغارة على أراضى قبيلة أخرى، وتأسر العبيد الذين تكون على استعداد لبيعهم إلى تجار الرقيق حينما يفدون فى المرة التالية. وقد اقتنع «ليفينجستون» بأن الرق لم يكن مجرد لعنة على القارة، فقد كان أيضًا مهمًا من الناحية الاقتصادية باعتباره مصدراً للثروة والدخل. ومن ثم فإن القضاء على تجارة الرقيق يحتاج إلى اقتصاد بديل.

وقد تخيل أن الكلمات الثلاث الإنجليزية التى تبدأ بحرف C وهى التجارة والمسيحية والحضارة «Commerce, Christianity, Civilization»، يمكن أن تكون ذلك البديل. بيد أنه لم يكن بعيد النظر بالقدر الذى يكفى لأن يرى أن التجارة تعنى الاستكشاف والمتاجرة، التى تعنى السيطرة آجلاً أو عاجلاً، وكانت السيطرة بدورها تعنى الغزو. وفى النهاية كانت الطريقة الوحيدة لضمان القضاء على تجارة الرقيق هى جعلها تجارة غير قانونية وفرض القانون. وكان هذا يعنى الاستعمار.

ولكن حتى موت «ليفينجستون» سنة ١٨٧٣م ظلت أفريقيا قارة مغلقة، القارة السوداء، أرض ملؤها صنوف من الرعب لا اسم له ووحوش خرافية. ولكن بدأت هناك فجأة وبصورة غامضة آنذاك ما يسمى «التدافع صوب أفريقيا» (وهى عبارة صُكّت سنة ١٨٨٤م على ما يبدو) عندما قررت كل الأمم الأوروبية الكبرى، فى الوقت نفسه تقريبًا، أن يكون لها نصيبها. ولكن أيا منها لم تكن أكثر اقتناعًا من البريطانيين بمهمتهم الإلهية. وكما يصفها «توماس باكنهام»:

«فى بريطانيا أخذ التدافع صوب أفريقيا بهدوء فى البداية. ثم كان هناك استياء متزايد تجاه المتطفلين. إذ كانت بريطانيا رائدة الاستكشاف والتنصير فى أفريقيا الوسطى، وأحست بأن لها حق ملكية على معظم القارة. وعلاوة على ذلك، كانت هناك مصالح حيوية لبريطانيا فى مهب الخطر. وبوصفها القوة البحرية العظمى

http://almaktabeh.com

الوحيدة، فقد كانت بحاجة إلى منع منافسيها من عرقلة طريق البواخر إلى الشرق عن طريق السويس ورأس الرجاء الصالح. وكان هذا يعنى العمل على كل من طرفى أفريقيا.

وكان فى بريطانيا البروتستانتية، حيث بدا أن الرب وشيطان الجشع قد وجدا ليخدم كل منهما الآخر، إن كلمات ليڤينجستون ضربت أعمق الأوتار. إن الكلمات الثلاث التى تبدأ بحرف C هى التى كانت ستشفى أفريقيا».

ولكن أفريقيا لم تكن كافية، إذ كان الإنجليز يسلطون أنظارهم على الهند منذ زمن طويل. وحتى أواخر القرن الثامن عشر، حسبما يقول «ديڤيد إدواردز»، كان من المفترض أن الإنجليز كانوا فى الهند - ببساطة - لجمع المال. والكلمة الإنجليزية «loot» (ومعناها غنيمة أو سلب) تأتى من الهند. كان الوجود البريطانى فى الهند قد حقق بالفعل لحظات من المجد. ولكن هذا تغير عندما صار جمع المال فى شبه القارة أكثر صعوبة. وشركة الهند الشرقية الإنجليزية، التى كانت بمثابة الحاكم النائب عن بريطانيا، حققت خسائر وبرهنت أنها غير قادرة على المنافسة، وحامت حولها شكوك كثيرة بالفساد (وهو الذى كان الرجال الإنجليز من أصحاب العقول السامية حتى ذلك الحين يظنون أنه نشاط قاصر على الأجانب). وقرب نهاية القرن الثامن عشر - إذ إن المحاكمة استغرقت عقداً من الزمان - كان الحاكم العام على إقليم البنغال، وارين هاستنجز، قد اتهم أمام البرلمان بالفساد، وكان معارضه الرئيسى هو إدموند بوركى أشهر برلمانى فى زمانه. وقد فشل الادّعاء، ولكن فى أثناء المحاكمة تصاعد الاهتمام فى بريطانيا بمستويات الإدارة البريطانية فى الهند (التى تدار عن طريق شركة الهند الشرقية)، وهى الإدارة التى ظهرت بصورة رثة تماماً، ومن ثم فإنه بنهاية القرن كان البريطانيون فى حالة تدعوهم إلى رفع النغمة الأخلاقية فى حضورهم ونفوذهم. وكانت سياسة هاستنجز تقوم على ألا يتدخل فى العادات والثقافات المحلية، على الرغم من أنه كان قد أتاح الفرصة لمن يريدون المقاييس الإنجليزية للعدالة. هذا الرفض المتعمد للرقى العقلى فى الهند سرعان ما واجه تحدياً من الإنجيليين الذين

http://almaktabeh.com

قادهم مرة أخرى «ويلبرفورس» الذى كان الرقى العقلى بالنسبة له يلى الإيمان بالرب. ويكتب «إدواردز»:

«إن الاعتقاد بأن الإنجليز كانوا فى الهند لممارسة وصاية وضعتها العناية الإلهية فى أيديهم بطريقة غامضة بدأ يسود الآن. وقد لقى تشجيعًا كبيرًا من الإنجيليين الذين توغلوا فى حكومة الهند الجديدة. وكان أكثر هؤلاء تأثيرًا هو «تشارلز جرانت»، الذى كان قد توجه إلى الهند سنة ١٧٦٧م ومرّ بتجربة اعتناق المذهب الإنجيلى فى غمرة أحزانه بسبب وفاة ابنتيه الشابتين.. وصار ابنه المدرب جيدًا روبرت حاكمًا على بومباى، والروح التى حكم بها السير روبرت جرانت الهنود تتضح فى كتابته ترنيمة عنوانها: «فلتعبدوا الملك المجيد فى الأعالى»، والمقطعان الأولان منها كما يلى:

فلتعبدوا الملك

المجيد فى الأعالى

ولتنشدوا بامتنان

بقوته وحبه

درعنا وحامينا

قديم الوجود

سرادقه سناء

ويطوقه الثناء

فلتحدثوا عن عظمته

وتغنوا برحمته

فثوبه الضياء

وعرشه الفضاء

http://almaktabeh.com

وعربات غضبه

هى السحابات الرعدية الكثيفة

وممره مظلم

على أجنحة العاصفة

وليس هناك تسجيل لتأثير ذلك على السكان المحليين. وقد سار إداريون كبار آخرون على النهج نفسه؛ فالحاكم العام اللورد «تيجنماوث» «لم يكن يخفى قناعاته الدينية» على حد قول إدواردز. وخليفته اللورد ويلسلى أعلن بوضوح أن انجلترا لها «وصاية مقدسة» تبرر ضم أو «إعلان الحماية» على جزء كبير من شبه القارة الهندية. وفى الوقت نفسه كان التصميم البريطانى على إصلاح المجتمع الهندى والأخلاقيات الهندية قد تزايد؛ بسبب القصص المتداولة عن دعارة المعابد، والمركبة الضخمة التى تسمى چوجرنوت التى كان المؤمنون بالإله كريشنا يلقون بأنفسهم تحتها لتسحقهم، وأنشطة «الثوجيس ـ Thuggees» الذين كانوا يشنقون المسافرين قربانًا للإله «كالى»، وفوق هذا كله عادة «الساتى ـ Sati» المرعبة، أى الطقس الذى تحرق فيه الأرملة حية فى جنازة زوجها الراحل.

كانت هناك صرخة عندما رفضت شركة الهند الشرقية ـ التى كانت هى المسيطرة رسميًا ـ التدخل، على أساس أن هذا التدخل يمكن أن يؤثر على أرباحها. وليست بنا حاجة إلى القول: إن النزعات الإنسانية للإنجيليين تشابكت بطريقة دقيقة مع رغبتهم فى نشر المسيحية الإنجيلية وإحساسهم بالتفوق والسمو على البشر الأدنى منهم. وهذا كله، فى زمن كانت انجلترا تنزلق فيه بعيدًا عن النزعة الدينية السائدة فى عصر الوصاية على العرش، إلى العصر الڤيكتورى الأكثر تطهرًا، والإنجيليون يتربعون فوق القمة فى خيلاء وغرور.

وحتى ذلك الحين، كان نشاط الإرساليات التبشيرية البروتستانتية فى الهند قد تُرك بشكل أساسى إلى اللوثريين الألمان، تشرف عليهم الجمعية الأنجليكانية لتحسين المعرفة الإنجليزية، كما كانت مرتبات القساوسة تدفع من شركة الهند

http://almaktabeh.com

الشرقية. وفيما عدا هذا لم تكن الشركة ترى نفسها رأس معبر مسيحى إلى الهند الهندوسية، كما أن موظفيها لم يكونوا يريدون أن يعظهم أحد بشأن أخلاقياتهم وعاداتهم. وصارت العلاقات الجنسية غير المنتظمة مع البنات المحليات أمراً معتاداً؛ مما أدى على مر الأجيال إلى جمهرة متزايدة من الناس من أصول مختلطة عرقيًا، لم يكونوا يعتبرون هنوداً حقًا ولا إنجليزاً خالصين.

ولكن حينذاك اقتربت سنة ١٨١٣م، حينما حان وقت مراجعة ميثاق شركة الهند الشرقية؛ ورأى الإنجيليون بقيادة «ويلبرفورس» فرصتهم فى ذلك. ويستمر «إدواردز» فى سرد القصة:

«وإذا كان ذلك متوقعاً، قام أحد قساوسة الشركة، وهو كلاوديوس بوشانان، بتكريس نفسه للدعاية لصالح كل من العمل التبشيرى و «مؤسسة كنسية هندية» أكبر كثيراً لتحويل الإنجليز الذين ليس لهم رب، وعندما جاءت سنة ١٨١٣م اغتنم الإنجيليون الفرصة لضمان حق الدخول إلى الهند، ليس فقط للتجار الذين ليسوا أعضاء فى الشركة، وإنما أيضًا للأشخاص الذين يرغبون فى دخولها «بغرض تنوير الهنود وإصلاحهم»... ولكى يقود القساوسة الذين كانت شركة الهند الشرقية ما تزال تعينهم، ولممارسة نفوذ غير محدود على أية بعثات تبشيرية أخرى، كان لا بد من تعيين أسقف فى كلكتا ومعه ميزانية وافية قدرها خمسة آلاف جنيه استرلينى فى السنة، مع ثلاثة من المعاونين».

وقد تم تعديل الميثاق نفسه لكى يعطى الوجود البريطانى فى الهند الغرض الأخلاقى السامى الذى اضطرت الشركة إلى الاعتراف به بإعلانها: «إنه واجب على بلادنا أن تحسّن مصالح وسعادة السكان الوطنيين فى الممتلكات البريطانية بالهند، ومثل هذه الوسائل ينبغى أن تكون مستخدمة بقصد تقديم المعرفة المفيدة والتحسن الدينى والأخلاقى لهم».

وأعلن ويلبرفورس وهو يخاطب مجلس العموم فى جدل حول الميثاق الجديد أن «المسيحية تفترض شخصيتها الحقيقية... عندما تتولى حماية أولئك الفقراء المحرومين الذين تنظر إليهم الفلسفة من عليائها بازدراء». ووعد بأن النشاط

http://almaktabeh.com

التبشيرى مستقبلاً فى الهند لن يحاول أن ينشر الإنجيل بالقوة. «الإجبار والمسيحية؟ لماذا يختلف هذان المصطلحان بالذات كل منهما مع الآخر؟ لأنه لا يمكن التوفيق بين الفكرتين. وفى لغة الإلهام نفسها، تمت تسمية المسيحية قانون الحرية».

هكذا كانت شخصية الإمبراطورية الرومانية الجديدة التى تأسست عند بداية القرن الذى صعدت فيه وازدهرت بحيث وصلت القمة، على حين صارت الهند جوهرة التاج الإمبراطورى. وكان «الراج»، وهو الاسم الذى صارت الإدارة البريطانية فى العهد الفيكتورى تُعرف به، له جاذبية إنجليزية خاصة. وكان هناك استياء، بل وكان هناك فى الواقع عصيان مسلح فى الجيش سنة ١٨٥٧ - ١٨٥٨م عندما بدا أن الإصلاحات الغربية (وبعضها بوحى من المسيحية) قد باتت تشكل خطراً شاملاً على الثقافة الهندية. بيد أن العلاقة كانت لها جوانب إيجابية كثيرة من وجهة النظر الهندية. فقد كان المثقفون الهنود على نحو خاص مشدودين إلى دراسة القانون الإنجليزى. وحقيقة أن الإنجليز كانوا مسيحيين - اسميّاً على الأقل - لم تؤد إلى الانتشار الواسع للديانة، ولكنها كانت تعنى بالفعل أن الإنجليز البروتستانت كانوا مجهزين جيداً للسيطرة على الحلبة فى كثير من النزاعات المختلفة بين القبائل والديانات فى الهند - الهندوس والبوذيين والمسلمين والسيخ واليهود واليانسيين والمسيحيين السوريان وغيرهم - وهى نزاعات كانت دائماً حبلى باحتمالات العنف.

وعلى وجه الإجمال كان المسلمون يفضلون حكومة بريطانية للهند عن حكومة هندوسية، والعكس صحيح تماماً. ومع هذا فإن الحياة فى الهند كانت تبدو وكأنها فقط تشجع فى الإنجليز أنفسهم إحساساً بتفوقهم، وهو إحساس كان يظهر بين الحين والحين فى تجليات عنصرية مشبعة بالاحتقار والازدراء. وكان هذا وثيق الصلة بوعى طبقى متطرف كان يناسب تماماً النظام الطبقى الهندوسى، وهو نظام كان - لأسباب لا علاقة لها بالعنصرية الأوروبية البيضاء - يضع أصحاب البشرة الفاتحة فوق قمة هيراركية دينية واجتماعية، على حين يضع ذوى البشرة الداكنة فى قاعها.

http://almaktabeh.com

والانحيازات التى تسمى الآن عنصرية كان لا بد وأن تبدو لأولئك الذين تمسكوا بها مجرد جزء صحيح من الوعى الطبقى. وكان لا بد للإنجليز فى ذلك الزمان من أن يعتبروا الجنس نظامًا يحل محل الطبقة، وكلاهما لا بد أن يكون محكومًا بالافتراضات عن العرق والدم. وقد أعطى هذا موضوعية ودوامًا للتدرج الطبقى. وكانت تلك صيغة مُعدَّلة من القدرية. فإن يكن المرء «طيب المولد» فهذا يعنى أن يكون مباركًا فى الحياة بشخصية أخلاقية يمكن أن يعترف بها الآخرون ممن نعموا بـ «حسن المولد». ولم يكن الفقراء فقراءً فقط؛ لأن الرب أراد أن تكون لهم هذه المكانة: وإنما ولدوا لكى يكونوا فقراءً، ولم يولدوا لكى يكونوا من الطبقة الراقية. لقد كان ذلك فى دمائهم. (ليس هناك بطبيعة الحال أساس علمى لهذا؛ لأن دماء الطبقة الراقية هى دماء الطبقة الدنيا نفسها). ويحفل الأدب الفيكتورى بأمثلة حيث يتفوق المولد الحسن على النقائض الاجتماعية، وأشهرها رواية «أوليفر تويست» لـ «تشارلز ديكنز». وحتى فى القرن الواحد والعشرين، فإن عدم حب الطبقة العاملة الإنجليزية لأولئك الذين «يتعالون على مكانتهم» لم يختف تمامًا؛ إذ إن الإنجليز ما يزالون يمايزون فيما بين أنفسهم على أساس اللهجة، مثلاً، التى هى أكثر ما ينبئ عن العلامات المميزة للطبقة بطرق عديدة أقوى من الجنس كثيراً. ومفهوم «الدم» إلى جانب مفهوم «الأصل» قد برهنا على أنهما راسخان بدرجة مدهشة، على الرغم من حقيقة أن أى اقتراح بشأن الأساس الحقيقى لهما قد صار منذ زمن طويل مهجوراً.

والجماعات المغتربة تكون محافظة بالضرورة. وكان الإنجليز تحت حكم الراج رجعيين بدرجة خطيرة، كما أن سلوكهم تجاه السكان المحليين - السخرية التى كانوا يكنونها تجاه الهنود «الذين حاولوا أن يكونوا إنجليزًا» كانت لا تصدق - تسبب فى درجة من الاستياء بحيث إنها فى النهاية أطاحت بالإدارة الإنجليزية (الراج) تمامًا. وأحد الأفعال الطائشة الأخيرة - ولكنها ليست الأكثر طيشًا، للغطرسة التى مورست على الجمهور الهندى الذى كان حنقه وجموحه يتصاعدان - كان ذلك الذى أعقب مذبحة أرميستار سنة ١٩١٩م، وقد يصلح تلخيصًا لمواقف البريطانيين طوال عصر الراج، الذى كان قد تحجر آنذاك.

http://almaktabeh.com

إذ إن اضطرابًا وطنيًا خطيرًا فى أرميستار - وهى مدينة فى إقليم البنجاب - استمر عدة أيام عندما قام الچنرال «ماچور داير»، القائد البريطانى المحلى، بإصدار الأوامر إلى قواته بفتح النار على جمهور كبير من المتظاهرين، فقتلوا ما بين خمسمائة وألف شخص، وكان تكتيكه بغرض إظهار الصرامة البريطانية تجاه الهنود المهيجين؛ والواقع أن أساليبه تلك أظهرت الاحتقار البريطانى للهنود بشكل عام. وفى الأحداث التى سبقت هذه المجزرة، كانت مبشرة مسيحية، اسمها «مارشيا شيروود»، كان قد تم توقيفها من جانب جماعة من الغوغاء يصيحون: «اقتلوها، إنها إنجليزية» وأسقطوها من على دراجتها. وعلى الرغم من أن صيحة واحدة من الحشد انطلقت «لا، إنها واحدة من شعب الله المختار تعلم أطفالنا وتؤدى عمل الرب»، فإن الهجمات عليها ازدادت جنونًا بحيث باتت حياتها معرضة للهلاك. وفى نهاية الأمر تم إنقاذها على أيدى الهنود الأصدقاء، وتم إخفاؤها عن الغوغاء، ونقلها بعد الظلام إلى مكان آمن.

وإذ سمع الچنرال «داير» بهذه الإهانة التى لحقت بامرأة إنجليزية بريئة، أعلن أن الحارة التى حدث فيها الهجوم ستكون أرضًا مقدسة. ولكى يفرض على الجماهير الهندية أهمية احترام النساء البيض أمر الحراس البريطانيين - والحراب مثبتة فى بنادقهم - أن يقوموا بدوريات فى الحارة التى وقع فيها الهجوم، ثم أعلن أن أى هندى يريد أن يمر من الحارة - التى كان طولها حوالى مائة وخمسين ياردة - عليه أن يزحف على بطنه فى التراب (وكانت قذرة جدًا مع الكميات الكبيرة من مخلفات الناس). هذه المهانة لحقت بمئات من الهنود الأبرياء، وبينهم عدد ممن ساعدوا على إنقاذ حياة الآنسة «شيروود». وتمت إقامة تصليبة خشبية فى المنتصف، وحوكم ستة من الشباب - ربما كانوا وربما لم يكونوا من الغوغاء الذين هاجموا المرأة - وتم جلدهم علنًا، وصارت حكاية «حارة الزحف» شائعة فى كل أنحاء الهند وجميع أرجاء الدنيا، وكان بسببها وكذلك بسبب إطلاق النار بشكل متهور على المتظاهرين أن أعفى «داير» من منصبه بأوامر من حكومة لندن. وكانت الجمهرة الإنجليزية فى الهند متضامنة فى تأييدها له واستشاطوا غضبًا لطرده، فقد كانوا يظنون أن فكرة «حارة الزحف» فكرة صائبة بشكل فريد.

http://almaktabeh.com

هكذا سخر الراج فى النهاية من حلم ويلبرفورس الإنجيلى بـ «هند» مسيحية إنسانية، وربما كان إخفاق هذا الحلم راجعًا إلى أحد تفاصيل حياة ويلبرفورس نفسه لم يمارس بشأنها النقد الذاتى بشكل كاف - وهو إيمانه بالامتياز والثروة والحسب والنسب - باعتبارها جوانب مقدرة من الرب فى البناء الاجتماعى والطبقى الإنجليزى. ومثلها مثل أى شىء، أدت هذه الرذائل الإنجليزية الكبرى إلى سقوط الراج، مثلما أدت بالفعل إلى تحويل السكان المحليين الوطنيين ضد المستوطنين البيض وحكامهم الاستعماريين فى جميع أنحاء أفريقيا وفى كل مكان آخر. وربما يرضى شعب ذو كبرياء بأن يُحكم، ولكنه لا يرضى أن يكون الثمن الإهانة والتحقير.

ومع هذا فإن الهند جنت الكثير من الوجود البريطانى، وراقت لها اللغة الإنجليزية، وحققت الديموقراطية البرلمانية، وأعجبتها لعبة الكريكيت، كما حققت حكم القانون الذى استمر وازدهر، على الرغم من الصعوبات الهائلة فى بعض الأحيان. وسيكون من المستحيل تحديد «هوية هندية» لم تأخذ فى اعتبارها تمامًا هذا الميراث البريطانى - ولا سيما اللغة الإنجليزية أساسًا - بما فى ذلك التجربة التكوينية المتمثلة فى خلع ذلك النير الاستعمارى فى خضم معركة أخلاقية أساسًا، كسبها الجانب الذى كانت لديه الأسلحة الأفضل. وقد تمت إلى حد كبير دونما إراقة الدماء (على الرغم من أن دماء كثيرة أريقت فى الصراع المرير بين المسلمين والهندوس فى زمن الاستقلال). وإلى حد كبير تخلوا عن (أو كانوا مجبرين على التخلى عن) الملامح الأكثر بربرية فى المجتمع الهندوسى التى كانت جرس إنذار للفيكتوريين الأوائل، مثل حرق الأرامل (الساتى). وعلى الرغم من أن المسيحية كديانة رسمية لم تحقق سوى نجاح قليل، فإن كثيراً من القيم التى استمدها الاستعماريون من المسيحية وطبقوها فى الهند تم استيعابها بنجاح. وكانت المدارس المسيحية ناجحة بشكل خاص فى أوساط الطبقات العليا من الهندوس. وربما كان ويلبرفورس أكثر نجاحًا مما كان يبدو فى البداية؛ إذ إنه أصلح السلوك الهندى. كما أن الديانة الهندوسية - فى الوقت نفسه - قد برهنت مرة أخرى على عبقريتها فى التعلم من الاتصال مع الثقافات والنظم الأخرى، محافظة على أصولها الجوهرية على حين توائم ممارساتها.

http://almaktabeh.com

وكان الاقتناع بأن الحضارة الإنجليزية تسمو فوق أية حضارة أخرى مرتبطًا بشكل وثيق مع فكرة أن الإنجليز هم شعب الله المختار. ففى الشئون الدولية كان لهذا جانبان؛ فقد كانت حالة «إن من يتحدى الرب يتحدى انجلترا» أو حالة «إن من يتحدى انجلترا إنما يتحدى الرب». وكانت الحروب النابوليونية مثالاً صارخًا على الحالة الثانية؛ إذ إن انجلترا وجدت نفسها الأمة القائدة التى لديها نموذج ملكى وأرستقراطى للمجتمع، وهو نموذج رفضه الفرنسيون باعتبار النظام القديم. وكان هدف نابوليون أن ينشر الأفكار الثورية الفرنسية فى جميع أمم أوروبا من خلال النفوذ السياسى، ومن خلال الإرهاب العسكرى ومن خلال الغزو. ولأن الاعتقاد كان سائدًا بأن العناية الإلهية حاسمة فى مثل هذه الأمور، فإنه كان ينبغى لبريطانيا أن يكون الرب فى جانبها لكى تتمكن من هزيمة نابوليون. وقد أحست انجلترا أن عليها واجبًا يقضى بأن تستخدم قوتها العسكرية فى الدفاع عن شكل من الحكومة يعتبره الإنجليز شكلاً قدّره الرب. هذه هى الحجة التى أشرنا إليها من قبل والتى استخدمها أسقف «دورهام» للقضاء على تجارة الرقيق، وكانت تستخدم بانتظام فى سياقات أخرى.

والمبدأ المقابل «إن من يتحدى الرب يتحدى انجلترا» ـ كان أحد العوامل التى تسببت فى نشوب حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦م) التى وضعت بريطانيا وفرنسا والإمبراطورية العثمانية ضد روسيا من أجل السيطرة على موانئ البحر الأسود. وكانت المسألة الرئيسية هى الرغبة الروسية فى أن تصبح حامية الحقوق الدينية للمسيحيين، والأرثوذكس خاصة، من رعايا الدولة العثمانية (المسلمة). وكان هذا يعنى أن روسيا ستكون القوة المهيمنة فى الأراضى المقدسة، وسيكون بمقدورها أن تسيطر على الأماكن المقدسة، والمواقع والمزارات التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس وليس فقط تلك الموجودة فى القدس، وهو ما كان بمثابة إنذار للبريطانيين البروتستانت.

ولأن روسيا كانت تعارض المصالح البريطانية على اتساع العالم، وأيضًا لأن الفكرة الشائعة عنها أنها كانت متخلفة وخاضعة لحكم مستبد، كانت هى البطة

http://almaktabeh.com

السوداء المفضلة لدى الصحافة البريطانية . إذ كان التهديد الروسى بالسيطرة على فلسطين، أو على الأقل تلك الأجزاء والأماكن التى تخص المسيحيين فى فلسطين، يُعتبر تهديداً مباشراً للمصالح البريطانية، التى كانت بداهة بالنسبة للرجل الإنجليزى فى منتصف القرن التاسع عشر، هى مصالح الرب. ومن الغريب أنهم لم يهتموا كثيراً بأن بلداً مسلمًا يحكم فلسطين، كما أن فرنسا، برغم كونها كاثوليكية، كانت مقبولة حارسة للأماكن المقدسة أكثر من روسيا (ولم يكن هذا يعنى أن الإنجليز قد صاروا متساهلين مع المذهب الكاثوليكى، فقد كانوا أبعد ما يكونون عن ذلك) . ولكن البريطانيين كانوا يتوددون بلطف إلى الحكّام العثمانيين، واضعين نصب أعينهم الاستيلاء تدريجيًا على فلسطين (كما كانوا قد استولوا على مصر تدريجيًا) . ولم تكن روسيا جزءاً فى خطة مثل هذه.

ثم حدث فى زمن أقرب إلى العصر الحالى، أن كان الصراع غالبًا ما ينشب بين الطائفتين المسيحيتين اللتين اعتبرتا أنفسهما مسئولتين عن حماية الأماكن المقدسة - الروم الأرثوذكس واللاتين الكاثوليك . واندلعت منازعات كبيرة، على حين كانت المجادلات بشن الأحقية والأسبقية تتحول إلى العنف أحيانًا . وبعض الأماكن ذات القداسة فى الأرض المقدسة مثل الضريح المقدس الذى يقال إن يسوع قد دُفن فيه ما بين الصلب والقيامة كانت تحت إدارة مشتركة، والبعض الآخر مثل كنيسة المهد كانت أرثوذكسية أساسًا، وبعضها كانت تحت السيطرة الكاثوليكية - وكان الرهبان الفرنسيسكان يعينون من قبل البابا . (ومع نهاية القرن التاسع عشر، وبفضل الخرائط البصرية التى أعدها الجنرال جوردون، صار للپروتستانت واحد على الأقل من الأماكن المقدسة التى تخصهم، وهى ما تسمى «مقبرة الحديقة» التى زعم «جوردون» أنه اكتشفها بملاحظة أن أحد الخطوط الكنتورية على خريطة القدس كان يبدو وكأنه على شكل جمجمة . وبحيلة غريبة، صار الجيش البريطانى هو المسئول رسميًا عن وضع خرائط فلسطين تحت الحكم التركى . وإذ كانت تبدو مقبرة أشبه بالكتاب المصور منها بالضريح الواضح، كانت تحظى بشعبية خاصة لدى السائحين الأمريكيين . كان «جوردون» پروتستانتيًا مخلصًا، وكان نجاحه فى الكشف عن «المقبرة الحقيقية»، بالنسبة للإنجيليين فى العصر

http://almaktabeh.com

الفيكتورى، هو الدليل الذى كانوا بحاجة إليه على موافقة الرب عليه وعلى الأمة البريطانية).

وهكذا فإن السماح للروس بأن يتولوا مسئولية الإشراف على فلسطين كان سيشكل تهديداً خطيراً على الرهبان الفرنسيسكان، الذين كان البريطانيون يفضلونهم فى هذه المناسبة. وحسبما تقول بربارا توخمان فى كتابها «Bible and Sword» : «كان النزاع على الأماكن المقدسة الذى تسبب فى حرب القرم من أكثر الأسباب سخافة فى نشوب حرب كبرى على مر التاريخ». ولكن حسبما توضح هى أيضاً، فإنه يدخل ضمن السياق الأكبر للخطط البريطانية طويلة المدى فى فلسطين لكى تساعد على ترحيل اليهود إليها، وهى رغبة بلغت ذروتها فى إعلان بلفور ١٩١٧م والانتداب البريطانى بعد ذلك بوقت غير طويل.

كان وريث التراث الإنجيلى لـ «وليام ويلبرفورس» هو اللورد «شافتسبرى»، المعروف فى الجزء الأول من حياته باسم اللورد «آشلى». وكان واحداً من أكثر السياسيين تأثيراً فى زمانه - وقيل إن الأساقفة كانوا غالباً ما يعينون بناء على مجرد توصية شخصية منه إلى رئيس الوزراء. وشن حملات بلا كلل لمعارضة الحركة الأنجلو- كاثوليكية فى كنيسة انجلترا، بل إنه جعل البرلمان يجرّم بعض الممارسات الطقوسية مثل رسم علامة الصليب، والتى كانت مرتبطة حتى ذلك الحين بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وكانت قناعته بأن الإنجليز هم شعب الله المختار راسخة قوية، كما أنه تأثر بالتصاعد فى التوقعات الألفية - بين الإنجيليين الإنجليز فى الجزء الأخير من العصر الفيكتورى، وهى مزيج حاذق من نبوءات مختلفة مأخوذة من سفر دانيال ورؤيا يوحنا وغيرهما، وكان الشائع على نطاق واسع أنها تحدد شروطاً بعينها ستكون ضرورية قبل حدوث الحادثة الألفية - أى عودة المسيح.

ويرجع اهتمام البروتستانت بتنصير اليهود إلى القرن السابع عشر، حينما قابل المنفيون البيوريتان الإنجليز اليهود فى أمستردام، وتأثروا بإخلاصهم فى أسلوب حياتهم لتعاليم العهد القديم. وتحت حكم «أوليفر كرومويل» تم رفع المرسوم

http://almaktabeh.com

الذى صدر فى العصور الوسطى بمنع اليهود من دخول انجلترا، وشوهدت أول مجموعة صغيرة من اليهود فى لندن. وحتى فى ذلك الوقت، كان أحد الأسباب فى تشجيع اليهود على القدوم إلى انجلترا هو تنصيرهم، وذلك تلبية لأحد الشروط الضرورية للمجىء الثانى المسيح.

وكان «شافتسبرى» يشارك فى هذه الرغبة، بل إنه كان يلبس خاتمًا ذهبيًا منقوشًا عليه كلمات تقول: «صلوا من أجل سلام القدس». ولكنه كان يرى الأمرين ـ عودة اليهود إلى فلسطين، وتحويل اليهود إلى المسيحية ـ يحدثان سويًا. ومن ثم فإن رغبته المضطرمة فى أن تفرض السياسة الخارجية البريطانية عودة اليهود، ودعمه القوى أيضًا لفكرة إقامة أسقفية فى القدس، حيث يمكن لكنيسة انجلترا أن تقوم بتنصير اليهود. كان هذا هو الامتداد المنطقى لجمعية «نشر المسيحية بين اليهود» التى أقامها الإنجيليون فى لندن، والتى يرجع تاريخها إلى زمن «ويلبرفورس».

وتقول «بربارا توخمان» عنه: «مثل كل الرجال الذين تستحوذ عليهم عقيدة مكثفة، أحس اللورد شافتسبرى بلمسة الرب القوى على كتفيه، بأنها توصية بأن يعمل هو شخصيًا من أجل «الحادث العظيم». وبصحبة ڤيكتوريين كبار آخرين لم يساوره الشك أبدًا فى أن الأدوات البشرية يمكن أن تحقق الأغراض الإلهية . . .

فقد كان الشك الذى ميّز القرن الثامن عشر قد أفسح الطريق أمام التدين الڤيكتورى، وعادت عقلانية القرن الثامن عشر تستسلم من جديد أمام الوحى. وكضرورة لازمة لعودة النزعة العبرانية، نجد اللورد «شافتسبرى» يؤيد إقامة إسرائيل... وعندما يرجع المسيحيون إلى سلطة العهد القديم كانوا يجدون أنه يتنبأ بعودة شعبه إلى القدس، ويجدون أن من الواجب عليهم المساعدة فى تحقيق هذه النبوءة».

والواقع أن العهد القديم، والعهد الجديد يتنبآن بهذا. وهكذا، فإن نقطة كون انجلترا الشعب المختار لم تكن تعنى فقط أن لديهم حضارة أسمى وديانة أرقى جعلتهم يشعرون أن من واجبهم أن يشركوا فيها من هم أقل حظًا؛ وإنما كانت أيضًا بالنسبة للإنجيليين الذين كان لهم نفوذهم فى السياسات الإنجليزية، أمرًا لا يقل عن

http://almaktabeh.com

تحقيق نهاية الزمان وبداية حكم الرب. وربما تكون إسرائيل القديمة عصا الخلاص فى الأيّام الباكرة قبل المسيح، بيد أن هذه العصا مودعة الآن فى لندن بالتأكيد.

ترى ماذا كانت تلك النبوءات التى أثرت على الأحداث بمثل هذه القوة؟ إذا ما وضعنا فى اعتبارنا أنها كانت أدوات استخدمت فى إعادة اليهود إلى أرض تسمى الآن إسرائيل من جديد، فإن هذه النبوءات تستحق دراسة أكثر تأنيًا. حتى على الرغم من أن البحوث والدراسات المسيحية الحديثة. خارج نطاق دوائر الأصولية الأمريكية الضيقة التى تستوعب ذاتها.

وكل من العهد القديم والعهد الجديد غنيان فى المادة التى تتنبأ بنهاية العالم، ومن ثم، فإن هناك مزيجًا لا يستهلك من نصوص النبوءات التى يمكن استحضارها سويا للتنبؤ بشىء فى المستقبل. ولا بد أن قرّاء الكتاب المقدس فى القرن التاسع عشر كانوا سيستطيعون أن يميزوا هذه النصوص على الأقل، حتى ولو لم يفهموها تمامًا:

«وفى أيّام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبدًا وملكها لا يُترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك، وهى تثبت إلى الأبد» (دانيال ٢ : ٤٤).

«والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قديسى العلى. ملكوته ملكوت أبدى وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون» (دانيال ٧ : ٢٧).

«وفى ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبنى شعبك ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت، وفى ذلك الوقت ينجى شعبك كل من يوجد مكتوبًا فى السفر. وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدى. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور.

أما أنت يا دانيال فاخف الكلام واختم السفر إلى وقت النهاية. كثيرون يتصفحون والمعرفة تزداد» (دانيال ١٢ : ١-٤).

http://almaktabeh.com

«ويكرز ببشارة الملكوت هذه فى كل المسكونة شهادة لجميع الأمم. ثم يأتى المنتهى، فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس. ليفهم القارئ» (إنجيل متى ٢٤ : ١٤-١٥).

«فإنى لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا هذا السر. لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء. إن القساوة قد حصلت جزئيًا لإسرائيل إلى أن يدخل ملؤ الأمم. وهكذا سيخلص جميع إسرائيل كما هو مكتوب سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب. وهذا هو العهد من قبلى لهم متى نزعت خطاياهم» (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١١ : ٢٥-٢٧).

«وتكون علامات فى الشمس والقمر والنجوم. وعلى الأرض كرب أمم بحيرة. البحر والأمواج تضج. والناس يغشى عليهم من خوف وانتظار ما يأتى على المسكونة؛ لأن قوات السموات تتزعزع. وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتيًا فى سحابة بقوة ومجد كثير. ومتى ابتدأت هذه تكون فانتصبوا وارفعوا رءوسكم لأن نجاتكم تقترب» (إنجيل لوقا ٢١ : ٢٥-٢٨).

«ورأيت ملاكًا نازلاً من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده. فقبض على التنين الحية القديمة الذى هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة وطرحه فى الهاوية وأغلق عليه وختم عليه حتى لا يُضل الأمم فيما بعد حتى تتم الألف سنة وبعد ذلك لا بد أن يحلّ زمانًا يسيراً.

ورأيت عروشًا فجلسوا عليها وأعطوا حكمًا ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة» (رؤيا يوحنا اللاهوتى ٢٠ : ١-٤).

[وهذا هو مصدر كلمة «الألفية» التى لم تكن تشير أصلاً إلى تواريخ بأرقام ذات ثلاثة أصفار، ولكن إلى حكم الألف سنة للمسيح بعد مجيئه الثانى].

وهكذا حشد «شافتسبرى» التأييد لعودة اليهود إلى إسرائيل. وتلخص «بربارا

http://almaktabeh.com

توخمان» طموحاته على أنها كانت من أجل «إسرائيل أنجليكانية تعيد بناءها انجلترا البروتستانتية، وفى ضربة واحدة تزعج البابوية وتحقق النبوءة، وتضمن خلاص البشرية».

وليس هذا إيحاء بأن كل سكان انجلترا كانوا أسرى هذه الفكرة. فالواقع أن شافتسبرى وتابعيه الإنجيليين كان يُنظر إليهم، فى الدوائر الفكرية فى لندن بالتأكيد، على أنهم رجعيون معادون للتقدم بهم مس من الفانتازيا. فمن بين اهتمامات شافتسبرى الإنسانية العديدة كان اهتمامه بإصلاح القوانين الخاصة بالأمراض العقلية، التى كانت تسمى الجنون آنذاك. وكما هو الحال فى مجالات أخرى عديدة للإصلاح استحوذت على اهتمامه العاطفى، نجح فى أن يضفى لمسة إنسانية على التشريع القاسى الأخرق الذى كان يعامل المرضى عقليًا باعتبارهم موضوعات للاحتقار أو للسخرية. وباعتباره الرائد فى هذا المجال، كان رئيس «لجنة الجنون» الرسمية، التى كان مهمتها أن تحدد مَن المجنون ومن السليم عقليًا. وفى أحد الأيام جاءت أمامه حالة امرأة، قيل عنها لإثبات جنونها: إنها تؤيد «جمعية تنصير اليهود»، وردّ عليهم «شافتسبرى»: «هل أنتم مدركون أننى رئيس هذه الجمعية؟». ولا بد أنه كان يعرف أن الإنجيليين الذين كان هو رئيسهم كانوا يعتبرون بشكل عام عصبة سخيفة من المتحمسين. إذ كانوا هم، على أية حال، الذين أعطوا العصر الفيكتورى سمعته فى الحشمة والتطهر، وهم الذين ألهبوا غضب المعادين للدين من أمثال «توماس هكسلى».

وقد عاشت أفكار شافتسبرى عن عودة اليهود بعد موته. وتصف بربارا توخمان فى كتاب «Bible and Sword» كيف أن هذه الأفكار كانت فى خلفية السياسة الخارجية البريطانية فى الشرق الأوسط على مدى جيل، بينما كانت بريطانيا تتلوى وتلتف بطريقتها التقليدية؛ لكى تستخرج شيئًا لنفسها من الصراعات الإقليمية، ولا سيما بين الروس والإمبراطورية العثمانية ولكن مع وجود ألمانيا وفرنسا أيضًا كلاعبين مهمين. وقد كان واضحًا أن نهاية السيطرة العثمانية على مناطق خارج تركيا نفسها ليست بعيدة: لقد كان ينظر إليها بالفعل على أنها «رجل أوروبا

http://almaktabeh.com

المريض». وظهر عدم الاستقرار هذا فرصة، ولكن فرصة لماذا؟ العودة اليهودية إلى فلسطين لم تكن هى النتيجة المحتملة آنذاك. وكان واضحًا أن اليهود أنفسهم لم يكونوا مهتمين بهذا: واليهود البريطانيون على وجه الخصوص لم يعجبهم إعلان بلفور سنة ١٩١٧م وحاولوا إيقافه.

ولكن مجموعة من العوامل كانت قائمة بحيث تجعل منه أمراً معقولاً، وفيها تأييد شافتسبرى، والوقت الذى أمضاه فى إدارة السياسة الخارجية البريطانية بصفته وزير الخارجية فى حكومة دزرائيلى، وهو ما كان عاملاً ذا أهمية كبرى؛ لأنه فى تلك الأثناء كانت معاداة السامية تتصاعد بشكل واضح، ليست فقط بما صحبها من فتن وقلاقل فى روسيا والقلق والاضطراب فى پولندا، حيث كانت الجماعات اليهودية المحافظة تعيش حياة تقليدية تكاد تكون قبلية، ولكن أيضًا فى فرنسا وألمانيا حيث كانت الأفكار اليهودية الأكثر تحرراً عن الذوبان فى المجتمعات كحل لمعاداة السامية موضع اختبار - وتعانى الفشل. وهكذا، كانت قطاعات كبيرة من الرأى فى أوروپا - فالمعادون للسامية فى الكنيسة والدولة، واليهود الليبراليون والتقليديون، والمسيحيون الإنجيليون المتعاطفون مع اليهود، والديپلوماسيون البريطانيون المتطلعون إلى إبعاد روسيا وألمانيا - قد صارت مدركة «للمشكلة اليهودية» بطريقة لم تحدث من قبل.

وفى الوقت نفسه فإن الرأى الدينى اليهودى الذى كان حتى ذلك الحين يأخذ بوجهة النظر القائلة بأن أية عودة إلى الأرض الموعودة إنما هى بيد الرب وحده، بدأ ينفتح على إمكانية تناول النبوءة الخلاصية على أساس مبدأ «افعلها بنفسك». فربما أمكن المساعدة فى تحديد المصير اليهودى بقدر بسيط من التنظيم. ولهذا تم إقناع الحكومة العثمانية بأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين ربما تكون فى صالح الاقتصاد المحلى. ومن كل هذه العوامل، بالإضافة إلى حلم سياسى من لدنهم، بنى مؤسسو الصهيونية حركة سياسية كانت تهدف من ناحية إلى تنظيم ورعاية الاستيطان اليهودى فى فلسطين (عن طريق شراء الأراضى إلى حد كبير)، ومن ناحية أخرى، التطلع إلى بناء وطن يهودى. وعند هذه النقطة كانت الصهيونية

http://almaktabeh.com

حركة علمانية، وكان ذلك راجعاً بدرجة كبيرة إلى أن الرأى الدينى اليهودى كان ما زال يرى «الانتظار اعتماداً على العناية الإلهية». ولذلك لم يكن هناك هدف أيديولوجى واضح للجمع بين الشعب اليهودى المختار والأرض الموعودة لليهود سوى من جانب الجيل التالى لـ «شافتسبرى» من الإنجيليين الذين كانوا يشغلون مناصب عليا فى المؤسسة البريطانية. فقد كانت لهم أجندتهم الخاصة، التى لم تكن يهودية بالمرة بحفز المجىء الثانى للمسيح عن طريق إعادة اليهود إلى إسرائيل وتحويلهم إلى المسيحية. وكانت تلك أجندة لشعب بروتستانتى إنجليزى مختار، ولم تكن لشعب يهودى.

بيد أن الإنجليز لم يكونوا وحدهم؛ إذ إن الجنرال «جان سموتس»، على الرغم من أنه حارب إلى جانب البوير ضد البريطانيين فى جنوب أفريقيا، قد دُعى إلى دمج الإسهامات الإمبراطورية وإسهامات الكومنولث فى المجهود الحربى البريطانى فى الحرب العالمية الأولى، بل إنه صار عضواً فى وزارة الحرب الداخلية المصغرة برئاسة لويد جورج، كان يوجّه الحملة. ومن ثم كان له نفوذ عظيم على القرارات التى تؤثر على السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط، وفى مرحلة ما، دُعى إلى قيادة القوات البريطانية فى المنطقة.

كانت السياسة الوطنية للبوير قائمة على أساس المبادئ الكالفينية الصارمة، وكانت لها صيغتها الخاصة من أسطورة الشعب المختار. ففى ثلاثينيات القرن التاسع عشر انطلق البوير فى مسيرتهم العظمى على الأقدام عبر مئات الأميال فى بلاد ليست لها خارطة ليهربوا من البريطانيين، وعندئذ وفيما بعد رأوا أنفسهم مثل بنى إسرائيل القدماء الذين قادهم موسى هرباً من ظلم فرعون (أى البريطانيين) الذين كانوا محاصرين بالكنعانيين (الأهالى السود) من كل الجوانب حتى وصلوا إلى الأرض الموعودة (الترنسفال).

ويقرر «ديفيد فرومكين» فى كتابه «A peace to End All Peace»:

«وباعتباره من البوير العارفين بالكتاب المقدس، أيد «سموتس» بقوة الفكرة الصهيونية حينما أثيرت فى الوزارة. وحسبما أوضح هو فيما بعد، كان الناس فى

http://almaktabeh.com

جنوب أفريقيا ولا سيما السكان الهولنديون الأقدم قد تربوا بشكل يكاد يكون تامًا على التراث اليهودي. وكان العهد القديم.. قد صار هو العمود الفقري للثقافة الهولندية هنا في جنوب أفريقيا». فهو مثل لويد جورج قد تربى على الاعتقاد بأنه «سوف يأتي اليوم الذي تتحقق فيه كلمات الأنبياء وستعود إسرائيل إلى أرضها». وكان يوافق لويد جورج تمامًا على أن الوطن اليهودي يجب تأسيسه في فلسطين تحت الرعاية البريطانية».

هناك علامتان فاصلتان أمامنا؛ وعد بلفور في نهاية سنة ١٩١٧م، والذي وعد بالتأييد البريطاني لإقامة وطن يهودي، وثانيتهما الانتصار العسكري البريطاني على الجيش التركي تحت قيادة الجنرال «اللنبي» سنة ١٩١٨م، وهو الذي وضع فلسطين تحت السيطرة العسكرية البريطانية، ومن ثم أعطى البريطانيين الفرصة التي لم تكن في الحسبان لتضع إعلان بلفور موضع التنفيذ. وكان للإعلان آباءٌ كثرٌ. فحتى الرئيس الأمريكي «وودرو ويلسون» استشاره «سموتس» في مسودة الإعلان. ولكن الرجل الذي حمل اسمه وحده كان وزير الخارجية البريطاني (ورئيس الوزراء السابق) في الحكومة الائتلافية زمن الحرب التي رأسها «لويد جورج». وتقول بربارا توخمان عن دوره:

«في بلفور كان الدافع من الكتاب المقدس أكثر من كونه إمبرياليًا. وإذا كان يمكن القول بأن ثقافة انجلترا المستمدة من الكتاب المقدس لها أي معنى في تخليص انجلترا لفلسطين من حكم الإسلام، فإن هذه الثقافة يمكن تلخيصها في بلفور. وعلى الرغم من أنه كان عكس اللورد شافتسبري، ولم يكن متحمسًا وإنما شكاكًا، ولم يكن متحمسًا دينيًا ولكنه كان متشائمًا فلسفيًا، ومع هذا فإنه كان متشربًا بقوة، مثل الإنجيليين والبيوريتان، لعبرانية الكتاب المقدس. شعر بلفور الذي كان منغمسًا في الكتاب المقدس منذ الطفولة، باهتمام خاص بـ «أهل الكتاب». وحسبما تقول ابنة أخته ورفيقته وكاتبة سيرته، مسز دوجدال، كان ذلك اهتمامًا على مدى الحياة يرجع بأصوله إلى تدريب أمه له على العهد القديم ونشأته الاسكتلندية. وعندما شب عن الطوق نما أيضًا إعجابه الفكري بجوانب معينة من الفلسفة والثقافة

http://almaktabeh.com

اليهودية وبدت له مشكلة اليهود فى العالم الحديث ذات أهمية بالغة. وكان دائمًا ما يتحدث عن هذا بشغف، وأنا أتذكر فى الطفولة أننى تشربت منه فكرة أن الديانة المسيحية والحضارة المسيحية تدين لليهودية بدين لا يقدر، وتم رد الدين لها بشكل سيئ وعلى نحو يدعو للخجل».

ولم تكن دوافعه ألفية بالتالى؛ إذ إنه لم يكن يفكر فى القدوم الثانى للمسيح، وإنما كان يسدد دينًا فحسب. كما أن إعلانه (وعد بلفور) لم يكن جهدًا للتخفيف من نقص الأسيتون و«حاييم وايزمان»، الزعيم الصهيونى الذى كان أيضًا باحثًا كيميائيًا بارزًا (حسبما اقترح لويد چورج فى مذكراته). كما أن ذلك لم يكن فى الحقيقة زلفى إلى الرأى العام اليهودى الأمريكى، الذى كان فى ذلك الوقت معاديًا للمشروع الصهيونى برمته. وبالنسبة لـ «بربارا توخمان» كان الدافع الأكثر ترجيحًا على الجانب البريطانى كان يقترب من القدس. وكانت بريطانيا فى حاجة إلى قصة مقنعة فيما يتعلق بما سوف تفعله بالأرض المقدسة التى كانت على وشك أن تغزوها (أو تحررها):

«إعلان أن بريطانيا سوف تدخل فلسطين كوصية من أجل أصحابها الذين ذكرهم العهد القديم، سوف يحقق هذا الغرض بشكل يدعو إلى الإعجاب. هذه الحركة، وهى أبعد ما تكون عن الزيف والسخرية، كانت أساسية للضمير البريطانى. إذ لم يكن هناك أى تقدم فى مسيرة بريطانيا الإمبراطورية دونما قضية أخلاقية، حتى ولو كانت الذريعة مجرد اغتيال مبشر أو إهانة وجّهَهَا أحد السكان المحليين إلى ممثل التاج. كما كانت هناك ضرورة أكبر لقضية أخلاقية عندما كان الأمر يتعلق بالأرض المقدسة، التى كانت من بين كل الأماكن على الأرض هى التى ترتبط بأثمن الروابط وأغلاها فى ذهن الناس. إن غزو فلسطين سوف يكون الأكثر دقة وخروجًا على العادة بين الإنجازات الإمبراطورية، وحسبما أشار «اللنبى» حينما ترجّل عن فرسه عند بوابة دمشق لكى يدخل المدينة المقدسة ماشيا».

وفى ذلك الحين كان إعلان بلفور قد صدر. وقُيِّض له أن يكون الأساس

http://almaktabeh.com

الواضح للانتداب الذى فرضته عصبة الأمم سنة ١٩٢٢م، والذى أدارت بريطانيا بمقتضاه الأراضى الفلسطينية حتى أعادت الانتداب ثانية إلى الأمم المتحدة التى خلفت عصبة الأمم، عند إعلان مولد إسرائيل دولة مستقلة سنة ١٩٤٨م. وقد تمثلت الصعوبة فى أن البريطانيين كانوا قد أظهروا شيئًا مختلفًا للعرب، ولم يكن بوسعهم أن يبقوا مخلصين لكل من الجانبين (على الرغم من أن الإعلان كان قد أشار إلى هذا الاتجاه) ويقول الإعلان:

«إن حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين، وسوف تبذل ما فى وسعها لتسهيل إنجاز هذا الهدف؛ إذ إن من المفهوم تمامًا أنه لن يتم فعل شىء يضر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية فى فلسطين، أو الحقوق والمكانة السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد آخر».

وربما تكون القضية هى أن الخطوات النهائية تجاه الإعلان وتبنى الانتداب على فلسطين قد اتخذت لأسباب أخلاقية وليس لأسباب ألفية - أى أسباب بلفور وليست أسباب شافتسبرى. ولكن بدون مناورات الأخير لتحريك السياسة الخارجية إلى حيث كانت فى نهاية القرن، فإن الظروف ستكون مختلفة لدرجة أن مثل هذا الإعلان سيكون غير مقنع (أو عبثيًا). ومكانة بلفور لا تتلو مكانة شافتسبرى فى الزمن فقط، ولكن الأول صار هو الشرط الأولى للثانى. وفى خيال الإنجليز، كان الرب ما يزال له غرض لصالح الأمة باعتبارها قوة حضارية وشرطيًا فى العالم، تقوم بدور من يصحح أخطاء الآخر، ومن يحمل ما أسماه روديارد كيبلينج بطريقة نصف ساخرة «عبء الرجل الأبيض». وسواء كانت ستحفز فى النهاية القدوم الثانى للمسيح أم لا، فإن إعادة اليهود إلى إسرائيل كانت عملاً مناسبًا للإنجليز.

وفى كتابه «The Church of England and the First World War» يسجل «آلان ويلكنسون» أن:

«كانت حرب القرم هى آخر حرب إنجليزية تبدأ بإعلان الصيام العام، فأثناء الحرب أدت الكوارث العسكرية إلى القيام بصيام عام آخر. وتم إعلان رأيين فى

http://almaktabeh.com

الأهمية الروحية للحرب من جانب القساوسة: أن الحرب كانت واجبًا مهيبًا فرضه الرب على الأمة؛ وأنها كانت عقابًا إلهيًا على عدة خطايا قومية متنوعة. وعلى الرغم من المواعظ والخطب في معظمها كانت تعلن أن الحرب عادلة، فإنها كانت تؤكد أيضًا على شرور الحرب والمعاناة الناجمة عنها. وفي الدوائر والأوساط الإنجيلية كان الاعتقاد منتشرًا أن انجلترا قد حلّت محل اليهود كشعب الله المختار وأداته. وكانت الهزائم أو الانتصارات في الحرب تفسر كثيرًا بمصطلحات الثواب أو العقاب الإلهي. وبينما استمرت الحرب، وصار من الأصعب تقديمها على أنها حملة صليبية، تحول رجال الكنيسة إلى تصويرها على أنها حماقة إنسانية يمكن أن يستخدمها الرب لأغراضه، كأن يتشل انجلترا مثلاً من أنانيتها».

وبمنتصف القرن التاسع عشر كان للإنجيليين حضور قوي في الحياة سواء في البلاد أو في البرلمان. ولكن على الرغم من أن «ألفريد تنيسون» الذي كان في ذلك الوقت قد حظي باعتراف عالمي بأنه أحسن شعراء انجلترا، قد شارك في بعض هذه المشاعر الوطنية فإنه لم يكن إنجيليًا. إذ كانت توجهاته صوب أسلوب واسع متحرر من الكنيسة الأنجيلكانية أقرب إلى كينجسلي منه إلى شافتسبري. والربط الدقيق بين انجلترا والشعب المختار ربما يكون قاصرًا على أولئك الذين ما يزالون يعتبرون الكتاب المقدس مرشدًا مفيدًا في السياسات المعاصرة. بيد أن إحساسًا أكثر غموضًا وعمومية بأن انجلترا كانت أمة خاصة ذات دور خاص، وأن هذه الخصوصية تحظى بموافقة إلهية ضمنية بشكل ما، كان منتشرا على نطاق أوسع كثيرًا، ومن الواضح أن تنيسون كان يشارك فيه. والواقع أنه صار السمة الرئيسية للعصر الڤيكتوري. وهذه هي الكيفية التي وصف بها الشاعر، في الجزء الثالث من قصيدته المشهورة «Maud»، كيف تعرف على واجبه و واجب أمته في الذهاب إلى الحرب في سبيل الحق:

من أجل السلام الذي أتخيله لا سلام تم إرساؤه

والآن على جانب البحر الأسود أو بحر البلطيق

والأفواه المميتة الطاحنة في اللهب الآتي من القلعة

http://almaktabeh.com

وزهرة الحرب الحمراء بلون الدم لها قلب من نار
دعها تلتهب أو تخبو، والحرب تتدحرج مثل الريح
فقد برهنا على أننا نملك شجاعة الدفاع عن قضية، وأننا نبلاء ما زلنا
واستيقظت أنا، كما يبدو، بعقل أفضل
إنه من الأفضل أن تحارب من أجل الخير بدلاً من أن توبّخ الشر
لقد شعرت بأرض وطنى، إننى واحد مع نوعى
إننى أحتضن غرض الرب والقضاء المحتوم

وفيما بعد، تسببت حرب البوير، والتى نشبت ضد المستوطنين الهولنديين من أجل السيطرة على جنوب أفريقيا (١٨٩٩ - ١٩٠٢م)، فى انقسام مرير فى الرأى العام البريطانى. على الرغم من أن كلا الجانبين كان يصوغ مجادلاته فى مصطلحات دينية. وبعض الاشتراكيين المسيحيين ممن تبرأوا من الحرب هللوا لأخبار الانكسارات البريطانية فى ميدان القتال باعتبارها عقابًا إلهيًا على الغطرسة الإمبراطورية البريطانية. وهناك أكثر من تلميح إلى أيديولوجية الشعب المختار يكمن وراء مثل هذه الآراء. وكان هناك آخرون يؤيدون هذه الحرب، على أساس أن الإمبريالية تمثل فضائل الأخوة والخدمة؛ بينما امتدح البروفيسور «بيڤان - H.E.J. Bevan» فى خطبة شهيرة الحرب باعتبارها وسيلة يمكن لبريطانيا أن تصبح نبيلة مرة أخرى. وهذه مجددا لمحة إلى فكرة الشعب المختار:

«لا يعطى التاريخ سوى تأييد ضئيل لنظرية أن أمة عظمى تكون بالضرورة مجردة من الأخلاق بسبب حرب مثل هذه. بل إنها تثير وتوقظ النزعة الوطنية من غفوتها، وتستدعى المواطنين من الاستمتاع بترف السلام، ومن المصالح الأنانية والدنيا، إلى التضحيات وإنكار الذات من أجل قضية عامة. وهى توقظ فى الكثيرين ضميراً حيًا و وعيًا بإمكانية الهلاك وعدم الأمان فى الشئون الإنسانية، وتدمر الحواجز الاصطناعية بين طبقة وطبقة، وتُعلّم الكثيرين الصلاة.

كانت هذه ما تزال إلى حد كبير هى الحالة عندما ذهبت بريطانيا إلى الحرب سنة

http://almaktabeh.com

١٩١٤م. ولكن الكنائس، وكنيسة انجلترا بصفة خاصة، كان في ذهنها أيضًا الدرس المهم الذي استخلصته من تاريخ الخلاص الذي يرويه العهد القديم - أن سوء العاقبة يلحق بالأمة التي خسرت عطف الرب. ومن ثم لم تكن الحرب مجرد متابعة لتسميتهم رجال الرب، ولكن أيضًا باعتبارهم وطنيين إنجليزًا يرغبون في النصر بميدان المعركة مما جعل زعماء الكنيسة يبدأون في القلق بشأن النغمة الأخلاقية للأمة كلما تطورت الحرب العظمى. كما أن هذه لم تكن ببساطة مسألة إنتاج طبقة أفضل من الجنود الذين سيحاربون بجد ومثابرة؛ إذ إن الرب يسيطر على تلك الأشياء الخارجة عن نطاق سيطرة الإنسان، والتي غالبًا ما يتوقف عليها النصر في ميدان المعركة - الطقس، والمصادفات السعيدة، والتخمينات المحظوظة، وكون القوات في المكان الصحيح وفي الزمن المناسب، وما إلى ذلك. وهذه كلها في متناول العناية الإلهية - بشرط أن تكون العناية الإلهية مهيأة جيدا. وعندما لم «تنته الحرب بحلول عيد الميلاد»، كما كان متوقعًا على نطاق واسع، عندما انطلقت القوة العسكرية البريطانية في بداية الأمر إلى فرنسا في ذلك الصيف، كان ما تستطيعه الكنيسة للمساعدة هو دعوة الأمة للصلاة والتوبة؛ لكي تضمن أن الرب سوف يحارب إلى جانب بريطانيا.

ويكتب ويلكنسون أنه عند اندلاع الحرب كان هناك توقع على نطاق واسع، بحدوث إحياء ديني وطني؛ والواقع أنه في بداية الأمر بدا أن الحضور في الكنائس قد تزايد. ولكن بحلول سنة ١٩١٥م لم يحدث أي إحياء، وعقد كبير أساقفة كانتربوري الدكتور راندال داڤيدسون لجنة؛ لكي يستشيرها في «الدعوة الروحية للأمة والكنيسة، حول ما تحدثه الحرب وما يمكن عمله». وأوصت ببعثة وطنية، هدفها شحذ الإحياء الديني الذي كان يُظن آنذاك أنه قد تأخر عن موعده. وإذ استهلت اللجنة بيانها بفقرة من الإصحاح الثلاثين في سفر التثنية (١٥ - ١٦) تقول: «انظر قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير والموت والشر. بما أني أوصيتك اليوم أن تحب الرب وتسلك في طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه». أعلنت أن الرب له غرض لصالح الأمة ولكن الأمة تجاهلت الرب:

«إن انشقاقنا الاجتماعي الكبير ونزاعنا الصناعي العظيم يوضحان أن هناك خطأ

http://almaktabeh.com

جذريًا فى حياتنا الوطنية؛ إذ إن لدينا قضية عادلة فى الحرب العظمى؛ ولكن الحرب الأهلية التى كانت تبدو وشيكة فى أيرلندا فى صيف ١٩١٤م والحرب الصناعية العظمى التى جرت الاستعدادات لها آنذاك، كانتا دليلين على أن هناك خطأ بيننا».

وليست هناك حاجة إلى القول بأن مثل هذه اللجنة لم تكن تسعى إلى الشفاء من هذا الاضطراب من خلال الاستجابة إلى الشكاوى العادلة للأيرلنديين أو بتأييد اتحادات التجارة فى نضالها الطويل لإعطاء العمال البريطانيين الأجور التى تعينهم على المعيشة. وقد قال أعضاء البعثة: إن الأمة يجب أن تكفّر عن خطاياها وتعود إلى الرب. فبالخطيئة، كما أوضحت حرفيًا المواعظ والخطب التى لا تحصى من جانب كل منبر ونمط أنجليكانى فى البلاد، كان رجال الكنيسة يعنون السكر، والزنا، والمقامرة، وتجاهل الحضور إلى الكنائس، وعدم الصلاة، وعدم إخضاع مصالح الذات لصالح المجموع، وكانت النقطة الأخيرة لها مضامين واضحة فى زمن كانت تبذل فيه جهود ضخمة لإعادة بناء قوة الجيش بالتجنيد التطوعى. وإحدى الطرق التى كان يمكن للشاب أن يكفّر بها عن خطاياه كانت الانضمام إلى الجيش أى الذهاب إلى الحرب، حسبما قال أحد القساوسة البارزين، والذى كان بحد ذاته بداية الاستسلام لمشيئة الرب.

كانت «المهمة الوطنية للتوبة والأمل» نجاحًا هائلاً من حيث إنها عملت على تعبئة كل عصب وعضلة لدى كنيسة انجلترا، وكل ذرة فى طاقتها، لقد كانت النسخة الروحية لحرب شاملة. وبالنسبة لمؤسسة اشتهرت بخمولها، كان مثل هذا الجهد أمراً غير عادى. بيد أنها كانت فاشلة فى كافة الجوانب الأخرى تقريبًا - فيما عدا أن البرلمان حدد الساعات التى يمكن فيها أن تبيع المحلات العمومية المشروبات الروحية. وبدا لرجال الكنيسة أن أولئك الذين توجههم الكنيسة كانوا هم أولئك الذين كانوا فى رحاب الكنيسة بالفعل، ولم تتصل برجل الشارع. بل إن الرسالة، التوبة والأمل، صارت مسئولية بقدر ما كانت ميزة، وبدأ محررو الصحف وكتّابها يتساءلون: لماذا ينبغى على بريطانيا أن تتوب، على أساس أن

http://almaktabeh.com

الحرب لم تبدأ من جانب بريطانيا، ولكن بدأتها ألمانيا بعدوانها الوحشى الظالم ضد «بلچيكا الصغيرة المسكينة»؟، وبينما تزايدت أرقام الضحايا مع الحملات العسكرية سنة ١٩١٦م، والأخبار الواردة عن الكوارث على جبهة السوم بشكل خاص، صار الرأى العام البريطانى أقل تسامحًا تجاه مفهوم أن مواطنيه الذين يرتدون الزى العسكرى على الجبهة كانوا من الخُطاة المذنبين، وأن مصيرهم المرعب قدره الرب لهم على نحو ما عقابًا لهم. وثمة صمت محرج كتم التطبيق الصارم للأفكار البروتستانتية عن الخلاص - أن الجنود الذين ماتوا دون قبول المسيح مخلّصًا لهم سوف ينالون عقابًا أبديًا. وبدلاً من ذلك، كان يُنظر إلى الموت فى المعركة من أجل الملك والبلاد على أنه يساوى بشكل ما فعل الإيمان المسيحى، وهكذا ارتبطت قضية المسيح وقضية الأمة المختارة ببعضهما ارتباطًا وثيقًا.

وتم تقديم تفسيرات رسمية متسرعة لاختيار «التوبة» الفج فى عنوان المهمة - وكان أحد الاقتراحات هو أن الناس ينبغى أن يكفروا عن «خطايا الحضارة الأوروبية» التى أدت إلى الحرب - ولكن ذلك لم يستحوذ على خيال الأمة. فلماذا يجب أن يعاقب الرب البريطانيين على خطايا الألمان؟ وكانت نغمة خطاب كبير أساقفة يورك كوزمو لاند نمطية دالة على إخفاقات كثيرة مشابهة:

«لقد أسميناها مهمة وطنية للتوبة والأمل: التوبة لأننا مدعوون إلى أن نحض الرجال والنساء فى كل مكان على التوبة عن الخطايا التى وصمت حضارتنا وجلبت عليها حكم الرب الظاهر، والأمل لأنه أثناء الفترة الأخيرة من هذه المحنة المرعبة وفى خضم الكبح المتزايد والتضحية والأسى المتصاعد، سيكون شعبنا بحاجة إلى الأمل، وفى تلك الأيام الصعبة القادمة، حينما يكون النظام القديم قد انتهى وسيكون من واجب الأمة أن تبحث عن نظام جديد فى عالم جديد، يجب أن نضع أمام عقول الأمة الأمل الواحد، المسيح، عقله وروحه، لإعادة بناء العالم الجديد».

وبنهاية سنة ١٩١٦م، حسبما يقرر «ويلكنسون»، صارت بعض الحقائق غير

http://almaktabeh.com

المريحة واضحة جلية. «في جميع أنحاء البلاد كان الذين حضروا الخدمات الكنسية الخاصة أقلية حقًا من خارج الكنائس، على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا يحضرون الاجتماعات العامة». ومن ناحية أخرى تلقت الحياة الداخلية فى الكنيسة حافزًا، ونتيجة لأن زعماء المهمة من رجال الكنيسة حصلوا على انطباع أكثر واقعية عن الفجوة التى كانت قد اتسعت بينهم وبين الرجل العادى. وهكذا فإن التوبة التى حثت اللجنة الأمة عليها لم تحدث حقًا سوى داخل الكنيسة نفسها، مع الكثير من ضرب الصدر (ندمًا) الذى تضمن تكوين ما لا يقل عن خمس لجان للتحقيق. ولكن كنيسة انجلترا أظهرت حينذاك، كما أظهرت منذ ذلك الوقت، قدرًا بالغًا من البكاء على الذات والواقع. إنها أبدت ما يكاد يكون اهتمامًا مزدوكيًا (تعذيب الذات) فى التعامل مع أخطائها، كما لو أن هناك راحة معاكسة يمكن الحصول عليها بهذه الإشارة إلى أن مذهب الفساد الكلى للإنسان - كان رجال الكنيسة كلهم من الرجال - قد برهن على صحته مرة أخرى.

كان التحدى الخاص لكنيسة انجلترا فى هذه الحرب، باعتبارها الكنيسة الوطنية الراسخة التى كان حاكمها الأسمى هو الملك، هو أنها لا تستطيع سوى أن تلقى بثقلها لمؤازرة الحرب. وبذلك كان كل خيار آخر - السلام، الحياد، التبرؤ من الحرب، النقد بالنبوءات، المعارضة، بل حتى التأييد الواعى جديًا - مغلقًا. وإذا ما كان العامة قد حكموا فى النهاية بأن الحرب كانت تستحق القيام بها، فإن كنيسة انجلترا حينئذ يمكنها أن تنعم بدفء أنها أثبتت كونها على حق. ولكن إذا ما كانت العاطفة الوطنية غير واثقة من جدارة الصراع، والطريقة التى تم بها فوق أى اعتبار آخر، فإن الكنيسة وما أظهرته بشكل لافت من تضامن مع الدولة كان من المحتمل أن يبرهن على أنه عبء ثقيل على كاهلها. وقد تبلور موقف الكنيسة العام تجاه الحرب فى المهمة الوطنية، التى كانت قد رفعت الرهان بشكل كبير، وربما كانت المقامرة مبررة، على الرغم من أن أولئك الذين أخذوا بها، الذين أساءوا الحكم على فرص النجاح لا يمكن أن تنسب إليهم الكثير من الشجاعة الأدبية لهذا. وثمة اقتباسان، أحدهما من سنة ١٩١٥م وثانيهما من سنة ١٩١٦م، يظهران زعماء الكنيسة يتبنون نغمة تبدو فيها إساءة التقدير بطريقة مدهشة؛ إذ إننا نعرف الآن كيف كان إحساس الناس عن الحرب بمجرد أن انتهت.

http://almaktabeh.com

والاقتباس الأول من سنة ١٩١٥م، من أسقف لندن، الدكتور «إنجرام»، الذى يصفه ويلكنسون بأنه «الصوت الذى ارتفع فوق أصوات كل رجال الكنيسة الآخرين. وقد أعلن فيما كتبه فى صحيفة كنسية تسمى «الجارديان ـ Guardian».

«إننى أظن أن الكنيسة يمكن أن تساعد الأمة على أفضل نحو، أولا بأن تجعلها تدرك أنها مشتبكة فى حرب مقدسة، وألا تخشى من قول هذا. لقد مات المسيح يوم الجمعة الحزين من أجل الحرية والشرف والفروسية، وأولادنا يموتون من أجل الأشياء نفسها. وإذا أدركت الأمة أن كل شىء يستحق الحياة فى الدنيا معرض للخطر، فإنها لن تتردد فى أن تسمح بتعبئة نفسها. إنكم تطلبون منى النصيحة فى جملة عما يجب على الكنيسة أن تفعله. وأجيب عبئوا الأمة من أجل الحرب المقدسة».

والاقتباس الثانى من هنسلى هنسون، وقد صار فيما بعد أسقف «دورهام» وكان مفترضًا على نطاق واسع أنه صوت الاعتدال والحداثة. ففى مقالة له سنة ١٩١٦م تنبأ فيها (بشكل صحيح) بأن «المسيحية المنظمة لا تخرج بصورة جيدة من أزمة العالم»، واستمر هنسون لكى يحدد الآمال التى كان يعلقها على الدور المستقبلى للكنيسة فى الوطن:

«سوف يبزغ اسم انجلترا من الصراع العالمى بعناوين جديدة للتبجيل الإنسانى، وأعز من ذى قبل على عقول الرجال الإنجليز، مشحونة بشكل أكثر ثراء عن ذى قبل بالارتباط بالخدمة العامة والذكريات المجيدة عن البطولة الشخصية. وسوف تحصل كنيسة انجلترا على مجد من شخصيتها التاريخية بوصفها مؤسسة وطنية. وسوف يميل الرجال لأن يقدموا لها محاولة منصفة عادلة، مستعدين لأن يعترفوا بحقها فى التعبير عن الديانة المسيحية للرجال الإنجليز ومن أجلهم... إن رابطة جديدة بين الكنيسة والأمة سوف تتشكل فى جحيم البلوى».

كان أولئك الذين قادوا الكنيسة فى الحرب العالمية الأولى فى كل أنواع الطرق يشبهون ـ وغالبًا ما كانوا على معرفة شخصية ـ بأولئك الذين تولوا قيادة الجيش البريطانى. فقد كان لديهم نفس التصميم العنيد على إعادة فرض الفشل، ونفس

http://almaktabeh.com

عدم الاستعداد للنظر فى تغيير الأساليب، ونفس القصور فى الخيال، وفوق هذا وذاك نفس القصور فى السخرية الواعية. كانت تلك فى الواقع هى روح العصر، أو على الأقل روح الطبقة العليا والشرائح العليا من الطبقة الوسطى التى كان يخرج منها الرجال الذين يتولون قيادة الأسقفيات الإنجليزية والقوات العسكرية الإنجليزية. ولكن الأمر تغير فى زمن الحرب، وكان التغيير إلى حد كبير من أسفل إلى أعلى، ولذلك كان آخر من سمعوا بالتغير الجذرى ووادموا أنفسهم معه هم أولئك القابعين فوق القمة.

من الشائع أن الحرب العظمى سحقت الثقة بالذات فى الإمبراطورية البريطانية قرب قمتها وبطريقة مدمرة مثلما سحق جبل الجليد السفينة تيتانيك، التى كانت أعظم سفينة بُنيت على الإطلاق، قبل ذلك بعامين. وليس من الواضح تمامًا أن الصدام جعل فجأة مجموعة من الفروض التى كانت تكوّن ثقافة كاملة، تبدو وقد عفا عليها الزمن، وهى مجموعة من الفروض التى كانت تلخيصًا لجنس بأسره. وكثير من هذه الفروض كانت فروضًا دينية. وكان من بينها الإيمان بأن الرب منح انجلترا غاية خاصة. وكانت طاعة تلك الغاية هى التى جعلت انجلترا تذهب إلى الحرب. وبهذا كانت انجلترا تفى فى كرم وحماسة بنصيبها فى صفقة الميثاق، أى أن يضمن نجاة انجلترا. وإذ كان هناك بعض التصحيح الذى ينبغى القيام به فى العملية، فإن المقصود به أن يكون عقابًا خفيفًا، بحيث يكفى للشفاء من التراخى والخطيئة، ولم يكن المقصود به أن يكون جحيمًا على الأرض. ولكن هذا ما حدث.

وحدثت السخرية الدرامية فى التفاعل المتبادل بين ما هو فى الذهن وما يحدث حقًا. فالبطلة تظن أنها فى طريقها إلى الشفاء، ونحن نعرف أنها فى سبيلها إلى الموت. وينتج المزيج نوعًا من السخرية التراچيدية، وهو تعليق على حماقة التفاؤل. وبعيدًا عن المؤرخين العسكريين، فلا شك فى أن أحسن كتاب عن الحرب العالمية الأولى هو «The Great War in Modern Memory» الذى كتبه أستاذ أمريكى فى الأدب الإنجليزى، هو پول فوسل. فهو يقرر أن الحرب برمتها تدعو إلى السخرية؛ لأن الحرب كلها أسوأ مما هو متوقع:

http://almaktabeh.com

«كل حرب تشكل سخرية من الموقف؛ لأن وسائلها لا تناسب بشكل ميلودرامي مع غاياتها. وفي الحرب العظمى تم القضاء على ثمانية ملايين شخص؛ لأن شخصين هما الأرشيدوق فرنسيس فرديناند وقرينته قُتلا رميًا بالرصاص... لقد كانت الحرب العظمى أشد سخرية من أي حرب أخرى سبقتها أو تلتها. فقد كانت إحراجًا شيعًا للأسطورة التحسنية الشائعة التي حكمت الوعي العام على مدى قرن من الزمان؛ إذ إنها تناقض فكرة التقدم...».

والتحسنية، أي الإيمان بأن البشرية يمكن أن تتحسن وأنها تتحسن، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما يسمى رأي الهويج في التاريخ. والتفسير الهويجي للتاريخ، الذي نشره اللورد «ماكولي» في منتصف القرن التاسع عشر، يرى أن الحضارة الإنجليزية هي ذروة التقدم السياسي. ومع التدين الإنجيلي العنيف والتزام بالإصلاح السياسي المستمر، كان ماكولي وكثير من الأجيال التالية من الشعب الإنجليزي الذين تأثروا به، متأكدين من أن الرب يقف إلى جانب انجلترا. وكانوا متأكدين من هذا تمامًا لدرجة أنهم اعتبروا أن المؤسسات الإنجليزية والدين واللغة والعادات والسلوك والثقافة الإنجليزية هي الهدف الأسمى للحضارة في جميع أنحاء الدنيا. كما كانوا واثقين طبعًا أن الرب هو الذي شكّل كل تلك الأشياء بفضل عنايته. ناهيك عن أنه جلب للإنجليز المكاسب التي حققتها «الثورة المجيدة» سنة ١٦٨٨م (التي طردت الملك الكاثوليكي جيمس الثاني) والتي نبعت منها كل الخيرات التالية (من خلال منطق الأحداث من ناحية، ومكافأة إلهية من ناحية أخرى).

ولكن السخرية حلّت مع القصف المدفعي والرصاص والدبابات والأسلاك الشائكة والوحل في ميدان المعركة الخالد. فقد كانت الأغنية التي تنشرها القوات البريطانية على سبيل المرح، أثناء سيرها إلى القتال تقول:

«بوسعنا أن نراهم

بوسعنا أن نراهم يحومون حول الأسلاك الشائكة العتيقة».

وهي أغنية تصف المصير البشع الذي لقيه أفراد كتيبة كاملة. لقد اكتسب

http://almaktabeh.com

البريطانيون بسرعة موهبة المرح الأسود بالشكل الذى تسبب فى حيرة أقرب حلفائهم. وكتب فيليب چيبس: «كلما كانت نبرة التمرد فى ذلك أعلى، كلما ضج الناس بالضحك». لقد كان ذلك هو «ضحك البشر الفانين من الحيلة التى دبرها لهم قدر حديدى».

ويستمر فيليب چيبس قائلاً: «كانوا قد تعلموا أن هدف الحياة كلها هو الوصول إلى الحب والجمال، وأن الجنس البشرى فى تقدمه صوب الكمال قتل الغريزة الوحشية والقسوة والتعطش إلى الدماء، وقانون البقاء الوحشى البدائى الذى يعتمد على المخالب والأسنان، على الفأس والهراوة. وكان الشعر كله، والفن كله، والدين كله، يبشرون بهذه البشارة ويزفون هذا الوعد. والآن تكسر المثال والنموذج مثلما تتكسر زهرية من الصينى ارتطمت بالأرض وتهشمت. لقد كان التناقض بين «هذا» و «ذاك» مُهلكًا. . وكان مرح الروح زمن الحرب هو الذى يزمجر بالضحك عندما يرى أن تلك الكرامة والكياسة كلها قد صارت نهبًا للحرب».

كانت تلك أنباء شؤم بالنسبة للديانة الوطنية، فمن الناحية العسكرية كانت الحرب قد بدأت بشكل طيب تمامًا. ولأن البريطانيين كانوا يفضلون اعتبار الأسطول الملكى السلاح الرئيسى للدفاع، فإنهم احتفظوا فقط بجيش محترف صغير فى زمن السلم، وكان ذلك أمرًا جيدًا للغاية. وذهب حوالى مائة ألف جندى إلى فرنسا وبلچيكا فى المرحلة الأولى من الحرب، وسرعان ما وجدوا أنفسهم مشتبكين فى أكبر اختبار لنظام ميدان المعركة، أى التقهقر المنظم أثناء القتال (ما يسمى الانسحاب من مونس). هذا الانسحاب الذى اعتبرته معظم الكتب الدراسية العسكرية فيما بعد انسحابًا مخزيًا أمام قوة عسكرية متفوقة، سرعان ما تحول إلى قصة مجيدة أخرى فى التاريخ البريطانى. وتحت ما كان مفترضًا فى بريطانيا أنه حماية إلهية - فإن الحكايات شاعت عن ملاك فى السُحب كان يتجلى أمام بعض القوات السائرة إلى القتال - تماسك الجيش بشكل كاف بحيث صمد وقاتل، وأعطى صورة طيبة عن نفسه. وفى انطلاقة مبكرة للسخرية البريطانية زمن

http://almaktabeh.com

الحرب، أخذ الجنود الناجون النظاميون وصف القيصر للحملة العسكرية البريطانية بأنها «جيش صغير يبعث على الاحتقار»، وخلّدوه بأن أطلقوا على أنفسهم «العواجيز الذين يستحقون الاحتقار»، بيد أن الباقين منهم استمروا فى زمن السلم على إقامة استعراض سنوى تكريمًا لزملائهم الذين سقطوا فى الميدان على مدى نصف القرن التالى أو أكثر، وظلوا فخورين جدًا بالاسم الذى أطلقه عليهم قيصر ألمانيا.

وشهدت السنة التالية أول انتكاسة كبرى فى الحرب، وهى الحملة الجسورة، ولكنها كانت سيئة التخطيط، للاستيلاء على شبه جزيرة جاليبولى التى تحرس ممر الدردنيل الذى يصل بين البحر المتوسط والبحر الأسود. فقد كان الجنود الذين ذهبوا إلى فرنسا سنة ١٩١٤م نظاميين كلهم تقريبًا، أما أولئك الذين حاربوا فى تركيا فكان جزء منهم نظاميين ولكن أيضًا إقليميين (بمعنى أنهم ميليشيا لبعض الوقت، وكثيرون منهم خدموا جنودًا نظاميين فى زمن السلم)، ونظاميين ومتطوعين من الممتلكات البريطانية، ومن استراليا أساسًا. وكانت الجيوش البريطانية سنة ١٩١٤م وسنة ١٩١٥م على السواء قد اعتراها الضعف الشديد؛ بسبب الصراع الذى لا يتوقف وعدد الضحايا المتصاعد لدرجة أنه تقرر البدء من جديد وتشكيل جيش جديد من المتطوعين جزئيًا، ثم فى النهاية من خلال التجنيد الإجبارى أيضًا. وكان هذا ما سُمى باسم «جيش كتشنر»، تيمنًا باسْم بطل الحرب الاستعمارية الذى كان أيضًا وزير الحرب فى ذلك الحين، وهو اللورد كتشنر. وكان الغرض منه أن يستعد ويتدرب، ثم ينفذ الاندفاع الكبير على الجبهة الغربية التى كان القادة البريطانيون مقتنعين بأن الاستيلاء عليها سوف يحول الحرب إلى صالحهم. وعلى أية حال، فإن الفرنسيين كانوا يتلقون ضربات مرعبة فى ڤيردن، وكان أى مجهود بريطانى كبير فى أى مكان آخر كفيلاً بأن يسحب بعضا من القوات الألمانية التى تواجههم.

وهكذا كانت بريطانيا وجيشها مستعدين لخوض معركة ضد العدو كان المقصود بها تحويل مسار الحرب، ولكن فشلها فى تحقيق ذلك حوّل التاريخ

http://almaktabeh.com

البريطاني مع هذا. وقد تكرر سماع كل تفاصيل معركة السوم. وإذ كانت القيادة العليا البريطانية مدركة لأن وحدات كثيرة جداً من قواتها لم تخض الحرب من قبل، وأنهم كانوا يعتمدون فى تجنيد ضباطهم على رجال لم يكونوا من نفس الطبقة الاجتماعية التى جاء منها الضباط النظاميون فى سنة ١٩٤١م وسنة ١٩١٥م، فإنها أصدرت تعليمات محددة بما ينبغى أن يحدث فى المعركة بينما تتطور كل مرحلة من مراحلها. ويلاحظ «فوسل» ما علّق عليه عدة مؤرخين عسكريين : نقص الثقة، بل ونقص الاحترام، الذى كان كبار الضباط البريطانيون يظهرونه تجاه الرجال الذين يتولون قيادتهم أثناء المعركة. ويكتب أن هناك سبباً آخر يمكن إرجاعه إلى النظام الطبقى والفروض التى أفرزها وأقرها. فقد كان العسكريون النظاميون فى القوات البريطانية يبدون احتقاراً ظاهراً للرجال الجدد الذين تم تدريبهم بسرعة من «جيش كتشنر» والذين تم تجنيد عدد كبير منهم من العمال فى بلاد الوسط (ميدلاند) والشمال.

«لقد افترض المخططون أن هذه القوات - التى تجهزت للهجوم بحمولة تصل إلى ٦٦ رطلاً من المعدات لكل فرد - كانت بسيطة وحيوانية بحيث لا يمكن أن تعبر الفضاء بين الخنادق المعادية سوى فى ضوء النهار الكامل وتصطف فى صفوف أو موجات. وكان هناك شعور بأن القوات سوف ترتبك بأى تكتيكات أكثر ذكاءً مثل الاندفاع من مخبأ إلى مخبأ، أو تسير وراء القصف الزاحف المتواصل».

ولا يقول فوسل هذا، ولكن من الممكن أن نتحرى فى الثقة الزائدة العنيدة التى أبداها القادة أكثر من لمحة إلى التفكير بطريقة الشعب المختار - أنه مع كل هذا الخطر، لم يكن ممكناً أن تمضى الأمور فى طريق الخطأ بطريقة بالغة السوء؛ ذلك أن حماية الرب المقدسة ستكون فى متناول القوات البريطانية مجدداً، كما كان يحدث دائماً من قبل. وكان دوجلاس هيج، القائد العام البريطانى، مفرطاً فى الثقة؛ إذ إن تجهيزاته لم تترك مكاناً للخطأ، ولم تُهمل أية تفاصيل فى التخطيط العسكرى، وكتب إلى زوجته قبل المعركة بوقت قصير «إننى أشعر أن كل خطوة فى خطتى تم اتخاذها بمساعدة إلهية». و افتراض أن «الرب يساعد أولئك الذين

http://almaktabeh.com

يساعدون أنفسهم، لا بد أنه قد كسب له قدراً كبيراً من المساعدة الإلهية من رب الجيوش. ومثل هذه المشاعر كانت تجد من يشارك فيها عالمياً؛ إذ إن أمة كاملة كانت على وشك المخاطرة بدماء رجالها وحياتهم على أساس افتراض أنها فعلاً الشعب المختار.

وساءت كل الأمور؛ إذ إن المدفعية الألمانية، والمدافع الآلية الألمانية والأسلاك الشائكة، تمكنت من أن تصد موجة بعد موجة من المشاة البريطانيين المتقدمين والذين واصلوا التقدم بشكل لا يكاد يصدق في ميدان المعركة الذي لم يلبث أن غطته جثث الموتى وأجساد الذين يعانون سكرات الموت. وصار أول يوم في يوليو ١٩١٦م أسوأ يوم في تاريخ الجيش البريطاني. فمن بين مائة وعشرة آلاف رجل في الهجوم الابتدائي، كان الضحايا أكثر من ستين ألفًا، وعدد كبير من أولئك الذين قتلوا في الحال تُركوا راقدين في ميدان المعركة لعدة أيام، وكانت صيحاتهم الجماعية من الألم والعطش تولد صراخًا مرعبًا في الليل كان يُسمع في مناطق بعيدة خلف خطوط القتال. فقد كان من الخطورة بمكان محاولة إنقاذ أكثر من حفنة من الأفراد. وفي أثناء النهار كانت صيحاتهم تغرق في ضجة المعركة المستأنفة؛ لأن الجنرالات استنتجوا أن خططهم المحبوكة لليوم الأول ما تزال صالحة لليوم الثاني أو اليوم الثالث. واستمرت المعركة حتى نوفمبر، ومع هجوم تلو هجوم، لم تحقق سوى الثبات أو تقدم ياردات قليلة مما كشف عن جهد بلا نهاية وخسائر جسيمة. ومن الصعب تجنب الانطباع بأن العناية الإلهية كانت ما تزال هي المعول عليها في كسب المعركة، وأن هيج الذي كان كالڤينيًا اسكتلنديًا صارمًا، أحس أن الرب ينبغي أن يتاح له الوقت الكافي؛ لكي ينضم إلى المعركة ويسلمه النصر. وبدا وكأن الرب قد تخلى عن منصبه بشكل مؤقت. بيد أن هيج لم يساوره أدنى شك في أنه سوف يعود إليه. والواقع أن أفضل طريقة لضمان مساعدة الرب هي المحافظة على الإخلاص للخطة أي الوفاء بنصيب بريطانيا. والاستمرار في المحاولة كان حرفيًا محاولة إيمانية؛ إذ إن الفشل في محاولة الإيمان كان يمكن أن يعني خسران الحرب.

ولم تكن نهاية عذاب سنة ١٩١٦م سوى تمهيد للرعب الذي تجدد سنة ١٩١٧م

http://almaktabeh.com

وأكثر معركة مخيفة خاضها البريطانيون على الإطلاق، وهى معركة پاسشنداپل (رسميًا معركة پيرس الثالثة) إذ لم يكن هيج قد فقد قناعته بالنصر البريطانى النهائى، ولكنه توصل إلى اعتبار الخسائر الضخمة بمثابة تضحية دم ضرورية.

والأسطورة الشائعة عن أنه كان جاهلاً بالظروف السائدة على الجبهة لا سند لها. فقد كان على علم تمامًا بكل المراحل، وغالبًا ما يعبر فى مراسلاته الخاصة عن الألم بسبب الأحوال على الجبهة، وبسبب معدل الخسائر (كان العدد النهائى لمجمل القتلى من البريطانيين والكومنولث أقل من المليون قليلاً) ولكن يبدو من المحتمل أن لا أحد سوى رجل متأكد من أن الرب يقف بجانبه يمكنه أن يستمر فى إصدار الأوامر إلى آلاف الجنود بأن يذهبوا إلى حتفهم يومًا بعد يوم. ورد الفعل تجاه هيج بعد الحرب يمكن إرجاعه جزئيًا إلى الطريقة التى اختار لويد چورچ أن يلومه بها على توجيهه لحرب كان هو المسئول عنها فى نهاية الأمر - إذ كان بوسعه عزل هيج فى أى وقت - كما يمكن إرجاعه إلى تخلى البريطانيين عمومًا عن مفهوم أن إسهامهم فى الصراع له أية علاقة بخطط الرب. وقد نُظر إلى هيج على أنه كان يتبع وجهة نظر لاهوتية عن مكانة بريطانيا فى العالم إلى خاتمتها المنطقية، وهى وجهة نظر كانت بقية الناس قد أداروا ظهورهم لها، فى وقت ما بين سنة ١٩١٦م ونهاية الحرب.

كانت حملة كتشنر للتجنيد قد ركزت على أن الأصدقاء يمكن أن يلتحقوا بالجيش ويحاربوا سويًا فيما عرف باسم «Pals Battalions» (أى كتائب الرفاق). وقد كانت هناك شوارع بأسرها فى المدن الصناعية فى وسط وشمال انجلترا تتلقى الأنباء الرهيبة بأن لا أحد من رجالها نجا من الموت. لقد كانت كارثة وطنية. ويتعرف فوسل على نقطة التحول: «لقد تعلم الجيش البرىء تمامًا ما هو الخير وما هو الشر فى السوم يوم أول يوليو سنة ١٩١٦م. إن تلك اللحظة، وهى واحدة من أكثر اللحظات إثارة فى التاريخ الطويل للتحرر الإنسانى من الوهم، يمكن اتخاذها نمطًا لكل أفعال الحرب التى تدعو للسخرية».

والواقع أن هيج واصل الحرب بعناد؛ وتقدم البريطانيون بشكل ثابت من حيث

http://almaktabeh.com

الحذق والمهارة، واكتشفوا الحرب الجوية، والقصف الزاحف، وقوة المدفع الآلى، واستخدام التغطية، وعدم جدوى الخيّالة، كما أنهم اخترعوا الدبابة. وبحلول خريف سنة ١٩١٨م كان الجيش البريطانى (الذى ضم قوات كبيرة من استراليا ونيوزيلندا وكندا) هو القوة الأولى الرابحة فى الميدان الأوروبى، وسلسلة من الانتصارات الساحقة التى تم تجاهلها بشكل يكاد يكون تامًّا فى حينها وفيما بعد، أوصل الجيش الألمانى المرهق إلى نقطة الانهيار والتسليم، والاستسلام غير المشروط.

ولكنه لم يعد يثق أبدًا فى أن الرب سوف يكسب معاركه نيابة عنه. فمنذ ذلك الحين وصاعدًا كان اعتقاد عامة الناس بأن الإنجليز شعب مختار يؤخذ على سبيل السخرية فقط، وكان من المحتمل بنفس القدر أن ينتج عنها غضب جارف. والحكم النهائى الذى يلعن الوطنية البريطانية التى جمعت بين الرب والمجد فيما قبل الحرب، هو الذى أصدره ويلفريد أوين، فى واحدة من أشهر القصائد. وأكثرها مرارة - عن الحرب العالمية الأولى بعنوان: «Dulse et Decorum»:

منحنون بشكل مزدوج مثل الشحاذين المسنين تحت المخلاة

ركُبنا مضروبة، ونسعل مثل العرافات الشمطاوات

نسب ونحن نخوض فى الوحل

حتى ندير ظهورنا على المشاعل المصاحبة

وصوب راحتنا البعيدة نبدأ مشينا المتعب

يسير الرجال نائمين. وكثيرون منهم فقدوا أحذيتهم

ولكنهم يعرجون، ودمهم مُراق. كلهم يعرجون، كلهم عميان

أسكرهم الإرهاق، صُمّ لا يسمعون حتى قنابل الغاز التى تسقط خلفهم بنعومة

الغاز، الغاز أسرعوا أيها الفتية - نشوة من التسكع والتردد

نضع الخوذات الرثة فى الوقت المناسب

http://almaktabeh.com

بيد أن شخصاً كان ما يزال يصرخ ويتعثر
ويتخبط مثل رجل فى حريق أو فى الجير
معتم من خلال المربعات الصغيرة والضوء الأخضر الكثيف
كما لو كان تحت سطح بحر أخضر، رأيته يغرق
وفى كل أحلامى أمام منظرى الذى لاحول له ولا قوة
كان يغطس تجاهى ويذوب ويختنق ويغرق
وإذا فى بعض الأحلام الخانقة كان بوسعك أيضاً أن تمشى بخطى وئيدة
خلف العربة التى طرحناه فيها
وترقب العينين البيضاوين تتلويان فى وجهه
وجهه المعلق مثل وجه شيطان مريض بالخطيئة
وإذا كنت تستطيع أن تسمع، عند كل هزة، الدم
يندفع مغرغراً من الرئة التى أفسدتها الرغاوى والزبد
مقضومة مثل إفراز القروح الدنيئة التى لا شفاء لها على الألسنة البريئة
فإنك ياصديقى لن تحكى بمثل هذه اللذة الفائقة
إلى الأطفال المتحمسين لمجد يائس
الكذبة القديمة : Dulce et decorum est Pro patria mori(*)

ويرى «آلان ويلكنسون» فترة الحرب العظمى ليس فقط باعتبارها النقطة التى يمكن عندها قياس التدهور الإحصائى لكنيسة انجلترا: وإنما هى النقطة التى بعدها كان «مهما فعلت الكنيسة، فإنه لم يعد بوسعها أبداً أن تعيد بناء نمط سلطتها

(*) هذا بيت شعر باللاتينية للشاعر الرومانى «هوراسيوس» وترجمته « إن من الحلاوة والوفاء أن يموت المرء فى سبيل وطنه» ـ المترجم.

http://almaktabeh.com

القديمة فى الوطن». وهو يحدد التناقص فى حضور البالغين (فوق خمسة عشر عامًا) صلاة الفصح فى كنيسة انجلترا بنسبة ٩٨ فى كل ألف سنة ١٩١١م، ٩٠ فى كل ألف سنة ١٩٢٥م، ثم ٧٣ فى الألف سنة ١٩٣٩م، و ٦٣ فى الألف سنة ١٩٥٨م، و٤٢ فى الألف سنة ١٩٧٣م. وكان الرقم المعادل سنة ١٩٩٧م ٢٩ فى الألف أو ٢,٩ فى المائة من السكان.

وكما يعترف ويلكنسون أيضًا، فإنه بعد سبعين أو ثمانين أو تسعين سنة ما يزال إحساس الإنجليز بأنفسهم مطاردًا بتلك الحرب وخيالاتها وصورها، ومطاردًا بالسؤال الذى يبحث عن حل: «ما الخطأ الذى وقع؟». ففى أعقاب الهولوكوست تعين على اليهود أن يسألوا أنفسهم فيما بعد: «أين كان إلهنا فى أوشفتز؟» وقبل هذا بسنوات، كان الإنجليز قد صكوا نفس السؤال: «أين كان ربنا فى معركة السوم؟».

* * *

http://almaktabeh.com

http://almaktabeh.com

(٨)

الجنس والأعمال الوحشية

كانت الفترة التى خضعت فيها إسرائيل لحكم قضاتها فترة من الحروب القبلية المستمرة، وقد تم تسجيلها فى النصوص المقدسة بحرص على الرغم من أنها لم تكن دائمًا فى ترتيبها الصحيح. وقد وفّر هذا ذخيرة كافية للخطب الكنسية البروتستانتية المتشددة؛ حيث كان يمكن وصف أعداء انجلترا بأنهم المؤآبيون، أو الكنعانيون، أو الفلسطينيون أو العماليق أو العمونيون، والآشوريون المشتتون. وكما تقول ليندا كولى:

«أرسل آدم فيرجوسون فرق الملك فى الأراضى العليا للقتال ضد بقايا الجيش اليعقوبى فى ديسمبر سنة ١٧٤٥م بخطبة اسكتلندية بنيت على أساس خطبة يوآب فى جيش إسرائيل قبل معركته مع العمونيين... كما أن ألكسندر ويبستر، القس المنحاز تمامًا للحكومة فى كنيسة تولبوت فى إدنبره، كرّس خطبه فى كوللودن لأولئك الذين يملؤهم «الاهتمام بصالح قدسنا والحماسة لإسرائيل البريطانية». بينما قام رجل كنيسة آخر، إنجليزى هذه المرة، بالترويج للأهمية الكونية لحرب السنوات السبع فى عنوان خطبته للاحتفال باتفاق الصلح فى باريس سنة ١٧٦٣م - «انتصار الإسرائيليين على المؤآبيين، أو البروتستانت على البابويين».

وافتراض أن كل من يقاوم قوة الدولة الوطنية البروتستانتية الإنجليزية يمكن اعتباره من الكنعانيين - ومن ثم يتم التعامل معه بقسوة مماثلة - كان قد انتقل بالفعل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لا سيما عندما جابهت سكان الأراضى الأصليين أى السكان الأصليين فى أمريكا أو الهنود الحمر.

http://almaktabeh.com

وضد الأعداء الأقوياء، كان الحكم بواسطة القضاة الدينيين يولّد شعوراً بأنه مصدر للضعف، مثلما كانت فُرقة إسرائيل؛ لأن كل قبيلة عبرية كان لها زعيمها الخاص، وقد أدى هذا بآخر القضاة، صمويل، للموافقة مرغمًا على أن إسرائيل يجب أن تصير مملكة متحدة، ووافق على أن يصبح شاول أول ملوكها. ومع هذا فإنه حذر من مخاطر المركزية والطغيان؛ ولم يمض وقت طويل حتى كان هو وشاول مشتبكين فى خلاف مرير ونزاع مستمر، وكان أحد واجبات الملك الرئيسية أن ينظم الجيش ويقوده، وهو ما قام به شاول لفترة من الزمان بنجاح كبير، ولكن الخلاف مع صمويل بات حتميًا.

كانت الظروف الفعلية السائدة تتميز بنوع من الخصوصية. فقد طلب صمويل من شاول أن ينتقم من الهجمات التى شنها العماليق على الإسرائيليين خلال رحلتهم فى البرية بعد الخروج قبل مائتى سنة. وهزم شاول العماليق، ولكنه لم يدمر كل فرد وكل شيء كما هى العادة(*) (وكما طلب صمويل)، وتم إحضار أجاج ملك العماليق الأسير أمام صمويل الذى اتهم شاول بالعصيان؛ لأنه تركه حيًا، ومضى هو ليمزقه إربًا بنفسه؛ ليبين ما أمر به الرب. والطريقة التى رويت بها القصة، لا تترك مجالاً للشك فى أنه كان من المتوقع أن ينحاز القرّاء لصمويل، ولفعلته القاسية والانتقامية. ومضى شاول وصمويل كل فى طريقه، ولم يلبث صمويل أن سعى لتقويض مكانة شاول بأن عين مساعده داود (الذى كان قد ذبح چوليات العملاق، ومن ثم قدم ذخيرة إضافية لأجيال من الخطب والمواعظ البروتستانتية بعد ذلك بآلاف السنين).

وأسس داود عاصمته القدس ونقل تابوت العهد إلى هناك؛ لكى يجعل المدينة بؤرة للهوية الدينية الوطنية. وقد أعطته انتصاراته على القبائل المجاورة إمبراطورية مصغرة بالفعل ليحكمها، ولكن المملكة لم تصل إلى ذروة القوة والمجد سوى فى

(*) تكرر فى العهد القديم الأوامر الإلهية بالقضاء على كل نفس حية: الرجال والنساء والأطفال والشيوخ وحتى الحيوانات. اقرأ على سبيل المثال فى سفر التثنية الإصحاح ٢٠: «فلا تستبقوا فيها نسمة حية بل دمروها عن بكرة أبيها» (١٦ - ١٧)، وفى سفر العدد الإصحاح ٣١: «فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلوا أيضًا كل امرأة ضاجعت رجلاً» (١٧) - المترجم.

http://almaktabeh.com

عهد «سليمان بن داود»، وبدأت الحضارة الإسرائيلية تحرز تقدمًا كبيراً. وبطبيعة الحال، فإن دورة تاريخ الخلاص - التى هى من أعراض الشعب المختار - بدأت تؤكد نفسها مرة أخرى فى نهاية الأمر، وصار الناس أقل إيمانًا عندما صاروا أكثر رفاهية. وقد تسامح سليمان إزاء الممارسات الوثنية، كما سمح بالمستوطنات غير العبرية فى المملكة. وكان حكمه يثير قدراً متزايداً من الاستياء ولا سيما اعتماده على عمل السخرة الإجبارية. اقرأ النص المنسوب إليه فى سفر الأمثال (٦ : ٦-٨) الذى كان محل اقتباس متواتر من جانب رجال الكنيسة البروتستانت، لدرجة أنه صار النص الأساسى لما يسمى أخلاقيات العمل البروتستانتى: «اذهب إلى النملة أيها الكسلان. تأمل طرقها وكن حكيمًا. التى ليس لها قائد أو عريف أو متسلط. وتعد فى الصيف طعامها وتجمع فى الحصاد أكلها».

وسرعان ما تمردت بعض أجزاء إمبراطورية داود المصغرة، وعند موته انقسمت إلى اثنتين: الشمالية (التى احتفظت باسم إسرائيل)، والجنوبية (مملكة يهودا). وهكذا تم عقاب الشعب المختار على عصيانه مرة أخرى بسوء الحال.

وقد أدى انفصال مملكتى إسرائيل ويهودا إلى أن يكون لكل منهما تاريخ منفصل، وكل منهما محكوم بقوة ونفوذ الجيران الوثنيين الأقوى، الآشوريين أولاً ثم البابليين (كما تدخل المصريون أيضًا). وتلت ذلك فترة طويلة من الحروب، والتحالفات والأحلاف الفاشلة، التى كانت تهدف إلى التوافق مع الآشوريين. وبرز نبى بعد آخر لكى يحذر الشعب المختار بأن مغازلتهم المتزايدة للآلهة الوثنية الأكثر إثارة لجيرانهم - الذين كانت عبادتهم تتضمن عادة عنصراً جنسيًا قويًا - سوف تجلب عليهم الهلاك.

وأكثر هذه الصراعات إثارة وبقاء فى الذاكرة بين الخير والشر (كما رآها راوى الكتاب المقدس) كانت هى الصراع المرير بين النبى إيليا والملكة إيزابيل، زوجة الملك أهاب ملك المملكة الشمالية، وهى النمط الأصلى للمرأة الخطيرة، والتى توصف بأنها عاهرة وشريرة؛ إذ كانت تعارض رب إسرائيل وقتلت عدة مئات من أتباعه (الذين يسميهم النص الأنبياء): وقد تفوق إيليا فى السحر على أتباع بعل فى

http://almaktabeh.com

منافسة شاذة غير مألوفة على جبل الكارمل، ثم قتل عدة مئات منهم (يسمون الأنبياء أيضًا) بدوره. وهددته إيزابيل بالقضاء عليه، و رد عليها بأن لعنها، قائلاً: «إن الكلاب سوف تأكل لحمها». وسرعان ما حدث هذا، ولم يتبق منها شيء يمكن دفنه. ولا تجسد إيزابيل مجرد الكراهية الدينية للعروض المكشوفة للممارسة الجنسية الأنثوية، فهي تجسيد أيضًا للإغراء والغواية التي تحملها الديانة الوثنية، مع طقوسها الجنسية السحرية والآلهة المزيفة التي تنتظر غواية الإسرائيليين وجلبهم بعيداً عن عبادة الرب الحقيقي.

وتعاود إيزابيل الظهور في سفر الرؤيا باعتبارها امرأة تمارس الرذيلة والزنا، وبذلك فهي نمط طبقه المبشرون البروتستانت بسهولة على الكنيسة الرومانية وطرقها الشريرة كما افترضوا. كما أنها علامة على نوع أكثر حذقًا من الروابط: وهي الرابطة بين الخطيئة الجنسية وعدم الإيمان الديني. ولا يهتم العهد القديم كثيراً بالخطيئة الجنسية في حد ذاتها، أو على الأقل ذلك النوع من العلاقة الجنسية العادية. ففي مجتمع أبوي يعرف تعدد الزوجات، فإن الرجل الذي يريد أن يضاجع امرأة غير متزوجة، سواء كان هو نفسه متزوجًا أم لا، عليه أن يتزوجها، وهو ما يتم بالاتفاق مع أبيها. وكان الرجل الذي ضاجع امرأة غير متزوجة قبل الزواج أو خارج الزواج يجبر على الزواج منها، إذا ما كانت امرأة ذات مكانة، وإلا يمكنه أن يجعلها محظيته، أو كان عليه أن يدفع لوالدها نوعًا من الغرامة. وسفر الخروج (٢٢ : ١٦ ـ ١٧) يقرر: «وإذا راود رجل عذراء لم تُخطب واضطجع معها يمهرها لنفسه زوجة. إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى».

وكان الرجل الذي يضاجع امرأة متزوجة من شخص آخر يُدان بارتكاب الزنا، ويمكن رجم الاثنين بالحجارة حتى الموت. ولكن الزنا يكون على حسابها وليس على حسابه، ما لم تكن المرأة التي ضاجعها متزوجة بالفعل من رجل آخر؛ لأن الرجل المتزوج لا يمكن إدانته بالزنا. ولم يكن أحد يهتم برضاء المرأة وموافقتها، ولكن إذا كانت تعتقد أن جسدها ملك للآخرين، فمن المفترض أنها لم تكن تهتم هي نفسها بالموافقة كثيراً. ومن الأمور ذات الدلالة أن الاغتصاب، بحد ذاته، لم يرد ذكره باعتباره جريمة في العهد القديم على الإطلاق.

http://almaktabeh.com

هذه المعايير المزدوجة المتطرفة لا تبدو معقولة سوى إذا ما كانت المرأة تعتبر ملكية للذكر، فإذا كانت هى (أو قدرتها الجنسية) «مملوكة» لشخص آخر، فإن مضاجعتها إذن تكون مشابهة لعملية السرقة، فإذا لم تكن مملوكة لأحد آخر فإنه يمكن الحصول عليها بترتيبات مالية مع أبيها الذى «يبيع» عذريتها إلى زوجها الجديد، ومن ثم فإن فقدان العذرية يدمر قيمتها.

كانت للتطبيق الصارم لهذه القواعد فى المجتمع البيوريتانى فى نيوإنجلاند نتائج متساهلة بطريقة غير متوقعة. ويسجل چون ويثروب حاكم ماساشوستس فى يومياته ليوم ٢١ يونيو ١٦٤١م: «برز سؤال فى المحكمة حول عقاب زنا الأعزب؛ لأنه حسب قانون الرب، كان على الرجل أن يتزوج المرأة فقط، أو يدفع مبلغًا من المال لأبيها؛ ولكن القضية المطروحة بين خادمين، وتم جلدهما بالسياط لأنهما أساءا استخدام منزل سيدهما...».

وأشهر حالة زنا من الفترة البيوريتانية هى الحالة الروائية لـ «هيستر بيرين» التى ألبست الثوب القرمزى الفاضح فى الرواية التى تحمل هذا الاسم للمؤلف ناثنيال هوثورن. فقد كانت متزوجة (على الرغم من أن زوجها كان قد اختفى)، وأنجبت طفلاً من رجل آخر لم يتم الكشف عن هويته. وتحت حكم قانون العهد القديم، الذى تقبله البيوريتان فى ماساشوستس ولكن لم يطبقوه بصرامة، كان ينبغى رجمها بالحجارة حتى الموت. وكان الحكم الذى أصدره قانون ماساشوستس أن «تجلد على ظهر عربة عبر شوارع البلدة، وترتدى شارة عليها الحرفين AD تقطع فى ثوبها على كمها الأيسر». وفى هذه الحالة جعل هوثورن الحكم على هيستر بيرين يصدر من الحكّام بفترة من الخزى العام - بحيث تقف على مشنقة البلدة - مع إلزامها بأن ترتدى حرف A على ثوبها طوال الوقت. وتخفف بيرين من عقوبتها وتتحايل عليها بأن تطرز حرف A بطريقة فاخرة وترتديه لا بخجل وإنما بفخر يتسم بالتحدى.

وفى مجتمعات العهد القديم وتلك المجتمعات التى حذت حذوها، كان الرجل الذى يتزوج يتمتع بحقوق جنسية على زوجته، بيد أنها لم تكن لها حقوق

http://almaktabeh.com

جنسية عليه. ومعاملة النساء باعتبارهن ممتلكات للذكر فى مثل هذا المجتمع كانت بدورها جزءًا من نظام للملكية والوراثة داخل العائلات؛ إذ كانت تضمن الحفاظ على ثروة العائلة؛ إذ إن الرجل لا يريد أن يخلفه أبناء رجل آخر نتيجة زنا زوجته. وتضمن العذرية عند الزواج أنها ليست حاملاً من رجل آخر.

والزنا، الذى فهم فى المعنى المسيحى اللاحق بأنه يعنى المضاجعة خارج نطاق الزواج، ليس مفهومًا واردًا فى العهد القديم. فحيثما ترد الكلمة، تعن عادة المجامعة الجنسية مع عاهرات المعبد، أو فى أية احتفالات أخرى تكريمًا لآلهة الخصوبة الوثنية. وهى بهذا ليست جريمة أو خطيئة جنسية بقدر ما هى دينية. وكان الملوك والأنبياء الذين قاتلوا ضد انجذاب شعبهم صوب الديانة الوثنية التى اصطبغت بالصبغة الجنسية بدرجة عالية والتى كانت تحيط بهم من كل جانب، لا يهتمون أساسًا بالأخلاقيات الجنسية، بالمعنى الحديث؛ إذ كانوا يريدون لإسرائيل أن تبقى مخلصة لربها. وقد كانت مضاجعة إحدى عاهرات المعبد بمثابة مضاجعة الرب الذى تمثله.

ولا أحد يجسّد تلك الغواية الجنسية الوثنية أفضل من إيزابيل الجميلة. ومن الواضح تمامًا أن إيليا لم يكن يعارضها؛ لأنها كانت شهْوانية بهذا الوضوح، على الرغم من أنها كانت كذلك بصورة واضحة. كان يعارضها لأنها سحبت العبرانيين صوب الأصنام الزائفة. ولكن فى التبشير البروتستانتى، الذى يعكس النفور المانوى الشديد لكل الأمور الجنسية والذى كان من خصائص البيوريتان وإلى حد ما من خصائص كل الفرق المسيحية أيضًا، كانت إيزابيل قد صارت النمط الأصلى للغواية الأنثوية. وكل امرأة كانت تتجشم عناء أن تبدو ذات جاذبية جنسية كانت تضع نفسها فى موضع المقارنة معها، ويتم تذكرتها بمصيرها المرعب، لقد صارت موضة للنساء أن تلبسن ثيابًا فضفاضة. كانت الزينة تعتبر من عمل الشيطان.

ومساواة الزنا بعدم الإخلاص للرب عملة ذات وجهين. وهناك تراث مواز فى العهد القديم للفهم التدريجى لعلاقة الرب مع الإسرائيليين بأنه يشبه علاقة الزوج والزوجة - ليس مجرد الحب الرومانسى، ولكن الزواج بكل تقلباته. ويصير هذا

http://almaktabeh.com

واضحًا من النبى هوشع فصاعدًا. فقد بدأت أفكاره مع تأملاته فى عدم إخلاص زوجته، التى سامحها عليها. وعلى الرغم من ألمه ظل مخلصًا، وقادته هذه الأزمة التى اعترت زواجه إلى التفكير فى حب الرب للإسرائيليين، وهناك صورة قلمية مؤثرة كتبها بيتر كالفوكوريسى فى «Who is Who in The Bible?»:

«وجه هوشع ملاحظة حنونة نسبيًا على الرغم من أنه حمل حملة شعواء ضد عبادة الأصنام، والرفاهية، والمجون، وانعدام مسئولية الحكّام الذين خانوا الثقة فيهم. وحث إسرائيل على التركيز على الإصلاح الدينى والأخلاقى ووقف الانشغال بالسياسات العالمية. . . فقد كان يؤمن بأن وظيفة الرب هى أن يوقع العقاب ولكن أيضًا إظهار الرحمة، وأن الرب مشدود فى طريقين بسبب خطايا إسرائيل وبسبب معاناتها. ولم يكن هوشع نفسه رجلاً سعيدًا، كما أنه على عكس سجايا الأنبياء العبرانيين، كانت حياته الخاصة مشتبكة بصورة مربكة مع نبوته، فقد كان مأمورًا بأن يتزوج عاهرة هى جومر التى رُزق منها بثلاثة أبناء، وأن يخلّص امرأة ساقطة ربما كانت هى جومر، وقد انحرفت مجددًا أو ربما كانت عاهرة أخرى. وسواء كان يعرف أو لا يعرف ماضى جومر قبل أن يتزوجها، فقد صار معاديًا للممارسة الجنسية غير المنظمة وطوّر مشابهة بين الزواج الدنيوى والعلاقة بين الرب وشعبه المختار تتألف من الود وخيبة الأمل».

هذه الفكرة الجوهرية، بينما توضح العلاقة بين شعب الرب والرب نفسه، لتكشف أنها علاقة غفران ومسامحة و ود ورقة وعلاقة قوة فى الوقت نفسه، فإنها أيضًا ترفع من مكانة الزواج؛ إذ إن الاضمحلال التدريجى فى تعدد الزوجات وسيادة الزواج من واحدة فقط (الذى كان قد رسّخ تمامًا فى زمن العهد الجديد على الرغم من أن تعدد الزوجات لم يمنع نهائيًا فى اليهودية حتى القرن الحادى عشر الميلادى) قد تم ربطه مباشرة بهذا الدفع من شأن الزواج سيرًا على نهج هوشع، كما تم ربطه أيضًا بطريقة غير مباشرة بارتفاع شأن المرأة تبعًا لذلك.

وحينما اعتبرت المسيحية أنها حلّت محل اليهودية، انتقلت هذه العلاقة بين الرب وإسرائيل بشكل تنميطى إلى العلاقة بين الرب والكنيسة (أو تحديدًا بين

http://almaktabeh.com

المسيح والكنيسة)، بيد أنها لم تحتفظ بفكرة أن الكنيسة يمكن من حين لآخر أن تكون غير مخلصة، أو أن المسيح قد يحتاج إلى مسامحتها. وبدلاً من ذلك، كان يُنظر إلى الكنيسة على أنها عروس لا تشوبها شائبة، عاجزة عن ارتكاب الخطيئة (الجزء «المقدس» من قائمة الصفات التى تتحلى بها الكنيسة فى العقيدة «كنيسة كاثوليكية وحوارية واحدة مقدسة»). وبدلاً من مشابهة حقيقية لحياة الزواج، تصير العلاقة بين المسيح والكنيسة، مثل الحب الرومانسى فى الخيال الشعبى، شهر عسل دائمًا.

ولا شك فى أن هذا أضعف قيمة المجاز والاستعارة، كما أنه فرض رؤية نظرية للكنيسة تتناقض مع المؤسسة الفعلية المتكبرة والخاطئة وغير المخلصة غالبًا التى نعرفها من خلال تاريخ الكنيسة. وثمة قدر كبير من سوء الفهم، بعضه تم خلقه عمدًا، قد فاض من هذا الانفصام، وما يزال يتدفق؛ إذ إن النظرية ترتكز على فهم ميتافيزيقى ودينى بأن الكنيسة هى علامة خارجية، ربما تكون جزئية أو معيبة، وحقيقة داخلية، ينبغى أن تكون كاملة. وقد رفض البروتستانت الأوائل هذه الغيبيات المقدسة، لسبب جوهرى يرجع إلى رفضهم اللاهوت الكاثوليكى عن طقس التناول. وهو الذى يميز بين العلامة الخارجية للطقس المبارك، الخبز والنبيذ، والحقيقة الداخلية التى هى دم المسيح وجسده. وحتى اليوم، عندما تتحدث الكنيسة الكاثوليكية عن نفسها، فإنها تتجه إلى أساس الكنيسة الخفية (الكاملة)، بدلاً من المظهر الخارجى المرئى (الذى يكون غالبًا بشريًا أكثر من اللازم). ولهذا السبب، فإن الفاتيكان فى اعتذاره بمناسبة الألفية الثانية لنزعة معاداة السامية لدى الكاثوليك، وجّه اللوم إلى «أعضاء الكنيسة» بدلاً من «الكنيسة» ذاتها، وهو تمييز ترك بوضوح كثيراً من اليهود بإحساس أن الاعتذار لم يكن من القلب تمامًا.

والمذهب البروتستانتى، بينما لا يعرّف «الكنيسة» بأنها المؤسسة التى تحمل ذلك الاسم وتتمركز على روما «وإنما العكس»، فإنه يطبق على مفهومه الخاص للكنيسة «المبدأ اللوثرى»، بمعنى أن الكنيسة تحتاج إلى أن تكون فى عملية إصلاح

http://almaktabeh.com

مستمرة، وهذا أقرب إلى نموذج العهد القديم عن شعب الله المختار. إنها علامة على الكنيسة الكاثوليكية التى بدأت تتحرك صوب هذا الفهم للكنيسة أن مجمع الفاتيكان الثانى (١٩٦٢ - ١٩٦٥م)، بينما يستخدم أيضًا مصطلحات «الشعب المختار» للدلالة على نفسه بقدر أكثر كثيراً عن ذى قبل، فإنه أيضًا مضى شوطًا فى اتجاه المفهوم اللوثرى عن الإصلاح المستمر بأن تبنى نفس المعادلة عن التطهير المستمر. أما ما لم تفعله حتى الآن لكى تجعل نموذج العهد القديم عن النبوة مناسبًا لها، وهى أن شخصًا ملهمًا يمكن أن يقف فى مكان الأنبياء ويكون ناطقًا باسم الرب لعمل التطهير المتواصل، بيد أن هذا ربما يكون تطوراً يمكن التطلع إليه فى المستقبل. وتحتاج الكنيسة الكاثوليكية إلى هوشع آخر، لا لكى يخبرها بعريس مولع دائمًا بجمال الكنيسة، ولكن يخبرها عن زوج كسير القلب يسامح زوجته غير المخلصة مرات ومرات.

وإلى أن حولت الدراسات الحديثة فى الكتاب المقدس التفسيرات غير المقبولة، كان من المفترض أن هذه العلاقة الزوجية التميطية (الرب - إسرائيل يساوى الزوج - الزوجة) تشرح وجود بعض الشعر فى العهد القديم بشكل صريح، وهو ما يسمى «نشيد الأنشاد» أو «نشيد سليمان»؛ إذ إن المشاعر الرومانسية التى يرد وضعها كان يفترض أنها إشارة مجازية أو تنميطية إلى الزواج العاطفى بين الرب وإسرائيل (أو بين المسيح والكنيسة). والحقيقة أن هذا التفسير مفتقد فى العهد القديم، ويبدو أنه ربما لم يخطر ببال الباحثين اليهود حتى سمعوا الباحثين المسيحيين يطبقونه على الكنيسة فى القرن الثانى بعد الميلاد تقريبًا. وفى كل من الحالين ربما كان الدافع هو تفسير نص يبدو أنه يطرى الشهوة الجنسية، وهى فكرة لم تكن السلطات الدينية اليهودية أو المسيحية مرتاحة إليها.

والتفسير القائل بأن الكاتب، ربما يكون الملك سليمان نفسه، كان يحاول أن ينافس طقوس الإخصاب الكنعانية كان شائعًا لفترة من الزمان ولكنه غير مقبول الآن. وهناك مشابهات فى أشعار الحب المصرية القديمة، ولكنها ليست اقتباسات مباشرة؛ إذ إن «نشيد الأنشاد» بقدر ما يحمله من دور تعليمى

http://almaktabeh.com

بالمصطلحات الدينية، فإنه كان يوضح أنه لا يوجد شيء خاطئ في الرغبة الجنسية بحد ذاتها، ولا أن الرب يغضبه أن يستمتع الرجال والنساء بعضهم البعض بهذه الطريقة. وهناك أيضًا مساواة بين رغبة الرجل في المرأة أو رغبة المرأة في الرجل؛ إذ إنها ليست علاقة سيادة أو امتلاك، ولكنها علاقة عاطفة، ورغبة وإخلاص متواضع. ويفكر الباحثون الآن بأنه من المرجح أن «نشيد الأنشاد» قد تم جمعه من مقاطع كانت تؤدى في الأصل للتسلية في احتفالات الزواج، وهذه عينة دالة على الأسلوب:

«ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة عيناك حمامتان من تحت نقابك، شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد، أسنانك كقطيع الجزائر الصادرة من الغسل اللواتي كل واحدة مُتئم وليس فيهن عقيم، شفتاك كسلكة من القرمز، وفمك حلو، خدك كفلقة رمانة تحت نقابك، عنقك كبرج داود المبنى للأسلحة، ألف مجن علق عليه كلها أتراس الجبابرة، ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن، إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال أذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان، كلك جميل يا حبيبتي ليس فيك عيبة.

هلمي معي من لبنان، انظري من رأس أمانة من رأس شنير وحرمون من خدور الأسود من جبال النمور، قد سبيت قلبي يا أختي العروس، قد سبيت قلبي بإحدى عينيك بقلادة واحدة من عنقك. ما أحسن حبك يا أختي العروس كم محبتك أطيب من الخمر، وكم رائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب، شفتاك يا عروس تقطران شهدًا، تحت لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان» (نشيد الأنشاد ٤ : ١ ـ ١١).

والنشوة غير المكبوتة التي يحملها النص تعني أنه لم يكن من النصوص المفضلة لدى أي مبشر بيوريتاني، كما أنه لم يكن يعطي قدرًا كبيرًا من الثقل في النظرة الكاثوليكية التقليدية القائلة بأن المتعة الوحيدة في الجنس هي إنجاب الذرية، وأن هذا الولع الزائد، حتى في فراش الزوجية، كان خطيئة. والنزول بـ «نشيد الأنشاد» إلى جعله مجرد مجاز لاهوتي، يوضح مدى الحب الكثير الذي أحبه الرب

http://almaktabeh.com

لإسرائيل (أو المسيح للكنيسة)، كان وسيلة مناسبة لدفن ابتهاج الشاعر الواضح بالشهوة الجنسية.

وبمرور الوقت انعكست هذه الموافقة المتساهلة تجاه النساء والزواج والجنس في العهد القديم على المواقف تجاه الحرب، فالواقع أن ذلك تجلى في زيادة عامة في الحكمة وتناقص عام في الوحشية عبر المسرح. فقد كانت التطورات السياسية والعسكرية بمثابة المهماز، بيد أن النتيجة تمثلت في كَمّ من الأدب الديني أنتجه أنبياء بني إسرائيل الكبار والصغار، يتميز بالعمق والأصالة التخيلية فاق الأدب في أية حضارة أخرى آنذاك، ويبدا كما لو أن مصائب الشعب، التي تسببت فيها سلسلة من الملوك الصغار الذين كانوا إما حمقى وإما أوغاداً، قد ولدت انفجاراً مساوياً للطاقة الإبداعية لصالح الخير من جانب الرجال المتعلمين والحكماء في ذلك الزمان (كان بعضهم، بسبب حكمتهم، يبدون مجانين في عيون معاصريهم). كان معظم هذا الأدب مكرسًا لتصحيح بلاهة الملوك وتحذير الشعب من عواقب حماقتهم، بيد أن مجاله تعدى سياقه المباشر، ومثل الفن العظيم في كل مكان كان يتحدث عن الحالة الإنسانية في كل الظروف. ولا شيء أثر على الفضاء العقلي للثقافة الغربية بقدر ما أثرت المزامير، والأمثال والنبوءات التي تولدت عن الأحداث المعروفة باسم «المنفى البابلي» (أو الأسر البابلي)، وهي فترة أزمة سياسية وعسكرية حادة في حياة بني إسرائيل أوشكت فيها على الهلاك إلى الأبد. وكان في تلك الفترة أن تمت كتابة الجزء الأكبر من العهد القديم، وتحريره على الصورة المعروف بها.

وإذ لاحظنا بربرية الإسرائيليين القدماء، وحوادث الاغتيال والمذابح التي كانت تتم بشكل روتيني بموافقة الرب أو بناء على أمر منه، فمن المهم أيضًا أن نتعرف على عمقهم وإدراكهم الأخلاقي المتنامي، والشعور بالعدالة، وإدراكهم لكوامن الشفقة في الحياة الإنسانية، وأهمية الاعتماد المتبادل. وإذا كانت البربرية مثالاً خطيراً للأمم اللاحقة التي ظنت أنها مختارة من الرب، فإن النظرة الأخلاقية والروحية المتنامية التي كانت قد بدأت تميز الإسرائيليين القدماء أيضًا كانت عاملاً قويًا في تطور الحضارة في ظل المسيحية.

http://almaktabeh.com

وأولئك الأنبياء كانوا لا يألون جهدًا وهم يؤنبون حكّام زمانهم. ومن المحتمل تمامًا أن البروتستانت فى بريطانيا وبعدها فى أمريكا ساروا على مثالهم، واعتبروا أن لهم حقًا إلهيًا لأن يصرحوا بما فى أذهانهم عن أخطاء حكّامهم.

وفى بعض الأحيان كانت وظيفة «النبى» ـ تكاد تعتبر وظيفة ذات صلاحيات ـ جزءًا من مؤسسة المعبد فى القدس. وإذا ما اعتبرنا أن مهمة النبى الرئيسية كانت توبيخ الحاكم والشعب جراء سلوكهم الردىء، لقد كانت نوعًا من «المعارضة الرسمية». والكلام عن حرية الحديث مبالغة على أية حال؛ لأن الأنبياء كانوا يدينون الملوك ويواجهون الهلاك وربما كانت حياتهم ثمن ذلك. ومع هذا إدانتهم واردة فى روايات العهد القديم على نحو مطوّل، عادة على أنها كلمات ينطق بها البشر ولكنها آتية من الرب مباشرة، ودائمًا يكون كاتب النصوص المقدسة فى جانب الأنبياء. وباعتبار العهد القديم سجلاً للنبوءة، فإنه عبارة عن كتالوج قوى المعارضة ضد سوء استخدام الحكم. ولأنه كان يعتبر فى المجتمعات البروتستانتية «كلمة الرب»، فإن هذا أسبغ على المعارضة (على الأقل حينما كان التعبير عنها يتم باسم الديانة الحقيقية) خاصية مقدسة. وربما لم تكن تروق للملك و وزرائه ولكن مع وجود مثل هذه الأمثلة المأخوذة من الكتاب المقدس، فإنه لم يكن بوسعهم أن يجادلوا بسهولة بأن توجيه النقد إلى الملك كان أمرًا شريرًا أو مناقضًا لإرادة الرب.

وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا مدى انغماس العامة فى الكتاب المقدس، فإن مفهوم التوتر المستمر بين الملك والنبى، بين الحكومة والمعارضة، كان تأثيرًا تشكيليًا مهمًا فى ظهور الديموقراطية البرلمانية فى انجلترا، وعلى الرغم من أن النقد الموجه إلى سياسة الدولة صار علمانيًا عندما صارت مواضيع الشئون السياسية نفسها علمانية، فإنها برزت فى البداية عندما كانت كل الشئون السياسية تقريبًا متداخلة مع الدين. ونقص المجاز النصى المماثل فى الجدل السياسى فى الفهم الكاثوليكى للنبوءة الواردة فى الكتاب المقدس، ربما يشرح السبب فى أن الديموقراطية البرلمانية كانت على مدى فترة طويلة تعتبر نظامًا أجنبيًا وغريبًا فى البلاد الكاثوليكية؛ إذ إن تراث النبوءة معاد للاستبداد الملكى ـ بمعنى أن الملك لا

http://almaktabeh.com

يمكن أن يخطئ - قدر معاداته للاستبداد الكنسي - بمعنى أن الكنيسة لا يمكن أن تخطئ. وكل من يعرف العهد القديم ويطبقه على موقفه الخاص يعرف الأمر بطريقة مختلفة: فالملوك والكنائس يرتكبون الأخطاء طوال الوقت. وهذا قد يفسر السبب في أن المجتمعات الكاثوليكية كانت أكثر انفعالية وأكثر ثورية من المجتمعات البروتستانتية، كما يفسر السبب في أن المجتمعات البروتستانتية كانت تؤخذ على أنها أشد إخلاصًا للكتاب المقدس. يقدم النظام البرلماني الطريقة التي يمكن أن تستجيب بها المؤسسات الحكومية للضغط، وبدونها، ليست لديها سوى بدائل قليلة للمقاومة حتى الموت، أو الانهيار.

وربما يفسر هذا أيضًا السبب في أن البروتستانتية القائمة على الكتاب المقدس قريبة الشبه بفكرة الحرية والتحرير. وهذه الحالة ليست أكيدة تمامًا، فباسم البروتستانتية تم ارتكاب الجرائم الفظيعة في حق الإنسانية، وإذا ما وضع المرء البروتستانتية ضمن الأيديولوجية الدافعة إلى استعمار أفريقيا، مثلاً، أو القضاء على المقاومة المحلية ضد التوسع الأمريكي باتجاه الغرب، أو التورط الأنجلو-أمريكي في الرق، فإن مثل هذه الجرائم قد تفوق تلك الجرائم التي ارتكبت باسم الكاثوليكية (على الرغم من فظاعتها هي الأخرى). لقد كانت الكاثوليكية هي الراية التي في ظلها اضطهدت ماري الدموية الشهداء البروتستانت في منتصف القرن السادس عشر، وهي قصة أرّخ لها بشكل حيوي على مرّ السنوات چون فوكس، واضطهادات الهيجونوت في فرنسا، أو مصير اليهود والهراطقة في إسبانيا تحت فظاعة محاكم التفتيش. ولكن في العهود البروتستانتية التالية، تم إعدام المزيد من الكاثوليك في انجلترا وويلز بقدر يفوق العدد الكلي لضحايا الملكة ماري. وسواء كان الموت شنقًا، أو الإغراق، أو تقطيع الجسد إلى أربعة أجزاء (وهو المصير الذي لقيه معظم الكاثوليك) فإنه لم يكن أقل قسوة من الموت حرقًا (الذي كان الوسيلة المفضلة للتخلص من البروتستانت). والنقطة هنا ليست مسألة من قتل معظم الناس، أو مسألة أي شكل من أشكال الإعدام كان أشد إيلامًا، وإنما هي أن الكاثوليك تحت حكم إليزابيث الأولى أو چيمس الأول، لم يكونوا أكثر حرية في التعبير عن آرائهم مما كان البروتستانت تحت حكم ماري. لقد كان هناك

http://almaktabeh.com

حديث مستفيض عن «التسامح» عندما اقترب القرن السابع عشر من نهايته، بيد أنه لم يكن أبداً تسامحًا تجاه الكاثوليك - باستثناء فترة حكم چيمس الثانى القصيرة. وبعبارة أخرى، كان تسامحًا إزاء أولئك الذين كان من الأسهل التسامح إزاءهم، أى تسامح بثمن بخس(*).

كانت هناك جرائم الكاثوليك، ولا يمكن للمرء أن يقول المثل عن جرائم الكراهية الأخرى التى تقف ضد اسم البروتستانتية الطيب فى انجلترا وأمريكا القرن السابع عشر - اضطهاد الساحرات. ومثل هذا التحرر أو الحرية كما زعمتها البروتستانتية، كان تحرراً لشعب الرب، تمامًا مثل الحال فى العهد القديم. ومعظم ما نُهى عنه فى شرائع موسى، بما فى ذلك الحرية من العبودية، لم يكن ينطبق سوى على العبرانيين، وأى واحد خارج هذه الحدود، سواء كان غريبًا أو خائنًا، لا يتمتع بمثل هذه الحماية، والكاثوليك (لكونهم أعضاء فى شعب مختار منافس) لم يكونوا تحديدًا من ضمن هؤلاء، ولا اليهود (لأسباب مشابهة). وكانت الساحرات أشد سوءاً من الاثنين؛ لكونهن عدوات سريات بالداخل أكثر من الأعداء الواضحين فى الخارج. فالسحر، مثل الهرطقة، جريمة فكر: فالفعل نفسه خفى، على الرغم من أنه يمكن استنباطه من أدلة أخرى.

وعلى مدى الألف سنة الأولى من المسيحية كان السحر يعتبر إما مجرد استمرار للاعتقاد الوثنى فى السحر، أو مجرد عبث. هذا على الرغم من المنع الواضح فى سفر الخروج(٢٢: ١١) «لا تدع ساحرة تعيش»، وهو ما يشير ضمنًا إلى أن الساحرات كن حقيقيات. وكل من الرومان ومحاكم التفتيش الإسپانية لم يأخذ السحر على محمل الجد، كما أن المناطق الأوروبية تحت هيمنة الرومان والإسپان لم تشهد موجات الهياج المجنون ضد السحر والتى اندلعت فى الأماكن الأخرى، لا سيما فى ألمانيا (تحت الإشراف الكاثوليكى إلى حد بعيد) واسكتلندا (تحت

(*) وضع المفكر الإنجليزى المشهور «چون لوك» كتابًا صغيراً عن التسامح فى نهاية القرن السابع عشر، وفى نهاية الكتاب أوضح أن هذا التسامح يستثنى منه: اليهود والأتراك (المسلمون)، ومن لهم ملك خارج البلاد (يقصد الكاثوليك والبابا)! . ولمن أراد الاستزادة يمكنه قراءة كتاب «رسالة فى التسامح» الذى نشرته «دار الغرب الإسلامى»، وترجمه وقدمه بدراسة متميزة عبدالرحمن بدوى.

http://almaktabeh.com

الإشراف البروتستانتى)، وبلغ حرق الساحرات الذروة فى انجلترا خلال فترة الحكم البيوريتانى تحت كرومويل. كما أن محاكمة سالم الشهيرة التى ضمت مائة وخمسين متهمًا فى ماساشوستس، والتى كانت محكومة بالحرفية البيوريتانية المستندة إلى الكتاب المقدس أيضًا، حدثت فى وقت لاحق سنة ١٦٩٢م، وأسفرت عن شنق تسعة عشر - وبعدها بوقت غير طويل صدر العفو عن عدد مماثل.

والمعارضة المتوحشة من جانب البيوريتان للسحر تم تفسيرها بطرق مختلفة، وهى تقدم مجالاً غنيًا للحالات التى يلتقطها المحللون النفسيون وعلماء الأنثروبولوچى. وثمة تفسير دينى يمكن أن يكون مؤداه أنها نتاج للإيمان بالقدر؛ إذ إن أولئك المختارين - الذين مقدر لهم سلفًا أن ينالوا الخلاص - كانوا بطبيعة الحال فضوليين بشأن أولئك الذين ليسوا كذلك، والذين لا يمكن أن يكونوا جميعًا من الرومان الكاثوليك؛ ذلك أن من ينال الخلاص، والملعون، كانا يتزاحمان بالمناكب سويًا فى غمار الحياة، ولا يكاد كلٌ منهما يقدر أن يطلب من الآخر أن يبتعد. ومن هذا فإنه إذا كان من سينالون الخلاص قد اختارهم الرب فعلاً، فإن الملعونين إذن كانوا، بالاستنباط، مختارين من الشيطان بالفعل. ولكون الشيطان ماكرًا، فإنه لم يكن ليكشف عن اختياره بهذا الوضوح، بأن يجعلهم جميعًا مثلا أشرارًا إلى أبعد مدى. ولذلك فإن بعضهم لا بد وأن يعيشوا مظهريًا عيشة تواضع وتقوى، بينما يحافظون على روابطهم مع الشيطان سرًا. وكان جزء من عمل الشيطان هو أن يخطف أرواح المختارين من الطريق إلى السماء - فالقدر لم يكن سوى توضيح لحالة من النعمة يمكن خسرانها، وليس ضمانًا أكيدًا للخلاص أيًا كانت الحال. ومن ثم فإن أولئك الذين انخرطوا فى أعمال السحر كانوا إما «مسيحيين ساروا فى الطريق الخطأ» - وهم يمكن التبشير بينهم، وجعلهم يعترفون، وإعادتهم إلى المسيحية ومعاقبتهم ثم يتم التكفير عن ذنوبهم فى النهاية - أو أولئك الذين قدر لهم سلفًا أن تنالهم اللعنة، ولا يمكنهم التوبة، ولا يمكن بعد التظاهر بهذا أن يعودوا إلى دينهم. وتبدو فكرة أن السحر بقاء لديانة وثنية سابقة فكرة خيالية؛ إذ لا توجد وسيلة يمكن أن تكون بها

http://almaktabeh.com

«ساحرات سالم» الشهيرات، مثلاً، على اتصال بديانة إنجليزية سابقة على المسيحية.

وحالة البارانويا بشأن الساحرات التى أمسكت بتلابيب أوروبا ومسّت نيوإنجلاند على مدى مائتى سنة لم تلبث أن خفتت، بعد أن أودت بحوالى خمسين ألف ضحية. والاعتقاد فى السحرة كان يتطلب اعتقاداً نشطًا فى الشيطان، أى روح شريرة قادرة على أن تتخذ شكلاً إنسانيًا أو حيوانيًا يتجول فى العالم لينشر الشر، وتقيم الساحرات معه علاقات جنسية ! . والشيطان بطبيعة الحال، كان مرتبطًا بالمسيح الدجال بشكل وثيق. وفى انجلترا وأمريكا البروتستانتيين، تصادفت قمة الهياج لمطاردة السحر مع ذروة البارانويا تجاه الكاثوليكية، لا سيما الخوف من أن كثيرين من الناس الذين تظاهروا بأنهم ليسوا كاثوليكًا كانوا كذلك بالفعل. وكانوا معروفين بأنهم أتباع «الكنيسة البابوية»، والمقصود بهم أولئك الذين توافقوا مع كنيسة انجلترا دون أن يتخلوا حقًا عن «الديانة القديمة» التى استمروا يمارسونها فى السر. وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا العقوبات القاسية على عدم حضور الخدمات الكنسية فى الكنيسة المعترف بها، بما فى ذلك خطر الحرمان من الميراث، فإن مثل هذا التوافق المظهرى كان واسع الانتشار.

وكذلك لم يكن الشك البروتستانتى فى تشارلز الثانى ونظامه خياليًا تمامًا؛ إذ إنه تقبل مساعدة مالية من ابن عمه الفرنسى لويس الرابع عشر، وهى مساعدة كانت مشروطة بأن يتحول إلى الكاثوليكية، وهو ما فعله على فراش الموت. ولكن نتيجة لمناخ الشك السائد هذا كان كل شىء خطأ لا يمكن نسبته إلى السحر يمكن أن يُعزى إلى الكاثوليك وأنشطتهم السرية، أو إلى الكاثوليكية والسحر فى تحالف شيطانى. ففى البداية كان اللوم يوجه رسميًا إلى الكاثوليك بشأن النيران التى دمرت معظم أنحاء لندن سنة ١٦٦٦م. والأوبرا التى ألفها بورسل تحت عنوان: «Dido and Aeneas»، والتى ربما تكون قد كُتبت قبل موت تشارلز الثانى سنة ١٦٨٥م، حينما كان الهياج البروتستانتى المحموم لقدوم الملك الكاثوليكى جيمس الثانى فى ذروته، كان له دور فى «الساحرة الكبيرة والساحرات

http://almaktabeh.com

اللاتى يتبعنها»، والذى كان يتم تفسيره دائمًا على أنه إشارة إلى التهديد الأسود والمنحوس من جانب البابوية فى الخيال الشعبى.

وفكرة أن البروتستانتية تقف مدافعة بوضوح عن الحرية فكرة يحيط بها الشك ما لم تكن تعنى، بعبارة أخرى، حرية أن تكون بروتستانتيًا طيبًا. وحتى فى ذروة محاكم التفتيش الإسبانية، كان الكاثوليكى يستطيع أن يزعم تحديداً مساويًا ـ أى حرية أن تكون كاثوليكيًا طيبًا. وفى كل من الحالين، فإن الحرية المحدودة التى كانت موجودة كانت تمنح فقط لأولئك الذين هم ضمن «شعب الرب»، مهما كان تعريفه. وأولئك الذين خارج حدوده لم تكن لهم مثل هذه الحرية؛ ذلك أن الكاثوليك لم يكونوا يتسامحون مع البروتستانت، كما لم يكن البروتستانت يتسامحون مع الكاثوليك، وعلى العموم لم يكن كلاهما يتسامح مع اليهود.

وعلى أية حال، فسواء كانت كاثوليكية أو بروتستانتية، فإن الحرية كانت لها خصوصية إنجليزية. فالحرية هنا لا تعنى بالتحديد حرية الكلام ـ إذ إن الإنجليز على مدى فترة طويلة كانت لديهم قوانين ضد الكلام والكتابة المثيرة للشغب ـ ولكنها تعنى بنية من القوانين التى تضع حواجز ضد سلطات الملك دفاعًا عن الرعية، والميثاق الكبير (الماجنا كارتا) سنة ١٢١٥م لم يكن بداية هذه التقاليد؛ إذ إن كثيراً من متطلباته وضعت فى مصطلحات ترغم الملك على احترام الحقوق القائمة والاتفاقات الموجودة، موضحة أنها قائمة وموجودة منذ القدم، وبعضها موجود منذ فترة ما قبل الغزو [النورمانى ١٠٦٦م]. وأهم الحقوق الممنوحة فى ظل الميثاق الكبير تذهب بطريقة ما لضمان حقوق الرعايا. وتوضح العبارات الحاسمة أن:

«(٣٨) لا يجب على مُحضر فى المستقبل أن يقدم أحدًا إلى المحاكمة بمجرد كلامه، دونما وجود شهود موثوق بهم، يُستدعون لهذا الغرض».

«(٣٩) لا يجب القبض على رجل حر أو سجنه أو تجريده من أملاكه أو تجريمه أو نفيه أو أن يكون ضحية بأية طريقة، كما أننا لن نهاجمه أو نرسل أحدًا لمهاجمته، إلا بناء على حكم قانونى من حكّامه، أو بمقتضى قانون البلاد».

http://almaktabeh.com

«(٤٠) لن نبيع إلى أى أحد، ولن نرفض أو نؤجل لأى أحد حقه أو العدل».

ولم يقم كبير أساقفة كانتربوري، ستيفن لانجتون، فقط بتنظيم احتجاجات البارونات التى أدت إلى الميثاق الكبير، ولكنه تصرف باعتباره أحد الشهود والضامنين له (على الرغم من أنه أيضًا خضع للتأكيد البابوى). ولذلك فإنه كان يبدو أحيانًا فى أعين زعماء كنيسة العصور الوسطى، كما لو كان يقدم صوتًا تنبؤيًا ضد طغيان الملك، وقد حاربت الكنيسة بضراوة للحفاظ على الحرية الكافية لعمل هذا. كان هذا هو الموضوع الأساسى فى النزاع بين هنرى الثانى وسلف لانجتون الشهير فى القرن السابق، توماس بيكيت، وهكذا فإن العبارة النهائية فى الميثاق الكبير تبدأ بتكرار الضمان الذى سبق منحه، بأن الكنيسة الإنجليزية لن تكون تحت سلطة الدولة الإنجليزية:

«وحيث نرغب ونأمر بصرامة أن الكنيسة الإنجليزية يجب أن تكون حرة، وأن الرجال فى مملكتنا سيكون بمتناولهم الحريات المذكورة سابقًا والحقوق والامتيازات أيضًا وبسلام، وبحرية وهدوء، كاملة غير منقوصة، لهم ولورثتهم منا ومن ورثتنا، فى كل الأمور وفى كل الأماكن إلى الأبد، على نحو ما سبق ذكره...».

كذلك أنشأ الميثاق الكبير مجلسًا يتألف من خمسة وعشرين من البارونات، كان عليهم مراقبة مراعاة الملك لشروطه، كما كان لهم حق شن الحرب على الملك إذا ما نكث بوعوده. كانت هذه هى الوسائل المختلفة التى بدأ بها الدستور الإنجليزى بناء عوامل الضبط والتوازنات؛ لكى يسحب السلطة المطلقة من الملك، ويعاقبه إذا حاول ممارستها. وهناك علامات لا تخطئها العين هنا على أن البارونات، وستيفن لانجتون بصفة خاصة، كانوا على وعى بنموذج العهد القديم، حيث كان مسموحًا للأنبياء أن يشرعوا، ويحتجوا عند الضرورة، على الطريقة التى يمارس بها الملك سلطاته. وعلى الرغم من أن «الماجنا كارتا» لا يضفى أية رخصة أو موافقة على الجمهورية، فإن الذين وضعوا مسودة الدستور الأمريكى، ودساتير كثير من الولايات الأمريكية منفردة، اعتبروه نقطة مركزية لفلسفتهم؛ إذ إنه أعطى بالفعل موافقة قانونية لحمل السلاح ضد ملك يعوق الحريات التى ضمنها الميثاق، وهو ما

http://almaktabeh.com

قد يكون السبب فى أنه كان دائمًا محفوظًا فى الذاكرة التاريخية فى أمريكا أكثر منه فى انجلترا.

ومن ناحية أخرى فإن النظام الدستورى الإنجليزى بمعارضة «رسمية» دائمة - وهى تسمى بالفعل «معارضة جلالة الملكة المخلصة» - هو أقرب لنموذج العهد القديم حتى من النظام الأمريكى، حيث إن الحزب الموجود خارج السلطة فى الكونجرس أو البيت الأبيض لا يرى نفسه فى مهمة لمعارضة الحكومة بأى ثمن؛ إذ إن ذلك الدور منوط أكثر بالصحافة الأمريكية.

كان أول الأنبياء هو موسى، ولم يخطر بباله أن ينتقد الحاكم؛ لأنه كان هو الحاكم، ولكن الأعظم كان هو إشعيا الذى خطر ذلك بباله. والحقيقة أنه كان هناك أكثر من واحد بهذا الاسم؛ لأنه بين الأقوال المنسوبة إلى شخص يحمل ذلك الاسم نجد أقوالاً تصف حوادث تبعد عن عصره مئات السنين، وكان إشعيا نبيًا مفضلاً لدى الشراح والمعلقين المسيحيين فيما بعد؛ لأن الكثير من نبوءاته كان يمكن أخذها على أنها نبوءة بقدوم يسوع المسيح، مثلما ورد فى سفر إشعيا (٧ : ١٤) «ولكن يعطيكم السيد نفسه آية. ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانويل». وأشهر استخدام لإشعيا على هذا النحو ينسب إلى يسوع نفسه:

«فدفع إليه سفر إشعيا النبى. ولما فتح السفر وجد الموضع الذى كان مكتوبًا فيه، روح الرب علىّ؛ لأنه مسحنى لأبشر المساكين أرسلنى لأشفى المنكسرى القلوب لأنادى المأسورين بالإطلاق وللعمى بالبصر وأرسل المنسحقين فى الحرية. وأكرز بسنة الرب المقبولة. ثم طوى السفر وسلمه إلى الخادم وجلس. وجميع الذين فى المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه» إنجيل لوقا (الإصحاح ٤ : ١٧-٢٠).

وقد أسهم إشعيا والأنبياء اللاحقون إسهامًا شاملاً فى تطور اليهودية، ولا سيما فى التأكيد الذى ظهر بالتدريج على السلوك الأخلاقى والعدالة الاجتماعية باعتبارهما علامة على الاستقامة الحقة (بدلاً من الطقوس المجردة وتجنب التأثيرات الوثنية). وتحت ظل الأنبياء اللاحقين بدأت تبرز فكرة أن القواعد

http://almaktabeh.com

الأخلاقية التى وضعها الرب تنطبق على الكل وليس على اليهود وحدهم، وأن اليهود عليهم أن يتصرفوا بطريقة أخلاقية تجاه غير اليهود تماماً مثلما هو الحال فى سلوكهم مع رفاقهم فى الدين. والنموذج الذى أرساه العهد القديم للعدالة الاجتماعية قُيض له أن يكون ذا تأثير عميق على التطورات اللاحقة (فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين) مثل الاشتراكية المسيحية فى انجلترا وحركة الإنجيل الاجتماعى فى أمريكا.

ومن نافلة القول، على أية حال، أن نقول إن نموذج العهد القديم فى معاملة النساء لم يكن يشكل جزءاً من ذلك النموذج. كما أنه لم يكن، كما هو الحال فى الكاثوليكية الرومانية التى تضع مريم العذراء فى مكانة سامية (فى بعض الأحيان تجعلها مخلصاً مساعداً للجنس البشرى مع المسيح) هناك أى ملامح تعويضية فى البروتستانتية لتقويم الانحياز القوى للذكر.

وفى الروايتين اللتين يوردهما سفر التكوين عن الخليقة، تصف إحداهما أول ذكر وأول أنثى تم خلقهما فى الوقت نفسه، ولكن الرواية الثانية تصف آدم باعتباره المخلوق الأول وحواء باعتبارها خلقت من ضلع أخذ من جسده عندما راح فى النوم. ويصف النص آدم باعتباره حاكم حواء (وأحياناً سيدها)، كما أن قصة السقوط تدمغها باعتبارها سبب سقوط آدم عندما أغوته بأن يأكل التفاحة المحرمة.

وكما أن القواعد - اليهودية - تفضل الرجال فى العلاقات الجنسية وعادات الزواج، كما شرحنا من قبل، فإن الشريعة الموسوية تتضمن العديد من ترتيبات التفرقة الأخرى. فبعد مولد الطفل، فإن المرأة التى وضعت طفلاً ذكراً تظل نجسة على مدى أربعين يوماً، أما إذا وضعت طفلة أنثى فإنها تظل نجسة لثمانين يوماً. وفى الإحصاء يتم حساب الذكور الذين يزيد عمرهم عن شهر، أما البنات فلا يتم إحصاؤهن. وكان الطفل الذكر دون الخامسة يساوى خمسة شيكل، والبنت ثلاثة شيكل. وكان من حق الأبناء وراثة آبائهم، ولا ترث البنات سوى حين لا يكون هناك أبناء، وإذا لم يكن هناك ذرية مباشرة، يرث الإخوة، أما الأخوات فلا ترثن. ويمكن إلغاء اليمين أو القسم الذى تقطعه النساء على أنفسهن بواسطة الآباء أو الأزواج،

http://almaktabeh.com

أما الأيمان التى يقطعها الرجال على أنفسهم فكانت ملزمة. والمرأة التى تفقد عذريتها قبل الزواج يمكن رجمها بالحجارة حتى الموت، ولكن هذا لا ينطبق على الرجل. والطلاق لا يمكن أن يتم إلا بمبادرة من الرجل، وليس من قبل المرأة. وبعد نهاية النفى البابلى تمت إعادة بناء الهيكل الثانى وفيه منطقة منفصلة أقل مستوى مخصصة للنساء؛ ولم يكن مسموحًا للنساء أن تشهد فى ساحات المحاكم. وصار مُحرّمًا على النساء أن يتحدثن إلى الغرباء أو أن يظهرن علنا بغير حجاب؛ وهكذا.

وعند بداية العهد المسيحى، حينما أصبحت التنظيمات التفصيلية فى العهد القديم تعتبر غير ملزمة للمسيحيين على العموم، كان الباب مفتوحًا أمام الكنيسة البازغة أن تستبعد كل هذه القواعد التى تحبذ التفرقة ضد النساء، وتبدأ من جديد، وبدلاً من أن يحدث هذا تم تثبيت معظم هذه القواعد. وكان القديس بولس بشكل خاص حريصًا على تكرار القاعدة القائلة بأن النساء خاضعات لأزواجهن. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تعديل الكنيسة المسيحية مجاز النبى هوشع ليناسبها ـ وهو المجاز القائل بأن علاقة الرب بإسرائيل مثل علاقة الزوج بالزوجة ـ قد أكد حتى على أن الزوجات مدينات بالطاعة لأزواجهن كما تدين الكنيسة بالطاعة للمسيح.

وهناك عوامل تفرقة أخرى فى العهد الجديد، مثل أن النساء لا ينبغى أن تكن «رأس» الرجال؛ إذ يجب أن تلزم النساء الصمت فى الاجتماع، كما أن النساء يجب أن تغطين شعورهن فى كل الأوقات، وهلم جرا. وقد مال البروتستانت إلى أخذ العهد الجديد حرفيًا مثل العهد القديم، ولم يكونوا قادرين على السماح بالكثير من الانحراف فى تفسير مثل تلك القواعد. وصارت البروتستانتية ديانة ذكورية بشكل زائد عن الحد نتيجة لهذا. أما الكاثوليكية، بحريتها فى إعادة تفسير النصوص المقدسة، والكثيرات من القديسات اللاتى تعترف بهن، ونظمها الرهبانية الكثيرة القاصرة على النساء وأديرتها القوية، فضلاً عن إخلاصها لمريم العذراء باعتبارها الكائن البشرى الأسمى (على الرغم من أنها حملت بلا دنس)، لم تكن أبدًا تميل إلى الذكور بمثل هذا الوضوح. ومن ناحية أخرى، فمنذ القرن

http://almaktabeh.com

الثالث عشر على الأقل كانت العزوبية الإجبارية للقساوسة الرجال قد تركت حكومة الكنيسة الكاثوليكية فى أيدى الرجال وحدهم - وهو ما كان يصدق أيضًا على الكنائس البروتستانتية - بل إنها أيضًا تركت هذه الحكومة بأيدى رجال لم تكن لهم علاقة بالنساء كزوجات وبنات. وقد أدى هذا حتمًا إلى اتجاه لا ينظر فقط إلى النساء نظرة استعلاء، وإنما ينظر إليهن متطلعًا أيضًا بطريقة زائدة عن الحد. لقد كانت النساء فى الثقافات الكاثوليكية إما متبتلات أو عاهرات، أو مزيجًا من الاثنتين. أما فى الثقافات البروتستانتية فقد كانت النساء زوجات منزليات.

ولكن لم تستبعد أى من الثقافتين (البروتستانتية و الكاثوليكية) النساء من عضوية شعب الله أو الشعب المختار. ولهذا السبب، كان عليهن أيضًا أن يكن سوداوات، أو من الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية، أو كاثوليكيات (ولا سيما الأيرلنديات). لأن تلك كانت ثلاثًا من الفضائل الأساسية التى شعرت بقوة الاعتقاد الإنجليزى أو الأمريكى بأنهم الشعب المختار، وأن الرب سمح لهم بأن يتصرفوا تجاه الأغيار تمامًا مثل موسى وجدعون ويوشع وغيرهم من حكّام إسرائيل القديمة.

وتشبيه قارة أمريكا الشمالية بالأرض الموعودة عنصر قوى فى الشعور البازغ بالوطنية الأمريكية، قبل الحرب الثورية وبعدها. وكان هذا موضوعًا منتظمًا فى الخطب والمواعظ الكنسية. وقد أهدى «تيموثى دوايت» كتاب: «قهر كنعان - The Conquest of Canaan» لجورج واشنطن، بيد أنه لم يولد شعورًا بأنه قال شيئًا جديدًا. والتشابه بين أرض كنعان، والتى سكنتها بالفعل قبائل عديدة، ولكن زعم أنها نتيجة هبة ربانية إلى شعب الله المختار الأول، وهذه الأرض الشاسعة الثرية «الأرض التى تفيض باللبن والعسل»، كما زعم شعب الله المختار الجديد، واضح تمام الوضوح.

وربما كان الأمر مختلفًا. ففى فرچينيا، كان زواج چون رولف وبوكاهونتاس ابنة الزعيم المحلى، يوحى ببداية علاقة من السلام والمشاركة، بيد أنه لم يستمر ولكن الانفصال لم يكن خطأ الإنجليزى وحده؛ إذ إن التدهور الحقيقى بدأ،

http://almaktabeh.com

بصورة طبيعية، مع الشعب المختار الممتاز، أى أوائل المستوطنين البيوريتان فى ماساشوستس. ففى البداية أشفق الهنود الحمر عليهم.وهى حقيقة يتم إحياء ذكراها سنويًا فى عيد الشكر(*).ولكن ردهم الجميل كان سريعًا وقاسيًا. ويصف بى براون فى كتابه «Bury My Heart at Wounded Knee» التقدم السريع صوب الصراع والمواجهة فى هذه العلاقة الأكثر مأساوية بين كافة العلاقات الاستعمارية:

«على مدى سنوات عديدة كان هؤلاء الإنجليز وجيرانهم الهنود يعيشون فى سلام، ولكن المزيد من حمولات السفن من البيض استمرت فى القدوم إلى الشاطئ بأعداد كبيرة. وكانت أصوات الفئوس وسقوط الأشجار تردد أصداؤها فى الأرض التى أطلق عليها البيض حينئذ اسم نيوإنجلاند (انجلترا الجديدة). وبدأت المستوطنات تزاحم بعضها بعضًا. وفى سنة ١٦٢٥م طلب بعض المستعمرين من ساموست أن يعطيهم مساحة إضافية من الأرض تبلغ اثنى عشر ألف فدان إنجليزى من أراضى بيما كويد. وكان ساموست يعرف أن الأرض تأتى من الروح العظيمة، وهى بلا حدود مثل السماء وليست ملكًا لأحد. ولكى يسلى أولئك الغرباء بأساليبهم الغريبة، أقام احتفالاً لنقل الأرض ووضع علامته على ورقة أعطاها لهم، وكانت تلك أول وثيقة تتعلق بالأراضى الهندية للمستعمرين الإنجليز. ولم يحفل معظم المستوطنين الذين كانوا يفدون بالآلاف فى ذلك الحين بالمرور بمثل هذا الاحتفال، وفى ذلك الوقت الذى كان ماساسويت، الرئيس الكبير لقبائل وامبانواجز، قد مات سنة ١٦٦٢م، تم طرد شعبه إلى البرارى. وتنبأ ابنه ميتاكوم بنهاية جميع الهنود ما لم يتحدوا لمقاومة الغزاة».

وكوّن ميتاكوم تحالفًا من القبائل الهندية ثم خرج للحرب، وهاجم خمسين مستوطنة ودمر منها اثنتى عشرة. وبعد شهور من القتال، تمكنت نيران البنادق المتفوقة التى بحوزة الرجل الأبيض من تحقيق الهيمنة على القبائل الهندية. فقد قتل رجالها.وعلقت رأس ميتاكوم على عصا فى پلايموث لمدة عشرين سنة.وتم

(*) يحتفل الأمريكيون سنويًا بـ«عيد الشكر»، بمناسبة المساعدة الضرورية التى قدمها لهم الهنود الحمر عند هجرتهم من انجلترا. أما رد الجميل فكان إبادة الهنود وحضارتهم.المترجم.

http://almaktabeh.com

بيع النساء والأطفال فى أسواق النخاسة، تماماً مثلما قال الكتاب المقدس أن ينبغى أن يُفعل بهم. ويقول براون: «وعلى مدى قرنين آخرين من الزمان تكررت هذه الحوادث مرات ومرات كلما تحرك المستعمرون الأوروبيون إلى الداخل خلال ممرات «Alleghenies» ومع مجارى الأنهار التى تصب باتجاه الغرب إلى المياه العظيمة (الميسيسبى) ثم إلى الأوحال الكبرى (نهر الميسورى)».

ومن وجهة النظر الهندية، كانت هناك مصيبة واحدة تمثل ذروة كافة المصائب الأخرى فى تاريخ تعاملاتهم مع الرجل الأبيض. ومثلما يعلن ريجينالد هورسمان بصراحة مكشوفة فى كتابه «Expansion and American Indien Policy» «كان الانتصار الأمريكى فى الثورة كارثة على الهنود». وعند بداية الحرب حسب الهنود أن ما يخشونه من التجار والموظفين البريطانيين أقل مما يخافونه من ملاك الأراضى والمزارعين الأمريكيين. ومنذ ذلك الحين انضموا إلى القوات البريطانية بل كانوا فى بعض الأحيان وحدات نظامية تحت قيادة ضباط هنود، ولكن فى معظم الأحيان كانوا عصابات حرب تحارب حسب قواعدها الخاصة. ولكن عندما خسر البريطانيون خسروا هم أيضاً. ولم تتم استشارتهم فى إقرار السلام. إذ لم يرد ذكر للشئون الهندية فى معاهدة باريس سنة ١٧٨٢م بين بريطانيا والولايات المتحدة. ولكن الحكومة الأمريكية مضت فى معاملتهم بوصفهم عدواً مهزوماً يمكن احتلال أرضه.

وفى استجابتها تجاه الغارات غير المرخصة، رسمت الإدارة الاستعمارية البريطانية ما يسمى «خط الإعلان» على الخريطة سنة ١٧٦٣م كجزء من الاستيلاء على كندا الفرنسية، لتحريم مصادرة الأراضى الهندية وخصصت كل المنطقة الواقعة غرب «الأبالاش- Appalachians» إلى الهنود الحمر. ويصف روبرت هارفى «الاستيلاء الحارق» ضد «خط الإعلان» بأنه «أحد الدوافع الرئيسية، رغم عدم ذكره، وراء تمرد المستعمرين فى الحرب» ويستمر فى القول:

«ما أن اندلعت الحرب بين البريطانيين والأمريكيين، من الشمال إلى الجنوب على امتداد الحدود الغربية، لم يكن ثمة حاجز يمنع المجازر المنتظمة التى ارتكبت

http://almaktabeh.com

فى حق القبائل الهندية عبر خط الإعلان - والتى تم الجزء الأكبر منها على أيدى الميليشيات التى تكونت من بين المستوطنين البيض الطامعين فى الأرض بمناطق الحدود بمؤازرة كاملة من واشنطن والقيادة الأمريكية العليا. وقد نجحت هذه المجازر بشكل مخرب، كما فتحت الطريق أمام الاحتلال الكامل للأراضى الهندية خلال القرن التالى. وتم ذبح الآلاف من الهنود فى العملية، كما حرقت مئات من قراهم وسوّيت بالأرض، كما خربت مساحات شاسعة من الأرض، وتم تدمير آلاف الأطنان من المحاصيل، وربما كان من المتعمد تجويع عشرات الآلاف من الهنود حتى الموت جوعًا نتيجة لهذا».

....

....

بل إن الحصبة كانت قاتلاً أشد سوءاً. وقد لاحظ البيوريتان فى ماساشوستس كيف كان الهنود عرضة لهذا المرض المهلك، ويصف أحدهم التناقص السريع فى السكان بسبب هذا المرض حيث إن «الترتيب المدهش للرب يسوع المسيح، برعايته لموطن شعبه فى العالم الغربى» (والمقصود بشعبه هنا البيوريتان). وكان البريطانيون قد حاولوا نشر الحصبة بين الهنود المتحالفين مع الفرنسيين الذين كانوا يحاصرون بتيسبرج فى سنة ١٧٦٣م، بإعطائهم بطانيات تحمل عدوى الحصبة، وليس من المؤكد أنهم نجحوا، وكانت الحصبة منتشرة بالفعل. وغالبًا ما كان يُشار إلى الحصبة على أنها المساعدة التى تقدمها العناية الإلهية لاستيطان البيض فى الأراضى الهندية، وتوحى الأدلة أن إعطاء البطانيات التى تحمل العدوى للهنود قد صارت جزءاً من الفولكلور فى أمريكا، سواء للناس البيض أو الهنود الحمر، سواء كان ذلك حقيقيًا أم لا. كما أن التأخر من جانب الحكومة الأمريكية فى محاربة المرض بين الهنود فى القرن التاسع عشر، بعد أن صار التطعيم ضد المرض ممكنًا، يوحى بعدم الرغبة فى الوقوف فى طريق «غرض الرب» فى هذا الشأن. فهل كان ممكنًا إنقاذ الهنود الحمر لو أن السلطات الأمريكية كانت قد رأت أن من صالحها أن تفعل هذا؟ هذا أمر محتمل تمامًا؛ إذ إن واشنطن باتخاذ الإجراء الطبى

http://almaktabeh.com

البدائى المعروف باسم «التطعيم» إنما قام بخطوات للقضاء على مرض الحصبة فى جيشه الذى كان يحارب البريطانيين، وهو ما ساعده على النصر دونما شك.

أما الهنود الذين سُرقت أرضهم فلم يعودوا بدواً. إذ كانت معظم الأراضى تحت الزراعة، كما أن مستوى معيشة الناس كان متقدمًا. ومن ثم كانت ذات قيمة أكبر عن ذى قبل؛ وفى ظل الموقف المالى الحرج فى الأيام الأولى للولايات المتحدة كان بيع الأراضى الهندية للمستوطنين وسيلة جيدة لرفع الدخل (ولم تكن أثمان هذه الأرض تذهب إلى الهنود الحمر بأى حال وإنما إلى الحكومة الجديدة). وعلى الرغم من أن البريطانيين لم يشتهروا بحبهم للهنود الحمر، فإنهم كانوا قد منحوهم وضعًا قانونيًا واعترفوا بحقهم فى الأرض - أى الملكية بوضع اليد. ولم تكن الحكومة الأمريكية الجديدة راغبة فى أن تنحو هذا النحو، وتذرعت بحجة أن الهنود الحمر كانوا آنذاك عدواً مهزومًا فقدَ حقوقه.

ويصف هورسمان الموقف على هذا النحو:

«ومع هذا، فإنه على الرغم من أن الشطر الشرقى من وادى الميسيسيپى كان فى غالبه خاليًا من المستوطنين الأمريكيين، فإنه لم يكن مجرد برارى مهجورة فقد يكتب تاريخه فى بعض الأحيان كما لو كان المستوطنون يصبون فى واد شاسع خال، على حين أن الحقيقة هى أن الشطر الشرقى من وادى الميسيسيپى كانت تشغله قبائل الهنود الحمر. وكانت كثير من هذه القبائل قد حاربت بنجاح إلى جانب البريطانيين فى الثورة: أما القبائل الأخرى على ضفاف الميسيسيپى فلم تكن قد سمعت بأن ثورة قد حدثت. وقليل منها استوعبت كيف أن توقيع معاهدة باريس بين الإنجليز والأمريكيين يمكن أن يؤدى إلى نقل قراهم وأراضى الصيد الخاصة بهم إلى الولايات المتحدة الجديدة».

ومن المذهل كيف أن المركزية الأوروبية كانت تشكل موقف كل من البريطانيين والأمريكيين فيما يتعلق بحقوق الهنود الحمر. إذ لم يكن البريطانيون يمتلكون الأرض التى سُلمت إلى الأمريكيين بمقتضى معاهدة باريس سنة ١٧٨٢م،

http://almaktabeh.com

ولكن الملاك الحقيقيين، أى الهنود الحمر، كانوا غائبين عن العقل الأوروبى. ومفتاح هذه العقلية هو افتراض أن البريطانيين (وبالتالى خلفاءهم الأمريكيين) لهم حق منحه الرب فى ملكية الأرض، وبالمقارنة مع هذا الحق الإلهى كان الهنود الحمر مجرد محتلين لأرض غيرهم (إذ إن ملكية وضع اليد لم يُعتد بها)، وكان من الممكن طردهم منها أو قتلهم. وعادة ما كانت العملية تبدأ، مثلما حدث فى ماساشوستس قبل قرن من الزمان، بالمجهودات المبذولة لطردهم وهو ما كان يجابه بالمقاومة؛ وإذ حملوا السلاح ضد البيض، فقد أعلنوا أنهم أعداء؛ ومن ثم يمكن محاربتهم وهزيمتهم(*).

وكان «واشنطن» نفسه يحبذ منح الأرض لأولئك الذين قاتلوا إلى جانب الثورة. ولكونهم رجالاً مقاتلين كان بوسعهم حماية المستوطنين البيض الآخرين فى أقاليم الحدود «ومن المرجح أنهم حالوا دون قتل الكثير من العائلات البريئة التى غالبًا ما كانت، فى حالتهم المعتادة لتوسيع مستوطناتنا وتعدياتهم على أراضى الصيد الخاصة بالأهالى من الهنود الحمر، يسقطون ضحايا منحوسين للبربرية الوحشية». ولم ترد هنا أية فكرة عن حق الهنود فى حماية أراضى الصيد التى تخصهم بالقوة، على الرغم من أن المستوطنين كانوا يستخدمون أساليب كان واشنطن نفسه يعترف أنها استفزازية.

والمدهش فى السياسة الأمريكية تجاه الهنود الحمر، سواء عند بداية الجمهورية الجديدة أو فيما بعد، هو التظاهر المتكرر والذى لم يتم التخلى عنه مطلقًا بأن حيازة الأرض الهندية كان يتم حسب القواعد المتحضرة بشكل ما. إذ كان هناك كلام لا ينتهى عن المعاهدات والاتفاقيات، والحدود والضمانات، وبعد كل معاهدة كان الأمريكيون يظهرون كما لو أنهم سوف يلتزمون بها حقًا فى هذه المرة. ودائمًا ما كان يظهر سبب ما، وعادة ما كان يحدث بسرعة؛ بسبب أن ما تنازل عنه الهنود لم

(*) تشبه البريطانيون والأمريكيون ببنى إسرائيل وأرضهم الموعودة، فأى رد فعل نتوقعه من البريطانيين والأمريكيين إزاء ما يفعله الأصل (بنو إسرائيل، وإسرائيل الآن) فى الأرض الموعودة (فلسطين الآن)؟ ـ المترجم.

http://almaktabeh.com

يكن كافيًا أن يتم تنازل جديد(*). وحسبما يلاحظ هورسمان:

«كانت الاتفاقيات مع القبائل الهندية تُعقد أو تُنقض؛ لأنه فى عيون العالم المتحضر كانت للولايات المتحدة بالفعل السيادة على الأراضى غرب الميسيسبى. والأسئلة الوحيدة كانت تتعلق بكيف ومتى وتحت أى شروط كان يمكن تجريد الهنود الحمر فعلاً من أملاكهم. وبالنسبة للمفاوضين البيض كانت لغة المعاهدة مجرد وسيلة للحصول على الأرض بأقل قدر من الصراع والتكاليف، كما كانت وسيلة لتثبيط المقاومة الهندية حتى تصبح التنازلات القادمة الحتمية ضرورة. أما بالنسبة للمفاوضين من الهنود الحمر، فكانت لغة المعاهدة غالبًا ما تمثل وعوداً جادة كانوا يصدقون أنها سوف تدخل حيز التنفيذ»(*).

والحقيقة أن تقدم الاستيطان الأمريكى فى الأراضى الهندية كان يمكن أن يمضى بطريقة مختلفة قليلاً لو أن السياسة المعلنة كانت هى النهب الفاضح الغاشم، دونما اعتبار للملطفات القانونية. وبعبارة أخرى، فإن كل هذه المعاهدات والاتفاقيات لم تجلب سوى قدر قليل من الفائدة للهنود. فبدلاً من ذلك فإنهم اكتفوا بإقناع من يقومون بالتعديات بأنهم كانوا يتصرفون بشرف؛ وهو ما كان يشجعهم على القيام بالمزيد من التعدى، بل ويشغف أكثر.

كان هذا جزءاً من الاقتناع بأنه بمعنى ما كان يتم إسداء الجميل إلى الهنود الحمر؛ لأنهم كانوا يتعرضون إلى مميزات الحضارة الأمريكية. وكان توماس چيفرسون على وجه الخصوص يريد سياسة تجاه الهنود لا «تنتهك مفهومه الخاص عن رسالة الولايات المتحدة فى أن تظهر لأوروبا أن أمة يمكن أن تعيش بلا حرب ويمكن أن تجلب السعادة إلى شعبها»(*): وعلى حد تعبير هورسمان:

«وكون أنه رأى التوسع الأمريكى فى مصطلحات نشر الحضارة، وجلب أسلوب حياة جديد أفضل، أمرًا لا يثير الدهشة... ومفهوم «المصير الواضح»(**) فى التوسع الأخلاقى، واضح تمامًا فى سياسة چيفرسون تجاه

(*) أليس ذلك هو طبق الأصل مما يحدث مع الفلسطينيين الآن؟ - المترجم.

(**) أو المصير المحتوم، أو حمل الرجل الأبيض، كلها مصطلحات تبرر وتحث على التوسع على حساب الغير بدعوى مسئولية إلهية لنشر الحضارة الأنجلوساكسونية، وهى الحضارة المسيحية أو اليهومسيحية. - المترجم.

http://almaktabeh.com

الهنود. وبالنسبة لجيفرسون كان التوسع مرغوبًا ليس فقط بالنسبة للأمريكيين، ولكن أيضًا بالنسبة لأولئك الذين كان من الممكن أن يبتلعهم التوسع. هذه الثقة غالبًا ما كانت تعمى جيفرسون عن الحقائق اليومية فى العلاقات مع الهنود».

وتلخيص هورسمان للسياسة الأمريكية تجاه الهنود هو أنها بدأت بمبادئ سامية برهنت على الصعوبة المتزايدة فى تطبيقها، وأن قبول فكرة أن الهنود لهم حقوق لم تكن متماشية مع الجوع إلى الأرض الذى كانت سياسة الحكومة تحفزه. وكسب الجوع إلى الأرض المعركة، بيد أن المبادئ السامية عوملت على نحو ما كما لو أن الهنود قد لقوا معاملة عادلة. ولم يكن على أمريكا فقط أن تظهر فى الخارج على أنها مخلصة لحركة التنوير؛ وإنما كان ينبغى عليها أن تكون هى نفسها قادرة على تصديق هذا، وكان هذا يتطلب إعادة ترتيب الحقائق.

وهكذا فإن تاريخ قارة أمريكا الشمالية كان لا بد من إعادة تلفيقه؛ لكى يتم تحاشى تذكير الناس بقرن أو أكثر من القسوة والعقيدة الفاسدة التى كانت فى الحقيقة مطلوبة فى بناء البلد الجديد، وبدلاً من ذلك حل محله برارى خاوية كانت فى انتظار من يملؤها ويمدينها من أولئك الذين جلبوا الحضارة المسيحية. وقد تعاملت ثقافة الحدود الأمريكية مع الهندى باعتباره نوعًا شرسًا - بشكل خاص - من الخطر الطبيعى الذى يقف فى طريق التقدم، يقف فى مكان ما بين الدب والحية الرقطاء ذات الأجراس، أو بين القحط والعواطف الرعدية، وليس باعتباره كائنًا بشريًا كان حقه فى الحياة والحرية والسعى صوب السعادة من الأمور البديهية. ومع هذا فقد كانت هذه بالضبط هى معايير الحضارة التى كان الأمريكيون يحاولون نشرها. وأفضل تفسير لهذا التناقض ليس هو النفاق، على الرغم من أنه كان موجودًا بالتأكيد، ولا العنصرية بالمعنى الحديث، على الرغم من أن الثقة فى التفوق المتوارث فى الجنس الأبيض كانت شائعة على المستوى العالمى بشكل أو بآخر، ولا حتى النزعة الشريرة المجردة؛ لأن ذلك كان زمنًا يأخذ الاستقامة على محمل الجد تمامًا، زمنًا من الشغف الإنجيلى الكثيف والتدين القائم على الكتاب المقدس؛ إذ كان الناس يرغبون فى أن يسلكوا سلوكًا حسنًا.

http://almaktabeh.com

وأفضل تفسير - ببساطة - هو أن معايير الحضارة التي كانت أمريكا ترغب في أن تتميز بها كانت تنطبق فقط على أولئك الذين تضمهم العائلة الأمريكية، أي أولئك الذين كانوا بالفعل من أبناء الشعب المختار. ولم يكن أولئك الذين بالخارج يستظلون بغطائها . وثمة تشابه دقيق هنا مع سلوك ذلك الشعب المختار السابق، أي الإسرائيليين القدماء، الذين كانت الوصايا العشر لديهم بالفعل قفزة أمامية أخلاقية أبعد مما أحرزته ثقافات أخرى في ذلك العصر(*)، بيد أنهم كانوا يرون أن الوصايا العشر لا تنطبق سوى عليهم. كان الكنعانيون والهنود خارج العهد، أي أنهم ليسوا من المستفيدين. وكان يمكن أخذ أراضيهم، ويمكن قتلهم إذا قاوموا. ولأنهم ليسوا من ضمن الشعب المختار، حينما ينظر إليه من خلال العدسات الأخلاقية للإسرائيليين القدماء، أو الإنجيليين الأمريكان المتدينين، فقد صاروا غير مرئيين بشكل أو بآخر.

ويتعامل «سيمون شاما» مع التبجيل الأمريكي للبراري الخالية في كتابه : «Landscape and Memory» . وقد تلخص في اكتشاف سنة ١٨٥٢ م - ورد في الفعل الوطني الخارق للعادة إزاءه - لمنطقة كبيرة من الغابات فيما صار يعرف باسم «يوسيمايت ڤالي» عند سفوح تلال سيرا نيڤادا في وسط كاليفورنيا . ويبدو أن اسم يوسيمايت جاء من تعبير هندي عن الجنس الأبيض معناه «بعض الناس سفاحون» . وفي الخيال الوطني، كان لا بد أن تكون خالية، لم تفسدها يد الإنسان. وكانت تحتوي على مساحات من الأشجار الباسقة، وهي بعض أكبر الأشياء الحية التي تم اكتشافها على الإطلاق في أي مكان على سطح كوكب الأرض، وهي ما تم تصنيفها فيما بعد تحت اسم «Sequoia Gigantea» . وبسبب كبر عمرها - بعضها عمره آلاف السنين - فإنها سدت فجوة في الخيال الأمريكي وخلقت توازنًا مع الولع الوطني بالحداثة . وقد زعم بعض الشعراء، فعلاً ، أن هذه

(*) هذا كلام غير دقيق بالمرة؛ لأن الناظر في التراث المصري القديم، أو في التراث الذي عرفته بلاد الرافدين، أو حتى الحضارات القديمة في الهند والصين وفارس يجد أن لكل منها نظامًا أخلاقيًا متقدمًا . بل إن هذه الحضارات لم تقصر هذا الإطار الأخلاقي في نطاقها؛ بسبب النزعة العنصرية كما زعم اليهود - المترجم.

http://almaktabeh.com

الأشجار كانت هى «الأمريكيين الأصليين» حقًا، وبذلك ينزعون عن الهنود هذا اللقب المحرج بطريقة مريحة وملائمة. فقد كانت، حسبما لاحظ أحد المراقبين الذين أذهلتهم الأشجار، «الشجرة العبرية فهى قديمة قدم العهد القديم». ووصل الخيال إلى أن الرب قد زرع هذه الأشجار منذ زمن طويل توقعًا لوصول الجنس الأبيض الذى سوف يقدرها حق قدرها.

والحقيقة أن الوادى لم يكن خاليًا من السكان الآدميين إطلاقًا؛ لأنه كان وطن شعب الأهواهنيشى منذ زمن لا تعيه الذاكرة. وأرض المروج التى تسود الوادى، والتى حيرت الزائرين البيض بنباتها الوفير، كانت فى الواقع تبدو على ما هى عليه؛ لأن هذا كان غابات تحت التحكم، أى أنها كانت أرضًا يتم تطهيرها بالحرق من أجل الزراعة. ولكن الزوار كانوا يريدون لها أن تكون «طبيعة»، وليست نتاجًا لمهارة الهنود الذين يحتقرونهم. وبسرعة تمت مطاردة الهنود خارج وادى يوسيمايت الذى أعلن حديقة للولاية (ثم متنزهًا وطنيًا فيما بعد).

والإحساس بأن يوسيمايت والأشجار الكبيرة كانت تشكل تجليًا فائق القوة لتفرد الجمهورية الأمريكية هو فقط الذى يمكن أن يفسر السبب فى أن إبراهام لينكولن، فى غمرة الحرب الأهلية، وهو يوقع مرسومًا فى أول يوليو ١٨٦٤م، يمنحها لولاية كاليفورنيا «الصالح الشعب، لتكون متجعًا وترفيهًا لهم، ولكى يحافظوا عليها دونما تغيير على مر الزمان.

لقد كانت هالة التاريخ المقدس، الشعور بأن غابة الأشجار الكبيرة كانت نوعًا من الآثار الأمريكية، نوعًا من مجمع الآلهة النباتى الذى حرك لينكولن والكونجرس؛ لكى يتصرفوا على النحو الذى تصرفوا به. . . لقد بدا أن الأشجار العملاقة تبرهن على صحة البصيرة الوطنية الأمريكية بأن الضخامة المذهلة تخاطب الروح. وكانت حقيقة أن الأعمدة الحمراء لهذا المعبد الأمريكى السامى الرفيع لم تشيده يد الإنسان، هى بالضبط السبب فى أنها (الأشجار العملاقة) بدت وكأنها من صنع العناية الإلهية، وأخذت تنمو بشكل قدرى بل وبشكل رهيب حتى يكتشفها شعب الله المختار الجديد فى قلب الأرض الموعودة».

http://almaktabeh.com

وبعبارة أخرى، فإن ما كان الأمريكيون يبحثون عنه هو طريقة ما لتوضيح أن الأرض التي سكنوها لم تكن مجرد أرض جميلة وإنما كانت «مقدسة» بالفعل.

وعلى أية حال، فإن الأمريكيين أحسوا في الغابة البرية أنهم يمكن أن يكونوا على صلة بأرواحهم وأن يرتبطوا بربهم. وغالبًا ما كان الجيل الأول من الفنانين الأمريكيين الأصليين يرسمون مناظر ريفية، ولا سيما أراضي الغابات، كمعابد أو كاتدرائيات طبيعية - صامتة ساكنة، خاشعة، متسامية وصوفية. وتتحدث القصائد الشعرية التي ألهمتها مثل هذه العواطف عن التواضع الشامل، وعدم الجدارة تقريبًا، حينما يتأمل الشعراء كيف أن الرب فعل الكثير من أجلهم بوصفهم أمريكيين، وليس أقلها أنه أعطاهم مثل هذه البلاد الخاوية المدهشة لكي يسكنوها. وقد عبر والت هويتمان عن هذا الحلم الأمريكي حينما كتب في قصيدة «أغنية لنفسي»:

وحدي في البرية والجبال أصطاد

وأتجول مندهشًا بخفتي وانشراحي

في أواخر النهار لأختار بقعة أمضي الليل فيها

أضرم نارًا وأشوي الفريسة المقتولة لتوها

وأروح في النوم فوق كومة من أوراق الشجر وكلبي وبندقيتي إلى جواري

كان جوهر مثل هذا الشعور، أن الرب أعطاها لهم، وأنهم لم يضطروا إلى سرقتها من غيرهم؛ إذ إن المصير المحدد سلفًا (المصير المحتوم لنشر الحضارة) لا يتكلف الضمير!

* * *

http://almaktabeh.com

(٩)

المختارون يواجهون المحدثين

فى الروح التى ذهبت بها أمريكا إلى الحرب سنة ١٩٤١م، يمكن أن نتعرف على بعض الحماسة البريئة والنزيهة التى تم بها إرسال الجيش البريطانى إلى الحرب فى سنة ١٩١٤م. وفى كل من الحالين كان الصراع الناشب وراء شواطئ الوطن ولم يكن يبدو أنه يهدد الوجود الوطنى، فى المستقبل المنظور على الأقل. وعلى خلاف بريطانيا لم تكن الولايات المتحدة قد واجهت الصيف الحاسم بالنسبة لها على جبهة السوم سنة ١٩١٦م، وما نتج عنه من صدمة الإفاقة من أحلام المجد العسكرى والمصير الوطنى. إذ كانت بريطانيا سنة ١٩١٤م ما تزال قوة عظمى، وربما كانت ما تزال هى الأعظم. صناعية، غنية، متحضرة وراضية عن نفسها (على الأقل بعيدة عما كان يسمى عمومًا «الطبقات الأدنى»). وكانت الاستجابة الوطنية لاستغاثة حليفة بريطانيا «بلجيكا الصغيرة المسكينة» التى غزتها ألمانيا عند بداية الحرب، هى استجابة صديق قوى تجاه جار أضعف يجابه المتاعب.

فى ديسمبر سنة ١٩٤١م تعرضت أمريكا لهجوم فظ؛ وكان هناك غضب، وليس نخوة، وراء إعلانها الحرب. على الرغم من أنه كان هناك أيضًا إحساس بالراحة؛ لأن الوقت قد حان لمساعدة صديق فى وقت الحاجة، هو بريطانيا العظمى. ولكن الثقة بالنفس الوطنية الأمريكية لم تتقلص، حيث إنه فى ذلك الوقت، كانت بريطانيا قد توارت فى الظل إلى الأبد بفعل المجازر اللامعقولة على

http://almaktabeh.com

الجبهة الغربية قبل جيل مضى. وكان حول انجلترا سنة ١٩٤٠م إحساس من بقايا إيمان بالكتاب المقدس، وقد تعلقت بشكل قلق بـ «الديانة الحقة»، حينما كانت أوروبا على بعد واحد وعشرين ميلاً من مقاطعة كنت، تحت وطأة الحذاء العسكرى النازى. ومثل هذا الإحساس بالانكشاف أمام الخطر لم يكن مستشعراً فى أمريكا قبل أو منذ ذلك الحين، بل ولم يكن حتى نتيجة للإرهاب المحلى أو العالمى.

وتمامًا مثلما كان بوسع الفيلد مارشال دوجلاس هيج أن يأمر قواته بالهجوم ومعاودة الهجوم، وهو متأكد من أن الرب بجانبه وأن النصر النهائى سيكون حليفه مهما كان الثمن؛ فإن القادة الأمريكيين كذلك وقادة الأساطيل البحرية ذهبوا لقتال اليابانيين بنفس العقيدة. وثمة شىء واحد تخبرنا به قصة الشعب المختار هو أن المؤرخين العسكريين لم يهتموا بالقدر الكافى بصلوات القادة العسكريين الذين كتبوا عنهم وعن قواتهم؛ إذ إن تلك الصلوات، والإطار الأيديولوجى والدينى الذى تُليت تلك الصلوات فى رحابه، كانا لا بد أن يكشفا عن الكثير من الدوافع والمبادئ الأخلاقية العسكرية.

وموضوع كيفين فيليبس فى كتابه «The Cousins Wars» مؤداه أن ثلاثة صراعات هى التى غيّرت اتجاه الحضارة الغربية: الحرب الأهلية الإنجليزية (أو الحروب كما يقول بعض المؤرخين)، وحرب الاستقلال الأمريكية (أو الحروب الثورية)، والحرب الأهلية الأمريكية، وكانت مرتبطة ببعضها ارتباطًا وثيقًا؛ إذ كانت كل منها تمثل صدامًا بين مثالين أو مبدأين دينيين وُجدا بين الشعوب الأنجلوسكسونية فى بريطانيا وأمريكا. ومن الممكن أن نحدد فى كل حالة الجانب الرابح بأنه الجانب الأكثر حماسة دينيًا، أى الجانب الذى كان أشد اقتناعًا بأن الرب معه، البروتستانت الأكثر راديكالية (الأكثر كالڤينية فى الواقع) من الجانبين. وكانت جيوش كرومويل معروفة جيداً بأنها تسير إلى المعركة وهى تنشد المزامير والأناشيد الدينية؛ وكذلك فعلت قوات ماساشوستس التى حاربت البريطانيين. وليست هناك صورة لجورج واشنطن أكثر شهرة أو أشد كشفًا من

http://almaktabeh.com

صورته وهو يصلى أثناء محنة الشقاء التى مر بها جيشه فى وادى فورج. وتبدأ رواية «ذهب مع الريح» بفطنة بتحليل الحرب بين الولايات الشمالية والجنوبية فى أمريكا، باعتبارها إعادة افتتاح النزاع المسلح بين كرومويل وشارل الأول، البيوريتان فى مواجهة الأسقفيين، الرجل العادى ضد الطبقة الراقية، والشماليين ضد المتمردين الجنوبيين.

وفى أمريكا ما تزال هذه الروح حية، «وترنيمة المعركة من أجل الجمهورية» التى كتبتها چوليا وارد هاو، الداعية إلى تحرير العبيد سنة ١٨٦٢م وأنشدتها على النغمة التى سمعت بها القوات تنشد «جسد چون براون»، صارت هى أنشودة قوات الاتحاد الظافرة فى الحرب. ولكنها كانت ما تزال تُنشد بإحساس على أفواه القوات الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية. وليس هناك تقرير يشير إلى أنها كانت تستحوذ على خيال الجيش الأمريكى فى حرب ڤيتنام؛ وهو ما قد يلقى الضوء على نتيجة الحرب الكارثية، ولكنها عادت بقوة إلى مكان الصدارة منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١م. وهى إقرار واضح بأن الرب يقف إلى جانب أمريكا بشكل فريد؛ لأن أمريكا بجانب الحق بشكل فريد. وفى ضوء نصيحتنا للمؤرخين العسكريين، فإن هذا يستحق أن يؤخذ فى الاعتبار تمامًا.

لقد أبصرت عيناى مجد قدوم الرب

إنه يدوس محصول الكروم حيث يخزن عنب الحنق والغضب

لقد أطلق البرق المميت لسيفه السريع

وحقيقته ماضية فى طريقها

المجد، المجد، هاللوليا

المجد، المجد، هاللوليا

المجد، المجد، هاللوليا

حقيقته ماضية فى طريقها

http://almaktabeh.com

لقد رأيته فى نيران المراقبة فى مائة معسكر مستديرة

لقد بنوا له مذبحًا فى ندى الماء ورطوبته

أستطيع أن أقرأ جملته الصحيحة على ضوء المصابيح المعتمة والمتوهجة

إن يومه ماض فى طريقه

المجد. . . إلخ

لقد قرأت نصًا ناريًا مقدسًا فى الإنجيل فى صفوف مصقولة من الصلب

كما تتعامل مع الذين يحقروننى، كذلك سوف تتعامل معك رحمتى

دع البطل، الذى ولدته امرأة يسحق الحية بكعبه

طالما أن الرب يسير إلى الأمام

المجد. . . إلخ

لقد دق الطبول للمسير أمامًا ولن يدعو أبدًا إلى التراجع

إنه ينقى قلوب الرجال أمام كرسى عدالته

أوه، فلتكونى سريعة يا روحى فى الإجابة عليه! ولتكونى فرحة يا أقدامى

فإن ربنا يسير فى طريقه

المجد. . . إلخ

فى جمال الزنابق وُلد المسيح عبر البحر

ومعه مجد فى البرعم يتجسد فيك وفى

ومثلما مات ليجعل الناس مُقدسين، فلنمت نحن لنجعل الناس أحرارًا

بينما يسير الرب فى طريقه

المجد. . . إلخ

ومن الواضح أن هذه أنشودة معركة لأمة مختارة، شعب مختار. إنها الطرف النقيض للشعور الوطنى من الموقف الوطنى الساخر، بل المستهزئ بالأنشودة التى

http://almaktabeh.com

كان يرددها الجيش البريطاني بعد سنة ١٩١٦م، والتي تقول كلماتها: «رأيتهم معلقين فوق الأسلاك الشائكة القديمة . . .»، أو الأنشودة المعاصرة لها، وهي أغنية بريئة لكنها ساخرة بنفس القدر، تقول: «نحن هنا، لأننا هنا، لأننا هنا، لأننا هنا». والتناقض بين الحالتين علامة فارقة في الشخصية الوطنية ما تزال تنطبق على العصر الحديث، وتشرح ردود الفعل المختلفة تمامًا لأمتين تتشابهان بشكل واضح - فما تزال الاثنتان، في جوهرهما، أنجلوسكسونيتين وبروتستانتيتين.

والفرق ليس ببساطة هو أن لدى البريطانيين ملكة السخرية وليس لدى الأمريكيين مثلها. كما أن الفرق ليس ببساطة هو أن الأمريكيين ما يزالون يؤمنون بأنهم «مختارون» ولم يعد البريطانيون كذلك. فمن المحتمل، ربما، أن يكون الإنجليز قد بدأوا يؤمنون «باختيار» الأمريكيين، على الرغم من أنهم لم يكونوا ليعترفوا بهذا. ومن المؤكد أن عبارة «عبء الرجل الأبيض» التي استخدمت في انجلترا بطريقة ساخرة (طبعًا) تُعتبر الآن صالحة للتطبيق على الولايات المتحدة؛ إذ إن عبارة «السلام الأمريكي - Pax Americana» - والتي تعني ترحيب الأمريكيين بالقيام بدور شرطي العالم - صارت كليشيها شائعًا في أعمدة كتّاب الصحف البريطانية، وبها مغزى متضمن في اتجاه العبارة القديمة التي تجاوزها الزمن «السلام البريطاني - Pax Britanica» (والتي نبعت بدورها أصلاً من «السلام الروماني - Pax Romana» - أي السلام الذي تفرضه الفرق العسكرية الرومانية - في العصور الكلاسيكية).

إن «ترنيمة الحرب من أجل الجمهورية»، التي تبدو بالنسبة للإنجليز مغالاة في التعصب والدعوة إلى الحرب، تنتمي في الحقيقة لنفس التراث الديني مثل الخاتمة التي كتبتها «هاريت بيشر ستو» لرواية «كوخ العم توم» التي ناقشناها بالفعل. فقد أعلنت أن أمريكا تحت المحاكمة ما لم تصحح خطأ العبودية؛ أما «هاو» فإنها تبين أن الخطأ قد تم إصلاحه حقًا. كما أنها تقدم أيضًا رابطة أو عبورًا إلى تراث شعب مختار آخر، وكذلك رابطة تربط القرن التاسع عشر بالقرن الواحد والعشرين، وهي تحديدًا الوعي الأسود الأمريكي بالذات في مصطلحات الكتاب المقدس،

http://almaktabeh.com

باعتبارهم شعبًا «فى أغلال العبودية» وينتظر الخلاص. والتنميط فى ترنيمة هاو لايضع موسى باعتباره محرراً (على الرغم من أنه فى التنميط المسيحى الكلاسيكى كان موسى نمطًا يسبق المسيح فى التجسد). وهذا أمر غير عادى؛ لأن التنميط كاثوليكى أكثر منه بروتستانتى. وفى البيت الذى يقول: «فى جمال الزنابق وُلد المسيح عبر البحر» ثمة إيماءة إلى الرمزية التى عرفها عصر النهضة: فالزنبقة، زهرة النقاء والطهارة، كانت علامة تقليدية على مريم العذراء.

والقوة الدافعة فى«أنشودة المعركة» تدورحول «الموت لجعل الناس أحراراً» وهى إشارة واضحة إلى المسيح. إنها ليست عن أولئك الذين حرموا من حريتهم، بحيث ينتزعونها لأنفسهم. ومن المؤكد أنه كانت هناك انتفاضات سوداء فى الحرب الأهلية، وبنهايتها كان هناك ذيل طويل من اللاجئين السود قد ربط نفسه بمؤخرة جيش الاتحاد المنتصر فى الجنوب. بيد أن تحرير العبيد السود كان فى جوهره عملاً من أعمال الجنس الأبيض، الذين تصرفوا على اعتبار أنهم «أمة منقذة» ـ وفى مكان المسيح بالتالى. ولكن ذلك التنميط الآخر الأكثر بروتستانتية، والذى يصور السود مثل العبرانيين فى أغلال العبودية ينتظرون موسى الخاص بهم، لم يكن بعيدًا عن السطح.

ويصف دو بوا، الذى ولد فى غضون خمس سنوات من نهاية الرقيق، كيف أنه وهو شاب مر بخدمة كنسية فى كنيسة زنجية فى عمق الجنوب ـ وليس فى مسقط رأسه (لأنه كان أصلاً من ماساشوستس):

«كان شكل الواعظ الأسود الضخم يهتز ويرتعش بينما تتزاحم الكلمات على شفتيه وتتطاير صوبنا فى فصاحة مفردة. وكان الناس يتأوهون ويضطرون، ثم قفزت المرأة ذات الخدين البارزين والبشرة البنية بجوارى فى الهواء مباشرة وصرخت صرخة مدوية مثل روح ضائعة، على حين عم المكان عويل وأنين وصراخ ومشهد من الوجد الإنسانى لم أر له مثيلاً من قبل. وأولئك الذين لم يشهدوا تهيج الإحياء الزنجى فى غابات الجنوب البكر لا يمكنهم سوى أن يدركوا الشعور الدينى للعبد بصورة غامضة، وتبدو مثل هذه المشاهد شاذة ومضحكة، ولكنها مريعة كما رأيتها».

http://almaktabeh.com

وقد نمت مسيحية العبيد السود من ديانة أفريقية وثنية، بأناشيدها وأضحياتها وكهنتها الرجال والنساء الساحرات. والإحساس العاطفي الزائد بحضور أرواح غير مرئية لكنها قوية، قد انتقل إلى سياق مسيحي بدائي بفضل اليقظة الكبرى التي وجهها المبشرون الإنجيليون في القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر (مع الربط بين القوى الخفية والروح القدس الذي يسوق المتعبد إلى حالة هياج من الفرح الخارق للطبيعة). وقد أنتج الإحياء الزنجي المبشِّر الزنجي وهو أكثر شخصية متفردة طورها الزنوج على الأرض الأمريكية حسبما كتب دو بوا. فقد كان زعيمًا وسياسيًا، وخطيبًا، ورئيسًا جذابًا، ومثاليًا. أما الزعماء السود العلمانيون، الذين كان دو بوا نفسه نمطًا منهم، فلم يكونوا مرتاحين دائمًا إلى هذا التراث الذي يجعل من القسيس زعيمًا. كما كانت لا تزال الحال في خمسينيات القرن العشرين، عند بداية حركة الحقوق المدنية، حيث كان هناك بعض المنافسة على التفوق بين القساوسة السود مثل مارتن لوثر كنج والسياسيين العلمانيين المرتبطين برابطة NAACP الخاصة بـ «دو بوا» نفسه.

ويسجل دو بوا كيف اعتاد الزنوج أن يغنوا:

أيها الأطفال، سنكون أحراراً

عندما يظهر الرب!

بيد أنه كان مخطئًا في استبعاد هذا باعتباره مجرد نزعة ألفية. تأجيل الخلاص إلى نهاية الزمن، في المصطلحات البشرية إلى الأبد. أما ما لم يتعرف عليه فهو قوة التنميط البروتستانتي في تحول قصص الكتاب المقدس إلى حقيقة حاضرة، وأن يجعل من المسيحية قوة للتحرير الحقيقي، وليس الخضوع الديني. وسيرة الأمة الهاربة هاريت توبمان التي تحمل عنوان: «Harriet The Moses Of Her People» التي كتبتها معاصرتها وصديقتها سارة برادفورد تصف كيف أنها بدأت تربط حالتها في العبودية بالرسالة التي سمعتها على لسان واعظ في الكنيسة:

«كان في عقلها بالفعل أن شعبها هم الإسرائيليون في أرض مصر، بينما كانت

http://almaktabeh.com

بعيدة فى مكان ما بالشمال، أرض كنعان، بيد أنها لم تكن لديها بعد أية نبوءة بأنها ستكون بمثابة موسى الذى سيكون زعيمهم، عبر سحابات الظلام والحزن، والنيران والمحن؛ لتقودهم إلى تلك الأرض الموعودة؟ فهذا ما لم تقله أبداً».

وقررت أن تهرب، مع إخوتها؛ ولكن لأن التخاطب بين العبيد كان يعتبر مثاراً للشك من جانب المراقبين، فإنها كانت تتواصل معهم بالأغنية، وهى تعدِّل قليلاً من الكلمات المعروفة جيداً لكى تقول ما تقصده. وبالنسبة للأذن غير المرتابة كانت هذه الكلمات ما تزال أحلامًا ألفية بريئة، الحرية النهائية «عندما يظهر الرب». ولذلك فإن هاريت تويمان، فى اللهجة التى نسبتها إليها برادفورد، كانت قادرة على أن تغنى بصوت عال، دونما خوف من التحقيق، رسالتها المشفرة - «لقد حان الوقت»:

عندما تأتى تلك العربة القديمة

سوف أترككم

إننى متوجهة إلى الأرض الموعودة

أيها الأصدقاء، إننى سوف أرحل عنكم

إننى آسفة لتركِكم أيها الأصدقاء

الوداع، آه، الوداع

لكننى سوف أقابلكم فى الصباح

الوداع، آه، الوداع

إننى سوف ألقاكم فى الصباح

عندما تصلون إلى الأرض الموعودة

على الضفة الأخرى من الأردن

لأننى متوجهة إلى الأرض الموعودة

http://almaktabeh.com

وقد تذكروا الأغنية زمنًا طويلاً بعد رحيلها. فقد كانت صافية فى تلك الليلة وسرعان ما وصلت إلى ملاذها الآمن، حيث لم يكن ممكنًا أسرها من جديد وإعادتها. فى البداية كان هذا يعنى نيويورك. والأردن الذى أشارت إليه أغنيتها كان هو نهر أوهايو الذى يفصل كنتكى (ولاية العبيد) عن أوهايو أو إلينوى (الحرة). وبمرور الوقت صارت هى المنظمة لواحدة من السكك الحديدية السرية (حسبما أطلقوا عليها) التى كانت تشجع العبيد على السعى نحو السلامة على امتداد ذلك الطريق. وتنسب إليها كاتبة سيرتها الفضل فى كثير من المهام الناجحة وقيادة مئات من العبيد الأفراد إلى طريق الحرية، فى ظل ظروف بالغة الخطر دائمًا. ولو أنها وقعت فى الأسر لكانت قد قُتلت، شنقًا أو جلدًا بالسياط حسبما كان يُفترض. وبعد مرسوم ١٨٥٠م الخاص بـ «العبيد الهاربين Fugitive Slave Act»، والذى سمح بعودة العبيد الهاربين حتى من الولايات الحرة، لم يكن هناك أمان خارج كندا. وصار نهر «الأردن» الأسطورى الذى ينبغى عبوره إلى حيث الحرية هو نهر نياجرا الذى كان يفصل الولايات المتحدة عن الأراضى البريطانية. وتُعطى برادفورد وضعًا مؤثرًا لرؤية توبمان للملكة ڤيكتوريا، التى تصورتها تقف كأم ملكية على الضفة الكندية من النهر؛ لكى ترحب بالعبيد الهاربين. وبالنسبة للعبيد فى الجنوب كانت كندا رمزًا أو مفهومًا بقدر ما كانت مكانًا، كانت الأرض الموعودة. وكان نهر الأردن هو حدود كنعان التى تحدث عنها الكتاب المقدس، الأرض التى وعد بها الرب الإسرائيليين بعد هروبهم من مصر تحت قيادة موسى والتيه الذى استمر أربعين سنة فى قفار سيناء: «إلى أن أعبر الأردن إلى الأرض التى أعطانا الرب إلهنا» (سفر التثنية: ٢: ٢٩).

وكانوا فى طريقهم إلى الشمال ينشدون الأغنية الروحية «اهبط يا موسى»، وهى الأغنية التى كانت ممنوعة فى الجنوب:

اهبط يا موسى

اهبط فى الطريق إلى أرض مصر

قل لفرعون العجوز

http://almaktabeh.com

دع شعبى يذهبون

أوه قال فرعون إنه سيعترضهم

دع شعبى يذهبون

ولا تضع فى البرية

دع شعبى يذهبون

قد تحتجزنى هنا، ولكنك لا تستطيع أن تعوقنى هناك

دع شعبى يذهبون

فهو يجلس فى السماء يستجيب للصلاة

دع شعبى يذهبون

كانت فترة حياة دو بوا (١٨٦٨ - ١٩٦٣م) تتطابق مع حياة كل من هاريت توبمان (١٨٢٠ - ١٩١٣م) ومارتن لوثر كنج جونيور (١٩٢٩ - ١٩٦٨م) وكان كنج ابنًا لقسيس، ولا بد أنه قد انغمس منذ طفولته فى هذا النوع من التنميط المرتبط بالخروج. كتبت كيث د. ميللر فى كتابها «The Voice of Deliverance»:

«تعلم كنج ما يتعلق بديانة العبيد من أبيه، الذى كان مبشراً شعبيّاً، وتبنى رؤيتها للخلاص أساسًا لأفكاره وخطبه... فعلى مدى عشرات طويلة من السنين كان العبيد يمارسون ديانتهم تحت ظروف غاية فى الصعوبة؛ إذ كانت القوانين تمنعهم عادة من تعلم القراءة والكتابة، بحيث كان أغلبهم غير قادرين على قراءة الكتاب المقدس. وهكذا كانت المواعظ تخدم ليس باعتبارها وسيلة مهمة للتوجيه الدينى فحسب، وإنما كانت بالنسبة لكثيرين من السود، الوسيلة الوحيدة للتوجيه باستثناء الموسيقى. وكان معظم المبشرين، مثل رفاقهم العبيد، يفتقرون إلى ما يعينهم سوى أن يستقوا الدين من المبشرين الآخرين - وليس من الكتاب المقدس أو غيره من النصوص».

وقد أدى هذا إلى نتيجة واضحة: فقد كان على كل واعظ أن يكون لديه مخزون

http://almaktabeh.com

من العظات فى ذاكرته يمكن أن يأخذ منه أو يعدله كلما دعت الضرورة؛ وغالبًا ما كانت هذه العظات مؤلفة من عظات سمعها هو نفسه من وعّاظ آخرين؛ ولذلك كان مخزونه من العظات نوعًا من تراكم حكمة الشعب. وكان لا بد لهذا أن يضيف إلى سلطته، حتى بين أولئك الذى يعرفون المصادر التى استعار منها. ولم يكن من المعتاد أن تتم الإشارة إلى المراجع، كما لو كانت الموعظة مقالة أكاديمية مدعمة بالهوامش، بل إن هذه الاستعارة غير الموثقة لم تكن تعتبر سرقة أدبية غير عادلة. فقد كانت تعني بصفة خاصة مجازًا أو صورة مؤثرة - أو اقتباسًا من الكتاب المقدس - يمكن إعادة استخدامها بحسب الحاجة. ويمكن للمرء أن يُشبّه هذا بمنشور بابوى يمكن تطعيمه باقتباسات من منشورات أخرى لبابوات سابقين. والغرض هو إظهار استمرارية تراث التعاليم البابوية - تمامًا مثلما يفعل واعظ أسود، باستخدام وتعديل كلمات الوعّاظ الذين سبقوه؛ لكى يوضح استمرارية تراث الوعظ الذى هو حارسه والمتحدث باسمه.

ويحوى القصد المزدوج لوداع هاريت توبمان لرفاقها العبيد فى الأغنية التى اقتبسناها فيما سبق رسالة لاهوتية عميقة. فقد كانت ديانة العبيد تتجه إلى هذه الدنيا وإلى الحياة الأخرة أيضًا: فقد كانت تتعلق بالتحرر من الخطيئة والتحرر من الأسر الجسدى أيضًا (مثلما كانت ديانة العهد القديم فى الواقع). والكلمات أو العبارات التى كان يمكن أن تنطبق على أى من المعنيين كانت شائعة، كما أن اللعب بالكلمات كان محل تقدير ومصدرًا للاستمتاع. وكان مالك العبيد المسيحى يجد من الصعب عليه أن يعترض على العبيد المسيحيين وهو يغنون عن موسى وهو يخلّص العبرانيين من مصر، حتى لو كان يعرف أنهم يغنون عن الخروج عليه.

كانوا أيضًا يقدمون الأمل فى هذه الحياة. وأحد التجليات الواضحة فى ديانة العبيد الدنيوية كان هو التشبه الكثيف وواسع الانتشار بشخوص العهد القديم. وكان العبيد يتعاطفون بعمق مع نضالات مريم ودانيال ونوح وحزقيال ويوشع ويونس وموسى - الذين أسهم معظمهم فى انتفاضات اجتماعية، والذين يشخص

http://almaktabeh.com

كل منهم بصورة بارزة فى الشئون الروحية . ومع يسوع ، كان أبطال العهد القديم الذين يحبهم الرقيق قد واجهوا صعوبات ومشاقّ مرعبة قبل أن يحرزوا الانتصارات الزاهية . وكان العبيد يرون فى هذه الصعوبات ما يتشابه مع الاضطهاد والكبت اللذين يعانون منهما ، ويرون فى قصص النجاح التى يتحدث عنها الكتاب المقدس بشائر لتحررهم الآتى على نمط الكتاب المقدس . . .

وإذ عبر الأمريكيون الأفريقيون عن ولعهم الخاص بموسى ، شاع اعتبارهم صنواً للشعب المختار الأسير فى مصر - وهو تشبيه واضح فى كثير من الأمور الروحية حول موسى ، وفرعون ، والبحر الأحمر ، والبرية/ أو الأرض الموعودة . . . وفى سنة ١٨٠٨م فسّر الواعظ الأمريكى الأفريقى البارز أبسالوم جونز قانونًا وطنيًا يحرم تجارة الرقيق على أنه عمل من أعمال العناية الإلهية يساوى الخروج . وتمامًا مثلما «هبط الرب لكى يخلّص» الإسرائيليين من المصريين ، أعلن جونز أنه «هبط فى البرلمان البريطانى» حينما جرّم السفن التى تحمل الرقيق ، «وهبط فى الكونجرس بالولايات المتحدة» عندما وافق على حظر مماثل .

وحتى قبل نهاية الرق ، بحسب الدليل الذى يقدمه ميللر ، كان الوعّاظ السود الذين كانت غالبيتهم أميين ، قد صاغوا تنميطًا پروتستانتيًا كاملاً كان له أن يمنح الجدارة لمبشر پيوريتانى لجيش كرومويل النموذجى الجديد ، قبل قرنين من الزمان . أما كيف حدث هذا النقل للأفكار ؟ فهو أمر ربما لا نعرفه أبدًا ، طالما أن العملية كانت بالضرورة شفوية ولم يتم تسجيلها بدرجة كبيرة . وقد شقت الصحوة العظمى الثانية آثارها داخل جمهرة العبيد السود فى أعماق الجنوب منذ تسعينيات القرن الثامن عشر فصاعداً . ولم يكن بإمكان العبيد أن يقرأوا أو يكتبوا ولكن ثقافتهم كانت بالفعل ثقافة الأغنية والإنشاد ، وجاء التعبير عن المشاعر الدينية بالأغنية متوافقًا معها بصورة طبيعية .

ومضت الأناشيد الدينية الزنجية قُدمًا بهذا التراث بدرجة كبيرة . وإحدى الإشارات الباكرة إلى التنميط البروتستانتى المُطَبّق على العبيد السود ، وردت فى مجموعة لمثل هذه الأناشيد الدينية الزنجية نشرها ريتشارد آللن ، الذى كان هو

http://almaktabeh.com

نفسه واعظًا أسود ثم صار أسقفًا فيما بعد سنة ١٨٠١ م. وإذ كان مطرودًا من كنيسته الميثودية المحلية (البيضاء)، أسس ما صار يعرف باسم «الكنيسة الأسقفية الميثودية الأفريقية». ولكن «مثال الخروج» التنميطي هذا للعبيد السود كان من الواضح أنه لم يكن معروفًا لجون ويسلي مؤسس هذا المذهب البروتستانتي الميثودي، على الرغم من أنه كان من أوائل المعارضين الإنجليز للرق. وهكذا ربما يكون التنميط البروتستانتي قد أدخل إلى المسيحية السوداء من التراث التعميدي الذي يضرب بجذوره في البروتستانتية الكالفينية، وليس من الجانب الميثودي.

بل إن دقة هذا النقل للتنميط من البروتستانتية البيضاء إلى البروتستانتية السوداء قد امتد حتى إلى مفهوم «الزمن المقدس» - الذي كان يعرف من وجهة النظر اللاهوتية بأنه تاريخ الخلاص - والذي تحولت الحوادث الماضية عن طريقه إلى حوادث معاصرة. ويشرح ميللر كيف تبنى الوعّاظ السود هذه المبادئ:

«يمكن للتنميط أن ينطبق على الحاضر أيضًا؛ لأن المسيحيين قد يعاملون الأشخاص والحوادث التي ذكرها الكتاب المقدس على أنها أنماط يتكرر حدوثها عبر الوجود الإنساني حتى اللحظة الحاضرة. ومن ثم، فإن التنميط يقولب التاريخ في نماذج حسب أشكال من التجارب يمكن معرفتها وقابلة للتكرار. إنه لا يقدم ببساطة مجرد نظام من الرموز؛ لأن المؤمنين يرون في الحوادث التنميطية حقيقة حرفية. كما أن التنميط لا يستدعي التشابه؛ لأن التنميط، بخلاف التشابه، يقدم ويدعم رؤية شاملة ومتماسكة للعالم، توائم التجربة البشرية في نظام من التفسير يتسم بالمرونة والعنف في آن واحد».

ودور العناية الإلهية في هذا التنميط الأسود واضح، أما ما هو أقل وضوحًا، فهو يتعلق بمن بالضبط الذي يؤدي الأدوار الأخرى في الدراما التنميطية الخاصة بالتحرير/ الخلاص الأسود. مَن الكنعانيون؟، مثلاً، وأين الأرض الموعودة؟ وما العلاقة بين هذا الشعب المختار الأسود ومن سبقوه في ادّعاء اللقب لأنفسهم؟، خاصة الشعب المختار الأبيض الذي نشأ أصلاً من المستوطنين البيوريتان الأوائل

http://almaktabeh.com

فى نيوإنجلاند؟ هل تم تجاوزهم بكل مغزى ودلائل التجاوز التى ناقشناها فى الفصل الثالث؟ وهل الشعب المختار الجديد سيتم تحديده على أساس عرقى (مثل الشعب المختار فى العهد القديم) أم أن أى إنسان يمكن أن ينضم إليه؟

وربما كان ينبغى أن تكون إجابة الواعظ الأسود هى أن الدراما لم تتكشف سوى إلى هذا الحد، وأن الشعب المختار ما يزال فى رحلته بعد الأسر عبر البرية، ولم تقع أبصارهم بعد على الجهة التى يقصدونها. وربما كانت للأسئلة المطروحة فى السطور السابقة إجابات، بيد أنه لم يتم التوصل إليها بعد. ومن المحتمل أكثر أن التنميط قد بدأ ينهار ويصبح مجرد مجاز بلاغى، بحيث يفقد خاصيته الإعجازية التى يشير إليها ميللر، وأن الأرض الموعودة قد تمت صياغتها بشكل روحى فى حالة عاطفية، أو سياسية أو اقتصادية - التحرير من العبودية، والمساواة، ونهاية الانحياز العنصرى، وتكافؤ الفرص، وكل الأهداف الأخرى التى تسعى إليها حركة الحقوق المدنية العلمانية. فعلى سبيل المثال أعلن الواعظ الأسود ل. ج. كوبين، بعد خمسين سنة من «إعلان التحرير» أنهم وصلوا إلى حدود الأرض الموعودة «وأرض كنعان التى ننال فيها حقوق المواطنة أمامنا بالضبط». وبذلك يكون أولئك الذين عارضوا إعطاء السود حقوق مواطنة مساوية هم الكنعانيين الذين قاوموا دخول الشعب المختار.

وذلك مجاز واستعارة بلاغية لطيفة، ولكن أهمية الكنعانيين فى العهد القديم تتمثل فى أنهم كانوا أساسًا من عبدة الأصنام، يعبدون آلهة مزيفة ويغرون الإسرائيليين بأن يفعلوا مثلهم. وفى نموذج كوبين، فإن الكنعانيين (هم الذين يؤمنون بالتفوق من البيض، وليس مجرد المتطرفين، ولكن رأى الأغلبية البيضاء فى الوقت الذى كان يتحدث فيه) هم بالتحديد الذين يرفضون السماح للناس السود بأن يصيروا مثلهم - أى يرفضون السماح لهم بأن يؤمنوا بالعقائد وأن يعبدوا الآلهة التى يعبدها المجتمع الأبيض (الديموقراطية والمساواة والرأسمالية، والمادية وأى شىء آخر) وليس أنهم يصرون أن يفعلوا ذلك. وهذا قلب خطير للأوضاع.

http://almaktabeh.com

وإذ كان اللاهوتيون البيض قد تخلّوا عن التنميط البروتستانتي باعتباره موضوعًا جديرًا بالتأمل اللاهوتي الجاد في وقت ما من القرن التاسع عشر فإن اللاهوتيين السود أمامهم عوائق تحول دونهم إذا ما رغبوا في إخضاع تراثهم الخاص للدرجة من التحقيق الصارم. بيد أنهم ليسوا وحدهم تماما؛ إذ إن السنوات الثلاثين الأخيرة قد شهدت تطور عدة مدارس حديثة في «لاهوت الخروج»، أبرزها ما يسمى «لاهوت التحرير بين الكاثوليك الرومان في أمريكا اللاتينية». وهي أقل حرفية من حيث إنها لا تحاجج مباشرة من حوادث وشخصيات الكتاب المقدس إلى حوادث وشخصيات الحاضر. ذلك أن هناك أسبابًا تدعونا للظن بأن مارتن لوثر كنج، انطلاقًا من دوائره التعليمية والفكرية التي كان يتحرك فيها، كان يدرك هذا، حتى لو كان قد اغتيل في ذات الوقت الذي كان فيه لاهوت التحرير قد بدأ يسترعي انتباه المفكرين - ويستدعي الهجوم الشرس - في العالم الأوسع.

لقد تولى كنج زمام شكل ديني لحركة الحقوق المدنية كان أكثر وضوحًا داخل الجماعة السوداء منها خارجها. وحتى الآن، فإن تعامل البيض مع الحقوق المدنية في الثقافة الشعبية - أفلام هوليوود مثل فيلم «Mississippi Burning» مثلاً - يميل إلى التعاطف مع الديانة السوداء باعتبارها مصدرًا ساذجًا للراحة، وليس باعتبارها الحافة القاطعة لاحتجاج السود. كما أن الثقافة الشعبية لا تعطي الجدارة - وهنا يكون فيلم آلان باركر مذنبًا مرة أخرى - لمذهب كنج عن اللاعنف وعن القوة الخلاصية للمعاناة الظالمة. فقد كان منهجه المختار في النشاط السياسي مُصاغًا بعناية حسب نموذج المهاتما غاندي، ولكنه يستلهم تعاليم العهد الجديد مباشرة مثل خطبة يسوع فوق الجبل. وحتى الآن، لم يتم تقدير المغزى الحقيقي لهذا بشكل صحيح. وكمجتمع يحترم العنف ومن يستخدمونه، فإن اللاعنف لم يكن يروق للمزاج الأمريكي، ومن ثم، فإن اللاعنف، مهما كان استخدامه ناجحًا، يصير خفيًا ويكاد يكون منسيًا.

لقد عمل كنج داخل إطار المذهب الذي كان راسخًا بالفعل والقائل بأن السود «شعب» وليسوا مجرد مجموعة من الأفراد ذوي الأصول المتشابهة والبشرة

http://almaktabeh.com

المتماثلة. وقد استخدمت كلمة «شعب» استخدامًا تنميطيًا؛ لكى تعنى: «نحن الإسرائيليون المحدثون، شعب الرب، شعبه المختار». (وهذا يثير السؤال: عما إذا كانت كلمة «سود» يجب أن تُستغل؟، والواقع عما إذا كانت كلمة «بيض»، باسم الاتساق، يجب أن تُستغل أيضًا؟. وفى نص مثل هذا الفصل ليست هناك إجابات شافية على مثل هذه الأسئلة). وكلمة «شعب» ليست بالضرورة مساوية لكلمة جنس بالمعنى العرقى الضيّق؛ لأن كثيرين من أولئك المقبولين أعضاء فيه ربما يكون نصف، أو ربع، سود «خالصين» عن طريق اختلاط الأبوين أو الجدين. وهى تقترب أكثر من فكرة «الأمة» حسبما استخدمها بندكت أندرسون فى نظريته عن «الجماعات المُتخيّلة» ـ باعتبارها «علاقة رفقة أفقية عميقة» تحدد «الناس الذين مثلنا» وتفصلهم عن «الناس الذين ليسوا مثلنا».

وفى حالة الناس السود ـ «الجماعة السوداء» أو «جماعة الأمريكيين الأفارقة» ستكون هى التعبير المعاصر ـ كان لتحديد من نحن تاريخيًا ارتباط كبير بتحديد من «هم» الذين يقولون «نحن»؛ إذ إن السود قبلوا أولئك الذين قالت عنهم الجماعة البيضاء: إنهم سود باعتبارهم سودًا، وهو أمر فى العلاقات العنصرية الأمريكية، فى الماضى على الأقل، كان يعنى أولئك الذين تم رفضهم؛ لأنهم لم يكونوا بيضًا بالقدر الكافى (ربما لأن أصولهم العنصرية مختلطة). وقد تخيلت الجماعة الأنجلوسكسونية البيضاء «المُتخيّلة» نفسها على أنها جماعة بيضاء البشرة، أو كانت تتخيل ذلك على الأقل منذ حركة تحرير الرقيق. وقبل ذلك، وفى ظل قوانين الرق كانت مكانة العبد أو الحر، فى حالة اختلاط عنصرى الأبوين، تتحدد بوضعية الأم، (وليست مصادفة أن هذا يتماشى مع تحديد اليهودى فى التوراة الشفوية الهالاكاه، أو الشريعة اليهودية القديمة). وعلى الأقل فى القرن الثامن عشر، كان التراث فى انجلترا نفسها ـ حيث كان الرق غير قانونى ـ مختلفًا: إذ كان يمكن قبول المرء باعتباره سيدًا إنجليزيًا أسود (أو مختلط العرق) إذا ما كانت بحوزته أوراق الاعتماد الاجتماعية.

وفى ظل الرق، إذا ولدت امرأة بيضاء طفلاً مختلط العرق أنجبته من رجل أسود

http://almaktabeh.com

لم يكن الطفل ليخضع للرق؛ وعلى العكس، كان الطفل يصير عبداً إذا أنجبته امرأة سوداء من رجل أبيض. وبقدر ما كان المظهر يبدو، لم يكن ممكناً، على أية حال، فصل الحالتين عن بعضهما، ولذلك فإنه حتى الشخص الحر ذا الأصول المختلطة، وأمه امرأة بيضاء، كان لا بد أن يواجه بعض الصعوبة حتى لا يُحسب عبداً. وربما لا يكون مدهشاً أن عضوية مثل هذا الشخص فى الجماعة البيضاء كانت تُعتبر تجريبية بطريقة ما. وأى شخص أسود أو من أصول عرقية مختلطة كان يُعامَل باعتباره عبداً إلا إذا أثبت العكس. وبعد إلغاء قوانين الرقيق، عندما تم إضفاء الشكل الرسمى على التفرقة العنصرية فى ظل نظام چيم كرو، كان وجود أحد الوالدين من السود فى زيجة مختلطة يحدد وضعية الشخص بأنه أسود من الناحية القانونية. وليس هناك منطق فى هذا، طالما أن شخصاً ما نصف ونصف كان يمكن اعتباره نظرياً عضواً فى أىّ من المجموعتين أو فى كلتيهما. بيد أن القاعدة تؤكد على فهم السواد على أنه شىء يلطخ أو ينجّس، أو يلوث البياض: وكان للنازى تعامل مشابه مع الناس الذين ولدوا لأبوين أحدهما يهودى والآخر آرى. وإذا كان أحد الجدود يهودياً كان هذا كافياً لحرمان أى شخص من مكانة الآرى «النقى».

وهكذا امتدت عضوية الجماعة السوداء لتشمل كل أولئك المستبعدين من الجماعة البيضاء. ومرة أخرى، إذا أخذنا فى اعتبارنا تحديد أندرسون «للجماعة المُتخيّلة» فإن «الرفقة الأفقية العميقة» التى يتحدث عنها هنا تشير إلى تجربة مشتركة من الاستبعاد العنصرى والانحياز. وهذا أمر مسيحى معترف به بطريقة شاملة ويفترض وجود إدراك حاذق من التضامن باعتباره مبدأ أخلاقياً (وبعض التأمل الواعى فى مثل السامرى الطيب، على سبيل المثال). ولا يعنى هذا أن الجماعة البيضاء قد سُمح لها بأن تحدد الجماعة السوداء بسياسة الاستبعاد التى انتهجتها: وإنما تعنى أن الجماعة السوداء قد قررت لنفسها أن تتبنى «معاناة عنصرية مشتركة»، باعتبارها العلامة المميزة لأولئك الذين اختاروا أن تشعر معهم «بالرفقة الأفقية العميقة».

أما ما أعاد فرض هذا الإحساس بشعب مختار أسود منفصل فكان فشل

http://almaktabeh.com

البروتستانت البيض، حتى من يبشرون بالإنجيل الاجتماعى التحررى (المعادل الأمريكى للاشتراكية المسيحية الإنجليزية)، فى تحديد، والاحتجاج على، الأدلة المتزايدة على الفصل العنصرى، والتعصب فى الجنوب ما بعد الحرب الأهلية. إذ لم يكن هناك تضامن كاف مع البروتستانت؛ لكى يهدم أسوار الفصل الدينى الذى كان بالفعل قد قسّم الطوائف الرئيسية (فيما عدا الكنيسة الأسقفية والكاثوليك الرومان) إلى فرعين متمايزين أبيض وأسود من نفس الكنائس. وعلى أية حال، لم تكن البروتستانتية السوداء تحررية بشكل خاص، لا من الناحية اللاهوتية ولا من الناحية الأخلاقية؛ إذ كانت البروتستانتية السوداء ستبدو أصولية بشكل غير مرض بالنسبة لأىّ لاهوتى من التيار الرئيسى فى كلية من كليات «إيفى ليج - Ivy League»، ومن ثم لم يكن من السهل عبور الحدود العنصرية للوصول إلى الأفكار التحررية لدى البيض، «لم يحدث أبدًا أن برز العنصر على أنه موضوع دينى سائد بالنسبة إلى البيض قبل مقاطعة حافلات مونتجومرى سنة ١٩٥٥م» حسبما يكتب ميللر، «لقد كان ذلك الحادث هو الذى جلب لمارتن لوثر كنج الشهرة العالمية».

فقد اعتبر كنج أن الإنجيل الاجتماعى يعيد وضع المكون الأساسى المفقود فى النزعة الفردية التى تميز البروتستانت البيض، بحيث يدين أية «ديانة تتعامل مع أرواح البشر ولا تهتم بتلك الأحياء القذرة التى تلعنهم. . .» على أنها أوشكت على الموت روحيًا، بيد أن نوع البروتستانتية السوداء الذى قدمه لم يكن بحاجة إلى إنجيل اجتماعى لكى يذكّره بذلك، كما أن نضاله العام من أجل الإنجيل الاجتماعى كان قائمًا على أساس خلق قضية مشتركة مع البروتستانتية البيضاء، بدلاً من أن يقدم إضافة مهمة إلى عقيدته الخاصة. وبعبارة أخرى، كان للبروتستانتية السوداء إنجيلها الاجتماعى الخاص بها، ومنذ وقت طويل قبل أن يصك والتر روشينبوش (مؤلف «Christianizing The Social Order» سنة ١٩١٢م). ولا بد أن التبشير بالعدالة الاجتماعية كان علامة مميزة لكل موعظة سمعها كنج فى حياته؛ لأن هذا كان قد صار التفسير الأسود المعتاد للعهد القديم منذ أيام العبودية. لقد كان ذلك النتيجة المباشرة لاعتبار السود تنميطيًا شعبًا ينتمى للكتاب المقدس - مثل الإسرائيليين القدامى فى هروبهم من استعباد المصريين لهم.

http://almaktabeh.com

ولم تكن مشكلة كنج هى الاضطرار إلى إقناع المسيحيين السود بأن الفصل العنصرى أمر يناقض كلمة الرب. وإنما كانت مشكلته مع المسيحية البيضاء لا سيما رأى الأغلبية فى أوساط البروتستانت فى الولايات المتحدة (على الرغم من أنه كان منتشراً بين السواد الأعظم أكثر منه بين الزعماء)، وهو الرأى الذى كان يرغب فى مجرد «حائط فصل» بين الكنيسة والدولة (على حد تعبير جيفرسون) بل حائط فصل أعلى فى بنيانه بين الدين والسياسة، ولم يكن هناك تصريح بمثل هذا الحائط فى الكتاب المقدس. «. . . أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (متى ٢٢ : ٢١) وهو نص لا يقترب من الحالة بأى شكل. ولكن المذهب الكالفينى الذى اعتنقه الرواد الأوائل فى نيوإنجلاند، الذى كان آنذاك منتشراً بشكل واسع وإن كان ضعيفًا فى أعماق الجنوب، قد مرر الرسالة القائلة بأنه إذا كان الازدهار علامة على موافقة الرب، فإن الفشل، والخراب والجهل والدونية الاجتماعية، كانت علامات على عدم موافقة الرب. وثمة قطعة علمية مزيفة لتعزيز هذا قدمتها النظريات المزورة التى قدمها الداروينيون الاجتماعيون الذين اعتقدوا أن النظام الفئوى فى المجتمع الأمريكى ـ الذى كان قد ألغى الأرستقراطية وورث الامتيازات الطبقية ـ كان انعكاساً لمبدأ البقاء للأفضل. ومن ثم فإن أولئك الذين بقوا فى أدنى مستوى كانوا هم الذين لا يصلحون، كما أن الحالة الاقتصادية المتدنية للسود كشفت عن أنهم ضمن هذه الفئة.

وبدا أن هذا كله يتعزز باللعنة التى انصبت على نسل حام ـ نسله من ابنه الذى سُمى كنعان؛ ليكون خليقًا بهذه اللعنة ـ التى وردت فى سفر التكوين (٩: ٢٥) والتى حكمت عليهم جميعًا بالعبودية الدائمة «فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته»(*). ولكن فوق هذا كله، فإن الكالفينية لم تتخل تمامًا عن القدرية التى عرّفت «المختارين» بأنهم أولئك المعروفون فعلاً للرب، المجموعة المغلقة،

(*) ملخص القصة التوراتية: أن نوحًا شرب حتى سكر، وبعد أن سكر تعرى، فرأى عورته ابنه حام، فأخبر أخويه سام ويافث، فدخلا الخيمة فغطيا عورة أبيهما نوح ـ دون أن ينظرا إلى عورته. وعلم نوح ذلك عندما أفاق من السكر، فإذا به يلعن كنعان بن حام ويقول قولته الشهيرة التى تبرر عبودية الكنعانيين للساميين. المترجم.

http://almaktabeh.com

القبيلة الإنجليزية البيضاء، الشعب المختار المرئى الذين كانوا أول من اعتنق البروتستانتية من الأنجلوسكسون. ونظريات كل من چون بيل وچون فوكس التاريخية عن أن المسيحيين الأصليين المخلّص هم الإنجليز، والذين زرعت عقيدتهم داخل الذكرى الحية للمسيح نفسه على يد يوسف الرامى، هذه النظريات تركت على الأقل شائعة عن أن أولئك الذين يمكنهم الزعم بأنهم يحملون دماء أنجلوسكسونية طيبة هم المقربون من الرب بصفة خاصة. وقد امتدت هذه الشائعة فى أعماق الجنوب فى جوهر أيديولوچية الكلوكلوكلان.

والنسخة المتطرفة لمثل هذا التفكير الأسطورى تمثلت فيما يسمى حركة «الإسرائيليين البريطانيين»، التى اجتذبت فى البداية انتباه الناس فى القرن التاسع عشر بزعمها أن البريطانيين كانوا نسلاً حقيقيًا (چينيًا)، للقبائل العشر المفقودة الأسطورية من بنى إسرائيل، والتى اختفت من تاريخ الكتاب المقدس بعد أن استولى الآشوريون على المملكة الشمالية. وهكذا فإن «الحجر» المستخدم فى حفلات التتويج البريطانية، كان يقال: إن أصله يرجع إلى الملك داود (النبى) وحُمل إلى اسكتلندا للحفاظ عليه. وفى وقت ما زار يسوع نفسه القبائل العشر. هذا الاختراع - لأن مصطلح «أسطورة» يعطيه جدارة لا يستحقها - يبدو أنه السبب وراء تساؤل وليم بليك الشهير فى ترنيمة «القدس»:

وهل هذه الأقدام فى الزمن القديم

كانت تمشى فوق جبال انجلترا الخضراء؟

وهل كان حَمَل الرب المقدس

قد شوهد فوق مراعى انجلترا البهيجة؟

كان زعم الإسرائيليين البريطانيين شائعًا على مدى فترة من الزمن على اعتبار أنه أساس وطنى للإمبراطورية البريطانية. ومن بين أولئك الذين لم يوافقوا عليه كان أولئك الذين أحسوا أنه يقلص من قوة الرأى الأكثر شيوعًا وشبه الرسمى، بأن البريطانيين هم السلالة الروحية (ولكن ليس الفعلية) للشعب العبرانى. وهناك

http://almaktabeh.com

جماعات أمريكية على أقصى اليمين تصرح بصيغة نشأت فى البلاد عن أصل الاعتقاد فى الإسرائيليين البريطانيين، ويخلطون هذا بالأساطير النازية عن الجنس الآرى؛ ومن نافلة القول أن نقول: إنهم فاشيون. وتظهر صيغة أخرى مختلفة تماماً فى نظام الإيمان لدى طائفة المورمون.

وفكرة «الشعب المختار» فى الكالفينية الجديدة عن ميثاق أمريكى أبيض مع الرب كانت لها نتائجها وعواقبها؛ إذ إنها حددت الأرض الموعودة - شبه القارة الأمريكية الشمالية - كما أنها حددت أيضاً أعداء البروتستانت الأمريكيين البيض. وكانوا يتمثلون إما فى الفئات الكلاسيكية التى تم تجاوزها، مثل البريطانيين واليهود والكاثوليك - الذين كان الرب قد تبرأ منهم - أو الفئات الكنعانية الكلاسيكية، من الأمريكيين الأصليين والسود - والذين كان الرب قد لعنهم وجعلهم فى مكانة أدنى، وفى كل حالة أوضح التنميط البروتستانتى كيف كان يمكن التعامل معهم. فلم يكن الكاثوليك واليهود والسود يستحقون معاملة أفضل من معاملة أعداء شعب الله المختار القديم تحت قيادة موسى، ويوشع وجدعون والباقين. وكان أى عدو للقبيلة البروتستانتية البيضاء يعتبر عدواً للرب؛ ودفاعاً عن القبيلة البيضاء، كان القتل مباحاً فى النهاية. هذا التنميط - الذى كان يمكن الزعم بأنه مستمد من الكتاب المقدس بشكل جامد - كان قد انطلق فى الجنوب بعد الحرب الأهلية ليحل محل الأيديولوجية القديمة عن الطبقة والنشأة والهيراركية و«الالتزام النبيل» الذى «ذهب مع الريح» عندما سار شيرمان عبر چورچيا يدمر كل ما يقابله.

وبحلول منتصف خمسينيات القرن العشرين، كان هناك افتراضان ناضجان ولكنهما متنافسان ولا يمكن التوفيق بينهما بأى حال، عن وضع «الشعب المختار» فى الجنوب، ويدعى كل منهما أن الكتاب المقدس مصدره ولكل منهما تنميطه الخاص اعتماداً على الكتاب المقدس. وبينما كانا متعارضين، وقد سحب كل منهما خنجره ليطعن الآخر، كانت حركة الحقوق المدنية تطالب باستكمال أچندة ما بعد الحرب الأهلية التى عبر عنها لينكولن فى خطابه فى جتيسبرج. هذا التصوير الدينى لأزمة العلاقات العنصرية فى أمريكا فى خمسينيات وستينيات القرن

http://almaktabeh.com

العشرين ليس هو التصوير العلماني ولا الماركسي، الذي كان المعلقون يفضلونه عادة، ولكن مما لا شك فيه أنه كانت له قوة أكبر في شرح الأزمة أو إلقاء الضوء عليها. كما كانت له أيضاً تضمينات مهمة بالنسبة للعلاقات العنصرية البريطانية.

وإذا كانت أهم موعظة ألقيت في أمريكا في القرن الثامن عشر هي التي تحمل عنوان: «الخطاة بين يدي رب غاضب» والتي ألقاها چوناثان إدواردز، فمن المؤكد أن أهم خطبة وعظية أمريكية في القرن العشرين هي التي تحمل عنوان: «أنا عندي حلم» والتي ألقاها مارتن لوثر كنج أمام حشد من مائتي ألف شخص في واشنطن في أغسطس سنة ١٩٦٣م. وهي قطعة بلاغية جميلة التأليف، فهي على الأقل تنافس أية خطبة من خطب ونستون تشرشل (الذي حظي باعتراف واسع بأنه أعظم خطيب باللغة الإنجليزية في القرن العشرين)، وقد ألفها شخص ما له أذن حساسة تجاه التوازن في كل عبارة وصوت كل مقطع. كان هذا درس حياته كواعظ أسود، بالإضافة إلى موهبته الخاصة النادرة.

وتبدأ ترنيمة «أنا عندي حلم» بأن يذكّر سامعيه - ولكن أساساً سامعيه الغائبين - أي أمريكا البيضاء - بوعودها لأمريكا السوداء. وهو يشير إلى إعلان الاستقلال، وخطاب جتيسبرج، وإعلان تحريم الرق، ويقتبس منهم بطريقة مفحمة. وفي البداية تبدو الترنيمة علمانية إلى حد كبير، على الرغم من بؤرتها الأخلاقية القوية. ولا تبدأ الخطبة في اتخاذ شكل الموعظة سوى في منتصفها، وعلى الرغم من أن كنج كان قد اتخذ بالفعل طريق المبشر في طرح قضية مثل استخدام عبارات متكررة دوارة:

«هناك أولئك الذين يسألون المدافعين عن الحقوق المدنية» متى سترضون؟ إننا لن نرضى أبداً طالما أن الزنوج ضحية للرعب الذي لا يوصف من جراء قسوة الشرطة. إننا لن نرضى أبداً طالما أن أجسادنا التي أرهقها السفر، لا يمكن أن تسكن النُزُل على الطرق السريعة أو الفنادق في المدن. إننا لن نرضى أبداً طالما أن حراك الزنوج هو فقط من معزل صغير إلى معزل أكبر. إننا لن نرضى أبداً أن أطفالنا مجردون من ذواتهم ومسلوبون من كبريائهم بواسطة العلامات التي تقرر «للبيض

http://almaktabeh.com

فقط». إننا لا يمكن أن نرضى طالما أن أى زنجى فى الميسيسبى لا يمكن أن يدلى بصوته وأى زنجى فى نيويورك يعتقد بأنه لا يملك شيئًا يصوِّت من اجله. لا، لا، نحن لسنا راضين ولن نرضى حتى «تتدفق العدالة مثل المياه وينساب الحق مثل المجرى العظيم».

. . . وهو ما يكون حينما يصبح الخطاب موعظة؛ لأن هذه هى كلمات النبى عاموس «وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم» (عاموس ٥ : ٢٤). وعندما يصل إلى أشهر فقرة، تكون العبارة التكرارية هى عبارة العنوان: «عندى حلم». ولكن لديه مفاجأة الواعظ فى النهاية. فمَن الحالم بالضبط؟

«أقول اليوم لكم يا أصدقائى، حتى ونحن نواجه صعوبات اليوم والغد، إننى ما يزال عندى حلم. وهو حلم يضرب بجذوره فى أعماق الحلم الأمريكى.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما ستنهض هذه الأمة وتعيش حسب عقيدتها الحقة: نحن نأخذ هذه الحقائق على أنها بديهيات، أن البشر جميعًا قد خلقوا سواء.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما على تلال چورچيا الحمراء، سيكون بوسع أبناء العبيد السابقين وأبناء ملاك العبيد السابقين أن يجلسوا سويًا على مائدة الأخوة.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما ستتحول ولاية الميسيسبى، وهى ولاية ألهبتها حرارة العدالة، وأرهقتها حرارة الاضطهاد، إلى واحة للحرية والعدالة.

إن عندى حلمًا بأن أطفالى الأربعة الصغار سوف يعيشون يومًا ما فى وطن لا يُحكم فيه عليهم بلون بشرتهم ولكن بمضمون شخصيتهم. إن عندى حلمًا اليوم.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما فى آلاباما، التى تعج بالعنصريين الأقحاح، والتى يتفوه حاكمها بكلمات «الاعتراض» و«عدم الشرعية» يومًا ما هناك فى آلاباما سيكون الصبية والصبايا السود الصغار قادرين على أن يشبكوا أيديهم فى أيدى الصبية والصبايا البيض الصغار كإخوة وأخوات. إن عندى حلمًا اليوم.

إن عندى حلمًا بأنه ذات يوم سيتم إعلاء كل واد، وخفض كل تل وجبل؛

http://almaktabeh.com

والأماكن الوعرة سوف تمهّد، والأماكن الملتوية ستصير مستقيمة، وسيتجلى مجد الرب، وسيراه كل البشر سويًا».

وهذه ليست رؤيا كنج وإنما هى رؤيا النبى إشعيا. وكان بوسع مستمعيه أن يتعرفوا عليها فى الحال، وهى مساهمة قيمة فى فهم الكيفية التى كانت تسمع بها كلماته أن تقدم السياق الروحى الأوسع. وهذا يجيب أيضًا على السؤال: من الذى يحلم؟ إنه كنج، بيد أنه يحلم حلم إشعيا، كما أن إشعيا يكرر كلمة الرب. إنه باختصار حلم الرب. ونص إشعيا بالكامل (٤٠: ١ـ٥):

«عزوا عزوا شعبى، يقول إلهكم. طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل أن إثمها قد عُفى عنه، أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها.

صوت صارخ فى البرية: أعدوا طريق الرب. قوّموا فى القفر سبيلاً لإلهنا، كل وطاء يرتفع وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوج مستقيمًا والعراقيب سهلاً. فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر جميعًا لأن فم الرب تكلم».

إنه ليس فقط إعلانًا للعدالة الوشيكة. هذه الفقرة، مثل فقرات أخرى فى سفر إشعيا، تتطلع صوب عصر مسيحانى جديد. فالكلمات (كما عرف سامعوه) ترد مرات ومرات فى الكتاب المقدس، بواسطة يوحنا المعمدان، الذى يتنبأ بقدوم المسيح الوشيك ومطالبة الشعب بالاستعداد له بالتوبة:

« فى أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا، كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا فى البرية. فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا. كما هو مكتوب فى سفر أقوال إشعياء النبى القائل: صوت صارخ فى البرية، أعدوا طريق الرب اصنعوا سُبُله مُستقيمة. كل واد يمتلئ وكل جبل وأكمة ينخفض وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرقًا سهلة. ويبصر كل بشر خلاص الله» (لوقا ٣: ٢ـ٦).

ثم يظهر نبى ثالث من أنبياء الكتاب المقدس: دانيال. وعرض كيث ميللر للنص لا يحتاج إلى مزيد من التعليق:

http://almaktabeh.com

«وباتباع التكرار لعبارة «إن عندى حلمًا» أثار «كنج» الفكرة الأخروية فى الكتاب المقدس بإعادة إنتاج تصوير ما قاله النبى دانيال «بهذا الإيمان سنكون قادرين على أن ننحت من جبل اليأس حجراً للأمل». وإذ كان دانيال يفسر حلمًا شهيراً للملك «نبوخذ نصر»، يصف حجراً يسحق تمثالاً صنع من المعادن الثمينة، والحديد، والصلصال. وإذ نحته الرب من أحد الجبال، فإن الحجر يرمز إلى مملكة الرب المثالية التى تدمّر كل الممالك الأرضية التافهة ويبقى هو للأبد. وعلى أية حال، فإنه فى خطبة كنج، يستخرج البشر الحجر من الجبل دون أن ينتظروا بسلبية أن يخلق الرب مملكة جديدة بنفسه خلقًا تامًا. وإذ مثلت بالصخرة من الجبل، فإن وصول مملكة دانيال المثالية يتصادف مع وصول مملكة إشعياء ذات الأودية المرفوعة والجبال المنخفضة. وقد عالج كنج بخبرة رموز الجبل من دانيال وإشعياء عندما ابتدع صورة الجماعة الكاملة» [وردت القصة فى الإصحاح الثانى من سفر دانيال].

وبعبارة أخرى، هذا هو الحلم القديم للنزعة الألفية فى البروتستانتية: رؤيا عالم كامل يحكم فيه المسيح على مدى ألف سنة. وبينما يوضح التنميط البروتستانتى مرة بعد مرة، فإن دور الشعب المختار هو إحضارها إلى الوجود. إنهم المولودن الذين سيجعلون المجىء الثانى للمسيح، بعملهم من أجل العدالة.

وإنها أمريكا، ما تزال هى الأرض الموعودة التى سوف يحدث فيها هذا؛ إذ إن عقيدة كنج فى الخلاص هى فى النهاية نفس العقيدة الأمريكية، شأنه فى ذلك شأن كل من سبقوه، سواء من السود أو البيض. وأية شكوك يمحوها ختامه لخطبته الرنانة، عندما يصير موضوع إشعياء عن الجبال التى تغيرت هيئتها هو الحلم الأمريكى ذاته، وهى صهر نبوءة فى العهد القديم مع النشيد الوطنى الأمريكى:

«سيكون هذا هو اليوم الذى ينشد فيه جميع أبناء الرب بمعنى جديد:

إن بلادى منك

أرض الحرية الحلوة

http://almaktabeh.com

عنك أغنى

الأرض التى مات فيها آبائى

أرض فخر الحجاج

من كافة جوانب الجبال

دع أجراس الحرية تدق

ولهذا دع الحرية تدق أجراسها من قمم التلال المدهشة فى نيوها مبشير

دع أجراس الحرية تدق من جبال نيويورك العظيمة

دع أجراس الحرية تدق من جبال پنسلڤانيا المتعالية

دع أجراس الحرية تدق من جبال الروكى ذات القمم الثلجية فى كلورادو

دع أجراس الحرية تدق من منحدرات كاليفورنيا المنحنية

ولكن ليس هذا فقط : دع أجراس الحرية تدق من جبل الصخر فى چورچيا

دع أجراس الحرية تدق من جبل لوك أوت فى تنيسى

دع أجراس الحرية تدق من كل تل وكومة فى الميسيسپى

من كافة جوانب الجبال، دع أجراس الحرية تدق

ثم يعود أخيراً إلى جذوره كواعظ أسود؛ لكى «يعلن سنة الرب المقبولة» ويلخص الألفية :

«وعندما يحدث هذا، حينما نسمح لأجراس الحرية أن تدق، حينما ندعوها تدق من كل قرية وكل محلة، من كل ولاية، ومن كل مدينة، سنكون قادرين على أن نسرع مجىء ذلك اليوم، الذى فيه كل أبناء الرب، من السود والبيض، من اليهود والأغيار، سيكونون قادرين على أن يشبكوا أيديهم وينشدوا فى كلمات الأغانى الدينية الزنجية القديمة : الحرية أخيراً! شكراً للرب العظيم، لقد تحررنا أخيراً».

http://almaktabeh.com

لأن تلك كما كان يعرف كل مسيحى أسود سمعه حتمًا ، كانت أغنية نهاية الزمان. وهكذا قدم مارتن لوثر كنج فى موعظته ليس فقط دعوة موجهة ونبيلة بالتصرف لتصحيح الأخطاء العنصرية؛ وإنما قدم «لاهوتًا لأمريكا» متجددًا ومكتملاً، وهو على اتساق مع تراث طويل من التبشير البروتستانتى المستمد من سفر الرؤيا، سواء أبيض أو أسود. فأمريكا السوداء يفترض أن تكون الأمة المخلّصة، «ضوء على الأمميين»؛ أما أمريكا البيضاء فهى الأمة التى تنال الخلاص. وخلاصها يبشر بزمن النهاية، أى بداية مملكة المسيح على الأرض. ولا بد أنها كانت تجميعًا لافتًا للنظر حتى وإن كانت هى الشيء الوحيد الذى فعله فى حياته.

وفى نظرية التنميط على أساس الكتاب المقدس، كان ثمة شعب - قرين للشعب الإسرائيلى فى العهد القديم - هو الشعب الأسود الذى كان مضطهَدًا، ومن ثم فإنهم بوصفهم شعبًا لا بد أن يتم تحريرهم (من ربقة العبودية فى مصر . . . إلخ) بمساعدة الرب ولكن بجهودهم الخاصة. وقدمت حركة الحقوق المدنية الأمريكية نموذجًا احتذاه أصحاب الحملات الأخرى، ممن رأوا تشابهات بينهم وبين الشعب الأسود وبين شكاواهم وشكاوى السود.

والتضامن والشعور بالقوة التى منحها مفهوم «الشعب» لنضال السود من أجل الحقوق المدنية كان يعتبر ساريًا وفعّالاً بالمثل بالنسبة للشواذ جنسيًا ، والمعاقين، والمسنين، والنساء وهلم جرا؛ إذ كانت مشاعر العداء تجاه هذه الجماعة قرينة بالعداء الذى خضعت له الجماعة السوداء. وبدأ التصحيح السياسى باعتباره لغة معاداة العنصرية، وطُبق بالتشابه على أولئك الناس المتباينين الذين كانوا أيضًا يرون أنفسهم جماعات مناهضة للاضطهاد. ومن الناحية النظرية، كان مصدر الاضطهاد فى حالة الشواذ جنسيًا، والمعوقين، والنساء وما إلى ذلك، هو نفس المصدر بالنسبة للسود. كان المصدر هو مجموع البروتستانت الأنجلوسكسون البيض (WASPS) المحافظين الذين تجلى موقفهم بأقسى صورة فى الطبقة العاملة من الذكور البيض فى أعماق الجنوب، والذين كان أكثر رموزهم تطرفًا هو جماعة

http://almaktabeh.com

الكوكلوكس كلان، لأنهم أيضا كانوا «شعبًا» بالمعنى الوارد فى الكتاب المقدس، على الرغم من أنهم كانوا يشكلون أغلبية.

وقد ربط مارتن لوثر كنج عدة مرات بين الحملة من أجل الحقوق المدنية الأمريكية وبين حركة مناهضة الاستعمار العالمية، والواقع أنه كانت هناك نقاط تشابه، إذ لم يكن لدى الناس السود فى أفريقيا حقوق متساوية مع حقوق البيض. ولم يصدق هذا على أى مكان أكثر منه فى الجزء الجنوبى من القارة. فبحلول الستينيات، كانت الأغلبية البيضاء فى جنوب أفريقيا - إذ لم يكن للسود حق التصويت - قد أقامت الدولة الوحيدة فى العالم القائمة على أسس عنصرية كاملة؛ حيث كان التمييز العنصرى يحظى بمباركة أعمق حتى من جنوب الولايات المتحدة فى ظل قوانين جيم كرو. وقد أسس البيض فى جنوب أفريقيا أنفسهم على أساس قراءتهم الكالڤينية للكتاب المقدس، لا سيما المفهوم القائل بوجود «شعب مختار» أبيض يحتل، تحت ميثاق مقدس، «أرضًا موعودة»، مع اعتبار الأفريقيين الأصليين بمثابة الكنعانيين. ففى سفرهم الطويل فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كانوا، مثل الإسرائيليين القدماء، هاربين من «الفرعون» (الذى يظهر فى هذه الدراما فى صورة الملكة ڤيكتوريا). كانت مثل هذه الاعتقادات أقرب إلى اللاهوت السياسى لعامة البروتستانت البيض الذى كان مارتن لوثر كنج يقاتله فى بلاده. وعلى الرغم من أن البوير لم يمارسوا الرق فى المصطلحات الأمريكية، فإنهم أيضًا كانوا يعتقدون أن «الكنعانيين» قد وضعهم الرب هناك؛ لكى يخضعوا للحكم، ولكى يتم تحويلهم إلى عمال وخدم.

كانت أيديولوچية «الشعب المختار» لدى البيض فى جنوب أفريقيا، المستمدة من المذهب الكالڤينى للكنيسة الهولندية المُصْلَحة، هى التى شيدت أساس نظام الفصل العنصرى. ولكن من سخرية الأقدار أنه كان من داخل الشعب المختار الكالڤينى ودائرته المغلقة «Laager» (وهى كلمة تعنى أصلاً دائرة من العربات التى وضعت فى الشكل الدائرى بقصد توفير الحماية ليلاً) أن بدأ نظام الفصل العنصرى يتهاوى، وكان السبب لاهوتيًا، إذ لم يكن ممكنًا، فى ضوء نصوص مثل تلك التى

http://almaktabeh.com

وردت فى سفر أعمال الرسل (١٠ : ٣٤-٣٥) أن يتم استبعاد السود من اعتناق المسيحية إذا ما كانوا يسعون بإخلاص إلى اعتناقها «بقلب نقى» : «ففتح بطرس فاه وقال: بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه، بل فى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده».

ولهذا سعت الكنيسة الهولندية المُصلَحة فى جنوب أفريقيا زمنًا طويلاً لكى تقبل الأفريقيين، و«الجنس المختلط - Cape Coloureds»، وغيرهما من الجماعات غير البيضاء، باعتبارهم مسيحيين بتأسيس كنائس تابعة لكل جنس على حدة يمكن أن تقبلهم فيها. بيد أن هذا التساهل نفسه بنى فى المذهب الكالڤينى للبيض فى جنوب أفريقيا شذوذًا عميقًا. كيف يمكن أن يوجد «شعبان مختاران» أو أكثر فى نفس المكان؟ وقد عاد الباحثون المتخصصون فى الكتاب المقدس من البيض فى جنوب أفريقيا إلى النصوص الأصلية التى كانوا قد أقاموا على أساسها نظرية الفصل العنصرى، ورأوا أن التفسيرات الأخرى- بما فى ذلك تلك التى أدت إلى الرفض القوى لنظام الفصل العنصرى من قبل كنيستهم الهولندية الإصلاحية الأم فى هولندا - ممكنة. وبينما كان المفهوم الشعبى- لا سيما فى مناطق العالم المتحدثة بالإنجليزية- هو أن الفصل العنصرى قد تقوض وانهار بسبب العقوبات الدولية، ونضال ANC، وبطولة نيلسون مانديلا وتضامن حركات الحقوق المدنية للسود والحركات المعادية للاستعمار، فالحقيقة هى أن زعماء البيض فى جنوب أفريقيا كانوا بالفعل يفقدون الثقة فى نظام الفصل العنصرى باعتباره إرادة الرب. وعندما قدّم مانديلا للزعامة البيضاء فى جنوب أفريقيا مخرجًا من الأزمة، أخذوا به.

كان استخدام السود تحت ظروف أدنى من ظروف توظيف البيض، وإنكار معظم حقوقهم السياسية، قد بات من ملامح الاستعمار الأوروبى فى جميع أنحاء أفريقيا وآسيا، وكان الموقف فى جنوب أفريقيا، على الرغم من أنه كان متطرفًا، لم يكن موقفًا فريدًا بأى حال من الأحوال. ولكن بخلاف المستعمرات، كانت تلك البلاد مستقلة، ومن ثم كانت معزولة، ولم تكن قد مرت بما مر به بقية العالم؛ إذ كان بقية العالم قد مر بأهوال قاسية، هزت تفكيره لا سيما فيما يتعلق بالعلاقات

http://almaktabeh.com

بين الشعوب والأجناس؛ إذ إن هزيمة «الجنس السائد» النازى فى الحرب العالمية الثانية قد جرّد إلى الأبد فكرة أن فرعًا واحدًا من الجنس البشرى يتفوق على الآخرين بالفطرة من مصداقيتها. فقد حُوريت قوات هتلر من قبل البريطانيين والأمريكيين؛ بيد أن أسوأ هزائمها كانت على أيدى الجيش الأحمر، الذى يكاد يكون كله مؤلفًا من السلاف، الذين هم بحسب النظرية العنصرية النازية، فى مرتبة أدنى كثيرًا من الجنس الآرى وكان ينبغى أن يُهزموا بسهولة. وفى الأيديولوچية الفاشية كانت روح القتال أحد المؤشرات الرئيسية على القوة العنصرية. وفى الوقت نفسه شهد الغرب المنطق الجحيمى للتفوق العنصرى عندما ارتد فى صورة الرعب مما تم اكتشافه داخل معسكرات التجميع النازية عندما انتهت الحرب. ومن المستحيل أن نفهم الصدمة الناجمة عن إدراك أن الألمان، الذين كانوا ذات مرة من أكثر شعوب العالم تمدينًا، قد تمت قيادتهم لفعل هذا، والواقع أن الصدمة لم تخف بعد خمسين سنة. وقد قدّم النازيون نسخة أخرى من سيناريو شعب الله المختار، على الرغم من أنها ليست نسخة مسيحية. فقد كانوا يعتقدون أنهم مختارون - بواسطة التاريخ، وبواسطة «ضوء العلم المضلل»، والقدر، والمصير وآلهة الراين القدماء؛ فليس من الواضح مَن من هؤلاء اختارهم - لكى يحكموا العالم.

كان هناك قدر قليل من التوسع فى الإمبراطورية بعد الحرب العالمية الأولى. ولكن كان ثمة قدر قليل من فهم أن أسس الإمبراطورية قد أرسيت على الأخطاء التى تم ارتكابها بحق شعوب ومجتمعات أخرى. وقد عارض ونستون تشرشل، بوصفه زعيمًا للمعارضة، استقلال الهند سنة ١٩٤٧م. ولم يلحق به أى ضرر من جراء هذا: فقد فاز فى الانتخابات العامة سنة ١٩٥١م. كما أن حكومة آتلى العمالية ١٩٤٥ - ١٩٥١م، على الرغم من نزعتها الاشتراكية، لم تكن هى الأخرى معادية للاستعمار من حيث المبدأ. ويكتب كوريللى بارنيت، فى «The Verdict of Peace»:

«لم تكن حكومة العمال وحدها هى التى تعتقد، فى الفترة التى سادتها نشوة النصر فيما بعد الحرب، أن بريطانيا بوصفها قوة يمكن أن يكون لها مستقبل مثلما كان لها ماض. كذلك كان حزب المحافظين فى المعارضة يعتقد هذا، وكذلك

http://almaktabeh.com

كان يعتقد الشعب البريطاني؛ إذ إن القيود العقلية التي فرضها التاريخ الإمبراطوري كانت تكبلهم جميعًا. وبالرغم من أن حكومة العمال تخلت أخيراً عن الهند سنة ١٩٤٧م، فإنها أبقت بإصرار، ودونما تمييز، على كل ما بقي من الالتزامات العسكرية والبحرية التقليدية لبريطانيا في البحر المتوسط وفي الشرق الأوسط وفي الشرق الأقصى - على اعتبار أن هذه كانت الركائز الجوهرية (على حد تعبير بيفن عن الشرق الأوسط سنة ١٩٤٨م) لوضع بريطانيا كقوة عظمى [كان إرنست بيفن في ذلك الوقت سكرتير حزب العمل للسياسة الخارجية].

وثمة نسخة ناعمة عطوفة من نظرية الشعب المختار - وهي أن قدر انجلترا أن تلقي «ضوءاً على الأميين»، وأن هذا الضياء كان أفضل ما يكون إذا عُمل في الحال بدلاً من أن يُعمل على المدى الطويل - ما تزال سائدة بشكل عام. فقد كانت ما تزال نظرية حزب الهويج (المحافظين). وقد افترضت، مهما كان الذي حدث مؤخراً في ألمانيا، أن الاتجاه الطبيعي للحضارة الإنجليزية كان صوب التقدم. وبالتدريج، بوصة فبوصة، كانت المؤسسات بريطانية الطابع قد تأسست وبُنيت في المستعمرات الأفريقية والآسيوية التي كانت ما تزال خاضعة لحكم لندن - مؤسسات مثل المدارس والكليات، والمحاكم والنظم القانونية، والمجالس المحلية (وبعضها له قوة نيابية تشريعية، وبعضها استشاري فقط)، وفروع محلية للكنيسة المسيحية البريطانية الرئيسية، وكانت اللغة الإنجليزية لها الأفضلية في التعليم على اللغات المحلية.

والحقيقة أن نظرية الشعب المختار في الاستعمار البريطاني، التي ترجع مباشرة إلى زمن ويلبرفورس عند نهاية القرن الثامن عشر، كانت تحتوي داخلها على بذور دمارها؛ إذ إنه آجلاً أم عاجلاً كان لا بد أن يُرى «النور على الأميين» وأن تتم الاستجابة له، وكان لا بد للأمة المخلّصة أن تقوم بفعل الخلاص. وبينما كانت فوائد الحضارة البريطانية تنتشر ويتم استيعابها بين المستعمرات، كان لا بد من أن يكون هناك طلب للحقوق السياسية نتيجة لهذا. وكانت دروس ١٧٧٦م واضحة بما فيه الكفاية، حتى ولو أخفق الأمريكيون في إبرازها (وهو ما لم يفعلوه).

http://almaktabeh.com

وجاءت أهم الدروس من هذا النوع خلال ما يسمى «أزمة السويس» (التى كانت حربًا فى الحقيقة)؛ ذلك أن بريطانيا، بمساعدة فرنسية وإسرائيلية، قد قررت إعادة احتلال قناة السويس التى كان الزعيم الوطنى المصرى جمال عبد الناصر قد أممها (أى انتزعها من الملاك الأجانب) سنة ١٩٥٦م. وكانت هناك فى الأمة كلمات ونستون تشرشل فى فترة سابقة من الخمسينيات «شعور متنام بالحاجة إلى إعادة وضع بريطانيا فى مكانها الصحيح، الذى يعتمل فى قلوب الناس بعيدًا عن صفوف أية منظمة سياسية»؛ إذ إن انجلترا التى كانت قد شعرت بالثقة الوطنية فى النفس تعود إلى المزاج الوطنى فى زمن التتويج سنة ١٩٥٣م، لم تكن لتترك حاكمًا أجنبيًا تافهًا ينتصر عليها، حسب الوصف الذى أطلقه أنتونى إيدن خليفة تشرشل فى رئاسة الوزارة على ناصر.

ومن الناحية العسكرية كان الأمر نوعًا قذرًا من النجاح، ولكن أمريكا عارضت بقوة. وربما كان جوهر الإحساس الأمريكى شبيهًا بالشعور الليبرالى الذى عارض المشروع فى بريطانيا: أن هذه كانت طريقة عفا عليها الزمن لا ينبغى لأية أمة أن تتصرف بها، وكانت المؤسسة البريطانية ما تزال على عقليتها الاستعمارية. بيد أن أمريكا، بسبب تاريخها، وعلى الرغم من تجاربها الخاصة فى بناء الإمبراطورية، كانت لديها عداوة عميقة تجاه الاستعمار فى صيغته الأوروبية القياسية وتعاطف غريزى تجاه أى شعب يحاول التخلص منه.

والواقع أن بعض بديهيات الحكومة البريطانية كانت إمبريالية تمامًا. فعلى سبيل الرد على التأميم الذى قام به ناصر، بذلت الحكومتان البريطانية والفرنسية ما فى جهدهما لإيقاف المرور عبر القناة بسحب المرشدين البريطانيين والفرنسيين، والذين كان لا بد لكل سفينة أن يكون بها واحد منهم. ويعلق كوريللى بارنت: «كان اعتقادهم المتغطرس بأن هذا سوف يُظهر للعالم أن المصريين المتخلفين لن يمكنهم إدارة الشركة التى أمموها. وكان من دواعى الغم والكدر بالنسبة للفرنسيين والبريطانيين أن قام المصريون ببساطة بتوظيف مرشدين من جنسيات أخرى؛ لكى يحلوا محل مرشديهم، وظلت البواخر التجارية وناقلات البترول تبحر كالمعتاد».

http://almaktabeh.com

هكذا كان القرار قد اتخذ للاستيلاء على القناة مجددًا بالقوة فى خدعة مركبة للتدخل دفاعًا عن الأملاك الدولية ضد الإسرائيليين (الذين كان البريطانيون والفرنسيون يشجعونهم سرًا لمهاجمة مصر؛ لكى تكون هناك ذريعة للعمل العسكرى)، ويمثل هذه المناورة افترضت بريطانيا أن بوسعها أن تتصرف مستقلة عن أمريكا، بيد أنها لم تستطع؛ إذ كان أحد آثار الحرب العالمية هو تحويل جزء كبير من احتياطى النقد البريطانى إلى ديون مملوكة للولايات المتحدة، وحتى بعد عشر سنوات، كان الاقتصاد البريطانى ما يزال بحاجة إلى دعم ومساندة. ولم يكن ممكنًا تصحيح تدهور الجنيه الاسترلينى فى أسواق النقد العالمية بجهد بريطانيا وحدها، كما أنها لم تكن تملك الاحتياطيات اللازمة لذلك. واعتمدت على المساعدة الأمريكية، والتى لم تكن وشيكة فى تلك المناسبة، وعلى نحو ما أوضح الرئيس دوايت أيزنهاور بطريقة هشة: «ما لم يكن هناك وقف لإطلاق النار، لن تكون هناك قروض» (كان يشير إلى طلب بريطانى بالسحب بضمان ميزانيتها العالمية المالية لكى يدعم أسواق العملة، وهو طلب اعترضت عليه أمريكا). وقد أعلن أسبابه فى خطاب مذاع أوضح فيه قناعته بأن ما وراء هذا النزاع هو النزعة الاستعمارية على الطراز القديم - وهى نزعة بريطانية فى المحل الأول. وقد اشتكى من أن الولايات المتحدة لم تُستشر حول النية بشن هجوم مسلح على مصر، وهو أمر لم يمثل صدمة كما قد يبدو، إذا ما أخذنا فى الحسبان أن الولايات المتحدة قد شنت الحرب على كوريا سنة ١٩٥٠م، دون أن تتشاور مع بريطانيا.

وواصل حديثه:

«ومثلما هو حق واضح لأىّ من هذه الأمم فى اتخاذ مثل هذه القرارات والتصرفات، فمن حقنا كذلك - إذا ما كان تقديرنا على ذلك علينا - ألا نوافق. إننا نعتقد أن هذه الأعمال قد جرت خطأ؛ لأننا لا نقبل استخدام القوة كأداة حكيمة أو مناسبة لإقرارات النزاعات الدولية. . . إن التصرف الذى تم لا يمكن أن يتوافق مع مبادئ وأغراض الأمم المتحدة التى وافقنا جميعًا عليها. وفوق هذا، فإننا مجبرون على الشك فى أن اللجوء إلى القوة والحرب سوف يخدم لفترة طويلة المصالح الدائمة للدول المهاجمة».

http://almaktabeh.com

كان الرئيس أيزنهاور رجلاً براجماتيًا، بيد أن أزمة السويس كشفت أنه كان مقتنعًا بعمق بالدور الأخلاقي الفريد لأمريكا في شئون العالم؛ إذ إن حليفتها القديمة في الحرب العالمية الثانية التي حاربت إلى جانبها على أساس المساواة والتي قاد جنودها بنفسه في غزو نورماندي، لم تعد ندًا ولكنها الآن شريك أصغر. وكانت لديه الوسيلة لفرض إرادته - والآن معه الرب إلى جانبه. وفي ذلك الصيف كان قد أعلن «نحن نثق في الرب» لتكون الشعار الوطني للولايات المتحدة.

وفي بريطانيا سنة ١٩٥٦م لم تكن كلمة «الاستعمار» كلمة قذرة. ولكن هجران أمريكا لأقرب حليف (كما بدا في لندن) كان ضربة قاسية للهيبة القومية. ويبدو أن الحقيقة هي أن أيزنهاور ووزارة الخارجية في واشنطن قد أصبحا متضايقين بشكل متزايد من التظاهر البريطاني بالندية مع أمريكا، وهو ما كان يمثل ببساطة عقبة في سبيل حرية أمريكا في التصرف «من أجل حماية حرية العالم بأسره» (بحسب صياغة وزارة الخارجية).

وحدث أثناء تلك الفترة أن تحول التفكير البريطاني في أمريكا من «الندية» مع أمريكا كقوة عالمية أخرى، إلى «العلاقة الخاصة» بين قوة صغرى وقوة عظمى. وبعد أزمة في العلاقة سنة ١٩٥٦م وما تلاها من استقالة إيدن رئيس الوزراء، كان على خليفته، هارولد ماكميلان، أن يحاول إصلاح الأمور. وكانت استراتيجية بسيطة: أن يتفق مع أمريكا على أن أيام الاستعمار قد ولّت إلى غير رجعة.

وكانت مستعمرتان بريطانيتان قد حصلتا على الاستقلال بالفعل- هما غانا والملايو (ماليزيا) في الشرق الأقصى- وكانت نيجيريا على الطريق، ولكن كانت هناك مشكلات خطيرة في أماكن أخرى، ليس أقلها ما حدث حينما تصادمت مصالح المستوطنين البيض مع المطالب النضالية المتزايدة للسياسيين الوطنيين الأفريقيين في وسط وجنوب أفريقيا. وفي سنة ١٩٥٩م قدم الجنرال ديجول حق تقرير المصير للجزائريين؛ مما جلب المخاطرة بنشوب حرب أهلية في أراضي فرنسا ذاتها وفي ممتلكاتها الأفريقية.

ولهذا كانت هذه الأحداث إنذارًا للإمبراطورية البريطانية. وذهب ماكميلان في

http://almaktabeh.com

جولة إلى أفريقيا فى بداية سنة ١٩٦٠م، وهى التى انتهت بخطابه الشهير عن «رياح التغيير» فى برلمان جنوب أفريقيا. وكانت جولته فرصة ممتازة لمراقبة المدى الذى ذهب إليه البريطانيون الذين عينوا أنفسهم فى مهمة لتمدين أفريقيا، منذ وجود مفهومها فى أيام وليام ويلبرفورس وبعد ذلك فى أيام ديفيد ليفينجستون. وكانت دعوة ليفينجستون المتطوعين البيض للذهاب إلى أفريقيا وتجديد اقتصادها على حسب الخطوط الحديثة. وكان فى ذهنه أن ذلك هو الرد الحقيقى الوحيد على الرق. قد نتج عنها جمهرة كبيرة من المغتربين فى معظم أنحاء المستعمرات فى وسط وجنوب أفريقيا. وكانت بعض البلاد قد أحرزت تقدمًا فى بناء طبقة سياسية، تضم جيلاً جديداً من الموظفين المدنيين والمحامين السود، وكانت بعض البلاد الأخرى متخلفة عن ذلك كثيراً. وقد طال الفقر عدداً قليلاً من البيض فى هذه العملية، وكانت هناك ثروة ورفاهية فى انتظار من يتملكها فى المستعمرات.

وفى كل مكان رفرف عليه علم الاتحاد، كانت الكنائس البريطانية قد وزعت بعثاتها التبشيرية التى صارت مع الوقت أساس المدارس والكليات والمستشفيات. وعادة ما لم تكن كنيسة انجلترا حاضرة بذاتها، ولكن من خلال واحدة أو الأخرى من الهيئتين التبشيريتين الرئيسيتين، الجمعية الإرسالية الكنسية Church Missionory Society (CMS) التى كانت كنيسة سُفلى (أى إنجيلية)، والجمعية المتحدة لنشر الإنجيل (USPG) والتى كانت هى الكنيسة العليا (أى الأنجلوكاثوليكية)، وكان مقر كل منهما الرئيسى فى انجلترا. بيد أنهما لم تتنافسا بصفة عامة. وبدلاً من أن يكون لديهم نوعيات مختلفة لعضوية الهيئة الكنسية جنبًا إلى جنب كما هو حادث فى الوطن الأم، تطورت الكنيسة الأنجليكانية فى كل جزء من القارة تحت راية واحدة فقط من هاتين الهيئتين. فالكنيسة الأنجليكانية فى كينيا، مثلاً، صارت تقريبًا كنيسة إنجيلية (أى بروتستانتية) متسقة؛ لأنها كانت تحت إرسالية (CMS)، على حين كانت جنوب أفريقيا قد خضعت لإرسالية (USPG)، ولهذا كانت الإنجيلية هناك كنيسة عليا (أى أنجلو كاثوليكية). ويفسر هذا جزئيًا السبب فى أن نضال السود من أجل الحرية فى جنوب أفريقيا، على

http://almaktabeh.com

الرغم من أنه كان يلقى دعمًا قويًا من الكنائس الناطقة بالإنجليزية، لم يكن مصحوبًا بالتنميط على أساس الكتاب المقدس حول «موسى يقود الشعب المختار للخروج من نير عبودية فرعون» (وكان يمكن أن يكون موسى هو نيلسون مانديلا، على ما يرجح)، كما سيكون عليه الحال بلا شك إذا ما كان الوجود المسيحى السائد أكثر پروتستانتية.

وفى معظم المستعمرات كانت هناك أيضًا كنيسة اسكتلندا الأصغر والبعثات الميثودية والمعمودية، وفى كل الكنائس وجد الأنجليكانيون وغيرهم من تنويعات الپروتستانت أنفسهم أقل عددًا من الكاثوليك الرومان، الذين تركزت جهودهم الرئيسية على التعليم. ولذلك كانت الرؤية الباكرة للإرساليات الرائدة قد تحققت إلى درجة كبيرة عندما كانت أفريقيا تدريجيًا تصطبغ بالصبغة الغربية والمسيحية. وفى معظم الحالات كانت الحماية التى وفرتها السلطة الاستعمارية الأوروپية عملاً مهمًا، وفى الوقت نفسه، على نحو ما ظهر أنه النموذج العالمى مع الاستعمار الأوروپى، كان لا بد من أن تكون مثالية المهندسين والمحامين والأطباء ورجال الكنيسة البيض تعويضًا عن أنانية وغطرسة بعض المستوطنين البيض والمزارعين البيض واستغلال الموارد المحلية لصالح المطامع التعدينية الغربية. وكانت المواقف المعبرة عن التفوق العنصرى واسعة الانتشار، التى اختلطت بالتعالى الإنجليزى (والذى تقوى، دون شك، عندما كان أبناء الأسر البيضاء الغنية يرسلون إلى المدارس العامة الإنجليزية لاستكمال تعليمهم).

وخلال رحلة قام ماكميلان إلى نيجيريا، فى بداية جولته، قام بإجراء محادثات مع السير چيمس روبرتسون، الحاكم العام البريطانى، وهى محادثات غالبًا ما كانت تتم الإشارة إليها فى فترة لاحقة، وهى دالة جدًا، سواء عن حالة أفريقيا فى ذلك الوقت، أو من حيث ما كشفته عن المواقف الأبوية والتسلطية للطبقة الحاكمة الإنجليزية. وعلى حد تعبيره بكلماته:

بعد حضور اجتماع ما لما يسمى الوزارة أو المجلس، قلت: «هل هؤلاء الناس يصلحون للحكم الذاتى؟» وقال: «لا، طبعًا»، وقلت: «متى سيكونون جاهزين؟»

http://almaktabeh.com

وقال: «بعد عشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة»، فقلت حينئذ: «ماذا توصينى بعمله؟» قال: «أوصيك أن تعطيهم الحكم فى الحال».

وتعبيرات مثل «ما يسمى» و«هؤلاء الناس» و«يصلحون له» وصيغة النفى المؤكدة «لا، طبعًا، لا يصلحون»، كلها مؤشر على التفوق الإنجليزى وازدراء الأفريقيين المحليين الذى كان علامة دافعة لأسلوب ماكميلان، وربما لأسلوب الحاكم العام أيضًا، وهى أيضًا دليل على استمرار النزعة التسلطية الاستعمارية، أى أن البيض كانوا هم البالغين الناضجين، أما الأفريقيون فهم الأطفال. ومع هذا فإنها تكشف عن أن الإحساس بالغرض الأخلاقى وراء الاستعمار البريطانى كان ما يزال حيًا بدرجة كبيرة للغاية. وقد قال روبرتسون إن «على البريطانيين مسئوليات»، وهو يفسر إجابته غير المتوقعة بالقول بأنه إذا تأجل الحكم الذاتى، فإن الزعماء الأفارقة سوف يمضون العقد أو العقدين التاليين وهم يحاربون من أجل الاستقلال، وليس فى تعلم فن الحكم، و«سيكون علىَّ أن أضعهم جميعًا فى السجن» وهو ما تصور أنه كان سيؤدى إلى عدم تحقيق أى خير لهم. ولكن إسداء الخير للأفارقة كان هو السبب الرئيسى لوجود البريطانيين هناك.

والمهمة الضمنية للبريطانيين لتمدين العالم والتى كانت قائمة عند بداية الإمبراطورية البريطانية الثانية كانت ما تزال تؤخذ أمرًا مسلمًا عند نهاية هذه الإمبراطورية. وكانت تلك مهمة أمر بها الرب، وهو ما كان عدد قليل من جيل ماكميلان يشك فيه.

وفى جنوب أفريقيا قابل مهمة مختلفة جدًا، أمر بها الرب، وأخبره بها رئيس الوزراء فيرويرد. فبالنسبة له، وحسبما لاحظ ماكميلان فيما بعد، كان «الفصل العنصرى أكثر من فلسفة سياسية، لقد كان ديانة، ديانة تقوم على أساس العهد القديم أكثر من العهد الجديد... وكان يمتلك كل قوة الإقناع التى يتمتع بها الزعماء الكالفينيون الكبار فى كنيستنا الاسكتلندية».

كان قلب حديثه هو النتيجة الختامية التى توصل إليها، والتى قال إنها كانت قائمة على أساس تجربته فى جولته، ولكن لا بد أنها كانت فى ذهنه عندما انطلق

http://almaktabeh.com

فى هذه الجولة، وهى أن «رياح التغيير تهب فى أرجاء هذه القارة، وسواء أعجبنا هذا أم لا، فإن هذا النمو فى الوعى القومى حقيقة سياسية. يجب علينا جميعًا أن نتقبلها كحقيقة، ولا بد أن تضعها سياساتنا الوطنية فى حسابنا». وكانت رسالته إلى جنوب أفريقيا هى أنه بينما كانت الحضارة الإنجليزية، مثل حضارتهم، قائمة على أساس المسيحية «فإن ذلك ينبغى فى رأينا أن يتضمن الفرصة لأن يكون لنا نصيب متزايد فى السلطة السياسية والمسئولية السياسية، مجتمع تكون فيه الجدارة الفردية، والجدارة الفردية وحدها، هى المعيار لتقدم أى رجل، سواء كان سياسيًا أو اقتصاديًا. . .».

ولهذا مضت بريطانيا بسياسة منتظمة فى تخليص نفسها سلميًا من مستعمراتها فى أفريقيا، ولكن مع التخلى فقط عن تلك المستعمرات التى لا تخدم غرضًا استراتيجيًا فى غيرها من الأماكن. وكان الاختلاف الوحيد فى الممارسة هو اضطرارها إلى الخروج من مواقع مفيدة، مثل قبرص وعدن، بالقوة. ولكن خطبة «رياح التغيير» التى ألقاها ماكميلان سنة ١٩٦٠م كانت هى اللحظة الحاسمة التى عندها تخلى البريطانيون عن فكرة الإمبراطورية، وبدلاً من ذلك تحولوا إلى تطوير فكرة الارتباط الطوعى للدول المستقلة فى الكومونولث (الكومونولث البريطانى فى البداية)، ولكن لم تلبث الصفة أن أسقطت.

وقد تسارعت رحلته تجاه هذا الوضع؛ بسبب حوادث مثل ما يسمى «مذبحة الهولا» سنة ١٩٥٩م، على اسم معسكر اعتقال فى كينيا لجماعة ماو ـ ماو الإرهابية. فبعد حادث شغب تم ضرب أحد عشر منهم حتى الموت. وكان رد فعل الإدارة الاستعمارية البيضاء مشابهاً إلى حد كبير لرد فعل البريطانيين فى الهند بعد «مذبحة أرميستار» سنة ١٩١٩م، مع تظاهر يتسم بالتحدى بأنه لم يحدث شىء ذو بال. ومع هذا فإنه أدى إلى انشقاق الوزارة البريطانية فى سنة الانتخابات، وهو ما كان يمكن أن يكون تحولاً خطيراً فى الأحداث بالنسبة لماكميلان. ولكن بينما كان الرأى البريطانى فى بريطانيا غاضبًا، فإن العامة فى غالبهم لم يكونوا على هذا القدر من الاستياء. فقد كان الرأى العام فى بريطانيا عنصريًا بشكل صريح، وكان ثمة «حاجز

http://almaktabeh.com

لونى» يتم ممارسته على نطاق واسع فى الإسكان وفى التوظيف. وكانت لافتات «لا سود ولا أيرلنديين» لافتات شائعة الانتشار فى مداخل المنازل العامة وفى كل مكان غيرها.

وإذ لم يكن ماكميلان يريد أن يزعج الشعور البريطانى العام بالرضى عن النفس، فقد أبدى ملاحظة شهيرة «أنه لم يحدث أبدًا أن كانت الأمور عندهم طيبة بهذا القدر». وصوّت البريطانيون للحفاظ على الأمور بهذه الطريقة، وقد شهدت هذه السنة أيضًا أعلى مستوى من الحضور فى الصلاة الأسبوعية بكنيسة انجلترا منذ نهاية الحرب، فما كان خيرًا بالنسبة للجسد الوطنى كان واضحًا أنه كان خيرًا أيضًا للروح الوطنية.

وفى الفترة ما بين التتويج فى سنة ١٩٥٣م وقول ماكميلان: «لم يحدث أبدًا أن كانت الأمور عندهم بهذا القدر»، فى انتخابات سنة ١٩٥٩م كان المزاج الدينى الوطنى - على الأقل - معجبًا بنفسه. إذ لم يكن مسموحًا سوى للقليل بأن يتحدى الفروض فى انجلترا الأنجليكانية والتى كان التتويج نفسه قد أوضحها، حسبما ظهر من حادث طريف وقع سنة ١٩٥٥م؛ إذ إن «ماجزيت نايت»، وهى أخصائية علم نفس من جامعة أبردين، طُلب منها أن تقدم حديثين إذاعيين تحت عنوان عام هو «الأخلاق بدون الدين»، وأرادت أن تعبّر عن عدم موافقتها على منشور وزعته وزارة التعليم بأن «السياق الطبيعى» للتعليم الأخلاقى للأطفال هو فى مجرى التعاليم الدينية، وأن تقدم مشورتها للوالدين غير المؤمنين حول كيفية غرس المعايير الأخلاقية فى الأطفال خارج مثل هذا الإطار. وقد وصفت فيما بعد المشكلة التى يواجهها مثل هذين الوالدين، اللذين يُحيط بهما «التلقين المنظم للدين» فى المدارس و وسائل الإعلام الجماهيرية:

«إن الدعاية بالغة القوة لم تجعل منا أمة من المؤمنين، وإنما خلقت روادع قوية للتعبير عن عدم الإيمان. وفى بعض الحالات يكون التهديد ماليًا؛ فالمدرس، مثلاً، الذى يجاهر باللا أدرية يجد أن فرصه فى الترقية مهددة. ولكن الأكثر حذقًا من الرادع المالى هو تأثير الاقتراح الجماهيرى - هو الشعور الذى يُزرع بشكل

http://almaktabeh.com

متواصل بأن «عدم القدرة على الإيمان» هو حالة تدعو للأسف ومحرجة قليلاً، ومن الأفضل عدم الإشارة إليها. وهكذا يشعر كثير من الشكاكين الأمناء بأنهم يخجلون ويتسترون على شكوكهم، وفى جميع أنحاء البلاد يخلق الآباء المشوشون والقلقون صراعات مماثلة للجيل التالى بتعليم أطفالهم مذاهب لا يؤمنون هم أنفسهم بها».

بهذه الروح أدلت بحديثيها، وحدثت ضجة وطنية هائلة. وكما يحدث غالبًا عندما تحدث الحالة التى اصطلح على تسميتها «الذعر الأخلاقى» فى وسائل الإعلام وفى الرأى العام، بدأ الأمر ببطء. ففى البداية كان هناك تقرير قصير وموضوعى فى إحدى الصحف «News Chronicle»، ثم بدأت الأمور فى التورم. وقال العنوان الرئيسى لجريدة «Daily Express»: امرأة متخصصة فى علم النفس تشن هجومًا واضحًا على تعليم الدين للأطفال، وجمعت جريدة «Daily Telegraph» تقريرًا وصف حديثها بأنه «كتلة كبيرة من الدعاية الإلحادية»، ودعت إلى منع حديثها من الإذاعة ثانية. ثم نشرت جريدة «Sunday Graphic» عملية اغتيال - فى الصفحة الأولى - ذات طبيعة عنيفة خارقة للعادة. فتحت عنوان رئيسى بالصفحة الأولى يعلو صورتها التى كتب فوقها: «السيدة نايت غير المقدسة The Unholy Mrs. Kinght» أعلنت الصحيفة:

«لا تتركوا هذه المرأة تخدعكم. إنها تبدو - أليس كذلك - تمامًا مثل الزوجات فى البيوت؛ هادئة، مريحة، غير مؤذية. ولكن السيدة مارجريت نايت تمثل خطرًا. إنها امرأة خطيرة، فلا تخطئوا بشأنها. . . لقد سمحت الإذاعة البريطانية (BBC) المضللة لواحدة متعصبة أن تصخب على موجات الإذاعة بحيث تضرب المسيحية بموس حلاقة وسلسلة دراجة [كما يفعل البلطجية فى الحارات]. دعونا نكف عن الاستماع إلى المزيد من كلامها الفارغ وهرائها. ومن المقرر أن تدلى بحديث يوم الأربعاء القادم. ويجب أن تفرغه الإذاعة فى الحوض.

ولا يمكن إنكار أن السيدة نايت استخدمت ذريعة الحديث عن التعليم الأخلاقى؛ لكى تشن هجومًا على المعتقدات المسيحية الأساسية، وهو ما فعلته

http://almaktabeh.com

فى مصطلحات لا يمكن التصالح معها. وإذا كانت تتعامل مع الشكاكين، فقد بدا أن هدفها هو أن تحولهم إلى ملحدين مؤكدين، ولكن الأمر كان أيضًا فى توقيت غريب، دعك من القول إنه توقيت أحمق للجدل، فلكى تعلم طفلاً أن الأخلاق تعتمد على المسيحية يولد خطرًا أنه ربما يرفض المسيحية من أجل الشيوعية، كما قالت فى حديثها. «وربما يقرر كذلك أن هذا كله كان مجرد ثرثرة فارغة مثل كلام الزوجات المسنات، وهو الآن لا يعرف أين هو. وفى هذه المرحلة يمكن أن يكون عرضة للدعاية للشيوعية بأكبر درجة. . . وبدلاً من أن يكون هذا حماية ضد الشيوعية، يمكن أن يساعد ربط الأخلاق بالدين على أن يسوق الناس إلى أحضانها».

وفى البداية جاء رد فعل الكنيسة على منوال الصحافة، وكان ساخطًا بنفس القدر، ولم يكن هناك من هو أكثر سخطًا من كبير أساقفة كانتربورى الدكتور جيوفرى فيشر. ولكن حسبما اعترفت هى نفسها فيما بعد، بدأت فضيلة التسامح الإنجليزية القديمة تظهر على السطح. وكان واحدًا من أكثر التعليقات لصالحها جاء من جريدة «Church Of England News Paper» البطل الجسور للإنجيلية الأنجليكانية:

«إذا كانت العقيدة المسيحية لا تستطيع الإجابة على شخص مثل السيدة نايت بالإساءة الشخصية ولا تستطيع أن تجد إجابة مفحمة، فإنها تستحق الفشل وسوف تختفى فى الحقيقة، واقتراح أن الإذاعة البريطانية (BBC) أخطأت فى السماح للسيدة نايت بالإذاعة يستخدم فقط بأيدى نقاد المسيحية بما يعنى ضمنًا أن الكنيسة منفعة خاصة لها قوة الرقابة. . . وأولئك الذى يشاطرون السيدة نايت شكوكها بشأن المسيحية ربما يفوقون فى عددهم أولئك الذين لا تساورهم الشكوك فى بريطانيا فى الوقت الحالى، ومن بينهم عدد كبير من مواطنينا الذين يتمتعون بقدر عال من الاحترام والمسئولية».

والرسالة المهيمنة من العدد الكبير من الخطابات الموافقة التى تلقتها كان مؤداها أنها قد أدخلت هواء جديدًا فى الثقافة الوطنية لأول مرة، وبشكل أساسى

http://almaktabeh.com

قال الناس إنهم شعروا بأنهم تحرروا، وكان بعضهم متشيًا بالفرح. وثمة إشارة أخرى إلى المستقبل جاءت من خطابات المدرسين، لا سيما الرؤساء الذين كان عليهم تنظيم اجتماعات دينية وأولئك الذين كان عليهم تدريس التعاليم الدينية (كما كان مطلوبًا من المدارس أن تفعل بحكم القانون) سواء كانوا يؤمنون بهذا أم لا: وكان الدين فى خمسينيات القرن العشرين، ذروة فترة ما بعد الحرب لـ «المسيحية الرسمية» فى انجلترا، يتضمن أيضًا بشكل واضح بذور دماره. وربما كان إدراك مدى هشاشة الدين هو الذى زاد من الهيستيريا من جانب الصحافة. ولكن الكنيسة، مثل الملكية، كانت حتى ذلك الحين قادرة على أن تعتمد على مناخ من التبجيل غير الناقد، وكان نخسها بالنقد الصريح يعنى كسر أحد المحرمات الوطنية.

وسرعان ما تحول الانتباه إلى خطط زواج الأميرة مارجريت، التى كانت قد سببت لأختها الملكة، بل وبدرجة أكبر لكبير أساقفة كانتربورى، نذيرًا عنيفًا بالتهديد بالزواج من رجل مُطلّق، الكابتن بيتر تاونسند. ولم يكلمها كبير الأساقفة فى العدول عن ذلك فقط، بل إنه أيضًا رتب لاجتماع الكنيسة، ثم لهيئة كنيسة انجلترا النظامية؛ لكى يمرر مرسوم استدعاء سنة ١٩٥٧م يحرّم زواج المطلّقين فى الكنيسة. وقد أعاد هذا تأكيد قرارات سابقة ـ خاصة قرار الكنيسة الذى تم تمريره بعد تنازل إدوارد الثامن سنة ١٩٣٦م ـ بإعلان أن: «فى سبيل الحفاظ على مبدأ الالتزام مدى الحياة الذى يدخل ضمن كل زواج عقد بصورة مشروعة وتم التعبير عنه فى أوضح عبارة فى طقوس الزواج الكنسية، فإن الكنيسة لا يجب أن تسمح باستخدام تلك الخدمة الكنسية فى حالة أى شخص كان له شريك فى الزواج ما يزال على قيد الحياة». ولم يكن هناك شك فى أن كبير الأساقفة فيشر كان يريد أن يقطع اتجاهًا اجتماعيًا متناميًا يحبذ قوانين الطلاق الأكثر تحررًا. وفى ذلك الوقت، اعتبرت الدولة الزواج، شأنًا خاصًا بالكنيسة، ولم تكن لتأتى أية حركة دون موافقة الكنيسة. كان فيشر يوضح أن مثل هذه الموافقة لن تأتى.

وحدث مثل هذا الاستحسان الشديد مرة أخرى سنة ١٩٦٠م، عندما قررت دار

http://almaktabeh.com

بنجوين للنشر، وعلى الرغم من الادعاءات القضائية حديثة العهد التى نتج عنها حكم بالسجن على بائع كتب، أن تنشر طبعة لم تخضع للرقابة من رواية «عشيق الليدى شاترلى ـLady Chatterleys Lover» . كانت الرواية سيئة السمعة التى كتبها د. هـ. لورنس تتضمن، فضلاً عن وصفها لممارسة الجنس، كلمة دارجة ذات حروف أربعة (هى كلمة Fuck التى وردت ما لا يقل عن ثلاثين مرة فى صفحات الرواية) وهى أكبر إساءة.

وقد أيدت المؤسسة، بما فيها كبير أساقفة انجلترا، الادّعاء بقوة، كما أن سير ريجينالد مانجهام ـ بوللر، المحامى العام، منح تشجيعه الأخلاقى والمعنوى من خلف الكواليس. وفى فقرة تم إيرادها كثيراً ضده فيما بعد، قام المدعى العام ميرفين جريفيث جونز بتوجيه كلامه إلى المحلفين «اسألوا أنفسكم هذا السؤال: هل توافقون على أن أبناءكم الشباب، وبناتكم الشابات ـ لأن البنات يمكن أن تقرأ مثل الأولاد تماماً ـ يقرأون هذا الكتاب؟ هل هو كتاب يمكنكم اقتناؤه فى المنزل؟ هل هو كتاب تريد لزوجتك أو خادمتك أن تقرأه؟

وقد سُمح للدفاع باستدعاء خبراء أدبيين ودينيين؛ لكى يبينوا أن فى الكتاب أوجه جدارة تفوق البذاءة الواضحة، وإن كانت سطحية، وبرأه المحلفون بالإجماع. وشكا كبير الأساقفة فيشر من أن الادّعاء لم يكن صلبًا بما فيه الكفاية وكان عليه أن يقارع «أستاذًا بأستاذ وأسقفًا بأسقف» فى استدعاء الخبراء للشهادة. والسبب فى أن حذف الكلمة التى تبدأ بحرف«F» من مفردات اللغة الإنجليزية كان يحظى بهذه الأولوية القصوى بالنسبة لكنيسة انجلترا، يمكن تفسيره فقط إذا ما كانت الكنيسة المؤسسة تشعر بأنها مسئولة عن مجمل النغمة الأخلاقية فى البلاد، وليست فقط مسئولة عن المعتقدات الدينية لأعضائها. والحقيقة أن عقلية فيشر السهلة والطبيعية كانت تجرى وفق هذه الخطوط بالضبط؛ إذ كانت الكنيسة والدولة هما الجانبين الروحى والزمنى لنفس الكيان الوطنى الإنجليزى (وكلمة «روحى» فى هذا السياق كانت تعنى «أخلاقيًا» إلى حد كبير).

كانت محاكمة رواية «عشيق الليدى شاترلى» علامة فارقة، ليس لمجرد أنها

http://almaktabeh.com

جرت فى سنة ١٩٦٠م الرمزية. بداية ثورة الستينيات فى الأسلوب والسلوك التى أزاحت الكثير من المحرمات، التى أضفت على سنوات ما بعد الحرب مثل هذه الشخصية الخانقة.

وكان سيدو كما لو أن شخصية بريطانيا كأمة مسيحية قد بدأت تتعثر. وكانت الصدمة الثانية للنظام الأنجليكانى هى نشر كتاب «Honest To God» سنة ١٩٦٣م الذى كتبه أسقف وولويتسن، الدكتور چون روبنسون. فقد كان قد قدم الدليل للدفاع فى محاكمة رواية «عشيق الليدى شاترلى»، وبدا الآن وكأنه ينشر الشكوك حول حقيقة المسيحية. وثمة ملخص متقدم فى جريدة «The Observer» أعد المشهد بعنوان رئيسى: «أسقف يقول إن الرب هناك فى الأعالى أو هناك فى الخارج يجب أن يذهب».

كان فيشر فى ذاك الحين قد تقاعد من كانتربورى، ولكن خليفته ميخائيل رامزى، لم يكن أقل حرصًا على دخول الشجار بالاستنكار والإدانة. وقال إنه «حزن بشكل خاص من جراء المنهج الذى اختاره الأسقف لطرح أفكاره على العامة» وهو «ما سبب إثارة العامة وسبب ضررًا كثيرًا. وكثير منا ممن قرأوا المقالة ونداءاتها ربما لم تكن لديهم الفرصة أو العقول اللازمة لقراءة الكتاب الذى تشير إليه». وكان كتاب روبنسون مسحًا لبعض اللاهوت البروتستانتى المتحرر المكتوب باللغة الألمانية بأقلام باحثين من أمثال رودلف بولتمان، وبول تلليخ، وديتريخ بونهويفر (الذين أعدمهم النازى).

فقد انطلقوا، وكذلك فعل هو، لتحديث ما رأوا أنه مفاهيم خاطئة بدائية وطفولية عن المسيحية شائعة بين العامة. ومن الواضح أن رامزى كان يخشى من أنه بدلاً من تحويل هذه الأفكار إلى شيء أكثر عقلانية، وبالتالى أكثر قدرة على الوقوف بوجه روح الشك السائدة فى ذلك العصر، فإن الناس سوف يستنتجون ببساطة أن المسيحية «ليست ديانة حقة بالمرة». ومثل هذه التأملات كان من الأفضل أن تنحصر فى نطاق مجالس العموم الراقية؛ حيث تعرف أفضل العقول كيف تتعامل معها. وكانت تلك مقاربة لا تختلف كثيرًا

http://almaktabeh.com

عن خط الادّعاء في محاكمة رواية «عشيق الليدي شترلي» : «هل هذا كتاب تود أن تقرأه زوجتك أو خدمك؟» كان كبير الأساقفة رامزي محقًا في جانب واحد؛ إذ كانت بعض الأفكار التي طُرحت في كتاب روبنسون الذي لم يكن مكتوبًا بصورة جيدة، مجردة بشكل يربك العقل، وأظهرت كافة دلائل أنها قد ترجمت حرفيًا وبصورة خرقاء عن الكلمات الألمانية المركبة متعددة المقاطع.

ومن الناحية الفلسفية كانت البروتستانتية الليبرالية تبدو وكأنها تتلمس طريقها عائدة إلى نوع ما من الغيبيات، بعد أن كانت قد أدارت ظهرها لتلك المدرسة في اللاهوت في زمن الإصلاح الديني. وفي داخل الآفاق الفكرية للمحررين الصغار في جرائد التابلويد، ظهر روبنسون وكأنه يقول: إن الرب غير موجود وأن يسوع ليس ابنه. وإذا كان ذلك هو ما سُمع يقوله، فإن قادة كنيسة انجلترا شعروا أن من واجبهم أن يوقفوه. ولا شك في أن ما جعل المشاجرة صاخبة هو حقيقة أن هذا بدا وكأنه هجوم على ديانة المؤسسة الحاكمة، من الملكة إلى أصغر موظف، ومن ثم كان من الناحية السياسية والاجتماعية مخربًا وهدّامًا بقدر ما كان كذلك من الناحية الدينية. وإذا كان ما يزال هناك اعتقاد قوى باق في أن انجلترا هي «الشعب المختار»، فإن أي اقتراح إذن بأنه ليس هناك رب، أو على الأقل لا يوجد رب مثل ذلك الذي تتطلبه نظرية الشعب المختار، سيكون تهديدًا خطيرًا للهوية الوطنية، وكان رد فعل المؤسسة بالتالي يثبت هذه النقطة. ومن المثير للسخرية أن قصد روبنسون الحقيقي لم يكن إضعاف الإيمان الديني وإنما تقويته؛ إذ إنه شعر أن المسيحية لم تكن تُقدّم بطريقة يمكن أن يستجيب لها الأذكياء من الناس. إذ كان يشارك ناقديه في الرأي بأن المجتمع السليم يحتاج إلى المسيحية لكي تجعله يعمل.

وقد أرسى كتاب «Honest To God» بوضوح مدى ما كان عليه معظم أعضاء الكنيسة من جهل باللاهوت؛ إذ إن هذه المسائل، وليس أقلها رفض المعجزات وغيرها من العناصر الغيبية في الدين، كانت مطروحة في مجال الاهتمام العام منذ زمن چورج إليوت على الأقل، إذا لم تكن مطروحة منذ زمن الربانيين «Deists» .

http://almaktabeh.com

ومن ثم فإن ارتباك العامة منذ ذلك الحين كان ينبغى أن يكون علامة تحذير على نقص العمق فى الاعتقاد الدينى الإنجليزى العادي، والذى كان موجوداً حتى فى قلب أعضاء الكنيسة. ومن الواضح أن الغالبية العظمى من الكبار كانت لديهم أفكار عن المسيحية لم تتقدم منذ أيام المدرسة الابتدائية، وقد وضع هذا علامة استفهام ضخمة ضد استثمار الكنيسة فى التعليم الدينى، فقد كانوا قادرين على أن يأخذوا أفكار روبنسون، دون أن يوافقوا عليها بالضرورة، لصالحهم، بدلاً من أن يحولوها إلى فضيحة. لقد تم إرسال هذه الإشارة، لكن أحداً لم يتنبه إليها. والجهل الدينى بين مرتادى الكنيسة العاديين قد خلق إمكانية التعرض للضغوط الثقافية وأنماطاً فكرية، إذا لم تتم معالجتها، سيكون لها نتائج وخيمة فى العقود القادمة.

وتشترك هذه القصص فى شىء واحد؛ ذلك أنها أوضحت كيف أن القوى التى يراد لها أن تتحكم فى الكيفية التى يتصرف بها الناس ويفكرون، مهتمة بالدرجة الأولى بالزواج والعلاقات الجنسية، ويأتى اهتمامها بالعقيدة الدينية فى المرتبة الثانية. لقد كانت نظرية تساقط بطىء عن الدين والأخلاق، كانت بها أصداء قوية من الافتراض الذى ساد فى القرن السادس عشر بأنه عندما يحبذ الملك الطلاق، فعلى كل من عداه أن يحبذ الطلاق، وعندما يتغير دين الملك، فعلى كل واحد سواه أن يغيّر دينه أيضاً.

لقد شهدت الفترة منذ خمسينيات القرن العشرين صعوداً تدريجيّا للأفكار المعارضة، أى أن الناس العاديين كانت تزداد مقاومتهم لأن تكون معتقداتهم ومستوياتهم الأخلاقية محددة لهم من أولئك الذين فوقهم فى السلم الاجتماعى والسياسى. كان هذا - جزئيّا - رفضاً للطبقة الاجتماعية والمفهوم الفيكتورى القديم عن «التنشئة»، وعدم ترحيب بالاعتراف بعد ذلك بأن أولئك الأعلى فى المنظومة الاجتماعية أفضل على نحو ما أخلاقيّا من أولئك الذين فى الطبقات الأدنى، كما كان - فى الحقيقة - رفضاً حتى للتفكير فى لغة الطبقات «الأدنى» و«الأعلى». بيد أنه كان أيضاً - جزئيّا - رفضاً لمكانة انجلترا كشعب مختار، وكل ما كان مسلماً به نتيجة لتلك الفكرة على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون. وفى الظاهر، كانت الفكرة قد

http://almaktabeh.com

اختفت منذ زمن طويل تحت السطح . أما من الناحية الضمنية فإنها استمرت فى المساعدة على تشكيل مفهوم الشعب الإنجليزى عن مكانهم الخاص الصحيح فى العالم حتى اليوم الحالى . ولكنها كانت تتضاءل على الدوام بمرور السنين، وهذا الاضمحلال فى فكرة الاختيار يطرح مشكلات ضخمة حول هوية الأمة الإنجليزية ومصيرها . وإذا لم يكن الأمر كذلك، فما هو ؟ إذ إن كونها «أفضل أصدقاء أمريكا» لا يكفى .

ربما كانت تلك غلطة هارولد ماكميلان. فبعد أزمة السويس، رأى بوضوح إلى أين انتقل رداء الاختيار. وعلى الرغم من أن العبارة كانت موجودة من قبل فإن إسهامه فى مستقبل البريطانيين على المدى البعيد تمثل فى رفع مصطلح «العلاقة الخاصة» تقريبًا إلى مستوى التعريف الوطنى البديل. وإذا لم يكن بمقدور بريطانيا أن تكون أقوى قوة فى العالم، فإنها يمكن على الأقل أن تكون أقرب حلفائها. وما تزال أمريكا تبدو فى مظهر الشعب المختار، وتؤمن فى قرارة نفسها أنها كذلك، حتى ولو أن المفهوم عادة ما يتوارى فى ظل شعارات عاطفية مثل «بلاد الرب» أو التعبيرات الفكرية الرقيقة مثل «الاستثنائية الأمريكية». كان هناك (وما يزال) فريق من السياسيين الأمريكيين الذين يمثلون التيار العام لا يرون أبدًا أى سبب للشك فى أعمال أمتهم التى يرعاها الرب، أو للتساؤل حول الرؤية القائلة بأن الأمة لها «قدرها الواضح» فى جعل بقية العالم مثل أمريكا بقدر الإمكان، كما أنهم لا يتساءلون عن أن العناية الإلهية هى التى تحركهم إلى الأمام.

وربط هذه العقيدة فى أمريكا بالمسيحية كان أوضح بكثير فى الجانب الجمهورى، على الرغم من أن بعض الديموقراطيين مثل الرئيس چيمى كارتر يشاطرونهم ذلك . ومجموعات المهاجرين الذين وصلوا منذ الحرب الأهلية ، والذين كانت لهم خلفيات غير الأنجلوسكسون، وديانات أخرى غير البروتستانتية ، اكتشفوا أن الارتباط بهذه الأيديولوچية يختلط بالولاء للعلم . وكانوا شغوفين بأن يجتازوا الاختيار . وهكذا فإن التدفق اليهودى الكبير أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، اعترف بسرعة بموضوع الشعب المختار بأنه يشبه موضوعهم، وشعروا أنهم فى وطنهم تمامًا لهذا السبب .

http://almaktabeh.com

وكما رأينا فى ثنايا هذا الكتاب، فإن السياسيين الأمريكيين المعاصرين، ما يزالون لا يخجلون من الكلام بهذه المصطلحات. وقد اقتبسنا عن الرئيس ريجان وجورج بوش الابن هذه النزعة، كما اقتبسنا أيضًا عن العمدة جويلياني فى نيويورك. وكنا نستطيع أيضًا أن نقتبس عن وزير العدل فى إدارة بوش، جون أشكروفت، وزعيم الأغلبية فى الكونجرس هويب توم ديلاى، أو غيرهما كثير. فعلى اليسار، فإن الإيمان بالمصير الأخلاقى الفريد لأمريكا ليس أقل رسوخًا ،على الرغم من أن التعبير عنه لا يتم كثيراً فى مصطلحات دينية. وهو يتجلى، مثلا، فى عدم ترحيب اليسار، وهو أمر يميز اليسار واليمين الأمريكى على السواء، بالاهتمام بالانتقادات الخارجية؛ لأنهم يعتقدون أن بقية العالم تمثل الماضى على حين تمثل أمريكا المستقبل ؛ ومن ثم أن العالم الجديد ليس لديه شىء يتعلمه من العالم القديم.

* * *

http://almaktabeh.com

(١٠)

أوسع وأكثر اتساعًا

يا أرض الأمل والمجد يا أم الحرية

كيف يمكن أن نبجلك، نحن الذين ولدتنا

سوف تتسع حدودك أكثر فأكثر

فالرب الذى جعلك عظيمة سوف يجعلك أكثر عظمة(*)

إن مثال الشعب المختار ليس مجرد تعبير مجازى؛ إذ إنه كان يصف كيف كان الناس يتصرفون فى الماضى، ولكنه أيضًا يوصى بكيفية ما يجب أن يكون عليه تصرفهم فى المستقبل. وقصيدة «أرض الأمل والمجد» توضح هذا المثال فى أدائه. فقد كانت القصيدة مكتوبة لتكون نشيدًا وطنيًا لانجلترا، ولا بد أنها كانت ستبدو مناسبة مثل - وربما أكثر فى أيامنا هذه - نشيد وطنى للولايات المتحدة الأمريكية؛ إذ إن تاريخ انجلترا على مدى ما يزيد على أربعة قرون، وتاريخ أمريكا على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون، هما قصة مجتمعين يعيشان تحت تأثير هذه الفكرة الهادية القوية. ولم يكن مصدرها البروتستانتية وحدها، ولكن الوطنية البروتستانتية، والرغبة فى تعريف مجتمع وطنى بأنه جاء إلى الوجود؛ لأن الرب أراد له أن يفعل ذلك؛ لأنه كان له غرض لهذا المجتمع. وإذا كان البروتستانت قد رفضوا سلطة الكنيسة فى أمور الدين، فإنهم استقوا تعاليمهم الدينية من الاتجاه

(*) كلمات إيه. سى. بنسون.

http://almaktabeh.com

الآخر الوحيد المتاح أمامهم، صفحات النصوص المقدسة. وفيها وجدوا تاريخ الإسرائيليين القدماء الذين صاروا أمة مقدسة بإرشاد الرب، وعدّلوا تلك القصة بحيث تناسبهم. هكذا فعلت أول دولة وطنية مستقلة تمامًا في التاريخ الحديث، وهي مملكة انجلترا تحت حكم هنري الثامن سنة ١٥٣٥م.

وعلى مدى زمن طويل كان هذا الشكل من الوطنية البروتستانتية يُؤخذ على أنه شيء ليس أقل من المسيحية نفسها. إلا أنه مع نهاية القرن العشرين كان معظم المتحدثين باسم التيار الرئيسي في المسيحية البروتستانتية في كل من البلدين، قد توصلوا إلى اعتبار الوطنية البروتستانتية - كما وصفناها - انحرافًا عن نقاء الحقيقة المسيحية. وبقدر ما كان هناك أي شيء على كوكب الأرض يحظى بالاعتراف بأنه «الجيل المختار والقساوسة الملكيون، والأمة المقدسة، وشعب مخصوص» حسبما في رسالة بطرس الأولى، فإنهم كانوا سيقولون: إنها تلك الكتلة الخفية عديمة الشكل من المؤمنين المسيحيين من جميع الجنسيات والمذاهب التي انضمت لبعضها البعض. ولكن تلك نظرة حديثة نسبيًا يرجع تاريخها بقدر كبير إلى تلك الفترة التي طورت المسيحية البروتستانتية فيها بناءات عالمية مثل مجلس الكنائس العالمي (الذي تأسس سنة ١٩٤٨م)، والطائفة الأنجليكانية (كان أول مؤتمر في لامبث قد عُقد سنة ١٨٦٧م). وقبل ظهورهما، كان السائد عمومًا أن على كل طائفة بروتستانتية أن تكون لها جذورها في بلادها. وكان هذا أحد الموضوعات التي ميزت البروتستانتية عن الكاثوليكية.

ويتضح من التاريخ أن الأفكار الدينية عمومًا ثابتة وأن تحولها لا يتم سوى بصورة بطيئة. فهي تتصرف مثل تيارات المحيط العميقة الخفية التي تنقل ملايين الأطنان من الماء إلى مسافات هائلة، تصل في بعض الأحيان إلى نصف كوكب الأرض، ولا تصدر عنها سوى إشارة صغيرة إلى وجودها عند السطح، إلا أنها تسيطر على المناخ، كما أن الاضطراب الدائم في نموذج تدفقها قد يغير مصير قارات بأسرها ويغيّر الظروف المعيشية لأمم بأكملها. فما هو مرأى على السطح هو الموجات والانكسارات الصغيرة التي ترجع إلى حد كبير لتأثير الرياح

http://almaktabeh.com

والطقس، ولكنها قد تعطى انطباعًا مضللاً بما يحدث فى الأعماق البعيدة. وهذا تعبير مجازى مفيد بالنسبة للأفكار الدينية، ومثال الشعب المختار فى الوطنية البروتستانتية يمكن اعتباره أحد التيارات فى أعماق المحيط، فربما لا تكون مرئية عند السطح. وحتى العواصف العنيفة قد لا تؤدى إلى اضطراب هذه التيارات، ولكن يحدث أحيانًا، ولأسباب غامضة، أن تتغير هى بنفسها. ويصدق هذا أيضًا على الدين، فمن ذا الذى يعرف السبب فى أن الاسكتلنديين المحليين اعتنقوا حركة الإصلاح البروتستانتية، وأن الأيرلنديين الوطنيين لم يفعلوا؟

ومبدأ ماكس ڤيبر بأن القناعات الدينية الواضحة لجيل بعينه عادة ما تصير هى الفروض الضمنية غير المختبرة للجيل التالى، يعنى أن مثال الشعب المختار ربما يستمر فى تشكيل عادات الفكر ونماذج السلوك، بعد أن يكون الناس قد فقدوا اتصالهم بأصول هذه المؤثرات بزمن طويل. فهى، على حد تعبير المشاة البريطانيين فى الجبهة الغربية «هناك لأننا هناك لأننا هناك لأننا هناك .. إلخ». ونادراً ما يكون هناك انكسار حاد فى المعتقدات أو الممارسات الدينية بين جيل ما وجيل آخر يليه. وعلى العكس، فإن المعتقدات ستبقى غالبًا مستمسكًا بها حتى بعد أن تكون قد فقدت أى علاقة لها بالواقع. وهناك مناطق من الريف الإنجليزى ما تزال تلح فى طلب قسيس ليقوم بالصلاة عندما يعانى شخص ما سكرات الموت؛ لأن «هذا ما تفعله» حتى على الرغم من أن كنيسة انجلترا ليست لديها طقوس خاصة بسرير الموت، ولكن هذا ما كانوا يفعلونه قبل حركة الإصلاح الدينى، وتستمر العادة حيَّة. ويوم الجمعة يوم مزدحم فى محلات «السمك والبطاطس ـ Fish and Chip» فى انجلترا، حتى على الرغم من الامتناع الإجبارى عن أكل اللحم فى يوم الجمعة قد ألغته حركة الإصلاح الدينى. ومرة أخرى، كان هذا ما يفعلونه قبل حركة الإصلاح الدينى، ومرة أخرى تستمر العادة حيَّة.

وربما كان الأمر يبدو واضحًا أن شرطًا ضروريًا للإيمان بأن الأمة التى ينتمى المرء لها هى الأمة المختارة، مثل اليهود فى العهد القديم، هو الإيمان بالرب، إذ لا يمكن أن يكون المرء مختاراً من الرب إذا لم يكن هناك رب. بيد أن هذا ليس

http://almaktabeh.com

كذلك بالضرورة؛ إذ إن الكائنات البشرية ليست منطقية هكذا. فتوماس هكسلي، مثلاً، الذي كان واحداً من كبار العلماء في القرن التاسع عشر وكان طوال حياته مدافعًا وداعية لنظريات تشارلز داروين، كان يؤمن بأنه مكلف بمهمة أن يستبدل المسيحية بالعلم، أو بتحديد أكثر أن يحرم المؤسسة الأنجليكانية من وضعها المختار في المجتمع الإنجليزي ويستبدلها بكنيسة علمية، على حد تسميته. كانت نغمته إنجيلية، بل إن التنميط البروتستانتي كان ضمن قضيته. وفي محاضرة ألقاها سنة ١٨٥٥م وبّخ سامعيه (أو الجماعة المسيحية)؛ لأن «عصر الأوثان هذا» كما قال «ينصت إلى صوت الرب الحي يرعد من سيناء العلم، وينسى مباشرة كل ما سمعه؛ لكي يتمسح في خرافاته الخاصة، ولكي يعبد العجل الذهبي للتقاليد، ولكي يصلي ويصوم حيث ينبغي أن يعمل ويطيع، وأن يضحي بأولاده للإله بعل اللاهوتي كما كان يحدث قديمًا». وتمادى إلى درجة خلق المعادل لمدارس الأحد، حيث يغني الأطفال الترانيم العلمية المعادلة للترانيم الدينية، وأسس متحف الفن الطبيعي في لندن باعتباره المعادل العلمي للكاتدرائية. وصك مصطلح «اللاأدرية - Agnostic»، الذي يعني الفرد الذي لا يدري إذا ما كان هناك رب أم لا، ولكن إذا حكمنا بالآراء الدينية التي عبر عنها فعلاً، فقد كان ملحداً حقًا. وملحد يؤمن بالقدر قد يبدو أمراً متناقضًا، بيد أن ذلك لم يكن يزعجه. وفكرة أن انجلترا لها قدر أن تكون الأمة الرائدة علميًا في الدنيا، وهي فكرة مستمدة من إسحاق نيوتن، كانت تبدو طبيعية تمامًا بالنسبة له. قُيِّض لكليهما أن يكون رئيس الجمعية الملكية، التي كان يسرها أن تعتبر نفسها المنظمة العلمية الأولى في العالم.

كان نيوتن واحداً من أبطال مذهب التوحيد في الألوهية الذي كان يؤمن بأن الكون، ربما يكون قد شُيد كما لو كان على يد صانع ساعات إلهي - أداره ثم تركه يعمل. هذا الرجل العلمي الممتاز كان خبيراً بتصميم الساعة الإلهية، إلا أن تلك كانت طريقة واحدة فقط لقضاء أمسياته في القرن السابع عشر، وكانت الأمور الأخرى التي تستحوذ عليه هي التأمل في أسرار نبوءات الكتاب المقدس، بما في

http://almaktabeh.com

ذلك محاولة معرفة نهاية الزمان من فقرات غامضة فى سفر دانيال. وأى وقت زائد كان يقضيه فى التآمر وتدبير المكائد إما لإقصاء الكاثوليك عن كامبريدج (وكان واحد منهم يرغب فى أن يسجل لدرجة البكالوريوس)، أو كيف يبعد دوق يورك عن عرش انجلترا. وكان نيوتن مقتنعاً بأن قدره هو أن يقود انجلترا لكى تصبح الأمة الأولى فى البحث العلمى، ومن ثم تكون الأمة الأولى فى حضارة العالم، وتنبأ بهذا المصير فى صفحات العهد القديم والعهد الجديد. كان شخصاً مختاراً فى وسط الشعب المختار، وكان على قناعة أيضاً بأن قدره الشخصى والوطنى سوف يلحق به الدمار إذا تسامحت انجلترا مع الكاثوليكية.

وفى اتساق مع الرأى العلمى المحترم، رأى أن البابا مثل المسيح الدجال، وتاريخ العالم الذى كان يقبله شخصياً، والذى أبعده قليلاً عن رفاقه من البيوريتان، هو أن الفساد الكاثوليكى قد بدأ، على حد قوله، بإدانة البابوية للهرطقة الأريوسية (على اسم آريوس، منشق مسيحى من القرن الثالث). وسمّى نفسه آريوسيا ومن ثم لم يقبل ألوهية المسيح، والواقع أنه لهذا السبب كان عليه أن يحصل على إعفاء ملكى من القسم قبل أن يتولى كرسى الأستاذية فى كامبريدج. كان رجل القدر هذا، على مدى ثلاثمائة سنة فى انجلترا وأمريكا، النموذج الراسخ للعالم السوبر (كان توماس جيفرسون، الموحِّد الشكاك، وثالث رئيس لأمريكا، متأثراً بكتاب نيوتن حول التطبيق الحقيقى للأدب المعلق برؤيا دانيال ونهاية الدنيا على العالم الحديث لدرجة أنه أمر بطباعة طبعة جديدة على حسابه).

وهكذا فإن الإيمان بالرب المسيحى ليس ضرورياً، على الرغم من أنه يساعد. ومن ثم، فإنه ليس هناك سبب واضح فى أن الليبراليين اللاأدريين فى الولايات المتحدة لا يستطيعون تصديق أن الأمريكيين هم شعب الله المختار، على الرغم من أنهم، كما لاحظنا فعلاً، ربما يفضلون وصف هذه العقيدة بالمصطلح الأكثر أكاديمية واحتراماً وإيحاء بالحياد، وهو الاستثنائية الأمريكية. وينطبق هذا أيضاً على الاشتراكيين الإنجليز قبل وبعد الحرب العالمية الثانية والذين أرادوا أن يبنوا ما يسميه كوريللى بارنيت فى كتابه المسمى «The Audid Of War»، القدس

http://almaktabeh.com

الجديدة. وكان بعضهم «لا أدريين» أو ملحدين، ولكنهم كانوا يشتركون في الرؤية اليوتوبية والألفية، في الواقع، للاشتراكيين المسيحيين. وربما يمكن أن نعدهم، من ثم، جزءاً مكملاً من مشروع الشعب المختار حتى ولو لم يكونوا يؤمنون بإله يقوم بمثل هذه الاختيارات.

ولكن إذا لم تكن أيديولوجية الشعب المختار تستند بصرامة على العقيدة الدينية، فإنها تعتمد بالتأكيد وبدرجة أكبر كثيراً على نمط بعينه من الوطنية. وخصائص الشعب المختار الكاملة التي حددها العهد القديم تصف أمة أو شعبًا يلقى المكافأة حين يبقى على إخلاصه، ولكنه إذا انحرف فعليه أن يتوقع العقاب بالفشل أو بالهزيمة (ربما يكون ذلك أصل «الدروس المستفادة للمرء» بعد الجلد الشديد بالسياط). ومن ثم فإن الأمة التي لا تبدي سوى القليل في سبيل إرضاء الرب ستكون تافهة غير مقنعة إذا ما ادّعت أن الرب يقف إلى جانبها. ومن ناحية أخرى فإن الأمة التي تتمتع بالنجاح يمكن أن تقنع نفسها بسهولة أنها تستدفئ بالعناية الإلهية الرحيمة.

ذلك ما كان بالتأكيد مزاعم قابلة للتصديق من جانب الإنجليز (أو البريطانيين حتى يكون الأمر أكثر كمالاً) حتى الحرب العالمية الأولى. وكان ذلك عندما زحف أول شك كبير إلى الداخل. وليست هناك مقاييس إحصائية يمكن من خلالها رسم خارطة التدهور في الثقة الوطنية بتعريف الهوية الإنجليزية على أساس فكرة الشعب المختار. بيد أنه ربما يفترض أن مثل هذه الإحصائيات، إن وُجدت، كان لا بد أن تضمحل سنة بعد أخرى منذ نهاية الحرب العالمية الأولى؛ لأن الدليل على عمل العناية الإلهية الرحيمة كان يضعف باطّراد سنة بعد أخرى. وقد يُفترض أيضًا أن مثل هذه الإحصائيات سوف تتخذ نموذجًا مشابهًا جدًا لإحصائيات عضوية كنيسة انجلترا التي أوردها آلان ويلكنسون في كتابه الذي يحمل عنوان: «The Church of England and The First World War»، وبعبارة أخرى: «تدهور مطرد قاس على مر السنين». ومن الواضح أن هناك علاقة وطيدة تربط بين الاثنين. فقد حدث شيء في تلك الحرب، حسبما يستنتج ويلكنسون، لم تشفَ منه كنيسة انجلترا أبدًا.

http://almaktabeh.com

والواقع، أن السلطة التى تحتاجها كنيسة وطنية لكى تكون قادرة لكى تبشر بالإنجيل بطريقة إجبارية، لا تقوم على مجرد خصائصها الخاصة، ولكن على خصائص الأمة التى ترتبط بها (والتى تزعم أنها تمثل الوجه الروحى لها). والأمة القوية لا بد أن تكون لها عقيدة قوية؛ وسوف يبدو المزيج صلبًا بما يكفى لأن يكون مقنعًا. والأمة الإنسانية الخالصة ستكون لها كنيسة إنسانية خالصة، ولن تمر الكثير من المساندة بينهما فى اتجاه دون الآخر. ووفقًا لاستطلاع أجراه «المركز الوطنى للبحث الاجتماعى - National Centre for Social Research»، نشر سنة ٢٠٠٠م، زعمت نسبة ٤٨ فى المائة فقط من الناس فى المملكة المتحدة أنهم ينتمون إلى أية ديانة، مقارنة بـ ٨٦ فى المائة فى الولايات المتحدة. ونسبة الحضور فى صلوات كنيسة انجلترا يوم الأحد نقصت عن مليون علامة للمرة الأولى أواخر التسعينيات من القرن العشرين. وليست مصادفة أن كنيسة انجلترا قد سعت، فى الفترة التى يشملها البحث، إلى أن تدعم ثقتها بنفسها عن طريق تعظيم دورها ككنيسة أم للطائفة الأنجليكانية وكذلك عن طريق لعب دور «أحسن صديق» للقوة الروحية العظمى فى العالم الحديث، أى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، تمامًا مثلما أفادت السياسية الخارجية البريطانية كثيراً مما ينمى «العلاقة الخاصة» مع القوة العظمى المادية عبر الأطلنطى. وأولئك الذين لاحظوا رئيس الوزراء تونى بلير يقف إلى جانب الرئيس بيل كليتون فى احتفالات الأمم المتحدة بالألفية الثانية فى نيويورك سنة ٢٠٠٠م، ربما يكونون قد لاحظوا أيضًا كبير الأساقفة جورج كارى يقف إلى جوار البابا يوحنا بولس الثانى فى احتفال مماثل فى روما. وبكلمات البروتوكول فى مثل هذه الأحداث، هو فى موضع تشريفى، ولكن فى كلمات الحقيقة يلعب دوراً ثانويًا - أو، لكى نكون صرحاء، يستدفئ بانعكاسات المجد. وهل هناك أى عجب فى أن الشكلين الصريحين للانحياز اللذين يواجههما الإنجليز عمومًا وإلى الآن واللذين تعلموا مراعاة الحرص فى لغتهم بالنظر إلى المجموعات العرقية أو العنصرية أو الدينية الأخرى، هما نزعة معاداة الأمريكيين ونزعة معاداة الكاثوليك؟ هل هذا هو الحصرم الذى يتذوقه من جاء البديل ليحل محله؟

http://almaktabeh.com

أما أمريكا، فعلى النقيض، ما تزال تحكى قصة تحظى بالتصديق عن أنها «الشعب المختار»، ويكاد يكون العامل الوحيد الذى يحول بيننا وبين إسباغ ذلك اللقب عليها مباشرة هو الشك المؤرق بأنه فى الحقيقة لا يوجد شعب مختار على الإطلاق، وأن الرب (إذا ما اتفقنا على أن هناك ربًا) لا يعمل بهذه الطريقة. وربما لا يهم كثيراً إذا ما كان الأجانب يوافقون على أن أمريكا هى الشعب المختار، أما ما يهم من حيث العائد فهو ما إذا كان الأمريكيون أنفسهم يصدقون ذلك؛ إذ إن الاختيار إلى حد كبير حالة يضع المرء نفسه فيها وتحقيق ذاتى للنبوءة. ومن الواضح أنهم يصدقون، إذا لم يكن بالطريقة التنميطية البروتستانتية التقليدية المستمدة من الكتاب المقدس التى عرفتها الأجيال السابقة، فإنها مستمدة إذن منها بشكل وثيق (و ربما بعد أن جردوها من بعض التزاماتها غير المريحة).

ويتصل مثال الشعب المختار إلى درجة عالية بمشكلة العلاقات العنصرية والاندماج العنصرى فى كل من البلدين. والعنصر ليس حقيقة علمية من حقائق الحياة ولكنه بناء إنسانى؛ فهناك عنصر واحد فقط بالمعنى البيولوچى، وهو«الجنس البشرى». وكان «العنصر» يستخدم بصورة تكاد تكون تبادلية مع «الشعب» فى القرن التاسع عشر، وكان يشير لا إلى مجرد الخصائص الچينية المتوارثة فقط ولكن إلى الثقافات المشتركة، والمعتقدات والذكريات. وقد أخذ العنصر معناه الحديث فقط تحت تأثير الداروينية الاجتماعية والنظرية الچينية الباكرة، عند مطلع القرن العشرين. وهكذا، فإن الشعب كمصطلح يصف الجماعة الوطنية، هو الفكرة الأقدم، وأولئك الذين ينظرون إلى العهد القديم بحثًا عن نموذجهم الاجتماعى سوف يجدون وفرة من الأمثلة لمفهوم «الشعب» المستخدم للتفرقة بين «نحن»و«هم»، وفى معظم الأمثلة التفرقة بين العبرانيين ومختلف قبائل الكنعانيين. حتى إلى حد القول بأن «نحن» ربما نجعل «هم» عبيدًا لنا. وفى اللغة المعاصرة، وبسبب النسب الأموى. (يكون الفرد يهوديًا إذا كانت أمة يهودية) فإن هذا التحديد لـ «نحن» هو أيضًا تحديد عنصرى.

ومن ثم فإن مفهوم «الشعب المختار» يمثل مخاطر عظيمة على العلاقات

http://almaktabeh.com

العنصرية، ومن المؤكد أن هذا هو أصل الشكوك الإنجليزية حول ما إذا كان الشخص الأسود أو الآسيوى يمكن أن يكون إنجليزيًا حقًا. ومجرد الاعتراف بأنهم بريطانيون ليس يكفى؛ لأن هذا تعريف ردىء بأكثر مما يجب، كما أنه ليس دالاً بما يكفى (خاصة حين يقلل الاسكتلنديون والويلزيون وغيرهم كثير فى شمال أيرلندا من أهمية العنصر «البريطانى» فى هويتهم، ويؤكدون على العنصر الاسكتلندى والويلزى والأيرلندى). والإنجليز يرغبون حقًا فى أن تكون لهم علاقات عنصرية طيبة، والحقيقة أنهم سيفضلون أن يكونوا مثالاً للأمم الأخرى فى هذا المجال؛ ولذلك فإنهم كلما تعلقوا أكثر بماضيهم كشعب مختار، كلما كان ذلك أصعب. ويطرح هذا تحديًا قويًا أمام مؤسستين إنجليزيتين على وجه الخصوص، الملكية وكنيسة انجلترا؛ لأن هويتهما الماضية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمثال الشعب المختار عن الإنجليزية، وإذا لم تكونا حريصتين، فإن وجودهما سيكون عنصريًا من الناحية الدستورية. وبينما حرص هذا الكتاب على أن يبقى بعيدًا عن الصراع فى الشرق الأوسط، فإن بعض الاستنتاجات التى توصل إليها عن عواقب نظرية الشعب المختار على العلاقات العنصرية سوف تنطبق على الموقف الإسرائيلى من العرب.

وفى الوقت نفسه، حاولت أمريكا أن تتجاوز الطبيعة المفردة والأحادية للهوية الوطنية الأمريكية، كما كانت منذ نهاية الحرب الأهلية، مثلاً. وقد فعلت هذا دون أن تتخلى عن رؤية نفسها كأمة مختارة. والإنجاز العظيم لـ «مارتن لوثر كنج»، كان أنه أوضح كيف يمكن للتصميم العظيم لأمريكا كأمة مختارة مفردة أن يحتوى داخله على روافد أخرى، جماعات أصغر ترتدى هى الأخرى عباءة المختارين، ولكنها تفعل ذلك بطريقة لا تنكرها على الكل. إنه نموذج للتلاقى فى نقطة واحدة، أو «شعب الشعوب». وهناك نموذج من الكتاب المقدس لهذا أيضًا؛ إذ كان الإسرائيليون القدماء فى الأصل اثنتى عشرة قبيلة، ولكنهم جميعًا كانوا تحت ميثاق واحد.

و«المشكلة الأمريكية»، إذ حقَّ للمرء أن يصوغ مثل هذا المفهوم، هى أنه بينما

http://almaktabeh.com

كان مطلوبًا من هذه القبائل الاثنى عشرة أن تعامل بعضها البعض بصورة عادلة وبلطف حسب الشريعة الموسوية، لم يكن مطلوبًا منها أن تتعامل مع القبائل غير اليهودية، أى القبائل الكنعانية التى تشاطرها العيش فى نفس المكان، بهذه الطريقة. حقًا إن أخلاقيات العهد القديم تبدأ تكتسب صبغة عالمية ـ وتطبق على اليهود وغير اليهود بالمثل ـ فى بعض الأنبياء اللاحقين. ويمكن الحكم على مدى عدم توفيقهم من خلال الحقيقة القائلة بأن يسوع كان ما يزال يرى ضرورة التبشير بمثال السامرى الطيب، الذى كان موجهًا بالضبط للسؤال القائل «من هو جارى؟» وتجاه من، غير «الناس الذين مثلى»، أتحمل مسئوليات أخلاقية؟ ومن الواضح أن يهود ذلك الزمان لم يكونوا يفكرون فى أن عليهم مسئوليات أخلاقية تجاه السامريين، وصدمتهم إلى حد ما قصة تقول إن السامريين يشعرون بأن عليهم مسئوليات أخلاقية تجاه اليهود.

وهكذا بينما يحتمل أن تكون أمريكا تحاول أخيرًا أن تتعامل بنزاهة مع الجماعات العرقية الثانوية بها، فإنها أمة ما تزال شديدة الوعى بالحدود التى تحدد «مفهوم الشعب» فيها. ويمكن تبسيط هذا بسهولة فى الاقتناع بأن بقية العالم موجود لمصلحة أمريكا. وهذا يختلف عن الدافع وراء الإمبراطورية البريطانية، التى كانت قائمة على أساس الرؤية ـ مهما كانت عدم كفاءتها فى الواقع ـ بأن بريطانيا موجودة لمصلحة بقية العالم. وقد يكون هناك بعض العزاء فى أن نعرف أن الشعب المختار الأصلى كان يناضل ضد نفس الصعوبة بالضبط. كانوا شعبًا مختارًا، ولكن لمصلحة مَن؟ ومنذ زمن مبكر، كان من الواضح أن هذا لمصلحتهم، ولكن بمرور الزمن، أشرقت الحقيقة القائلة بأن ذلك كان لمصلحة الإنسانية. وتحتاج أمريكا موعظة السامرى الطيب فيها، وهى سوف تستمع لها من شخص ما.

أعراض الشعب المختار، كما حددناها، تفترض أن الأمم التى يخضع تاريخها لذلك النموذج سوف تمر بدورة. فالإيمان والإخلاص سوف يتبعهما التراخى، ثم عبادة الأصنام والكفر (بالمعنى الدينى على الأقل)، وسوف يؤدى هذا إلى المعاناة

http://almaktabeh.com

وسوء المصير؛ لأن العناية الإلهية تتدخل لتوقيع العقاب التصحيحى، (وليس هذا لجعل الرب مسئولاً عن سوء المصير؛ فكل ما يفعله هو رفع حمايته). وسوف ينهض الأنبياء لشرح ما جرى مجرى الخطأ ويحضون الشعب المختار على الرجوع إلى طاعتهم السابقة، وعندما يفعلون ذلك، يعودون مرة أخرى (بعد خلاصهم) لحالة النعمة التى كانوا فيها من قبل.

وسواء كانت لهذه النظرية فى التاريخ أية قيمة تنبؤية أم لا، فهذه نقطة فيها نظر. فهل سمح الرب حقًا لشعبه المختار (البريطانيين) أن يفقدوا مستعمراتهم الأمريكية عقابًا لهم على تجارة الرقيق؟ وإذا كانت تلك خطة الرب، كيف أمكنه فى الوقت نفسه أن يحرر شعبه المختار (الأمريكيين) من الطغيان البريطانى مكافأة على الإخلاص الأمريكى؟ إن القصتين لا تتماشيان سويًا فإذا ما كان الرب يريد لتجارة الرقيق أن تنتهى، لمَ منح الأمريكيين النصر فى حربهم من أجل الاستقلال؟

ويؤدى هذا إلى صعوبة أوسع تتعلق بالتعامل مع نظرية الشعب المختار، كما لو كانت نظرية حقيقية. وأحد الملامح الرئيسية فى التنميط البروتستانتى من وحى الكتاب المقدس، حسبما تم تطبيقه فى انجلترا وفى أمريكا على السواء، تمت المبالغة فيه إلى درجة الخيال؛ إذ لم يكن هناك حقًا مؤامرة بريطانية دفينة لحرمان الأمريكيين من حريتهم سنة ١٧٧٤م، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك تخطيط دفين لفرض ملكية مستبدة، بل وبدرجة أقل، فرض الكاثوليكية الرومانية. وأساءت أمريكا قراءة الإشارات، كما أساءت بدرجة من التعمد إعادة طرحها، وكان الدليل فى متناول الجميع. وقصة التطور الدستورى فى كندا وغيرها كانت قصة تقدم ثابت صوب الديموقراطية والحرية تحت حكم الملكية، والواقع أن كندا كانت هى الأرض الموعودة بالنسبة للعبيد فى أمريكا؛ حيث كانوا يجدون الأمان بين ذراعى الملكة ڤيكتوريا. بل إن الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين اعترفوا بأنهم كانوا سيحصلون على اتفاق أحسن فى كندا.

و«الهروب من الطغيان» على النمط الوارد فى الكتاب المقدس بالنسبة لانجلترا، أثناء معظم القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، كانت

http://almaktabeh.com

تحركه أشباح الكاثوليكية الرومانية، التى نُظر إليها على أنها الإمبراطورية الطاغية للمسيح الدجال. ولكن مفهوم أن الكاثوليكية كانت شيطانية فى الأصل كان قد أسقط بشكل يكاد يكون تامًا عند بداية القرن التاسع عشر، وكان أحد المؤثرات فى ذلك وصول آلاف من اللاجئين الكاثوليك الفرنسيين إلى انجلترا هربًا من الرعب. ولم يشعر الإنجليز فقط بالأسف من أجلهم، ولكنهم وجدوهم متحضرين، ومثقفين، ومتعلمين، ومسيحيين بشكل واضح، بكل وسيلة يمكن للبروتستانتى أن يعرف بها مهما كان تطرفه. وربما كان لديهم نظام سياسى أدنى، بيد أنه من الواضح أنهم لم يكونوا أعوان الشيطان. إلا أن الكاثوليكية فى فرنسا أواخر القرن الثامن عشر لم تكن تختلف كثيراً عن الكاثوليكية التى برزت من إصلاح مجمع ترنت حتى قبل عهد الملكة إليزابيث الأولى؛ إذ كان هذا المجمع قد بدأ لكى يكون حدثًا محدداً، كان «مجمعًا لإنهاء المجامع»، والحقيقة أنه لم يتم عقد المجمع التالى حتى سنة ١٨٧٠م. وإذا كانت الكاثوليكية عند بداية القرن التاسع عشر لم تكن تجسيداً للشر، فإنها إذن لم تكن كذلك قبل قرنين من الزمان.

واستمر كتاب فوكس الشهير «Book of Martyrs»، والذى أعيدت طباعته بانتظام طوال تلك الفترة، فى نشر رسالته المؤذية. وقد تحرر الكاثوليك سنة ١٨٢٩م، ولكنهم لم يكونوا محل ثقة حتى ذلك الحين. وعندما تم تكوين السلك الكهنوتى الكاثوليكى فى انجلترا سنة ١٨٥٠م، كانت هناك عاصفة من الاحتجاج ولقاءات جماهيرية حاشدة فى جميع أرجاء البلاد. ولكن دونما أن يقدم الكاثوليك تنازلاً واحداً، سرعان ما مرت موجة البارانويا المعادية للكاثوليكية وتم إعادة نوع من التسامح الفاعل وإن لم يكن كاملاً. ولا شىء من هذا يبرهن على أن الكاثوليكية نظام مكتمل، ولكنه يوضح بالفعل أن المخاوف المتطرفة التى حكمت السياسات الإنجليزية والمشاعر الدينية الإنجليزية فترة تزيد على ثلاثة قرون- وترددت أصداؤها بإخلاص على الجانب الآخر من الأطلنطى- كانت مبالغة إلى درجة جنون الاضطهاد (البارانويا)، ولعبت نظرية الشعب المختار دوراً رئيسيًا فى الدفاع عن انجلترا ضد البابوية- المؤامرة المزعومة بين الكنيسة الكاثوليكية وأعداء انجلترا الأوروبيين- ليس أقله ما حدث زمن خلع چيمس الثانى و«الثورة المجيدة»

http://almaktabeh.com

سنة ١٦٨٨م، وفى التمرد التالى من جانب أنصار المذهب اليعقوبى الذين شكّلوا مصدر تهديد مستمر. ولكن هل كان الأمر سيصبح كارثيًا حقًا إذا ما سُمح لچيمس الثانى أن يُكمل عهده؟ هل كان خلعه حقًا هو النقطة الفارقة فى التاريخ الإنجليزى حسبما قالت أجيال من مؤرخى الهويج الذين ساروا على درب ماكولى؟ أم أن سلخ الكاثوليكية كان ببساطة شرطًا ضروريًا لكى تؤتى أسطورة الشعب المختار سحرها، بكل ما فاض وتدفق من جراء هذا؟ هل كانت عظمة انجلترا مبنية حقًا على مثل هذه الأسس الخيالية؟

وبذلك فإن استنتاجنا النهائى عن نظرية الشعب المختار ينبغى أن يكون أنه بينما ما تزال هذه النظرية مؤثرة، فإنها ببساطة ليست حقيقية ـ ولم تكن أبدًا ـ والدليل التاريخى وحده يفندها، مهما نفخنا فى الموضوع اللاهوتى. وبينما حققت حيوية قوية فى حيازة الأمتين اللتين آمنتا بها عن أنفسهما، فإن هذه النظرية جعلتهما يعتقدان أيضًا أن من حقهما السعى وراء مصالحهما الخاصة حتى لو تعارضت مع مصالح الآخرين.

مثل هذه الأمم مصدر تهديد محتمل للأمم الأخرى، بيد أنها سوف تشعر شعورًا مكثفًا بأنها على حق، وتقتنع بأن التبرير الأخلاقى لأفعالها يكمن فى وضعها الفريد، كما أنها لن تسمح للآخرين بمحاسبتها. إذا كان «ملاك يركب فى الريح الدوارة ويوجه هذه العاصفة» كما كتب چون بيج إلى توماس چيفرسون، فإن استنتاج چورچ بوش(*) إذن، يكون صحيحًا: أن الوقوف فى وجه أمريكا هو مقاومة لإرادة الرب.

وبينما، لو كانت نظرية الشعب المختار حقيقية، كان يمكن الاعتماد على الرب لعقاب أمة أساءت استغلال وضعها المختار، كما عاقب العبرانيين القدماء فى بعض الأحيان، فإن مثل هذه التصحيحات لا تحدث فى العالم الحقيقى. وسفر الأمثال (١٦ : ١٨) قد يحذر من أن «قبل الانكسار الكبرياء، وقبل السقوط غطرسة الروح»، وقد يصدقه الأمريكيون وقد يكونوا حذرين بشأنه. وهذه قليلة، بيد أن

(*) قال ذلك فى خطاب تنصيبه رئيسًا للولايات المتحدة.

http://almaktabeh.com

هذا ليس قانونًا عالميًا؛ إذ إن تأثيرات أمة قوية مقتنعة بأن الرب إلى جانبها لا يمكن أن تكون محدودة بذاتها. فهي يمكن غالبًا أن تعمل، صوابًا أم خطأ، وهي متمتعة بالحصانة. والحقيقة، أنه في الحالة المتطرفة، يمكن لحالة الشعب المختار أن تتحول إلى نزعة وطنية دينية حماسية يمكن أن تتحول إلى فاشية.

....

....

وأفضل طريقة لضمان ألا يتحول هذا الاحتمال إلى واقع هي أن نكون مدركين له، وأن نتخذ الخطوات لمقاومته. وذلك أمر ضروري للأمريكيين أنفسهم مثلما هو ضروري لبقية العالم. ولكن ما إذا كانت لدى أمريكا وبقية العالم الشجاعة والحكمة المعادلة لهذه المهمة الرهيبة أمر آخر.

* * *

http://almaktabeh.com

الفهــرس

الموضــوع	الصفحة
مقدمة	٥
الإمبراطورية والإرسالية والحرب	٧
الجنس والأعمال الوحشية	٥٥
المختارون يواجهون المحدثين	٨٧
أوسع وأكثر اتساعاً	١٣٥

http://almaktabeh.com

http://almaktabeh.com

رقم الإيداع ٣٩٤٠/ ٢٠٠٣

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-0932-7

http://almaktabeh.com

مطـابـع آمــــون
٤ الفيروز من ش.إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦

http://almaktabeh.com

هــذا الكتــاب

* يتـحـدث هذا الكتـاب عن أسطورة «الشعب المـخـتـار» التى شكلت ثقافة الأنجلوساكسون (انجلترا وأمريكا) لعدة قرون.

* فـداخليـا، بعـثت على هجـرة البـيـوريتـانز لأمـريكا، ثم حــرب الاستقلال، بل والحرب الأهلية.

* أما خارجيًا، فهى تارة حمل الرجل الأبيض لتمدين آسيا وأفريقيا بالاستعمار، وتارة أخرى استعباد الزنوج للإنعام عليهم بالمسيحية وحضارة الرجل الأبيض.

* ويبدو أن لتلك الأسطورة ظلالا فيما نعانيه الآن فى الشرق الأوسط من فرض القيم والحياة الأمريكيـة، سواء كان ذلك على أسس من الصهيونية (المسيحية واليهودية)، أو على أسس من الرأسمالية والداروينية الشاملة (فكريا واقتصاديا وماليا وعسكريا)، وما يتبع ذلك من تأمين المصالح، أو على أسس من الدين الأمريكى المدنى، الذى هو خليط من كل ماسبق، مع ليبـراليـة انتـقـائيـة، تخـتـار قضاياها ومجالات تطبيقها.

كليفورد لونجلى

* مؤلف وصحافى وإذاعى بريطانى معروف، يكتب عموده الأسبوعى فى الصحافة الإنجليزية (جريدة التايمز وجريدة ديلى تلجراف) منذ حوالى ٣٠ سنة.

* كذلك يكتب لأسبوعيـة (الكاثوليك الرومان) والتابلت، وهو متزوج من أمريكية.

❊ ❊ ❊

http://almaktabeh.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تم تحميل الملف من

مكتبة المهتدين الاسلامية لمقارنة الاديان

The Guided Islamic Library for Comparative Religion

http://kotob.has.it

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة إسلامية مختصة بكتب الاستشراق والتنصير ومقارنة الاديان.

PDF books about Islam, Christianity, Judaism, Orientalism & Comparative Religion.

لاتنسونا من صالح الدعاء

Make Du'a for us.

http://almaktabeh.com